موسوعة

الفرق والمذاهب المسيحية

الكاثوليك / الأرثوذكس / البروتستانت
المارونية / الأبيونيون / الأريوسيون
النسطورية / البربرانية / الملكانيون
اليعاقبة / المرقيونية / الغنوصية
البولسية / الشمشاطيون / إليان
الأنابتيست / السوسيانية / اليسوعيين

محمد حسني يوسف



العالمية للكتب والنشر

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية

محمد حسني يوسف



الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

يوسف، محمد حسني.

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية/ محمد حسني يوسف.

الجيزة: الدار العالمية للكتب والنشر 2011 ص،سم.

1_ الديانات المقارنة.

العنوان.

ديوي 291

موسوعة الفرق والمذاهب المسيحية

محمد حسني يوسف

الطبعة الأولى: 2011

رقم الإيداع: 2476 /2011

الطباعة

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الناشر

الدار العالمية للكتب والنشر

15 شارع الفاروق عمر بن الخطاب

الطالبية _ فيصل _ الجيزة _ مصر

هاتف: 37241803 فاكس: 37827787

محمول: 0123595973 _ 39848568

Email:alamyah@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّه ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

(البقرة الآية: ٧٥)

المقدمة

لقد خلق الله الإنسان ليكون خليفة فى الأرض، وأعانه على القيام بأعباء هذه الخلافة بأن زوده بالعقل والإدراك، وأرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين.. ويبينون له الخير من الشر والنافع من الضار ويرشدونه إلى طريق صلاحه فى الدنيا وسعادته فى الآخرة.

وهكذا توالت الرسالات السماوية بدءاً بآدم عليه السلام وانتهاء بمحمد ﷺ تدعو الناس إلى عبادة الله الواحد الذى خلق كل شىء والذى بيده ملكون السموات والأرض.

وهذه الرسالات جميعها تتكامل فيما بينها ولا تتناقض فمصدرها واحد وهو الحق تبارك وتعالى الذى شرع الدين للناس جميعاً:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى، ١٣).

وقد اكتملت سلسلة الرسالات السماوية ببعثة محمد ﷺ حيث أراد الله له أن يكون خاتم النبين فكان آخر لبنة فى صرح النبوات جميعا.

ويصور لنا الرسول الكريم ﷺ علاقته بالأنبياء السابقين بقوله:

«إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فاحسنه واجملهُ إلا موضع لبنه من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟

قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبين والمرسلين» [1].

ومن الطبيعى أن يكون الوحى الإلهى للأنبياء السابقين على محمد ﷺ قد تنبأ بظهور هذا الرسول الخاتم وبصفة خاصة فى التوراة والإنجيل كما يقول الله تعالى فى القرآن الكريم فى هذا الصدد:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(الأعراف: ١٥٦، ١٥٧)

كما ذكر القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام قوله:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: ٦).

وكما جاء عيسى عليه السلام مصدقا لما بين يديه من التوراة جاء محمد ﷺ مصدقا لما بين يديه من الوحى السابق: وفى ذلك يقول القرآن الكريم:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾

(المائدة: ٤٨)

ولكن القرآن الكريم لم يقف عند حد التصديق لما سبقه من الوحى بل جاء مهيمنا عليه يحفظ منه الأصول الثابتة غير المتغيرة، وينسخ منه ماينبغى أن ينسخ من الفروع طبقا للمشيئة الإلهية. وهكذا جاء محمد ﷺ هاديًا للبشر جميعاً ومكملاً للرسالات السابقة ومصححاً للعقائد الفاسدة ومتممًا لمكارم الأخلاق وجامعا لخيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب (المناقب) ورواه مسلم فى صحيحه فى كتاب (الفضائل).

والذى يدرس الأديان السماوية السابقة على الإسلام دراسة موضوعية محايدة ويدرس الإسلام بنفس الروح سيصل حتما إلى الاقتناع بصحة هذا الدين الخاتم وبأنه الحق الذى لا مراء فيه.

ويقول ﷺ: «ما من نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فارجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة».

وإذا كان موسى عليه السلام قد اشتهر بمعجزة العصا واليد فإن الله أوحى إليه بقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

ولئن ذهب موسى لمناجاة ربه على الجبل فقد أسرى الله بمحمد وعرج به إلى الآفاق الربانية لمرتبة لم ينلها ملك مقرب، ولانبى مرسل وآراهُ من آياته الكبرى:

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: ١٢ ـ ١٨).

ولئن طلب موسى الرؤية فحجب عنها وجوزى بالصعق لقد رأى محمد أنوار وأفاض عليه من بركاته وفيوضاته. هذا هو سيد الخلق أقدمه لأهل الكتاب:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

والله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وفضله على سائر خلقه بما حباه

وكمله بنعمة العقل والقدرة على التعقل والإدراك، وكان هذا حقاً لله سبحانه أن يخاطب الإنسان على ما يفعله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والله سبحانه وتعالى تمكيناً للإنسان من العزة والعقل لم يفرض كيانه فرضاً سواء رضى أو لم يرضى بل توخى هبته للإنسان من العقل أراد أن يدخل إلى قلب الإنسان بالإيمان لهذا قيل فى الإنجيل للباحثين عن الحق:

(وتعرفون الحق والحق يحرركم) (يوحنا: ٨ ـ ٣٢).

وفى هذا المعنى بقول رسول الله ﷺ:

«رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم) رواه أحمد وأبو داود والترمذى.

ويقول تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

بل يتجه الله جل شأنه على أولئك الذين لم ينعموا بنعمة البصر فيستلهم البصيرة بقوله تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

وهكذا يهدى الله الإنسان إلى الطاقات العظمى لنعمة العقل لتكون أساس الإيمان.

والتاريخ شاهد صدق على رجل من كبار اللاهوتيين الذين نشدوا الحق واستبسلوا له فهذا آريوس فى القرن الثالث الميلادى الذى استبسل لعقيدته عن المسيح عليه السلام بما يتقارب مع عقيدة المسلم عنه.

وذاك لوثيروس الذى نادى بالإصلاح الدينى وحمل لواء الإصلاح فى عزم وتصميم ونادى بأن الله وحده هو الغفور الرحيم وأن البشر جميعهم سواسية أمامه لا فضل لكاهن على مواطن إلا بالتقوى.

وفى هذا يقول نبى الله داود عليه السلام: «باركى يانفسى الرب ولا تنسى كل حسناته الذى يغفر جميع ذنوبك الذى يشفى كل أمراضك» (مزمور: ١٠٣: ٢ـ٣).

بل يؤكد أن الغفران لله جل شأنه وحده فيقول:

(عند كثرة همومى فى داخلى تغرياتك تلذذ نفسى) (مزمور ٩٤: ١٩).

وبهذا يَخلُص إلى الحقيقة التى يؤمن بها المسلم والتى يوضحها قول داود ﷺ: «كنت تراقب الآثام يارب ياسيد فمن يقف. لأنه عندك المغفرة لكى يخاف منك) (مزمور ١٣٠: ٣).

إذن الطريق إلى الله واضح للعالم، والوصل إليه رائده المنطق والعقل والرسالات السماوية جميعها تناشد الإنسانية ما قاله المسيح ﷺ: (الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغى أن يسجدوا) (يوحنا ٤: ٢٤).

وفى هذا المعنى يقول سبحانه وتعالى:

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١١٥).

فإن عقيدة الإسلام سهلة وواضحة ترمى إلى الوحدانية لله عز وجل والمغفرة والكثير لما يطمئن له القلب والعقل.

وبهذا يتقرر فى العقل ما قرره القرآن الكريم فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ١ - ٤).

ويقابل هذه العقيدة السهلة السمحة فى الإسلام - عقيدة التثليث المعقدة فى المسيحية؛ التى تنزل الله من عليائه ليحل فى بعض خلقه، أو ترفع بعض المخلوقين إلى منزلة الخالق مما يبلبل أفكار عامة الناس ويحير جهابذة العلماء.

ولم تقرر هذه العقيدة عندا لمسيحيين إلا فى مجمع نيقية المنعقدة سنة ٣٢٥م بدعوة من الإمبراطور قسطنطين بسبب الخلاف بين الأسقف آريوس والشماس أثناسيوس الإسكندرى.

قال الأسقف: إن المسيح مخلوق لله ومتصف بكل الصفات الإنسانية، وتعتريه كل العواطف البشرية من نوم ويقظة وفرح وحزن وغير ذلك فلا يكون

إلهاً بحال.

وقال الشماس: إن المسيح ابن والابن لابد أن يكون مساوياً للأب لأنهما من عنصر واحد فلابد أن يكون المسيح إلهاً مثل أبيه.

وقد صدر قرار المجمع بإدانة الأسقف لأن فكرته تقلل من شأن المسيح كأن المسيح لا يرتفع شأنه ـ وهو بشر ـ إلا إذا وضع ـ برغم أنف العقل والنصوص الدينية ـ فى مصاف الآلهه.

وفى سنة ٣٣٤ دعا الإمبراطور قسطنطين إلى مجمع صور الذى قرر إلغاء قرارات مجمع نيقية وعفا عن الأسقف وقبل تعاليمه.

ثم مازالت المجامع تنعقد وتقرر القرارات المختلفة ـ مما يدل على اضطراب العقيدة وعدم اعتمادها على أساس ـ حتى انقسم المسيحيون بسبب قرارات مجمع القسطنطينية الرابع سنة ٨٦٩م ـ قسمين وأصبح لهم كنيستان: شرقية أرثوذكسية بالقسطنطينية وغربية كاثوليكية بروما ثم كانت حركة مارتن لوثر سنة ١٥١٧م التى بسببها انقسمت كنيسة ثالثة بروتستانتية بألمانيا انتقلت بعد إلى إنجلترا والولايات المتحدة.

وقد اكتشفت حديثا فوق هضبة بجوار البحر الميت مخطوطات يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٠٠ ق.م فيها معلومات تصحح الفكرة الخاطئة عن ألوهية المسيح ﷺ وقد أرسل الدكتور تريفور صورة منها إلى الدكتور و. ف البرايت إنه (لا يشك أحد فى العالم فى صحة هذه المخطوطات التى ستحدث ثورة فى فكرتنا عن المسيحية).

ويؤخذ من هذه المخطوطات أن عيسى ﷺ ابن الإنسان وليس ابن الله كما ادعى أتباعه من قبل.

وبهذا قد يكون تبين لنا أن التثليث دخيل على المسيحية الحقة وأنه مستورد من الوثنية الفرعونية كما صرح بذلك الأستاذ (جارسلاف كرينى) أستاذ الحفريات بجامعة (أكسفورد) فى كتابه (ديانة قدماء المصريين) وأن هذا

التثليث لم يوجد فى الأصل اليونانى.

وصكوك الغفران واستحالة أن الخبز يتحول إلى جسد المسيح ﷺ خروج عن الحق الإلهى كما صرح بذلك زعماء الإصلاح فى القرن الخامس عشر وعلى رأسهم: (لوثيروس الألمانى).

وبشرت التوراة بالرسول محمد ﷺ. ففى سفر التثنية ٣٣: ٢ (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران).

وتلك هى الرسالات الثلاث: لموسى وللمسيح ولمحمد عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم.

وهذا مصدق قوله تعالى فى القرآن الكريم:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ (التين: ١ - ٣).

لأن منبت التين والزيتون مهجر إبراهيم ومولد عيسى عليهم السلام وطور سيناء مكان مناجاة الله تعالى لموسى ﷺ وفاران فى مكة: مولد الرسول محمد ﷺ.

وجاء فى أسفار الأنبياء عليهم السلام: أنه ﷺ روح الحق والفارقليط والمعزى وأنه لا يتكلم إلا بما يسمع من الله تعالى وأنه أساس الحق ورأس زاويته وهو البار الذى تنبأت به زوجة الوالى الرومانى.

والمخطوطات والآثار القديمة تثبت بشرية المسيح ووحدانية الله ومجيئ محمد عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم وقد صرح إنجيل برنابا بذلك كله.

وكلمة (مسيا) كلمة آرامية معناها (رسول).

وعند مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام يسجد العالم شكراً لله وسيجعل كل سنة هذا اليوبيل بدل كل مائة عام وهذا الذى قاله برنابا معناه: الحج فى الإسلام وهو الركن الخامس منه.

وكلمة (إنجيل) معناها: بشرى لأن المسيح ﷺ جاء مبشراً بقدوم محمد عليه الصلاة والسلام.

وتعاليم المسيح ﷺ تهدم التعصب الطائفى والعنصرى كما جاء فى قصة الكاهن مع الجريح الذى مر عليه وتركه ولقد صرح الأسقف الإسكندرى (آريوس) بأن المسيحة قد حرفت بما دخل عليها من المبادئ الفلسفية المستوردة من الهند والصين وفارس ومصر فلم يبق إذاً غير الرجوع للحق ولدين الحق الذى تكفل الله بحفظه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩).

وليس أجمل من هذا ولا أحسن:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء: ١٢٥).

وبالله التوفيق

المؤلف

محمد حسنى

الفصل الأول

نشأة الدين

لقد فطر الله النفس البشرية على معرفة الله والإيمان به، وجاء الدين يلبى هذه الفطرة، والشعور الداخلى عند الإنسان بحاجته لتلبية هذه الفطرة أمر يُجمع عليه الناس كلهم من بداية خلق الإنسان إلى يومنا هذا، ولكن الفطرة كثيراً ما انحرفت، فنشأت أفكار وتصورات وعبادات كثيرة لا حصر لها، وكانت مهمة الرسل عليهم السلام تصحيح الانحراف والرجوع بالفطرة إلى سلامتها وأصلها.

فالتدين أمر فطرى فى النفس البشرية (ولقد أجمع مؤرخو الأديان على أنه ليست هناك جماعة إنسانية أو أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن يكون لها فيه رأى سواء أكان يقيناً أم ظناً)[1].

لكن القضية التى دار حولها الخلاف فى هذا الموضوع بين الباحثين هى نشأة الدين، كيف نشأت هذه الفكرة؟ ومتى نشأت؟ وهل اهتدى الإنسان إلى هذه العقيدة من يومه الأول أم أنه توصل إليها فى مرحلة متأخرة؟

وهل كانت بداية التدين أوهاماً وخرافات، ثم بدأت بالتطور حتى اهتدت إلى عقيدة التوحيد الصحيحة؟ أو أن التوحيد كان منبعَها وأساسَها منذ البداية؟

حول هذا الموضوع ظهرت أفكار ونظريات سنحاول فى هذا الفصل التمهيدى أن نكشف الستار عنها بشىء من الإيجاز.

وقبل بيان هذه المذاهب لابد من الإشارة إلى أن معظم الباحثين فى هذا

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

الموضوع قد أخطأوا فى طريقة البحث التى سلكوها (وجمهور الباحثين لا يطلبون من بحثهم الوقوف على الأسباب العامة التى تتيسَّر دراستها ويمكن التحقق منها فى كل عصر، بل يفهمون من كلمة - نشأة الدين - الصورة التى ظهرت فيها الأديان أوَّل ما ظهرت فى الوجود، فالأوَّليَّة التى يريدون تقريرها زمانيَّة مطلقة تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب، والمنهج الذى يسلكونه للوصول إلى هذا المطلب هو: التنقيب عن أديان الأمم القديمة أو المعاصرة غير المتحضرة حتى إذا ما انتهى بهم السير فى تلك العصور المظلمة إلى أقدم مظهر معروف من مظاهر التفكير الدينى اعتبروه صورة مطابقة لما كان عليه الإنسان الأول)[1].

فهؤلاء الباحثون أرادوا أن يتوصلوا إلى الزمن الذى بدأ به الإنسان يفكر بقضيَّة التدين، وذلك عن طريق البحث فى أديان الأمم البدائية غير المتحضرة، القديمة منها والحديثة.

(والإنسانية الأولى استطاعت أن تحفظ لنا صوراً من حياتها فى قبائل متعددة منتشرة فى أوستراليا وأمريكا وإفريقيا وآسيا، ونفر العلماء من مختلف الدوائر إلى دراسة تلك الوثائق وتمحيصها، وإلى بحث حياة أطفال الأرض الأوَّلين هؤلاء، لتحديد الدين الأول فى نقائه وروعته، فظهرت نظريات ومذاهب منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن تحاول تحديد تلك الصورة)[2].

وظهرت فى الموضوع فكرتان رئيستين متناقضتان هما:

١ - فكرة فطرية التوحيد وأصالته.

٢ - فكرة التطوُّر.

---

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

(٢) نشأة الدين، على سامى النشار: ص١، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٤٩م.

١ ـ فكرة فطريّة التوحيد

أصحاب الفكرة الأولى توصلوا إلى أن عقيدة الإله الأعلى هى أقدم ديانة ظهرت عند البشر، وسمّوا نظريتهم (فطرية التوحيد وأصالته)، وانتصر لهذا الرأى جمهور من علماء الأجناس وعلماء النفس، ومن أشهر مشاهيرهم (لانج) الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند القبائل الهمجية فى أستراليا وإفريقيا وأمريكا[١].

لقد توصل (لانج) إلى فكرة أصالة التوحيد عند الإنسان، وأنه العقيدة الأولى عن طريق بحوثه واكتشافاته، وهو يقول: (إن الإنسانية عاشت فترة فى حياة دينية مليئة بأسمى المعانى، ولكن تحلُّلاً قد حدث بعد ذلك فى عهد من العهود البدائية)[٢].

وكان (لانج) بهذا القول يرد على القائلين بفكرة التطور، وأن التوحيد جاء مرحلة متأخرة، وقد توصلوا إلى ذلك أيضاً عن طريق اكتشاف بعض القبائل البدائية التى عبدت الأسلاف وبعض الظواهر الطبيعية، يرد عليهم بأن اكتشافاتهم تلك إنما كانت لأمم قد تحللت وانحرفت عن عقيدتها الأصلية عقيدة التوحيد.

(ووافق (لانج) كثير من الباحثين الذين قدَّموا أبحاثاً متعددة عن أقدم القبائل فى أمريكا الشمالية وأواسط إفريقيا، وأثبتوا وجود فكرة الإله الأسمى عندهم)[٣]. (كما وافقه بروكلمان الذى أثبت الفكرة عند الساميين قبل الإسلام)[٤].

لقد وجد هؤلاء الباحثون فكرة (الله) لدى كافة المجتمعات البدائية وأنكروا نظرية التطور مستندين على بحث واقعى من أدق الأبحاث، دعموه بوثائق ممتازة عن الحياة البدائية الأولى، وقام بحثهم على الواقع من ناحية، وعلى ما ندركه فى نفوسنا من ناحية أخرى نحو الفكرة النبيلة (الله)[٥].

(١) الدين، دراز: ص١١٢.
(٢) نشأة الدين، النشار: ص١٨٨.
(٣) نفس المرجع: ص١٩٧.
(٤) الدين، دراز: ص١١٢.
(٥) نشأة الدين، النشار: ص٢. وقوله: «فكرة الله» اصطلاح للنشار والصواب: «حقيقة».

٢ ـ المذهب التطورى

وملخص الفكرة الأولى التى نشأ عنها المذهب التطورى، أن الدين مبدأ بصورة ساذجة هى صورة الخرافة والوثنية، وأخذ الإنسان يترقى فى دينه على مدى الأجيال، حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، كما تدرَّج نحو الكمال فى علومه وصناعاته.

وهذه النظرية نادى بها أنصار مذهب (التطور التقدمى) الذى ساد أوروبا فى القرن التاسع عشر فى أكثر من فرع من فروع العلوم، وحاول تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من الباحثين منهم: (سبنسر) و(تايلور) و(فريزر) و(دوركهايم)[١].

والتطوريون حلّوا المشكلة فى ضوء تحليلهم لتطور الحياة الإنسانية نفسها من الأدنى إلى الأسمى.

وينقسم التطوريون كما يقول الدكتور (النشار)[٢] إلى قسمين مختلفين: الأول: القائلون بفردية الدين. والثانى: القائلون بجماعة الدين. وأهم نظريات الفريق الأول (نظرية الحيوية، والنظرية الطبيعية). وكل نظرية نشأ عنها مذهب خاص.

١ ـ المذهب الحيوى

وينسب إلى (تايلور) و(سبنسر) وقد ذهبا إلى أن أقدم دين فى الوجود هو الاعتقاد فى الأرواح وعبادتها، وأولى الآلهة عندهم الأسلاف. ونشأت هذه الفكرة على رأى (تايلور) عن اعتقاد الإنسان البدائى فى الحياة المزدوجة بين يقظته ونومه، ومن ذلك ثبت للبدائى أن فيه كائناً آخر غير الجسم يستطيع فى ظروف معينة، أن يترك الجسم ويبتعد عنه، فاعتقدوا للنفس قوة عجيبة، تستطيع الاتصال بأجسامها وتؤثر عليها بالضرر والنفع، ولا يستطيع الإنسان أن يتصل بها إلاّ بمراعاته لطقوس خاصة، ولما كان الموت هو بداية تحويل هذه

---

(١) الدين، دراز: ص١١٣.

(٢) نشأة الدين، النشار: ص٢، ٣.

النفس إلى روح مقدسة فإن أول عبادة إنسانية إنما اتجهت إلى الموتى، إلى نفوس الأسلاف[1].

هذا المذهب الذى قال بأن عبادة الأسلاف هى العقيدة الأولى التى ظهرت فى الوجود، ردَّ عليه كثير من الباحثين، (وقد رد عليه (دوركهايم) بأن اعتقاد الإنسان الأول ببقاء الأرواح لا يكفى لنشوء عقيدة دينية، لأن عبادة الأسلاف وجدت عند الأمم البدائية بجانب عبادة أشياء أخرى، بل بعض الأمم لم تعبد الأسلاف فلم يكف هذا لتفسير نشأة العقيدة)[2].

٢ ـ المذهب الطبيعى

قام بعرض هذا المذهب عالمان هما: (ماكس موللر ١٨٥٦م) و(كوهن ١٨٥٩م) ويمثل (موللر) على الخصوص المذهب الطبيعى فى كماله وأوجه.

ويتلخص هذا المذهب: (فى أن الدين قام على تجربة استمد منها سلطانه فلا شىء يتكوَّن فى عقيدة الإنسان لما لم يكن قد أتى من قبل حواسّه وأن الظواهر الطبيعية المتغيرة التى تحيط بالإنسان وتثير فيه مختلف المشاعر كافية لأن تثير الفكرة الدينية فكانت الطبيعة عندهم الدهشة العظمى والفزع الأكبر)[3]. فالإنسان البدائى عندما نشأ وجد نفسه ضعيفاً بين الظواهر الكونية المختلفة، كالشمس والقمر والنجوم والريح والصواعق والبحار والأنهار وغيرها، فاعتقد أن باستطاعتها أن تنفعه أو تضره فأخذ يتقرب إليها ويقدِّم لها سائر أنواع العبادات دفعاً لشرِّها.

وبذلك يكون الدين على رأى هؤلاء قد نشأ عن تأملات للطبيعة أثارت مشاعر وإحساسات معينة.

(وقد رد (دوركهايم) على هذا المذهب بأن الخوف لا يصلح سبباً لنشوء

---

(١) نشأة الدين، النشار: ص٣٢، ٣٨.

(٢) الدين، دراز: ص١٣٩ ـ ١٤٠.

(٣) نشأة الدين، النشار: ص ٦٩ ـ ٧٣.

العقيدة، لأنه مع الزمن يألف الإنسان هذه الأشياء بتكررها على نسق واحد ويذهب خوفه منها ويترك التقرب إليها)[1].

٤ ـ المذهب التوتمى

(وأصحابه هم القائلون بجمعية الدين، الذين تمثلهم المدرسة الفرنسية الاجتماعية فى أوائل القرن العشرين، وقد راعتهم فكرة العقل الجمعى ورأوا فيها رمز الدين أو بمعنى أدق ذهبوا إلى أن الدين رمز لها وعلم على وحدتها)[2].

وأبرزُ أصحاب هذا المذهب (دوركهايم) الذى اعتبر التوتمية أقدم ديانة على الإطلاق.

والتوتم عبارة عن رمز تتخذه العشيرة شعاراً لوحدتها وقوتها، وتعتقد أنه جدها الأعلى ومنه تناسلت، فتقدس العشيرة هذا التوتم، وقد يكون هذا التوتم جماداً أو نباتاً أو حيواناً.

(ولم تظهر كلمة توتم كمصطلح فى علم الأجناس إلاّ فى أواخر القرن الثامن عشر.. وأخيراً اكتشف (جلين) و(سبنسر) خلال أبحاثهما فى وسط استراليا عدداً من القبائل يدينون بالتوتمية)[3].

(وقد ورد كل من (لانج) و(فريزر) و(شميث) و(تايلور) على هذا المذهب بأن هذا التوتم لا يصلح كمبدأ للعقيدة، لأنه من خلال الأبحاث الكثيرة تبيَّن أن هناك أمماً بدائية كانت تعبد مع التوتم آلهة أخرى وربما لم تعبد التوتم إطلاقاً وإن كان رمزاً لها)[4].

والملاحظ أن: (التوتمية عقائد خاصة ضيِّقة، لا تتناول سوى الرمز التوتمى من النبات أو الحيوان الذى تشير إليه الرموز، ثم أفراد العشيرة، وهذه لا يمكن أن تشكل ديناً، لأن الدين الحقيقى هو ما حاول الإحاطة بالكون كله.. وتلك هى

(١) الدين، دراز: ص١١٩ ـ ١٣٢.
(٢) نشأة الدين، النشار: ص٢.
(٣) المرجع السابق: ص٩٢، ٩٤.
(٤) الدين، دراز: ص ١٥٩ ـ ١٦٥.

المحاولة التى أرادها (دوركهايم) حين أراد أن يجعل من التوتمية مذهباً فى الوجود، وهو بهذا يشبّه التوتمية بأى دين آخر من الأديان التى قامت بهذا العمل[1].

(والغريب الذى نلاحظه أن (دوركهايم) الذى أنكر على المذهب الحيوى اعتباره فكرة عبادة النفوس فلسفة البدائى الأول، وحاول أن يسلب عن البدائى القدرة على التأمُّل النظرى، نراه هو نفسه يعود إلى اعتبار التوتمية فلسفة وجودية ينبثق عنها أعظم تفكير)[2].

هذه خلاصة مذاهب نظرية التطوُّر، أوردناها بإيجاز كما أوردنا الرد عليها موجزاً من كلامهم أنفسهم كما ردَّ بعضهم على بعض.

وقبل أن نبدأ بالرد على هذه النظرية، وتفنيد مزاعم القائلين ، لابد لنا من الإشارة إلى أن كثيراً من المسلمين قد تأثروا بها، ووضعوا كتباً يؤيدون فيها فكرة التطوُّر هذه، ومن هؤلاء عباس محمود العقّاد، ويظهر ذلك واضحاً فى كتابه الذى سمّاه (الله) فقد افتتح الكتاب بالعبارة التالية:

(ترقى الإنسان فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلوم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات)[3].

وتحت عنوان (أطوار العقيدة الإلهية) بحث الأستاذ العقاد موضوع نشأة الدين، وأورد ما قاله أصحاب المذهب التطورى من أن البشرية مرت فى اعتقادها بثلاثة أطوار هى: التعدد، والتمييز والترجيح، والوحدانية)[4].

فاعتبر التوحيد نهاية هذه الأدوار، متأخراً عنها، وهو يقول: (أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة فى جميع الحضارات الكبرى)[5].

(١) نشأة الدين، النشار: ص١٢٦.

(٢) نشأة الدين، النشار ص ١٢٧.

(٣) الله، عباس محمود العقاد: ص١٢، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، ١٩٧٦م.

(٤) الله، العقاد، ص٢٨. (٥) نفس المرجع: ص٣٢.

والأستاذ العقاد بعد سرده لرأى التطوريين من علماء مقابلة الأديان يثبت هذا الرأى فيقول: (فالتطور فى الديانات محقق لا شك فيه، ولكن لم يكن على سلّم واحد متعاقب الدرجات)[1].

كما قرر فى نهاية الأمر رأى التطوريين، فأثبت: أن عبادة الظواهر الطبيعية كانت سابقة لعبادة الإله الأعلى، فقال: بأن عبادة الشمس كانت الخطوة السابقة لعبادة الإله الأعلى، فقال: (ولنا أن نقول: إن ديانة الشمس كانت هى القنطرة الكبرى بين عُدْوة التعديد وعُدْوة التوحيد)[2].

ويحاول العقاد: أن يستدل لصحة ما ذهب إليه من القرآن الكريم، فبعد أن يذكر: أن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد يقول: (وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3].

واستدلال العقاد لهذه الآية فى هذا الموضع مخالف للمعنى الصحيح لها، فليس صحيحاً أن إبراهيم كان محتاراً منذ البداية فى الاهتداء إلى الحق، وأنه كان يريد أن يصل إلى حقيقة يجهلها ففكر ونظر، وعبد الكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، واهتدى أخيراً إلى عبادة الإله الواحد الأحد، ذلك لأن إبراهيم - عليه السلام - نبى من أنبياء الله، معصوم عن أن يشرك بالله (وغير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحِّد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء، وكيف يصبح أن يتوهم هذا على من عصمه الله!

(١) نفس المرجع السابق: ص٣٢.

(٢) الله، العقاد: ص٣٩.

(٣) سورة الأنعام: الآيات ٧٦ - ٧٩.

وآتاه رشده من قبل؛ وأراه أن ملكوته ليكون من الموقنين؛. ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عَرَفَ الرب أول النظر)[1].

ثم يبين القرطبي: أن هذا المعنى قد رد عليه علماء اللغة، (قال الزجاج: هذا الجواب عندى خطأ، وغلط ممن قاله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾[2]، وقال جل وعزّ: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3]، اى لم يشرك به قط)[4].

وسياق الآيات يدل على أن إبراهيم ﷺ، كان يريد أن يقدم الدليل المحسّ لقومه على بطلان عقيدة الشرك التى كانوا يمارسونها، فاتبع أسلوب الاستدراج هذا كوسيلة من وسائل الإقناع.

يقول القرطبى: قال الزجاج: (والجواب عندى أنه قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ على قولكم، لأنهم كانوا يعبدون الأصنام والشمس والقمر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ (النحل: ٢٧)، وهل جلّ وعلا واحد لا شريك له، والمعنى أين شركائى على قولكم)[5].

والمفسرون ذكروا لهذه الآية معانى كثيرة غير هذا المعنى منها: أن قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ (على معنى الاستفهام والتوبيخ منكراً لفعلهم، والمعنى: أهذا ربى؟ ومثل هذا يكون رباً؟ فحذف الهمزة، وفى التنزيل: ﴿ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[6] أى افهَمُ الخالدون)[7].

وبذلك يظهر لنا جلياً: أن استدلال العقاد بهذه الآية باطل من أساسه، لأنه حاول أن يستدل على أمر باطل أصلاً، ومخالف لمفهوم الإسلام فى تاريخ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبى: ٢٥/٧، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة، ١٣٨٧هـ.

(٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٥. (٣) سورة الصافات: الآية ٨٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبى: ٢٠/٧ ـ ٢٦.

(٥) نفس المصدر: ص٢٦. (٦) سورة الأنبياء: الآية ٣٤.

(٧) تفسير القرطبى: ٧/ ٢٦.

الدين، فدين الله الذى نادى بعقيدة التوحيد، عرفته البشرية منذ بدايتها على يد أبيها الأول آدم عليه السلام.

نقد المذهب التطورى

◆ الوجه الأول:

(إن وضع المسألة على هذا الوجه، ومحاولة حلّها عن هذا الطريق، ينطوى على خطأ مزدوج: خطأ فى الغاية، وخطأ فى الوسيلة، فالغاية التى يهدف إليها هذا البحث، وهى تحديد أصل العقيدة ومظهرها فى أول الأزمنة خاطئة، لأن هذه المنطقة البدائية قد اعتبرها العلم شقة حراماً، حظرها على نفسه.. ومؤرخو الديانات على الخصوص يعترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجرى، وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً، فلا سبيل للخوض فيها إلاّ بضرب من التكهن والرجم بالغيب)[1].

وكذلك الحال بالنسبة للوسيلة، والمنهج الذى اعتبروه طريقاً للاستدلال، فقد استدلوا على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة، وهذا أيضاً منهج خاطىء لأنه مبنى على افتراض أن هذه الأمم كانت منذ بدايتها على الحالة التى وصل إليها بحثهم، وأنها لم تمر بأدوار متقلبة، وهو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذى أثبته التاريخ، واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية، هو أن فترات الركود التى سبقت مدنياتها الحاضرة، كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة، قامت على أنقاض مدنيات بائدة فى أدوار تتعاقب على البشرية، كتعاقب العصور، بحيث لا نستطيع أن نقطع بأيهما بدأت دورة الزمان، وعلى ذلك يمكن أن تكون الخرافات القديمة نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة، ولقد أنصف العلامة (هوفدنج) حين قال: (إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان فى حل مشكلة بزوغ الدين فى النوع الإنسانى، فإن التاريخ لا يصوِّر لنا هذه البداية فى موضع ما)[2].

---

(١) الدين، دراز: ص١١٢. (٢) نفس المرجع: ص ١١٤.

◆ **الوجه الثانى:**

المذهب التطورى يذهب إلى قياس الأديان على الفنون والصناعات، وكما أن الإنسان ينتقل فى نموه البدنى من الضعف إلى القوة. فقد يلوح أيضاً أنه بدأ حياته الروحية بالسخف والخرافة، ولم يصل إلى العقيدة الصحيحة إلاّ بعد جهد وعناء. وهذا قياس بعيد لأنه ليس من المسلم به أن حياة الناس الروحية تسير ملازمة دائماً لحياتهم المادية، وكما يقول الدكتور دراز: (بل من الممكن أن تكون قناعة الإنسان فى بدايته بكهف يأويه، وجلد حيوان يستره، وشىء من الأعشاب يدفع مَخْمَصَتَه، وقلة مشاغله الدنيوية من الممكن أن تكون هذه كلها، قد تركت فى نفسه فراغاً عميقاً للتأملات التى ترهف حاسته الدينية)[1]. هذا ولم يقل أحد من علماء النفس: إن الأفكار السامية لا تنمو إلاّ فى ظل الترف والرخاء.

◆ **الوجه الثالث:**

إن التاريخ نفسه يفند هذه النظرية، إذ كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو قبل المسيح بألفين وخمسمائة سنة على عقيدة التوحيد الخالص، وأكبر دعاتها، ولا يزال يوجد اليوم بعد ألفى سنة من المسيح عشرات الملايين من بنى آدم على عقيدة الشرك، فهل هذا دليل على الارتقاء التاريخى وتطور عقيدة التوحيد[2]؟

ولدى مناقشة التطوريين بهذه الوجوه يظهر لنا: أن نظريتهم فى بيان عقيدة الإنسان الأولى لا تستطيع مواجهة النصوص التى وردت فى الكتب السماوية تؤيد فكرة القائلين بأصالة التوحيد، وفطريته، وأنه عقيدة الإنسان الأولى.

كما أنه لا يفوتنا أن نذكر مصادمة نظرة التطوريين للفطرة التى فطر الله الناس عليها، تلك الفطرة التى تتجه إلى الخضوع لله عز وجل.

(والكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الإنسانية الأولى لم تترك

---

(١) الدين، دراز: ص١١٥.

(٢) مفاهيم إسلامية، أبو الأعلى المودودى: ص٢٣، دار القلم ـ الكويت، ١٣٩٤هـ.

وشأنها تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد، بل تعهدتها السماء بنور الوحى من أول يوم، فكان أبو البشر أول المؤمنين الموحدين»[1].

والواقع أن هذه القضية التى خاض بها علماء الأديان، حتى وقع كثير منهم فى متاهات صعب عليه الخروج منها، هى قضية ليست من شأن العلوم الاستنتاجية أو الاستقرائية، وإنما هى من شأن الوحى وإخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، ذلك لأنها قضية داخلة فى إطار الغيب، خاضت فى حقبة من الزمن لا نعلم عنها إلاّ ما أخبرتنا به الكتب السماوية، فهى فترة سابقة للتاريخ، وخارجة عن نطاق المعرفة البشرية اليوم، كما أن نظرياتهم مرتكزة على فرضيات فى عصور غامضة. ومع كل هذا فقد وجدنا من الباحثين فى هذا المضمار من توصلوا إلى نتائج توافق ما ذهبت إليه الرسالات السماوية.

أثر الخلاف وموقع المسيحية منه

والقضية التى تنشأ عن الاختلاف حول نشأة الدين وبدايته، قضية أساسية مهمة هى: هل هنالك أديان سماوية إلهية أم أن الأديان كلها وضعها الإنسان، فهى من بنات أفكاره تطورت معه وفقاً لتطور حياته المادية؟.

والتطوريون ينقسمون حول هذه القضية إلى فريقين:

فريق أنكر فكرة الوحى من أساسها، واعتبرها خرافة أسطورية صاغها العقل البشرى البدائى الساذج. ثم تطورت هذه الديانات مع تطور هذا واتساع مداركه. ولا شك أن أدياناً كثيرة مارستها البشرية فى تاريخها. ولازالت تمارسها ما هى إلاّ خرافات، ولا نعتبرها ديانات سماوية أصلاً، ولكننا نعتقد أنها انحرافات لديانات سماوية الأصل وتحريف لتعاليم إلهية.

أما الفريق الآخر فإنه يؤمن بالرسالات السماوية، ويؤمن بفكرة الوحى، ولكنه يعتقد أنها جاءت متأخرة، فلقد قضت البشرية أحقاباً طويلة تدين

(١) الدين، محمد عبد الله دراز: ١١١.

(٢) نشأة الدين، على سامى النشار: ص١، دار نشر الثقافة، الإسكندرية ١٩٤٩م.

بالخرافة والأوهام، حتى إذا ما اكتمل العقل البشرى ونضج، أذن الله برسالات سماوية، وبوحى إلهى بدأ يتنزل.

السؤال الآن: ما موقع المسيحية من هذه القضية؟ وهل المسيحية دين سماوى، ثم تداعت عليه التحريفات، أو أنه وضعى أصلاً لا علاقة له بالوحى؟

فالفريق الأول الذين أنكروا فكرة الوحى أصلاً، إذا بحثوا فى المسيحية كان بحثهم لها على اعتبار أنها ديانة وضعية صاغها العقل البشرى، فظهر من هؤلاء من شكك بحقيقة المسيح - ﷺ - ووجوده. ويسوق لنا صاحب قصة الحضارة أسماء مجموعة من الفلاسفة والمفكرين الذين قالوا بهذا التشكيك. ومن هؤلاء:

١ - (بولنجيروك) وجماعة - وهم جماعة ارتاح لأفكارهم فولتير نفسه - وقالوا: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق.

٢ - سنة ١٨٤٣ كتب (برنوبور) ليثبت أن يسوع لا يعدو أسطورة.

٣ - المدرسة الهولندية (بيرسن، أنابر، متثاس) أنكروا بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية.

٤ - فى إنجلترا أدلى (سمث) و(برتسون) بحجج من هذا النوع أنكروا فيها وجود المسيح[١].

ويثبت (ول ديورانت) بعد ذلك وجود المسيح مستدلاً بإشارات فى كتب اليهود القديمة تثبت وجوده، كما يذكر إشارات إلى المسيح فى الأدب الوثنى[٢].

ويقول: (وقصارى القول: إن نكران ذلك الوجود لا يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية، أو اليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت)[٣].

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٢٠٤، ترجمة د. زكى نجيب محمود ومحمود بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م

(٢) المرجع السابق: ١١/ ٢٠٤ - ٢٠٦.

(٣) المرجع السابق: ٢٠٦/١.

ونحن المسلمين نؤمن بوجود المسيح، ونؤمن بالمسيحية على أنها رسالة سماوية سامية، ولكنها حرّفت وبدّلت أصولها وفروعها. وأن التحريف الذى نشهده فى النصرانية اليوم عن عقيدة التوحيد الأصلية، لا يدفعنا إلى القول بإنكار وجود المسيح ﷺ، لأن الإيمان به جزء من عقيدتنا ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1].



(١) سورة آل عمران: الآية ٨٤.

الفصل الثانى

أثر الفلسفة فى تحريف العقيدة النصرانية

تمهيد:

ليس من قصدنا فى هذا الفصل أن نقدم دراسة عن المدارس الفلسفية اليونانية التى سادت البيئة اليونانية خلال ستة قرون قبل ميلاد المسيح ـ ﷺ ـ لبيان مدى تأثيرها فى تحريف العقيدة النصرانية، فليس لفلاسفة هذه المدارس علاقة بالنصرانية التى نشأت فيما بعد.

وليس من قصدنا كذلك أن ندرس فى هذا الفصل فلسفة العصور الوسطى، التى اشتغل بها آباء الكنيسة فى تلك العصور، موفقين بينها وبين العقيدة النصرانية، ففلسفة العصور الوسطى كانت بعد أن اكتمل تحريف العقيدة النصرانية خلال القرون الأولى للنصرانية.

وإنما نعنى فى هذا الفصل بعرض آراء الفلاسفة الذين نشأوا فى القرون الأربعة الأولى للنصرانية، تلك التى تكونت فيها العقيدة النصرانية بكل ما لحقها من انحراف عن عقيدة المسيح ﷺ.

ولا سيما أولئك الفلاسفة الذين جمعوا بين دراستهم للفلسفة ثم اعتناقهم للنصرانية بعد ذلك، وقاموا خلال تلك القرون إما بتحريف العقيدة النصرانية الصحيحة فى بعض جوانبها، أو بتفسير العقائد الموجودة فى هذه القرون تفسيراً فلسفياً، أو بمحاولة التوفيق بين الآراء الفلسفية والعقائد النصرانية، أو بالتأثير على بعض دعاة النصرانية الأوائل عن طريق الاتصال بهم، كما حدث بين فيلون الإسكندرى وبولس وكما سنوضحه فى هذا الفصل، أو بانتشار

مذهبهم الفلسفى فى البيئة النصرانية، وإن لم يعتنق الديانة كما حدث لأفلاطون الإسكندرى، صاحب فلسفة الأفلوطينية الحديثة، إلى غير ذلك من مظاهر التأثير فى العقيدة النصرانية.

أولاً: بداية دخول الفلسفة اليونانية فى الفكر النصرانى

بدأت النصرانية كفرقة يهودية اضطهد اليهود دعاتهم، ولم تكن فى بادئ الأمر تلتفت إلى آراء الفلاسفة؛ لأن دعوتها إلهية تقوم على الإيمان بالله تعالى وحده، ولذلك لم تدخلهم العلوم الفلسفية ولا الجدل اليونانى.

وبقيت النصرانية صافية من هذه الشوائب يوم كانت دعوة خاصة ببنى إسرائيل زمن عيسى ﷺ، ولكن بعد أن انتشرت الديانة النصرانية فى أرجاء الدولة الرومانية - بعد بدء فكرة عالمية النصرانية على يد بولس دخلت إلى العالم الوثنى، فدخلت معركة مع الوثنية من جهة. ومع الفلسفة من جهة أخرى، وانتشرت وتسربت بعض الأفكار والعلوم إلى هذه الديانة الناشئة المضطهدة، فتأثرت بهذه الأفكار وخاصة الفكر اليونانى، وذلك لأسباب منها:

- دخول أصحاب الأهواء والمنافقين ممن تأثروا بالفلسفة أمثال بولس فى الديانة فى عصر مبكر من تاريخ النصرانية، حيث أمكنهم أن ينشروا أفكارهم ومعتقداتهم الضالة، ولم يكن للنصارى الصادقين إمكانية الرد عليهم وقمعهم من خلال دولة تحمى دين المسيح - ﷺ - من تحريف الضالين الجاهلين وأصحاب الأهواء.

- دخول بعض فلاسفة اليونان فى الديانة النصرانية، وقد كان كثير من كبار قساوسة النصرانية تنصروا بعد فلسفة، بل تعمقوا فى الفلسفات الوثنية، فكان من الطبيعى أن يصدروا عن معارفهم وأفكارهم السابقة وثقافتهم فى مجال تبيان عقيدتهم، مثل «يوستن»، وحاولوا أن يسدوا الثغرات التى يجدونها فى الديانة النصرانية بمزيج من الفلسفات التى كانوا عليها، بل يمكن القول إن

اليونانى بقى يونانياً بعد دخوله فى النصرانية[1].

- تسامح رجال الدين النصرانى مع الداخلين فى الديانة لأجل استقطاب أكبر عدد منهم، فكان المرء يدخل فى النصرانية اسماً فقط، وأفكاره كلها مع ما كان يعتقده من قبل، كحال جميع الذين دخلوا فى النصرانية، لأن النصرانية لم تكن لها دولة تحميها، بل كانت مضطهدة تحت الدولة الرومانية، لذلك لجأت إلى التسامح، وغض النظر عن الأفكار الدخيلة[2].

ثانياً: أهم الفلاسفة الذين تأثر بهم النصارى

فيلون:

ولد فيلون فى الإسكندرية نحو عام ٢٠ أو ٣٠ق.م، ومات بعد عام ٥٤ من القرن الأول الميلادى، أى فى زمن الحواريين، وكان كبير المنزلة بين أبناء جنسه وطائفته اليهود، حتى أرسل على رأس وفد إلى رومة ممثلاً لها لدى الإمبراطور «كاليجولا»، وكان ذلك بعد أن تجاوز الستين من عمره.

وهو فيلسوف إسكندرى فى آرائه الفلسفية والدينية، وقد درس الفلسفة اليونانية وسائر الفلسفات، التى كانت الإسكندرية تموج بها فى عصره.

وقد بلغ من علو مرتبته فى الفلسفة الإغريقية أنه كان يلقب «بالأفلاطونى» أو «بأفلاطون اليهود»، ذلك بأن فلسفته كانت تقوم بعد التوراة والتفكير اليهودى على فلسفة أفلاطون والمذاهب الأفلاطونية عامة، وقد جعل هدفه التوفيق بين الكتاب المقدس، وعادات اليهود من جهة، والآراء اليونانية وبخاصة آراء أفلاطون من جهة أخرى.

ومع هذا لم تخل فلسفته وآراؤه من التأثر ببعض التفكير الشرقى

---

(١) راجع الديانة اليونانية، ص١٧١، فجر الإسلام، ص٢٨، تاريخ الفكر المسيحى، ٢/٨٢، ٨٤، ٨٥، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٢٧١.

(٢) راجع أهم عوامل انحراف النصرانية، ص٦٥، موجز تاريخ الشرق الأدنى، فيليب حتى، ص١١٩.

ومذاهبه، ومن ثم كان لفلسفته ـ وهذه مصادرها ـ الأثر الذى لا ينكر فى الأفلاطونية المحدثة، والنصرانية الحالية، وكان ذلك بفضل دعاة النصرانية الأوائل، وهذا هو السر فى أن فيلون قد شغل أول الأمر المؤرخين الذين يبحثون عن أصول النصرانية.

وقد ازدهر نشاط فيلون العقلى فى الأربعين سنة الأولى من القرن الأول النصرانى، فقد كتب آخر مؤلفاته فى عام ٤١م.

وقد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت النصرانى، وسيتبين ذلك من عرض بعض آرائه ونظرياته الفلسفية والدينية، والتى تكررت بهيئتها فى العقائد والتعاليم النصرانية[1].

أفلوطين:

ولد فى مدينة أسيوط عام ٢٠٤م، وتوفى عام ٢٧٠م. تتلمذ فى مدرسة الإسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، فاطلع على المعارف الصوفية الهندية، والتعاليم البوذية والبرهمية.. إلخ، ثم عاد إلى الإسكندرية، وفى جعبته خليط من ألوان الثقافات، فراح يدرسها.

وكان أساس تعاليمه أموراً ثلاثة:

١ ـ الكون نشأ عن الخالق الأزلى الأول الذى لا تحده الأفكار.

٢ ـ الأرواح شعب لروح واحدة تتصل بالخالق الأزلى عن طريق العقل، المنبثق عن الخالق الأزلى الأول.

٣ ـ العالم كله فى تدبيره وتكوينه وتحريكه يخضع لهذه الثلاثة: المنشئ الأزلى الأول، العقل المنبثق عنه، الروح التى هى مصدر تتشعب عنها الأرواح جميعاً.

ويشرح أفلوطين نظريته الثلاثية فيقول: عن المنشئ الأول صدر العقل، وليس صدوره كالولادة، ولكنه انبثاق من العقل انبثقت الروح التى هى وحدة

---

(١) راجع عقيدتنا التثليث والصلب، ص٢٤٩، ٢٥٠.

أساس الأرواح كلها. وهذه الثلاثة المنشئ الأول، والعقل والروح أساس لتوالد العالم وتواجد تكوينه[1].

ثالثاً: فلاسفة النصارى فى القرون النصرانية الأولى وأراؤهم الفلسفية

يوستينيوس:

ولد سنة ١٠٠ أو ١٠٥ من أبوين وثنيين، وتربى على الديانة الوثنية، وتعلم الفلسفة الرواقية[2]، ثم درس فلسفة الأكاديميين[3] والفيثاغوريين[4]، ولكن كل هذه الدراسات لم تشبعه، حتى وجد - حسب زعمه - فى النصرانية الفلسفة الحقيقية.

وقد اشتغل فى الدفاع عن النصرانية، إلا أنه لم يتخل عن دراساته الفلسفية السابقة، وقد حكم عليه بالإعدام سنة ١٦٥م فى روما.

آراؤه العقدية:

يعرض القس حنا الخضرى آراءه الاعتقادية فيقول: يرى يوستينيوس أن «اللوجوس» هو القنطرة التى ألقيت على الهاوية الفاصلة بين الله والإنسان، فدور هذه القنطرة أو اللوجوس هو الوساطة بين الله والإنسان. والله لا يتصل بالعالم إلا عن طريق اللوجوس، فهو الوسيط الذى عن طريقه يعلن الله ذاته، ثم يقود النفوس إلى الرب.

---

(١) راجع تاريخ الفلسفة، إبراهيم مدكور، ص٦٥، مشكلات العقيدة النصرانية، ص١٤٤، فجر الإسلام، ص٢٨.

(٢) الفلسفة الرواقية: سميت رواية لأن أصحابها كانوا يجتمعون فى رواق، وهى فلسفة أخلاقية، تقول عن الله بأنه خالق كل شىء وهو منبثق فى هذا الكون. الموسوعة الفلسفية، ص٢١٤.

(٣) الأكاديمية نسبة إلى المدرسة التى أنشأها أفلاطون، وسماها أكاديميا. وكانت تدرس الفلسفة اليونانية. الموسوعة الفلسفية، ص٦٠.

(٤) الفيثاغورية: نسبة إلى فيثاغورس اليونانى ومدرسته فلسفية، وفيها مبادئ فلسفية تتصل بالزهد، وهم يرون تحريم أكل اللحوم، ويقولون بتناسخ الأرواح. موسوعة الفلسفة ٢٢٨/٢.

ولقد حاول أن يشرح أصل اللوجوس، فقال بأنه كان ساكناً فى الله كقوة، وهذه القوة انبثقت أو خرجت من الله قبل الخليقة، ولقد قام اللوجوس بعملية الخلق، ولكى يوضح عملية انبثاق اللوجوس من الأب استعمل بعض التشبيهات والصور.

ومع أنه يعتقد بأن اللوجوس انبثق من الله، لكنه مؤمن بأنه يتمتع بوجوده الذاتى والمتميز بالطبيعة عن الله السامى.

وقد كان أهم المواضيع التى عالجها موضوع اللوجوس، وفى شرحه لهذه العقيدة يرى بعض الروابط التى تربط المسيحية بالوثنية.

وعلى الرغم من دراساته العميقة ومعرفته بالكتاب المقدس فإن التعاليم الأفلاطونية تركت تأثيراً عميقاً عليه. وفى كتاباته يلحظ التأثير الوثنى، لا سيما فى تعليمه عن اللوجوس، وطريقة الانبثاق، فإنه خروج اللوجوس من الأب يشبه إلى حد ما خروج بعض الأرواح من الإله الأعظم فى المفهوم الوثنى الغنوصى.

وهو يعتقد بأن الابن أدنى من الأب، وأن الروح القدس أقل من الابن، وعندما يتكلم عن الثالوث يضع الله فى المرتبة الأولى، والمسيح فى المرتبة الثانية، والروح القدس فى المرتبة الثالثة.

قال صاحب الكتاب فى آخر حديثه عنه: ومما لا شك فيه أن الدراسات الفلسفية الكثيرة التى درسها يوستينيوس تركت فى تعاليمه بعض الآثار الوثنية[1].

تاتيانوس:

ولد سنة ١١٠م فى سورية، من عائلة وثنية، ثم ترك سورية، واتجه إلى بلاد اليونان لكى يدرس أفكارهم وفلسفتهم، وبعد أن أقام فى اليونان فترة من الزمن انطلق إلى روما لكى يستقى من فلسفتها. وفى روما تقابل مع يوستينيوس، فتتلمذ على يديه. وقد خالف أستاذه فى أنه ضرب عرض الحائط بكل العلوم

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٤٤٤ - ٤٥٢.

والفلسفات الأخرى غير المسيحية.

آراؤه العقدية:

من تعاليمه أن اللوجوس كان غير موجود فى زمن ما، فى زمن بعيد جداً فى الأزل.

وفى هذا يقول القس حنا الخضرى معلقاً: وهنا نلاحظ ظهور التربة التى ستنمو فيها فيما بعد أنواع كثيرة من الهرطقات المختصة بشخص المسيح وعدم أزليته.

واللوجوس عنده كان مختفياً فى الله، فقبل الخليقة كان لا يمكن تمييزه عن الله، وفى المرحلة الثانية يبدأ بالخليقة عندما يخرج اللوجوس عاملاً، وبعبوره فى هذه المرحلة يصبح الخارج من الأب، وهنا يبدأ عملية فى تنظيم المادة المختلطة بالعالم[1].

أثيناغورس

كان معاصراً لتاتيانوس، ومن أبلغ المدافعين عن المسيحية، وكان يحب الفلسفة والشعر.

آراؤه العقدية:

وعن آرائه فقد تابع يوستينيوس فيما يختص بالدور الذى قام به اللوجوس فى الخليقة، وهو يحاول أن يثبت أن اللوجوس كان يعمل هو أيضاً خالقاً فى أثناء الخليقة.

وقد حاول بتعاليمه أن يزيل الحاجز الذى أقامه أتباع يوستينيوس بتعليمهم أن اللوجوس هو فكرة إلهية، وأبدية الكلمة فى وقت الخليقة ولأجلها. فهو يعتقد بأن اللوجوس كان منذ الأبد فى الله، فهو الفكرة والقول والحكمة الذى يفهم، والإرادة والطاقة الذين ينفذ، وأن خلق العالم ما هو إلا نتيجة هذا الفكر

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٤٥٤ ـ ٤٥٧.

والنشاط الإلهى.

ولقد ظل اللوجوس بعد الخليقة على ما كان عليه قبلها، أى أنه الفكر والنشاط والطاقة الإلهية الذى يحكم العالم، ويرشد البشر. يقول القس حنا الخضرى معلقاً: وهى نظرية تعرض شخصية اللوجوس للاختلاط، بل للتلاشى فى الله[1].

ثيوفيلوس الإنطاكى

يذكر يوسيبوس فى كتابه «تاريخ الكنيسة» أن ثيوفيلوس كان الأسقف السادس لكنيسة أنطاكيا. ولد بالقرب من الفرات من والدين وثنيين، وكانت ثقافته ثقافة يونانية وثنية، وبعد الدراسة الطويلة للكتب المقدسة، والتأمل العميق تجدد ـ أى دخل فى النصرانية ـ ويحتمل أنه توفى بعد سنة ١٨٠م.

آراؤه العقدية:

ثيوفيلوس هو أول شخص استعمل كلمة الثالوث فى تاريخ العقيدة النصرانية، ولقد استعمل هذا الاصطلاح فى صيغة غريبة، وهى ثالوث الله، كما أنه يرى فى الأيام الثلاثة السابقة لخلق الشمس إشارة إلى الثالوث.

وهو يحاول أن يشرح بأن اللوجوس أو الكلمة كان فى الله، فى حضن الله، وفى ما يسميه الكلمة فى الداخل، أى أن اللوجوس (الكلمة) كان فى الله فى داخل الله، ولكن عندما نطق الله هذه الكلمة صار هذا اللوجوس خارجاً عنه فهو الكلمة المنطوق، أو الخارج من الله[2].

وهو عندما يتكلم عن طبيعة اللوجوس يثبت أن الحكمة أو الابن ولد للاشتراك فى عمل الخليقة.

كما يلاحظ فى تعاليمه الخاصة بالمسيح نوعاً من التبعية أو الثانوية ـ

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٤٥٩ ـ ٤٦٢.

(٢) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٤٦٢ ـ ٤٦٤.

عقيدة أن الابن اقل من الأب أو تابع له - ومع ذلك فقد قال بأن الكلمة أو اللوجوس لم يفرغ نفسه أو يخلى نفسه من اللاهوت عندما صار كلمة منطوقاً خارجاً عن الله[1].

أكليمندس الإسكندرى

ولد فى أثينا، من أبوين وثنيين سنة ١٥٠م، وتاريخ اعتناقه النصرانية مجهول. التحق فى الإسكندرية بالمدرسة اللاهوتية التى كانت تدعى مدرسة التعليم المسيحى، وآلت إليه رئاسة المدرسة بعد بانتيوس.

وقد كان ملماً بعلوم الفلسفة والشعر والأثريات والأساطير والآداب، توفى سنة ١٢١٧م.

آراؤه العقدية:

هناك تشابه كبير بينه وبين يوستينيوس، وبنوع خاص موقفهما من العلوم والفلسفات الوثنية، فإن كان يوستينيوس يؤمن بوجود بذور اللوجوس فى تعاليم وفلسفات اليونان، فإن أكليمندس قارن فلسفة اليونان بالعهد القديم نفسه عندما كانت تعد البشرية لمجىء المسيح - حسب زعمهم - وقد ركز على أن الفلسفة لا تستطيع أن تحل محل الوحى الإلهى.

وفى شرحه لعقيدة اللوجوس يبدأ بظهورات اللوجوس فى العهد القديم، وقد كانت كل هذه الظهورات تعد للظهور الأعظم أى التجسد. ففى خلال فترة العهد القديم كان اللوجوس يظهر نفسه بطرق مختلفة، على أن هذا الظهور الأخير أى التجسد يختلف تماماً عن الظهورات السابقة، فهو شىء جديد من نوعه، فكما أن الله يختلف تماماً عن الظهورات السابقة، فهو شىء جديد من نوعه، فكما أن الله اختار شعباً جديداً وعهداً جديداً، فإنه يظهر هذه المرة لشعبه بطريقة جديدة.

---

(١) تاريخ الفكر المسيحى، ص ٤٦٢ - ٤٦٤.

واللوجوس لا يبدأ بهذه الظهورات التى يتكلم عنها العهد القديم، بل هو الذى خلق هذا العالم، كل ما يوجد فى الكون به وله قد وجد، وهو أيضاً الذى مع الأب والروح القدس يكون الثالوث الإلهى، وهو الذى عن طريقه يعرف الأب[1].

وأكليمندس يعترف بنوع من المساواة فى العظمة بين الأب والابن. وهو يتمسك بقول يوحنا «والكلمة صار جسداً»[2]. وهذه الكلمة هو نفسه الذى ولد من الأب قبل كل الدهور (لوغوس) واحد مولود من الأب، وهو أيضاً صورة الأب، ولم يصبح صورة الأب بفضل التجسد وبسببه، بل منذ الأزل وقبل كل بداية كان صورة الله غير المنظور.

فاللوجوس الذى هو صورة الله، هو أيضاً سيد هذا الكون والمشرع للبشرية، كما أنه المخلص للجنس البشرى، والمعطى للحياة الجديدة.

وقد شدد كثيراً على لاهوت المسيح، ونادى بأفكار تشبه إلى حد كبير الأفكار الغنوصية ولقد تركت الرواقية تأثيراً لا يستهان به على تعاليمه، لا سيما فى مفهومه لمشكلة آلام المسيح، فهو يرى أن القوة الإلهية حلت فيه محل الدوافع البشرية، واللاهوت سيطر عليه بطريقة كلية، لدرجة أن المشاعر والعواطف والتأثيرات الحسية لم يعد لها أى سلطان عليه.

وبالرغم من تشديده على لاهوت المسيح فإنه لا يهمل الكلام عن ناسوته، فهو يؤمن بأن اللوجوس المتجسد هو الله وإنسان، بل إن اللوجوس عنده سابق لكل وجود، وهو نفسه الذى سكن فى شخص يسوع المسيح التاريخى، وهو نفسه أيضاً الذى حل فى الجسد وارتبط به.

وقد حاول أن يوفق بين التعاليم الغنوصية الوثنية، وبين الغنوصية المسيحية، وفى هذه المحاولة شدد كثيراً على اللاهوت معطياً له الأولوية العظمى.

ومما لا شك فيه أن أكليمندس كان يحتفظ فى داخله بجزء من أكليمندس

---

(١) تاريخ الفكر المسيحى، ص ٥٠٠ ـ ٥١٢.

(٢) يوحنا، ١/ ١٤.

الفيلسوف اليونانى الذى درس الفلسفات اليونانية الوثنية بمذاهبها المختلفة المتنوعة، وإن لم يعمم هذا على كل مبادئه[1].

ترتليانوس:

ولد فى حوالى سنة ١٥٥ ـ ١٦٠م من والدين وثنيين فى قارطجنة، وفى هذه المدينة نشأ وتردد على مدارسها، وتتلمذ على أيدى معلميها، ثم توجه إلى روما ودرس الحقوق ونجح فيها نجاحاً ملحوظاً. ودرس بجانب دراسته للحقوق الآداب واللاتينية واليونانية والفلسفات المختلفة فى عصره.

آراؤه العقدية:

كتب الكثير عن شخص المسيح، عن (اللوجوس) عن ابن الله، مدافعاً عن الثالوث.

وكان يدافع عن عقيدة التجسد محاولاً أن يشرح هذه العملية للدخلاء من الوثنية وللوثنيين أنفسهم، وضد اليهود الدخلاء وغير الدخلاء، الذين لم يروا فى المسيح إلا مجرد إنسان، وكان يناضل ضد جماعة أخرى من اليهود رأت فى لاهوت المسيح تهديداً عظيماً لوحدة اللاهوت، وهى جماعة «وحد الله»، ولهذا السبب فقد حاول أن يخترع مصطلحات جديدة وعديدة لكى تعبر عن تعاليمه اللاهوتية دون أن يبتعد عن المكتوب.

ونادى بوحدة الله، ولكن هذه الوحدة هى وحدة الأقانيم، فإن الله هو أب، وابن، وروح قدس، هؤلاء الثلاثة أقانيم هم إله واحد، الله الواحد المثلث الأقانيم من جوهر واحد.

فهو يقول: أؤمن بأنه يوجد جوهر واحد فى الثلاثة. وهو أول كاتب لاتينى يستعمل اصطلاح «التثليث». وفى كلامه عن التثليث كان أول شخص أيضاً استعمل الاصطلاح (PERSONA) الذى يمكن أن نسميه أقنوماً. هذا

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٥٠٠ ـ ٥١٢.

الاصطلاح الذى سيلعب دوراً مهماً جداً فيما بعد فى المناقشات والمجادلات العقائدية فى أثناء انعقاد المجالس المسكونية[1].

وهو يعتقد بأن ظهور أو ميلاد اللوجوس بدأ بالتدريج، وهو يميز بين الميلاد الأول لهذا الأقنوم (الحكمة) قبل الخليقة، وبين الميلاد الكامل فى لحظة الخليقة، عندما نطق الله هذا اللوغوس وأصبح الكلمة، فى هذه اللحظة أصبح الكلمة منظوراً وكاملاً، فعندما قال الله: ليكن نور، كان هذا هو الميلاد الكامل للكلمة الذى خرج من الله، الذى انبثق منه، فإن هذه الكلمة كان ساكناً فى الله، كحكمة كفكر، ولكن عند عملية الخليقة خرج هذه الحكمة، وظهر هذا الكلمة اللوجوس من الله، أو أن الله أخرج أو أبثق منه هذه الكلمة، فإن الكلمة قد انبثق من الله لكى يعمل معه فى خلق العالم، وبهذه العملية - أى عملية انبثاق أو خروج اللوغوس أو الكلمة من الله - أصبح الله الأب أباً، وأصبح اللوغوس المنبثق منه أو المولود منه ابناً، فهو الابن البكر، لأنه ولد قبل كل خليقته، بل إنه الابن الوحيد، إذ أنه الوحيد الذى ولد من الله، فالابن كابن ليس أزلياً.

وبما أن الابن انبثق أو خرج من الأب فهذا الأخير هو الجوهر الكامل أو الكلى، وبناء على ذلك فإن الابن سيل من هذا الكل، الأب هو كلى الجوهر بينما الابن هو جزء من هذا الكل.

وتظهر فكرة التبعية أو أولوية الأب وسموه على الابن فى التشبيهات الكثيرة التى أعطاها لشرح هذه العقيدة، فمع أنه أعطى المكانة الأولى فى الثالوث للأب، والمكانة الثانية للابن، والمكانة الثالثة للروح القدس، إلا أنه أكد كثيراً وبشدة على حقيقة أن هؤلاء الثلاثة من جوهر واحد، ويكونون الله المثلث الأقانيم.

وقد شدد بوضوح على وجود الطبيعتين فى شخص المسيح، الإلهية والبشرية، اتحاد الإلهى بالبشرى، وفى هذا الاتحاد الإلهى البشرى «اللوجوس» يسوع، احتفظت كل طبيعة بمميزاتها الخاصة بها.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص ٥١٤ - ٥٣٠.

أريجانوس:

ولد أوريجانوس فى حوالى سنة ١٨٥م، فى مدينة الإسكندرية، ولم يكن وثنياً، فقد عرف أبوه الكتب المقدسة، وفى الوقت نفسه كان مثقفاً ومطلعاً على كتابات الوثنيين.

عين مديراً لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية، ومات ودفن فى صور سنة ٢٥٢م.

آراؤه العقدية:

شدد أوريجانوس على حقيقة أن الله هو الأول، فهو الخالق الذى عن طريق الكلمة خلق كل الأشياء، فهو يعمل وينتج عن طريق الكلمة أى «"اللوجوس» الذى يستخدمه فى عملية الإنتاج والخلق.

وعملية الخلق كما يراها أوريجانوس عملية طويلة، فالله هو الأول وهو الخالق الذى كان منذ الأبد خالقاً، فكل ما هو موجود خلقه الله عن طريق كلمته أى «اللوجوس»، والله خلق فى البداية عنصرين هامين جداً ساهماً فى تكوين العالم، ومنهما تكوين العالم الحالى، العنصر الأول هو الأرواح، ولقد دعا هذه الأرواح للإتحاد مع كلمته، أى «اللوجوس»، وعن طريق اتحادها مع اللوجوس تتحد أيضاً مع الله. أما العنصر الثانى الذى تكون منه العالم فهو المادة، فالمادة خليقة الله.

وهو يعتقد أنه من المستحيل أن تتحد الطبيعة الإلهية بجسد بشرى، ولكن تتم هذه العملية ـ عملية الاتحاد الإلهى البشرى ـ كان لابد من وجود وسيط، والوسيط الذى يلجأ إليه هو الروح البشرية والمخلوقة قبل خلق الجسد، وعملية الاتحاد التى تمت بين اللوجوس وروحه البشرية قد تمت بعد الخليقة مباشرة، وظلت هذه الروح ساكنة فى السماء ومتحدة باللوجوس، ولذلك عندما جاء ملء الزمان، وعندما أرسل الله ابنه مولوداً من امرأة، فإن هذه الروح التى كانت متحدة باللوجوس قبل التجسد صارت روحاً للإنسان يسوع بعد الجسد.

وهذه الروح هى نفسها حلت فى الإنسان يسوع، وبعبارة أخرى صارت الروح البشرية ليسوع الناصرى، وهذه الروح أصبحت الوسيط بينه وبين جسد يسوع الذى سكن فيه اللوجوس[1].

وعندما سكن اللوجوس فى هذا الجسد، فى يسوع الناصرى، وهو إنسان كامل من ناحية تكوينه أى روح وجسد، كان «اللوجوس» ابن الله يعمل فى الإنسان يسوع لكى يرفعه ويسمو به. وكان «اللوجوس» يرفع ويؤله تدريجياً الروح التى اتحد بها، وكانت الروح ترفع وتؤله هى أيضاً بدورها الجسد الذى سكناه.

ومع أنه فى شرحه للنصوص يؤكد على ناسوت المسيح، إلا أنه يقول فى بعض كتاباته وفى أماكن عديدة بتأليه جسد المسيح. ومن هذا يتضح كما يقول القس حنا الخضرى أن المعلم الذى نشأ فى بيئة تشبعت بالغنوصية كان يريد أن يعمل من الغنوصية الوثنية غنوصية مسيحية. ومع أنه يستعمل العبارة «إنسان الله» عندما يتكلم عن المسيح ليسير إلا لاهوته وناسوته، لكن وردت منه التصريحات التى تبين أنه يريد أن يرفع جسد هذا الإنسان إلى درجة اللاهوت، وهذا خطر عظيم - على حد تعبير القس -.

وفى تعاليمه لا يكاد يرى إلا اللاهوت، أو ناسوتاً فى طريقه إلى التأله، وهو يرى بأن اللوجوس انبثق من الأب، وهذا الانبثاق لا يعد تقسيماً فى ذات الله، بل إن هذه العملية هى عملية روحية، فالابن هو صورة الله غير المنظور، وهو أيضاً حكمة الله، وهذا الابن هو ابن أزلى لا بداية له، فإنه موجود منذ الأزل ولا يوجد وقت ما لم يكن الابن موجوداً فيه.

وبما أن الحكمة (الكلمة أو اللوجوس) انبثق من الله، فهو الله، مولود من جوهر إلهى، ولكن يعبر بطريقة صحيحة وواضحة، فقد صاغ الاصطلاح الذى لعب دوراً كبيراً فى تاريخ العقيدة المسيحية، وخاصة فى مجمع نيقية، وهو «أموزيوس» (Omoousios)، والذى يعنى أن طبيعة الابن من طبيعة الأب، فبحسب هذا التعبير الابن من نفس جوهر الأب.

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٥٢٩ - ٥٥٠.

وهكذا أدخل أوريجانوس فى التعاليم اللاهوتية الشرقية عقيدة روح المسيح، ورأى فى شخص المسيح المخلص والفادى، وقد تطرف فى فهم النظرية.

وخلاصة القول كما يقول القس حنا الخضرى أنه كان له تأثير عميق على كنيسة القرن الأولى[1].

أغسطينوس:

ولد سنة ٣٥٤م فى مدينة سقسطة فى الجزائر، وتوفى سنة ٤٣٠م. تميزت سنوات شبابه بالصراع العقلى والأدبى فقد جذبته الفلسفة الثنائية لجماعة المانويين، وصار تابعاً أميناً للعقيدة المانوية وفلسفتها، ثم ضاق بالمانوية، وصار اهتمامه بالأفلاطونية الحديثة والذى من خلالها صار يعتبر نفسه مسيحياً، ثم خلع عنه فيما بعد حياة الجنون والفساد، واستقبل الحياة النصرانية، وبرز فيها إلى أن صار أسقفاً لهيبو فى منطقة تونس، إلى أن توفى، وصار من أعظم قادة الكنيسة بعد بولس[2].

أثرت أفكار الأفلاطونية الحديثة على تعاليمه، كما يقول جون لوريمر، وكانت معالجته للأوجه الرسمية الخاصة بالفكر اللاهوتى متأثرة بخلفيته عن الأفلاطونية الحديثة[3].

رابعاً: بعض ملامح التأثير الفلسفى فى العقائد النصرانية

إن تأثير الفلسفة اليونانية واضح كل الوضوح فى الديانة النصرانية، وإن انتماءها إليه أكثر من انتمائها إلى المسيح ﷺ، وإن الناظر فى الديانة النصرانية يتحقق من تأثير الفلسفة فيها فى نواح عديدة، من أهمها:

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٥٣٩ ـ ٥٦١، دراسات فى الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، ص٢٧٣.

(٢) راجع تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ١٨٦/٣ ـ ١٨٩.

(٣) راجع تاريخ الكنيسة، جون لوريمر ١٨٦/٣ ـ ٢٠٠.

أولاً: إن النصرانية اقتبست من الأديان الوثنية والفلسفات اليونانية الواسطة بين الخالق والمخلوق، وإن مما هو معلوم أن أهم مميزات الدين السماوى هو وصل المخلوق بالخالق بدون وسائط، وأهم مميزات الوثنية عموماً هو إدعاء الواسطة بين الخالق والمخلوق، ومن هنا نرى أن بولس وهو اليهودى فى الأصل قد تأثر بفيلون اليهودى فى دعوى الواسطة، فنرى التطابق بين رأيهما، فقد ادعى فيلون وسيطاً بين الإله الأعلى والإنسان، وفى ذلك يقول بولس: «يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح»[1].

وهكذا نجد أن كل تصور عن الله أو الوسطاء فى فلسفة أفلاطون الممتزجة بالرواقية قد انتقل إلى النصرانية عن طريق بولس أو يوحنا صاحب الإنجيل فى الأعم الأغلب بواسطة فيلون اليهودى، الذى صاغ هذه الفلسفة فى صورة جديدة مبنية فى أغلب الأحيان على الرمز والتأويل بما يتلاءم والكتاب المقدس.

ودعوى النصارى فى الكلمة أو اللوجوس بمعنى الواسطة بدا واضحاً فى الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا)، وهو قول مأخوذ من فلاسفة اليونان، فهو مزيج بين فلسفة أفلاطون، حيث يدعى أنه فى البدء جاء الصانع فصنع النفس الكلية، ومن الأخيرة صنع الإنسان وبقية الأشياء[2].

وهى عند الرواقيين الإله الأكبر، وهى منتشرة وحالة فى سائر المخلوقات، وهى غير مخلوقة[3].

فجاء فيلون اليهودى، وحاول الربط بين هذه الأشياء مع موروثاته الدينية اليهودية، فادعى أن الواسطة بين الخالق والخلق هى الكلمة واللوجوس الصادر عن الله، والذى هو صفة من صفات الله، وهو يعتبر ولد الله وابن الله، وهى عنده التى تحفظ جميع الأشياء، وهى موجودة فى ماهية الله، وتكاد تعد أقنوماً من أقانيم الله ـ تعالى الله عن قولهم.

(١) تميوثاوس ٢/٥.

(٢) راجع موسوعة الفلسفة ١/ ١٧٤، وأديان العالم، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) راجع موسوعة الفلسفة ٢/ ٢٢٤.

وهذا القول ظهر واضحاً فى إنجيل يوحنا بإدعاء أن المسيح هو الكلمة، ودعوى أن الكلمة هى الله وابن الله وبها كان كل شىء. ولذا صرح عبد الرحمن بدوى بأن فكرة الكلمة قد لعبت دوراً خطيراً فى المسيحية عن طريق الإنجيل الرابع، ولسنا ندرى على وجه التدقيق فى أى وقت كتب، وإن كان الأرجح أن يكون قد كتب فى القرن الثانى تحت تأثير فيلونى صرف[1].

ثانياً: إن التثليث وهو رأس العقيدة النصرانية هو مزيج مستورد من الوثنية والفلسفة وخلاصة الأفلاطونية، فنجد أن أفلاطون فى كلامه عن الإله جعله ثلاث طبقات:

أولاً: الصور الحى بذاته.

ثانياً: الصانع الذى يصنع الوجود على غرار الصور والحى بذاته، وهو عنده النفس الكلية التى صنعها الخالق الأول.

ثالثاً: الكون أو العالم ثم أرواح الكواكب[2].

وهذا التثليث ظهر أيضاً بعد فى كلام أفلاطين رأس الأفلاطونية المحدثة على نحو من كلام أفلاطون، فادعى التثليث، وجعل الإله ثلاثة أقانيم كما ذكرنا سابقاً.

وإذا نظرنا إلى ثالوث النصارى وجدناه يحوم حول هذه المعانى التى عرضها أفلوطين، وكأنه مشتق منها، إلا أنه حددها بذوات معلومة معروفة، وخالف بين أدوارها، فعندهم الأب وهو الأصل والمبدأ، والابن وهو كلمة الله وعقل الله، وهو صادر عن الأب، وهو الذى خلق العالم وأوجده، ويتصرف فيه ويدبره. وروح القدس وهو صفة الحياة للإله الأب والابن، وهو منبثق عن الأب كما هو قول الأرثوذكس، ومنبثق عن الأب والابن كما هو قول الكاثوليك وعمله التطهير للنصارى.

---

(١) راجع موسوعة الفلسفة ٢/٢٢٣.

(٢) راجع موسوعة الفلسفة ١/ ١٨٧.

ويقرر «ليون جويته» في كتابه «المدخل لدراسات الفلسفة الإسلامية» تحت عنوان التثليث ليس من المسيحية، أن الثالوث الأفلوطيني والثالوث المسيحي كلاهما يرجع إلى الفلسفة الإغريقية[1].

وعلى هذا يكون أفلوطين هو آخر الفلاسفة الوثنيين وأعظمهم في تنسيق اللاهوت النصراني، فأودعه بعد عقيدة التثليث لاهوتية العقائد الوثنية، وما أكثر الذين افتتنوا به من النصارى، حتى إن أوغسطين يردد كل ما انتهجه أفلوطين.

وفي الوسع أن نقول بأنه عن طريق فيلون يوحنا وبولس وأفلوطين وأوغسطين غلب أفلوطين أرسطو، وتعمق في أغوار اللاهوت الكنسي، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئاً فشيئاً[2].

ثالثاً: إن المصطلحات الدينية لدى النصارى مثل الأب والابن والروح القدس والكلمة والتجسد والصلب والفداء والتعميد فسرت بتفسيرات فلسفية، استخدم أصحابها فيها أساليب الفلاسفة ليتم إقناع الناس بتلك المصطلحات، التي لم يرد فيها عن المسيح - ﷺ - شيء البتة، مما يدل دلالة واضحة على أن الفلسفة كانت مطيعة للنصارى في شرح ديانتهم.

كما أن استخدام الفلسفة في شرح تلك المصطلحات أدى إلى ظهور الفرق الكثيرة بين النصارى، وذلك للتفاوت الكبير بين تلك الشروحات، وذلك كما حدث في تفسير البنوة، حيث فسرها البولسيون بأنها بنوة حقيقة، وتعني اتحاداً بين الأب والابن، أما الأريوسيون ففسروها على أنها بنوة النعمة، وبنوة المكانة الرفيعة لدى الأب.

ونفس الأمر حدث عند الحديث عن الروح القدس، فمنهم من ادعى أنه مخلوق، ومنهم من ادعى أنه إله ويشكل أقنوماً من أقانيم الإله لديهم، ومنهم من زعم صدوره عن الأب وحده، ومنهم من زعم صدوره عن الأب والابن معاً.

---

(١) راجع تاريخ الفلسفة اليونانية، ص٢٩٧.

(٢) راجع تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص١٧٥، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٢٦١.

وهكذا كانت الأراء التى خرجت وطرحت فى المجامع حصيلة آراء صاغتها الفلسفات المنتشرة، وكانت أهم قضية طرحت فى هذا المجال كلما أسلفنا ما يرتبط بمفردات الثالوث، وأقنومية كل فرد منها، واقترح كل مناصر رأيه فى هذا المجال فى الوصول إلى مصطلحات تؤدى الغرض الذى سعوا إليه فى تحديد الأقنومية وطبيعتها. وقرر أنصار الثالوث أن هذا سر يصعب تعقله.

فلا شك بعد هذا كله من أن الديانة التى جاء بها المسيح - عليه السلام - لم يكن فيها شىء من التعقيد والفلسفة، بل كانت دعوة بسيطة وجهها إلى بسطاء الناس من بنى إسرائيل، لأنها لا تعدو أن تكون وعظاً وتذكيراً وضرب أمثله من واقع الناس وحياتهم اليومية، فتابعه من تابعه من أولئك البسطاء، وكان جلهم من الفلاحين وصيادى السمك وفقراء الناس. وكفر به من كفر من اليهود، لأن تلك الدعوة لم تكن تدور فى فلك أهوائهم.

أما ما عليه النصرانية اليوم فهى نصرانية غاية فى العسر واستحالة الفهم، وكل من أراد أن يؤمن بها فعليه أن يلغى عقله جانباً حتى يمكنه أن يقبل ذلك المزيج بين الدين والفلسفة، والأديان الوثنية، وهو مزيج النسبة المرتفعة فيه لصالح الفلسفة الوثنية.



الفصل الثالث

أثر رجال الكنيسة فى الانحراف

نشأة الكنيسة

قبل أن نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها فى إقرار الانحراف الذى طرأ على التوحيد فى النصرانية، والمساعدة على شيوعه وتعميمه على النصارى فى كل مكان..رأينا أن نعطى لمحة موجزة عن نشأة الكنيسة، نعرف من خلالها متى نشأ هذا النظام الكنسى الذى أصبح من حقه أن يثبت ما شاء، أو ينفى ما شاء، وأصبح من حقه إقرار العقائد وصياغتها، والتدخل فى أسس العقيدة وأركانها.

ولدى مراجعتنا للمراجع التى تحدثت عن هذا الموضوع، فإننا لم نجد أحداً من النصارى قال بأن نظام الكنيسة عرف زمن المسيح - عليه السلام -، كما أن النصوص الإنجيلية لم تنسب قط إلى المسيح تعبيراً على الكنيسة، إلاَّ فى مناسبة واحدة وردت فى إنجيل متى: (**أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى**)[1].

ومع استغلال رجال الدين النصارى لهذا النص الذى يستشهدون به على أنه كان فى نية المسيح بناء كنيسة أو أنه أمر بذلك، إلاَّ أن هذا النص بحد ذاته - إذا صح - لا يدل على الكنيسة بمعناها المعروف وإنما يشير إلى الثقة التى أعطاها المسيح - عليه السلام - لتلميذه (بطرس) ويشير إلى دعوته ستقوم وتنتصر بين الناس على أكتاف المؤمنين بها المخلصين أمثال تلميذه بطرس، فهو أراد أن يمتدح تلميذه (بطرس) فأعطاه لقب الصخرة كناية عن الثبات والصمود.

---

(١) متى: ١٦/ ١٨.

إن دعوة المسيح - ﷺ - خاصة لبنى إسرائيل وهى من البساطة واليسر بحيث لا تحتاج إلى هذا التنظيم الكنسى الذى نشهده وهذه المناصب الكثيرة وإلى هذا الجهاز الضخم من الكرادلة والمطارنة والأساقفة والبطاركة والشمامسة، وغير ذلك من ألقاب ما عرفها المسيح ولا سمع بها.

ومع بداية القرن الرابع تتغير الأحوال، يقول الأستاذ (جينى بير): (إذا تأملنا المسيحية فى مقتبل القرن الرابع، فإنه يتعذر علينا أن نجد صورة من صور مجتمع الحواريين، فبدلاً من جماعة محدودة من اليهود لا يفرق بينهم وبين باقى أمتهم سوى أمل خاص.. بدلاً من ذلك نجد مجتمعاً دينياً واسع النطاق يدخل فيه - دون تمييز لجنس أو لطبقة معينة - كل من يرى فى نفسه القدرة الكافية، مجتمعاً يدرك تماماً أنه يشكل وحدة متكاملة، وأنه هو الأمة المختارة أى (كنيسة المسيح)[1].

والأستاذ (جينى بير) يتحدث إلينا عن تطور فكرة الكنيسة، وكيف نمت هذه الفكرة مع بداية القرن الثانى، حتى تجلت واضحة فى بداية القرن الرابع. فهو يقول: (إن المسيح لم ينشىء الكنيسة ولم يردها)[2]، ويؤكد هذه الحقيقة فيقول: (ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث... إن عيسى كان يترقب حلول مملكة الله الوشيك، ومن شأن هذا الأمل أن ينفى من منطقة كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوى لأتباعه)[3].

وهكذا يمضى عهد المسيح - ﷺ - دون أى تفكير بإنشاء مؤسسة الكنيسة، ولقد كان الحال كذلك فى عهد حوارييه الذين حادوا عن طريقه، فهم كذلك لم ينشئوا كنيسة قط، يقول الأستاذ (جينى بير): (وإذا قلنا بأن المسيح صرح للحواريين الإثنى عشر بسلطة ما، وهذا محل جدل حتى اليوم، فمما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان فى التبشير بالتوبة، وبحلول مملكة الله، ولم يصنع منهم قساوسة حيث لم يكن فى حاجة إلى ذلك،

---

(١) المسيحية، شارل جينى بير: ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) نفس المرجع: ص١٣٠. (٣) نفس المرجع: ص١٣٠.

وعلى اى حال فإننا عندما ندرس أعمال الحواريين لا نجد أنهم فكروا فى إنشاء كنيسة)[١].

اضف إلى ذلك أن الحاجة لإنشاء الكنيسة لم تنشأ إلاّ عندما أريد للمسيحية أن تنتقل إلى العالم اليونانى الرومانى، وكما يقول الأستاذ (جينى بير): (يمكن القول بان فكرة الكنيسة نشأت عن انتقال الأمل المسيحى من فلسطين إلى ربوع العالم اليونانى، وأيضاً إذا شئنا عن تطور هذا الأمل إلى العالمية)[٢].

وقد عرفنا أن الذى قوّى هذا الأمل، ونادى بعالمية المسيحية هو بولس، وفكرة بولس هذه نمت، ونجحت فى القرن الثانى، (ونعتقد أيضاً أننا إذا وقفنا على أعتاب القرن الثانى لنتأمل المسيحية سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعاً فى الله قد ثبتت تمام الثبوت)[٣].

هكذا بدأت الفكرة (ويشير الباحثون إلى أن نظام الكنيسة، وسلطة رجل الدين قد بدا واضحاً فى القرن الرابع، حيث عدّ بابا روما رئيساً للكنائس كلها، وقد أصبح للبابوات نفوذ ضخم مع تدهور الإمبراطورية فى الغرب)[٤].

ويشير المؤرخون إلى أن أقدم كنيسة هى كنيسة بطرس فى روما، ولقد افترقت الكنائس تبعاً لافتراق النصارى، ولكل فرقة من الفرق الثلاث المعروفة اليوم كنيسة تعتبر أمّاً للكنائس المنتشرة فى كثير من أقطار العالم.

(والكنيسة الكاثوليكية هى كبرى كنائس العالم وهى ذات التاريخ الطويل فى الدين والسياسة، وهى التى حملت لواء الحروب الصليبية، وحاملة لواء محاكم التفتيش).

هذه لمحة سريعة عن نشأة الكنيسة، أثبتنا من خلالها أن الكنيسة فى أساسها طارئة على المسيحية، وبالتالى فلا غرابة أن تقوم برفع راية الانحراف بالنصرانية عن توحيدها فى كل العصور.

---

(١) نفس المرجع: ص١٣٠.

(٢) المسيحية، شارل جينى بير: ص١٣١.

(٣) نفس المرجع: ص١٣٢.

(٤) الإسلام والفلسفات القديمة، أنور الجندى: ص٢٠٨.

ونحن حينما نتحدث عن أثر الكنيسة ورجالها فى الانحراف، لابد لنا أن نتحدث عن تلك المجامع التى عقدها رجال الدين النصارى، وهم رجال الكنيسة، لأن الانحراف كله صدر عن هذه المجامع، فهى مصدر أساسى من مصادر انحراف النصرانية عن التوحيد.

المجامع

والقضية الأولى التى نود الحديث عنها حول هذه المجامع هى: أن كل مجمع منها ما عقد إلاّ لمعالجة مشكلة، أو مناقشة قضية كثر فيها الجدل، واحتدم فيها الصراع، ونشأ عنها الخلاف الطويل بين رجال الكنيسة أنفسهم ومن اللحظة الأولى التى ابتدأت فيها المسيحية بالانحراف عن عقيدتها الأصلية الموحدة على يد بعض رجال الدين الذين تلبسوا بالمسيحية أمثال (بولس)، من تلك اللحظة بدأ الخلاف واحتدم الجدل حول أهم أركان العقيدة النصرانية، وهو ركن الألوهية والتوحيد، وبينما كان الجيل الأول من النصارى لا يعرف غير التوحيد الخالص لله تعالى، توالت أجيال من بعده احتكت بالفلسفة الإغريقية وبالوثنية الرومانية، وأصبحت تلك النظريات الفلسفية، تشكل قواعد اللاهوت المسيحى، ومن الطبيعى أن لا يتفق الناس جميعاً على الباطل والانحراف.. وحتى المتفقون على الباطل، لابد لهم أن يختلفوا لأن سبل الباطل متشعبة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(١).

وتعددت الآراء حول قضية الألوهية وطرحت عند النصارى فكرة تأليه المسيح - ﷺ - تلك الفكرة التى نشأ حولها الصراع الدامى الطويل بين النصارى، وانقسم النصارى بين مؤيد للفكرة ومعارض لها، يقول الأستاذ (محمد فريد وجدى): كانت الكنائس النصرانية فى الجيل الرابع متوزعة بين حزبين؛ أحدهما يقر بإلهية المسيح والآخر ينكرها)(٢).

---

(١) سورة الأنعام: ص١٥٢.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى: ١٠/ ٢٠٢.

ولا شك أن كل حزب من هذين الحزبين، كان يحتوى فرقاً متعددة، ونحن لن نحاول استقصاء الفرق، والأراء التى ظهرت حول طبيعة السيد المسيح، ولكننا نتحدث عن أهم تلك الفرق، أو بالأحرى ذات الأثر الكبير فى تاريخ النصرانية، وسنسلط الأضواء على الفرق الموحدة التى عارضت موجة الانحراف والتأليه، ومن خلال حديثنا عنها سنرى موقف رجال الكنيسة المعارضين لهم، وبذلك يظهر لنا دورهم فى إقرار الإنحراف.

الحركة الأريوسية

وأبرز الفرق التى عارضت تأليه المسيح، فرقة الأريوسيين التى يعتبرها النصارى فرقة خارجة عن النصرانية، ويعتبرون حركتها أخطر حركة فى تاريخ الكنيسة، ويصفونها بالهرطقة[1].

يقول (ودل ديورانت): (أثناء حكم قسطنطين شهدت الإسكندرية قيام أخطر حركة إلحادية فى تاريخ الكنيسة، ذلك أن قساً مصرياً تقدم إلى أسقفه حوالى عام (٣١٨م) بأراء غريبة عن طبيعة المسيح)[2].

ونحن هنا سنقف قليلاً مع (آريوس)[3] لنتعرف على نشأته وأفكاره ونسير معه إلى (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) باعتباره ما عقد إلا لأجله، وسنرى من خلال رحلتنا هذه كيف قضى رجال الدين المنحرفون على هذه الحركة بسلطتهم الدينية، تعاونهم سلطة الإمبراطور التى تدخلت فعلياً لإقرار الانحراف، والقضاء على الحركة الأريوسية، وبذلك انتصرت الكنيسة الكاثوليكية، وأقرت التثليث الذى فرض على النصارى، فقضت على الموحدين، وأحرقت كتبهم، وما

---

(١) الهرطقة او الأرطقة كلمة يونانية من (artic) بمعنى الكفر تطلقها الكنيسة الكاثوليكية على كل مخالفيها.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٢.

(٣) آريوس: ولد فى ليبيا القيروان سنة ٢٧٠م ودخل فى شبابه المدرسة اللاهوتية بالإسكندرية ثم رشحه البابا (بطرس) بطريرك الإسكندرية شماساً سنة ٢٠٧م ثم قساً وواعظاً وكان ذكياً فصيحاً.

انظر: تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١/ ١٥٠، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٨م.

بقى للأجيال سوى عقيدة التثليث التى يؤمن بها النصارى على اختلاف فرقهم.

والمراجع المسيحية كلها تتحدث عن (آريوس) عند حديثها عن الزندقة والإلحاد فى المسيحية، لذلك فإن كتبه ورسائله التى بين بها أراءه قد حكم عليها بالإعدام، فلم يصلنا منها شيء، ولولا ما دون عن أخباره وأرائه فى الكتب التى ردت عليه لما عرفنا عنه شيئاً.

صفاته:

ونحاول أن نتتبع صفات آريوس لنتعرف من خلالها على شخصيته، يقول الدكتور (أسد رستم): (وكان آريوس فيما يظهر عالماً زاهداً متقشفاً يجيد الوعظ والإرشاد فالتفّ حوله عدد من المؤمنين، وانضم إليه عدد كبير من رجال (الإكليروس) الذين وجدوا فى وعظه غذاء للنفوس فآثروا الإصغاء إليه)[1].

هذا ما وصفه به المؤرخ الدكتور أسد رستم، وهو مسيحى بل هو مؤرخ كنيسة انطاكية.

ويصفه مؤرخ كاثوليكى وصفاً كريماً فيقول: (كان آريوس طويل القامة نحيل الجسم، وذا مظهر تبدو فيه آثارخشونة العيش، وكان معروفاً بأنه من الزهاد، وكان له بين رجال الدين عدد من المؤيدين)[2].

وبناء على ذلك فإن (آريوس) نشأ فى بيئة مسيحية خالصة، درس اللاهوت فى الإسكندرية منذ ريعان شبابه، واهتم بالمسائل الدينية، وعرف بالتقوى والزهد والتقشف، فعيّنه بطريرك الإسكندرية شماساً ثم قساً وواعظاً، ووصف بأنه كان ذكياً فصيحاً يجيد الوعظ والإرشاد، واستطاع بأسلوبه الحكيم، وبما أوتى من قدرة وعظية أن يستميل لفكرته كثيراً من المؤيدين، معظمهم من رجال الدين المطلعين عليه، وإنا لنلمس من خلال هذه الأوصاف التى يصفه بها كتاب مسيحيون مناوئون له، القوة والمنطق فى آرائه، فهو أولاً: رجل دين مطلع عاش

---

(١) كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، د. أسد رستم: ١/١٩٣، نشر دار النور - بيروت.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٣٩٢.

المسألة فى الكنيسة، ودرسها، وكان من الذين يجوز لهم الإطلاع على جميع الكتب الدينية الموجودة. كما عرف بزهده وتقواه، وهذا يشير إلى إخلاصه وعدم اتهامه بالزندقة وغيرها.. أضف إلى ذلك كله صموده وصبره الطويل أمام رجل الدين المنحرفين، وأمام الإمبراطور نفسه بجبروته وعظمته. إن وقفته الصامدة ومواجهته لكل الضغوط، إنما يدل دلالة واضحة على صدق ما جاء به، ولذلك فقد كثر أتباعه وصبروا معه، ولاقوا العذاب والاضطهاد فى سبيل ذلك، لأنهم يؤمنون أنهم على حق، وهذا شأن أصحاب العقائد المخلصين فى دعوتهم.

وإن الدارس لحركة (آريوس) وجهاده الطويل ليدرك فداحة الجريمة التى ارتكبها بعض رجال الدين الذين آثروا مناصبهم، وآثروا إرضاء الدولة الرومانية الوثنية، فباعوا دينهم بدنياهم ووقفوا ضد (آريوس)، وحركته، وهم موقنون بقرارة نفوسهم صحة آرائه.

أما عن أرائه فلقد أسلفت من قبل أن رسائله التى أوضح فيها أراءه، لم تصلنا، وما نقله المؤرخون عن عقيدته إنما كان مصدرهم فيه الكتب التى ردت عليه.

يقول الدكتور (أسد رستم): (ولسنا نعلم الشىء الكثير عن آريوس هذا.. وقد ضاعت رسائله ولم يبق منها إلاّ مقتطفات يسيرة، جاءت فى بعض الردود عليه)[1].

ومع ذلك فقد حوت هذه الكتب خلاصة عقيدته، وإن كنا نود لو أننا عثرنا على هذه الرسائل، لأن ما من شك أنها حوت شروحاً كثيرة من عقيدته، لم تتضمنها كتب الذين ردّوا عليه.

وقد لخّص زكى شنودة عقيدة (آريوس) وآراءه فقال: (إنه يؤمن بإله واحد متعال، يفوق حد التصور منطو على نفسه، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتاً بأى شىء له نهاية، وهو فريد لا شبيه له، أزلى لا بداية له، صالح، هو وحده

---

(١) الروم، أسد رستم: ٥٦/١.

سبحانه ينفرد بهذه الصفات، وعندما شاءت إرادته أن يخلق عالماً ذا نهاية احتاج إلى وسيط، ولم يكن فى هذا الوسيط قوة خالقة، وإنما كان عاملاً بسيطاً علمه الأب كيفية القيام بهذه المهمة. وهذا الوسيط لم يأت من عند الأب بأن صدر عنه أو انحدر منه، بل خلقه الأب خلقاً، فهو إذن غير أزلى، وهو مخلوق مثل باقى المخلوقات، ولا يمتاز عنها إلا بكونه خلق قبلها، وبأنه كان الواسطة التى استخدمها الله فى عملية الخلق، ثم بعد ذلك فى عملية الفداء، وهو ليس مساوياً للأب فى الجوهر، بل بالعكس تتغير طبيعته مثل أى مخلوق، وهو كأى مخلوق أيضاً قادر على عمل الخير والشر.. وهو أيضاً: معرض للخطأ، ولا يستطيع أن يحيط بكل شىء)[1].

هذا ما نقله لنا صاحب موسوعة تاريخ الأقباط عن عقيدة (آريوس) وما كتبه الدكتور أسد رستم وغيره شبيه بذلك.

ولعل من تمام الفائدة أن نذكر المناظرة التى جرت بين (آريوس) وبين (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية بحضور الإمبراطور (قسطنطين) فى مجمع (نيقية سنة ٣٢٥م)، وهذه المناظرة تعتبر المصدر الأصلى الوحيد لبيان عقيدة آريوس كما يذكر الدكتور أسد رستم[2].

وقد أورد صاحب (تاريخ الأقباط) هذه المناظرة، وقد دارت المناقشة بعد أن رأس الإمبراطور المجمع وطلب من (آريوس) أن يشرح مذهبه فقال: (إن الابن ليس مساوياً للأب فى الأزلية، وليس من جوهره وقد كان الأب فى الأصل وحيداً، فأخرج الابن من العدم بإرادته، والأب لا يمكن أن يراه أو يكفئه أحد، ولا حتى الابن، لأن الذى له بداية لا يعرف الأزلى)[3].

قال آريوس هذا بوضوح وصراحة أمام مؤيديه، ومخالفيه من رجالات الكنيسة، وأمام الإمبراطور نفسه، رغم أن هذه الآراء لم تُرض الإمبراطور إلاَّ

(١) تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١/١٥١.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٦.

(٣) تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١/ ١٥٤.

أنه لم يستطع الرد عليها، لقلة علمه بالنصرانية علماً، عندئذ يأتى دور المنافقين الذين يعيشون دائماً على فتات موائد السلاطين لينتصروا لرأى السلطان، ولو كان باطلاً حتى لو كان ذلك على حساب دينهم.

يقول زكى شنودة: فتصدى له (أثناسيوس) رئيس شمامسة الإسكندرية، ودارت بينهما هذه المناظرة[1]:

آريوس: إن سليمان الحكيم تكلم بلسان المسيح قائلاً (خلقنى أول طرقة).

أثناسيوس: معنى خلقنى هنا ولدنى.

آريوس: إن الابن قال (أبى أعظم منى)[2]، فالابن إذن أصغر من الأب ولا يساويه فى الجوهر.

أثناسيوس: إن الابن دون الأب لكنه تجسد... أى أنه بناسوته يمضى إلى الأب الذى هو أعظم من ناسوت الابن، وإلاً كيف يتكلم بلاهوته! إنه يمضى إلى الأب حال كونه فى حضن الأب.

آريوس: إن المسيح نسب لذاته لعدم معرفة ساعة الدينونة بقوله لتلاميذه: (أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد، ولا ملائكة السماوات ولا الابن إلاّ الأب وحده)[3].

فإذا كان الابن لا يعرف وقت الدينونة فكيف يكون إلهاً؟

أثناسيوس: إن المسيح قال ذلك لتلاميذه لئلا يسألوه عن هذا السر الذى لا يجوز لهم أن يطلعوا عليه.

آريوس: إن المسيح قال: (أنا لا أقدر أن أصنع مشيئتى بل مشيئة الذى أرسلنى)[4]، فهو إذن عبد للأب ودونه.

أثناسيوس: إن المسيح تكلم من مواضيع كثيرة بحسب كونه إلهاً صار إنساناً

---

(١) نفس المرجع : ١/ ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) يوحنا: ١٤/ ٢٨.
(٣) متى: ٢٤/٣٦.
(٤) يوحنا: ٤/٣٤.

كقوله: (إلهى إلهى لماذا تركتنى)[١].

(إنى صاعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم)[٢].

وبصفته إلهاً كقوله: (من رآنى فقد رأى الذى أرسلنى)[٣].

وقوله: (أنا فى الأب والأب فى)[٤].



هذه مقتطفات من المناظرة التى دارت بين (آريوس) وبين (أثناسيوس) رئيس شماسة الإسكندرية، ويصفه (ول ديورانت) بأنه البليغ المشاكس الذى جاء به (الكسندر) بطريرك الإسكندرية ليقطع لسانه معارضيه)[٥].

ولا شك أنها مقتطفات مبتورة، ولابد أنها تعرضت لشىء من التزوير، لأنها وصلت إلينا عن طريق مؤرخين مسيحيين معارضين لأريوس.

ومع هذا فإن قوة المنطق تبرز من خلال كلام (آريوس)، ولذلك فإن صاحب قصة الحضارة يشهد لإجابات (آريوس) بأنها (منطقية صريحة قاطعة، وقد سلم (أثناسيوس) بما فى تصوير أشخاص ثلاثة فى صورة إله واحد من صعوبة، ولكنه قال بأن العقل يجب أن يخضع لما فى الثالوث من خفاء وغموض)[٦].

ومن خلال هذه المناظرة، وما أسلفنا من بيان عقيدة آريوس، نستطيع أن نحدد عناصر عقيدته بالأركان التالية:

١ ـ وحدانية الله تعالى بذاته وصفاته.

٢ ـ الله تعالى أزلى لا بداية له.

٣ ـ احتياج الله إلى وسيط ليخلق العالم.

---

(١) متى: ٢٧/ ٤٦.
(٢) يوحنا: ١٧/٢٠.
(٣) يوحنا: ٤٥/١٢.
(٤) يوحنا: ٢١/١٧.
(٥) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٥.
(٦) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٥.

٤ ـ الوسيط هو المسيح (الابن) فهو مخلوق غير أزلى غير مساوٍ للأب فى الجوهر وبذلك أنكر ألوهية المسيح.

٥ ـ الابن عند الأب ودون لا يعرف وقت الدينونة.

وتكاد هذه العناصر بعقيدة آريوس تشابه نظرة الإسلام لشخصية المسيح ـ ﷺ ـ، والعقيدة فى الله تعالى.. ولكنها تخالف الإسلام بمسألة الوسيط الذى احتاج الله إليه ليشاركه فى الخلق، والإسلام نزّه الله تعالى عن الشريك.

مقاومة رجال الكنيسة لآريوس:

بدأت مقاومة (آريوس) من قبل رئيس كنيسة (ألكسندروس) يقول أسد رستم: (وعلم «ألكسندروس) بما علم آريوس ومنعه عما كان يعلم به)[١].

لكن آريوس استمر بدعوته نشيطاً، واستطاع أن يكسب أعداداً كبيرة من رجال الدين، وكثر مؤيده من الأساقفة خارج مصر (وبين هؤلاء أساقفة كل من: نيقوميدية قيصرية فلسطين، بيسان، اللد، صور، بيروت، اللاذقية، عين زرية فى فلقيلية).

وتبعه عدد كبير من غير الأساقفة، وكان هذا التأييد دافعاً قوياً لآريوس للاستمرار بدعوته وحركته.

وعندما رفض (آريوس) أوامر سيده (ألكسندروس) الذى نهاه عن أقواله (استدعى أسقف الإسكندرية بعض الأساقفة وألفوا مجمعاً حرموا فيه (آريوس) ومذهبه، فقام آريوس وجمع مجمعاً حضره كثير من الأساقفة أثبت فيه مذهب وحرم من خالفه)[٢].

لكن يبدو من كلام (أسد رستم) أن آريوس لم يتمكن من عقد مجمعه فى الإسكندرية، لأن ألكسندروس تمكّن من نفيه، ونفى أسقفين وستة قساوسة وستة شمامسة معه، فقصد قيصرية فلسطين، وكان أسقفها (افسابيوس

(١) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم: ١/١٩٣.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى: ١٠/٢٠٣.

المؤرخ) يؤيد مذهب (آريوس) لكنه لا يجاهر به، ثم ذهب آريوس إلى نيقوميدية، وأقنع أسقفها برأيه، فعقد مجمعاً محلياً اتخذ فيه قراراً بوجوب قبول (آريوس) وجماعته ووجوب الكتابة إلى (ألكسندروس) ليرفع عنهم الحرمان، وكلف المجمع (آريوس) أن يكتب ذلك، فكتب رسالة دعاها (التالية) ضمنها آراءه فى الثالوث فراجت رواجاً ملموساً)[1].

وبعثوا الكتاب إلى أسقف الإسكندرية (لكنه رفض ذلك فاجتمع بعض الأساقفة الأنطاكيين فى قيصرية فلسطين، ومنحوا آريوس وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار)[2].

وهذا يدل على الرواج السريع الذى لاقته فكرة آريوس بين الأوساط المسيحية التى لازالت ليومها لم تتحرف كثيراً عن التوحيد.

ومع هذا الرواج الملموس لم تعد القضية خلافاً بين آريوس وألكسندروس فحسب، بل باتت مشكلة خلافية تهدد أمن الإمبراطورية الرومانية وسلطة الكنيسة.

إن أفكار (آريوس) أدت إلى انقسامه رجال الدين إلى فريق مؤيد له ولأفكاره التوحيدية، وفريق مؤيد لألكسندروس وأرائه المؤلهة واحتدام الصراع، (وترددت فى المدائن أصداء الضجيج، والاضطرابات حتى كان المسيحى كما يقول (يوسيبوس): موضع السخرية الدنسة من الوثنيين حتى فى دور التمثيل نفسها)[3].

وكان هذا الخلاف موضع اهتمام الإمبراطور (قسطنطين)، الذى كان يهمه بالدرجة الأولى أمن دولته واستقرارها. وهو الذى اعتنق النصرانية أصلاً لهذا الفرض، كما يميل كثير من المؤرخين. فهيأ الأمور لعقد مؤتمر دينى كبير يضم رجال الدين من كافة أنحاء الدولة فكان (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م).

(١) كنيسة مدينة الله، د. أسد رستم: ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) نفس المرجع: ١/ ١٩٦.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٢٩٢.

وقـد حـاول الإمـبـراطور من قـبل إنهـاء الخـلاف، فـبـعث إلى كل من (الكسندروس) و(آريوس) بوجوب التآلف ونبذ الخصام، وكما يقول أسد رستم: (فـإن الإمـبـراطور ألح فى كـتـبـه إلى وجـوب طـاعـة الرئيس، وأشـار إلى أن الاختلاف العقائدى أمر فلسفى دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام)[1].

وبذلك يصرح الإمبراطور قسطنطين أن الأمور الدينية أمور فلسفية دقيقة لا أهمية لها.

وقد عقد الإمبراطور (مجمع نيقية سنة ٣٢٥م) بناء على اقتراح تقدم به (هوسـيـوس) أسـقف إسـبـانيـا الذى أرسله الإمـبـراطور لحل القـضـيـة فى الإسكندرية بين آريوس ورئيسه، فلم يفلح)[2].

وجّه الإمبراطور الدعوة إلى جميع الأساقفة فى الدولة الرومانية، وعيّن نيقية مركز الاجتماع.

أما عن عدد الذين حضروا هذا المجمع فتختلف الروايات التاريخية فى ذلك، فصاحب (قصة الحضارة) يذكر أن عدد الأساقفة لا يقل عن (٣١٨) أسقفاً يصحبهم حشد كبير من رجال الدين الأقل منهم درجة)[3].

وصاحب (تاريخ الأقباط) يذكر أنه قد حضر (٣١٨) أسقفاً من كل أنحاء العالم المسيحى، وفى مقدمتهم البابا (الكسندروس بطريرك الإسكندرية) وبصحبة أثناسيوس رئيس شمامسته، وأسقف إنطاكية، وأسقف قيصرية فلسطين، وأسقف القدس وحضر مع آريوس أتباعه أساقفة نيقوميدية، ونيقية، وفلقيدونية، ومعهم عدد من المفكرين والفلاسفة، وقد بلغ مجموع الحاضرين نحو الألفين)[4].

أما المؤرخ أسد رستم فيذكر عدة روايات فى عدد المجتمعين (فهم مائتان

---

(١) الروم، أسد رستم: ١/ ٥٧.   (٢) نفس المرجع: ص ٥٧.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٤.

(٤) تاريخ الأقباط، زكى شنودة: ١/ ١٥٤.

وسبعون من رواية (افستاتيوس) أسقف أنطاكية، وثلاثمائة فى عرف أثناسيوس الإسكندرى)[1].

كما يذكر فى كتابه «الروم»: (أنهم ثلاثمائة وثمانية عشر فى رواية القديس هيلاريوس)[2].

ويقول المؤرخ المسيحى ابن البطريق: (بعث الملك قسطنطين، فجمع البطاركة والأساقفة فاجتمع فى نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة)[3].

ويظهر لنا من مجموع هذه الروايات أن عدد المجتمعين كان يزيد على الألفين من رجال الدين من البطاركة والقساوسة وغيرهم.

افتتاح المؤتمر:

يذكر الدكتور أسد رستم أن المجمع افتتح فى العشرين من أيار سنة ٣٢٥م ودامت جلساته سبعة وتسعين يوماً[4].

واجتمع تحت رياسة (قسطنطين)، وافتتح هو المناقشات، كما يرجع ذلك صاحب (قصة الحضارة)[5].

وذهب كثير من المؤرخين إلى أن الإمبراطور تدخل فى قضايا النقاش وكان يفرض رأيه أحياناً، وقد نقل ذلك (أسد رستم) عن المؤرخ (افسابيوس) حيث يقول: (إن الإمبراطور تدخل مراراً فى البحث لإقرار السلم والوفاق) كما نقل قول (روفينوس): (إن بعض الفلاسفة الوثنيين حضروا الجلسات وناقشوا الأساقفة)[6].

مع أن أسد رستم المؤرخ المسيحى الذى يعتبر مؤرخ كنيسة أنطاكية لا تعجبه هذه الآراء، ويقول بأن رجال الاختصاص يردون هذين القولين)[7].

(١) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١/ ١٩٩.   (٢) الروم، أسد رستم: ٥٧/١.

(٣) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص١٢٨، الطبعة الثانية ١٢٨٥هـ مطبعة المدنى ـ القاهرة.

(٤) الروم، أسد رستم: ١/ ٥٧.   (٥) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٤.

(٦) كنيسة مدينة الله، أسدر رستم: ٢٠١/١.

(٧) نفس المرجع: ١/ ٢٠١.

لكن السرد التاريخى المجرد لأحداث المؤتمر تبين لنا اهتمام الإمبراطور بما كان يدور فيه من نقاش، وأنه استعمل سلطانه كإمبراطور لفرض الآراء المؤلهة التى دافع عنها الفلاسفة الوثنيون، والتى تعتبر أقرب إلى عقيدته الوثنية.

كما أن جو الرعب والخوف من السلطان كان يخيِّم على هذا المؤتمر لأن الإمبراطور منذ دخوله المؤتمر أعطى جوّ الهيبة هذا، ويصف لنا الأستاذ (رستم) المجتمعين وهم ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين، ثم أعطيت الإشارة بوصوله، فانتصبوا إحرام وإجلالاً، ودخل (قسطنطين) بالأرجوان والذهب ووراءه بعض الحاشية)[1].

ورغم اختلاف الروايات التاريخية فى عدد الأساقفة الذين أيدوا آريوس، إلاَّ أننا لو صدَّقنا بعض المؤرخين المسيحيين القائلين بأنه لم يؤيد (آريوس) سوى عشرين أسقفاً كما يقول (أسد رستم)[2] وسبعة عشر أسقفاً كما يقول (ول ديورانت)[3].

فإننا لا نعتبر ذلك دليلاً على أن جميع الأساقفة قد أيدوا التثليث، ودافعوا عنه، لأن العامل الأساسى لموقفهم هذا خوفهم من سلطان الإمبراطور، ويؤيد هذا ما أورده (ول ديورانت): «بأن خمسة من الأساقفة قد رفضوا التوقيع على الصيغة التى خرج بها الجميع ، نقضوا آخر الأمر إلى اثنين»[4].

والسبب واضح هو الخوف من بطش الإمبراطور، ومما لا شك فيه أننا لا نتوقع من جميع المخالفين أن يصبروا، ويضحوا بأنفسهم فى سبيل ما يعلمون صحته، وقليلون هم أولئك الناس الذين يزهدون بالحياة فى سبيل عقيدتهم.

على أن مـا يرويه المؤرخ (ابن البطريق)، يختلف تماماً عن هذه الروايات، فهو يتحدث طويلاً عن هذا المؤتمر، ويصف أحوال المجتمعين وآراءهم فيقول:

(١) نفس المرجع السابق: ١/٢٠٠.

(٢) الروم، أسد رستم: ١/٥٨.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/٢٩٥.

(٤) نفس المرجع: ص٢٩٦.

(إن منهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. ومنهم من كان يقول إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار، انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها، ومنهم من كان يقول: إن مريم لم تحبل به تسعة شهور، وإنما مرَّ فى بطنها كما يمرّ الماء فى الميزاب، ومنهم من كان يقول: إن المسيح قد خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية، وحلّت فيه المحبة والمشيئة، ولذلك سمى (ابن الله)... ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما، ومنهم من كن يقول: بألوهية المسيح وهى مقالة بولس الرسول ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً)[1].

ولقد سمع الإمبراطور كل هذه الأراء بالإضافة إلى رأى (آريوس) وأتباعه.

وعالج القضية من وجهتين:

الأولى: أن همَّه الرئيسى إزالة الخلاف الذى يهدد أمن الإمبراطورية.

الثانية: إرضاء غالبية شعب الإمبراطورية من الوثنيين إضافة إلى أن فكره لا يزال وثنياً.

وبناء على ذلك فقد رجح رأى الذين يقولون بألوهية المسيح، فصمم على أن ينجح هذا الرأى، وينتشر، وهو صاحب السلطة، فرأى بذكائه وحنكته أن يعقد مؤتمراً خاصاً للأساقفة الذين يمثلون هذا الرأى، وكانت عدتهم ثمانية عشر وثلاثمائة، وهذا ما قاله مؤرخهم (ابن البطريق) حيث يقول:

(وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر اسقفاً مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس فى وسطه، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه، فدفعها إليهم وقال لهم: قد سلطتكم اليوم على مملكتى لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية)[2].

---

(١) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص١٢٨.

(٢) محاضرات فى النصرانية، محمد ابو زهرة: ص١٢٩.

وخرج هذا المجمع بعدة قرارات كان منها قرار (تأليه المسيح)، أو ما سمى فيما بعد (وثيقة الأمانة) أو (قانون الإيمان النيقاوى).

على أن نص قانون الإيمان المعروف عند النصارى اليوم لم يكن كله فى مؤتمر نيقية، فقد تتابعت مجامع أخرى أضافت له نصوصاً. والتثليث لم يكتمل بشكله الحالى إلاَّ فى مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م وسيأتى ذكره إن شاء الله حيث كان فيه تأليه الروح القدس.

أما قرار مجمع نيقية، فهذا نصه كما أورده (الدكتور أسد رستم):

(نؤمن بإله واحد أب ضابط الكل، خالق كل ما يرى وما لا يرى، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد، مولود من الأب أى من جوهر الأب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق مساو للأب فى الجوهر الذى به كان كل شىء ما فى السماء وما فى الأرض، الذى لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل، وتجسد، وتأنس، وتألم، وقام فى اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وسيجىء ليدين الأحياء والأموات وبالروح القدس)[1].

وأقر هذا القانون وفرض على النصارى، رغم أن الذين وافقوا عليه - إرضاء للسلطان - ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً، من مجموع ألفين وثمانين وأربعين كما هى رواية ابن البطريق.

ولنا أن نتساءل... ماذا كان رأى الدين لم يؤخذ رأيهم؟ (على أن الرواة يقولون: إن آريوس لما اجتمع بهم، وألقى دعوته ونحلته إليهم انضم إلى رأيه من تلك النحل المختلفة)[2].

وبذلك حقق الإمبراطور هدفه فى التقريب بين النصرانية والوثنية وفى ذلك توحيد للأمة الرومانية كلها، وهذا ما يسعى إليه الإمبراطور.

---

(١) كنيسة مدينة الله، أسد رستم: ١/٢٠٢.

(٢) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص١٤٠.

أما مصير المعارضين، بعد ذلك فيكفى أنهم أصبحوا أعداء الدولة بعد أن كانوا فقط أعداء رجال الكنيسة.

لذلك، فإن (قسطنطين) طلب من المجلس الحكم على آريوس وعلى الأسقفين اللذين رفضا التوقيع على صيغة الأمانة، (فحكم المجلس على هذين الأسقفين وعلى آريوس الذى لم يتزحزح عن عقيدته أو يتوب، حكم عليهم باللعنة والحرمان، ونفاهم الإمبراطور من البلاد، وصدر مرسوم إمبراطورى يأمر بحرق كتب (آريوس) جميعها، ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالإعدام)[1]. شأن الطغاة فى كل عصر، يلجأون إلى القوة والبطش حين يعجزون عن مواجهة الحق بالمنطق والحجة.

واستعمل الإمبراطور كل ما يملك من وسائل القمع والإرهاب ضد الآريوسيين، وأتلف كتبهم ومنع تداولها حتى لا يطلع الناس على ما يمليه عليهم رجال الدين المنحرفون.

ورغم كل هذا فلقد بقى (آريوس) وأتباعه صامدين على عقيدتهم لهم ترهبهم قوة السطان، مع أننا لا ننكر أن لهذا المجمع أثراً عظيماً فى تثبيت قواعد عقيدة التثليث.

يقول المؤرخ (ول ديورانت): (ولكن الإمبراطور أخطأ إذ ظن أن النزاع قد وقف عند هذا الحد، غير أنه كان على حق حين اعتقد أنه خطا خطوة كبيرة فى سبيل وحدة الكنيسة... وكانت الكنيسة الكاثوليكية، وكانت فى الوقت نفسه إيذاناً باستبدال المسيحية بالوثنية وجعلها المظهر الدينى والعنصر القوى للإمبراطورية الرومانية)[2].

وبعد سنين متواصلة من مطاردة الأريوسيين، كان لآريوس فيها مؤيدون كثيرون منهم أساقفة كنائس (تمكن الأسقف الأريوسى (يوسيبيوس) أسقف

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٦.

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت: ١١/ ٣٩٦.

قيصرية فلسطين من إقناع الإمبراطور أنه لا فرق بين إيمان آريوس وإيمان المجمع، فأعاد الإمبراطور آريوس من منفاه وأرسله سنة ٣٣٠م إلى الإسكندرية)[1].

ويذكر ابن البطريق أن (يوسابيوس) استطاع أن يتقرب إلى الإمبراطور حتى جعله بطريرك القسطنطينية، فما أن ولى هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية فى الخفاء، فلما اجتمع المجلس الإقليمى فى صور، وحضره هو وبطريرك الإسكندرية الذى كان يمثل فكرة ألوهية المسيح ويدعو لها.. انتهز (يوسابيوس) فرصة ذلك الاجتماع، وأثار مقالة آريوس، وكان فى ذلك المجمع كثير من الموحدين.. فاشتد النقاش بين رئيس كنسية الإسكندرية وبين المجتمعين، ولم يكتفوا بالنقاش القولى، بل ضربوه حتى أدموه وكادوا أن يقتلوه)[2].

وهذا يبين لنا مدى حماسة الموحدين من المسيحيين، ونشاطهم فى دعوتهم، وفيه إشارة إلى أن معظم المسيحيين فى ذلك العصر كانوا من الموحدين، لأن التوحيد هو الأصل، وفكرة التثليث وألوهية المسيح حديثه عهد بهم، تبنتها ودافعت عنها كنيسة الإسكندرية المتأثرة بالمدرسة الأفلوطينيّة الحديثة التى كانت أفكارها تسيطر على الإسكندرية فى ذلك الوقت، وكانت تؤمن بنظرية التثليث الفلسفية التى تحدثنا عنها من قبل.

يقول ابن البطريق: (فى ذلك العصر غلبت مقالة آريوس على القسطنطينية وأنطاكية وبابل)، ويقول: بأن الأريوسيين تغلبوا على كنائس مصر والإسكندرية ووثبوا على (أثناسيوس) بطريرك الإسكندرية (الذى كان رئيس شمامسة ألكسندروس) ليقتلوه، فهرب منهم واختفى، وكذلك وثب أهل بيت المقدس ومن كان منهم أريوسياً على (كوريس) أسقف بيت المقدس ليقتلوه فهرب منهم، فصيَّروا (أراقليوس) أسقفاً على بيت المقدس وكان أريوسيا)[3].

---

(١) الروم، أسد رستم: ١/ ٦١.

(٢) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة: ص١٤٢.

(٣) محاضرات فى النصرانية، محمد أبو زهرة، ص١٤٥.

وفاة آريوس:

(أما «آريوست» نفسه فقد عفا عنه الإمبراطور بعد النفى الطويل، وعاد إلى الإسكندرية فاستقبله الناس باحتفال عظيم، وحملوه على أكفهم، فمات فجاة وسط هذا الفرح العظيم، فاتخذ خصومه ذلك حجة على أنه مبطل)[1].

ويذكر محمد فريد وجدى: (أن القضية فيما بعد أصبحت بين الكنائس الغربية والشرقية، حيث غلب على الغربية طابع التأليه، وعلى الشرقية طابع التوحيد، وعقدت كل من الكنيستين مجامع محلية حرمت بها الأخرى)[2].

وبعد هذا الحديث عن (مجمع نيقية) ونتائجه، نود الإشارة إلى بقية المجامع المسيحية التى تلت هذا المجمع، نتبين من خلالها أسباب انعقاد هذه المجامع وخطورتها على عقيدة التوحيد، لأن هذه المجامع هى مصدر الانحراف الأساسى، فما من عقيدة يؤمن بها النصارى اليوم إلاَّ وقد أقرَّت فى أحد هذه المجامع وما من انحراف حدث إلاَّ بموافقة أحدها عليه.

وما من مضايقة على الموحدين إلاَّ وقد أقرَّت من قبل فى مجمع منها.

ولقد كانت هذه المجامع تستعمل أداة بيد السلطان، أو رجال الدين لضرب الحركات التصيحيحية فى المسيحية.. فهى التى أمدَّت فى عمر التثليث، وسيظهر لنا من خلال هذه النظرة السريعة لهذه المجامع وفى المجمع الثانى (القسنطينية سنة ٣٨١م) ألهوا روح القدس، وفى المجمع الثالث (افسس الأول سنة ٤٣١م) ثم تأليه مريم العذراء باعتبارها والدة الإله، كما أن أحد هذه المجامع (مجمع روما سنة ١٨٦٩) قرر عصمة البابا، وغيره منع الكنيسة حق الغفران والحرمان.

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدى: ٢٠٢/١٠.

(٢) انظر المرجع السابق: ص٢٠٤.

عيدة التوحيد بعد المسيح

المبحث الأول
الاضطهادات وأثرها فى العقيدة المسيحية

تمهيد

أن المسيحية فى عهد المسيح - عليه السلام - لم تخرج عن عقيدة التوحيد التى دعا إليها المسيح، وسجلت الأناجيل الكثيرة من أقواله - عليه السلام - التى التزمت بعقيدة التوحيد، وسار الحواريون على دربه وعلى نسق عقيدته، ولقد أثنى القرآن الكريم على هؤلاء الحواريين، وطلب من المؤمنين أن يقتدوا بهم فى نصرة دين الله قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ . . . ﴾[1]. وكان إيمان الحواريين يرتفع كلما بدأت علامات الكفر تظهر على أبناء البيئة اليهودية وفى عهد المسيح - عليه السلام - وسجلت آيات القرآن موقف الحواريين من قضية التوحيد فى سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2].

ويقى هذا الإيمان بعقيدة التوحيد بعد المسيح فترة ليست بالقصيرة ولكنه كان يظهر قليلاً ويختفى كثيراً، والسبب فى ذلك هو ما ذكرته المصادر العلمية، شرقية وغربية، دينية وغير دينية - من أن هؤلاء الموحدين نزلت بهم بلايا وكوارث جعلتهم يستخفون بعقيدتهم ويفرون بها أحياناً، ويصمدون للمضطهدين

(١) سورة الصف: آية ١٤.

(٢) سورة آل عمران: آية ٥٢.

مستشهدين فى سبيل بقاء عقيدة التوحيد نقية أحياناً أخرى، والذى يجب التنبيه عليه أن كتبهم ورسائلهم كانت تسجل خلال هذه الاضطهادات؛ مما كان له الأثر الواضح فى تغيير معالم العقيدة فيما بعد.

بداية الاضطهاد وأسبابه

لقد بدأ اضطهاد الموحدين من المسيحيين منذ عهد مبكر، وكان المسيح - ﷺ - هو ضحية هذا الاضطهاد الذى انتهى بالحادث المزعوم حادث الصلب «كما يدعون»، وقد نزل بأتباعه فى عهده ومن بعده ما نزل به من العنف والظلم، وكان اليهود مصدر هذه القسوة؛ لأن أتباع المسيح كانوا يريدون نشر عقيدة التوحيد، الأمر الذى لم يقبله اليهود، ولكن المسيحية بدأت على الرغم من اليهود وغلبتهم على أمرهم، وحينئذ تقدم أباطرة الرومان لاضطهاد المسيحيين ولكن...

ما هو سبب الاضطهاد؟

يقول الأستاذ أحمد شلبى عن سبب الاضطهاد: (إن هؤلاء الأباطرة كانوا لا يعرفون الأمر الدينى الجديد إلا أنه امتداد لليهودية، وكانت هذه موضع كراهية من الوثنين)[1]. ويبدو أن اليهود كان لهم فى كل واد فعلة، الأمر الذى جعل الأباطرة يحذرونهم حتى ولو دعوهم إلى وحدانية الخالق.

ويذكر الدكتور توفيق الطويل سبباً آخر مبنياً فى فحواه على هذا السبب، فيقول: (ومما أثار حقد الرومان على المسيحية أنها أخذت من اليهودية تعصبها، فأعلنت - حتى فى عهود ضعفها - أنها تناصب العقائد الأخرى العداء، وأنها ستعمل على إبادة المذاهب الفكرية الأخرى، وعلى تحطيم الإمبراطورية الرومانية عندما تتهيأ لها الفرصة)[2].

---

(١) انظر المسيحية ص٧١ د. أحمد شلبى.

(٢) الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام ص٢٢، ٢٤ د. توفيق الطويل.

ويبدو من وجهة نظرنا أن هذا السبب غير دقيق؛ لأن المسيحية حينما نعمت بطيب العيش، وتنزلت عليها سحائب الإطمئنان، لم تحطم الإمبراطورية الرومانية ولم تُبد المذاهب الفكرية، وإنما قبلتها وارتمت فى أحضانها، وخضعت لها فى كافة شمائرها وعقائدها، وسواء هذا الرأى وافقة الصواب أم لا. إلا أننا نرى أنفسنا بسبب هذا الاضطهاد أمام تحول خطير للعقيدة المسيحية جعل منها ديانة جديدة من نوع وثنى رومانى.

أشهر أنواع الاضطهاد ضد العقيدة المسيحية

ويتفق المؤرخون كما يقول ميشيل جرجس فى كتابه «الكنيسة المصرية» أن أشهر أنواع الاضطهاد التى وقعت للمسيحيين عامة والأقباط خاصة بدأت من منتصف القرن الأول إلى أوائل القرن الرابع هى الأربعة التالية:

١ ـ اضطهاد نيرون سنة ٦٤م.

٢ ـ اضطهاد ترجان سنة ١٠٦م.

٣ ـ اضطهاد ديسيوس سنة ٢٤٩ ـ ٢٥١م.

٤ ـ اضطهاد دقلديانوس سنة ٣٠٢م[١].

وعن عهد نيرون: يحدثنا الأستاذ زكى شنودة فيقول: (إن نيرون يضع بعض المسيحيين وهم أحياء فى جلود الحيوانات ويطرحهم للكلاب تنهشهم ويطلى بعضهم بالقار، وكان يمتع نفسه بمنظر أطفالهم والوحوش تمزقهم وتلتهم أشلاءهم[٢].

أما ترجان: (فكان يعتبر المسيحيين أنجاساً لا يسمح لهم بدخول الحمامات العامة، وكان يأمر ولاتهم بمنع المسيحيين من صلاتهم، ويجعلهم ينزلون بهم

---

(١) كتاب تاريخ الكنيسة المصرية، ميشيل جرجس، نقلاً عن كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص١٣٢ د. رؤوف شلبى.

(٢) تاريخ الأقباط ١/ ١٠١، زكى شنودة.

أشد أنواع العذاب، وقد أمر ترجان بمنع الاجتماعات السرية للمسيحيين، لأنهم كانوا لا يدينون بدين القيصر)[1].

أما ديسيوس: فيقول عنه زكى شنودة نقلاً عن أوسابيوس القيعرى (إنه فى فترة من فترات عهده قتل عشرة آلاف دفعة واحدة... حتى أن السيوف من كثرة ما استعملت فى ذلك اليوم تكسرت ولم تعد تقطع.

ويقول القديس ديونسيوس الرابع عشر وبطريق الإسكندرية آنذاك، يقول عن ذلك الاضطهاد: (إنه كان من الفظاعة حتى لقد كان كفيلاً بأن يزعزع أكثر المؤمنين استمساكاً وثباتاً)[2]. وما قاله صاحب تاريخ الأقباط عن هذا الاضطهاد يجعلنا نوافقه أن عقيدة المسيحية فى هذا العهد لا يمكن أن تستقر على المبدأ الأول الذى كانت عليه فى عهد المسيح ﷺ، وإذا سألنا عن موقف دقلديانوس تجاه هؤلاء المسيحيين فإننا نجده أدهى من سابقيه: (فقد بلغت قسوته بهؤلاء المسيحيين أنه أقسم ألا يكف عن قتلهم حتى تصل دماؤهم إلى ركبة فرسه، وفعلاً نفذ عزمه وراح يطوف بفرسه فى بحر من دماء الشهداء)[3] على تعبير زكى شنودة. ولقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم على المسيحيين حتى جاء عهد قسطنطين، فكان يمناً وبركةً على المسيحيين لا على المسيح كما سنبين إن شاء الله.

أثر الاضطهادات على العقيدة المسيحية

إن هذه الاضطهادات التى صاحبت العقيدة المسيحية فى بداية تكوينها لدليل واضح على أن المضطهدين كانت عقيدتهم هى العقيدة المسيحية وكانوا بها يتمسكون حتى ولو أدى ذلك إلى فدائها بالمهج والأرواح. ولما طردوا من أوطانهم بسببها بلغ من عشقهم لهذه العقيدة أن ينادوا بها بين أهل الرومان، ولكن الآخرين كانوا لا ينظرون إلى ديانة هؤلاء باعتبارها ديانة غريبة عن

(١) انظر الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام ص٢٥.

(٢) انظر تاريخ الأقباط: ١/ ١٠٩.

(٣) انظر تاريخ الأقباط ١/ ١٠٥.

بلادهم فحسب، بل كانوا ينظرون إليها على أن أصحابها يهوه أو من بلاد اليهود، ومن ثم فإنهم أهل مكر وخداع ولا يقبل أن يؤخذ الدين من ماكر وخداع، بيد أن المبشرين الجدد تناسَوا هذا الحقد من قبل الرومان، وبدؤوا يقبلون كل الشعائر الوثنية لتقريب الرومان إليهم، وأغلب الظن - كما يقول الأستاذ محمد مجدى مرجان -: (أن هؤلاء المبشرين كانوا حسنى النية، وقد رأوا أن هذه هى الطريقة الوحيدة لتقريب الديانة المسيحية إلى أذهان الوثنيين، ومع مرور الزمن ستتطهر وتعود إلى صفائها... ولكن الواقع الأليم أن الذى حدث هو العكس، فقد تغلبت الوثنية وطمست رسالة المسيح)[1].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إننا نرى أن هذه الاضطهادات كانت ذات أثر واضح على المصادر المسيحية بعد المسيح، فقد كتبت الأناجيل ورسائل بولس فى هذه العهود المظلمة، الأمر الذى أدى إلى فقدان سندها المتصل برسول المسيحية - ﷺ -، وعن ضياع هذا السند يقول شارل جنيبير: (إن أولى الصعاب التى تعترض الأناجيل نجدها فى النصوص التى تمتاز عن سائر النصوص الأخرى بضعف السند والاضطراب وعسر التحقيق)[2]. واعترف القساوسة أنفسهم بانقطاع هذا السند؛ لأنها دونت فى هذه العصور المظلمة. يقول الشيخ رحمة الله الهندى: (طلبنا مراراً من علمائهم الفحول السند المتصل فما قدروا عليه، واعتذر بعض القسيسين فى محفل المناظرة التى كانت بينى وبينهم فقال: إن سبب فقدان السند عندنا وقوع المصائب والفتن على المسيحيين إلى ثلاث مئة وثلاث عشرة سنة. وتفحصنا كتب الإسناد لهم فما رأينا فيها شيئاً غير الظن، يقولون بالظن ويتمسكون ببعض القرائن، وقد قلت: إن الظن لا يغنى شيئاً، فمادام لا يأتون بدليل شافٍ وسندٍ متصل فمجرد السمع يكفينا، وإيراد الدليل فى ذمتهم لا فى ذمتنا)[3].

(١) الله واحد أم ثالوث؟ ص٨٤، بتصرف.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص٢٣، ترجمة د. عبد الحليم محمود، ط دار المعارف.

(٣) إظهار الحق ١/٨٣ الشيخ رحمة الله الهندى، تحقيق د. أحمد حجازى السقا.

ومما سبق أقول: إن العقيدة المسيحية تزعزعت فى نفوس معتنقيها، وتقلب فى قلوبهم بعدما سمحوا للشعائر الوثنية بالتجول بينهم، الأمر الذى أدى إلى اختفاء عقيدة التوحيد بينهم، وحينما سجلوا كتبهم كانوا يسجلونها فى غرفات مظلمة، ولا تقبل النفس عقيدة سجلت فى الظلام، وقد تبين أنه لا يوجد سند عندهم لصحة العقيدة التى نادى بها المسيح. ويوجد عند المسلمين الدليل الواضح على عقيدة المسيح، وهو القرآن الكريم ذو السند المتصل بالرسول ﷺ.



المبحث الثانى
الفلسفة وأثرها على عقيدة التوحيد
بعد المسيح عليه السلام

التقت المسيحية بعد المسيح بالفلسفة، ولم يكن لقاؤهما لقاء عداوة وخصام، بل لقاء محبة وسلام، ولما كان الموحدون مغلوبين على أمرهم فى البلاد التى تاهوا فيها فإن الفلاسفة انتهزوا الفرصة وأرادوا تلقيح الديانة المسيحية بالفلسفة لتتمخض عن عقيدة جديدة تكون بعيدةً كل البعد عن عقيدة التوحيد التى نادى بها المسيح - عليه السلام -، ومع مرور الزمن كان لهم ما أرادوا، وكانت الغلبة للفلسفة، والضعف والهوان لأرباب عقيدة التوحيد. وينقل الشيخ محمد أبو زهرة عن فند لبند قوله: (إن الفلسفة استخدمت نظريات علوم اليونان لتهذيب الأراء الدينية وترتيبها، والتقدم بالشعور الدينى لوجود فكرة فى العالم تقنعه، فأوجدت نظماً دينيةً من قبيل ما وراء المادة تتفق مع الأديان المتضادة اتفاقاً يختلف قلةً وكثرةً)[1]. وإذا علمنا أن الدين الذى وجد فى بلاد الرومان والذى استخدمت فيه الفلسفة نظرياتها لتهذيبه هو الدين المسيحى الناشئ آنذاك حق لنا أن نقول: إن المسيحية الموحدة بعد المسيح خضعت للكثير من نظريات هذه الفلسفة.

ويحكى التاريخ أن الأفلاطونية الحديثة سطت على العقيدة المسيحية، وقفزت فوق صدرها حتى أزهقت روحها، وأخرجت عقيدة التوحيد من نفوس أتباعها، وأحلت محلها نظريتها الوثنية بقيادة مدرسة الإسكندرية. ومن المعلوم أن نظريتها فى الإله تختلف عن عقيدة المسيح فى الإله؛ لأنها ترجع العالم فى تكوينه وتدبيره إلى ثلاثة عناصر أو ثالوث مقدس: (المنشئ الأول، والعقل الذى

(١) محاضرات فى النصرانية ص٣٤، دار الفكر العربى.

تولد منه كما يتولد الولد من أبيه، والروح الذى يتصل بكل حى ومنه الحياة. فإذا عبّرنا عن المنشيء الأول بالأب، وعن الروح بروح القدس ـ كما هو ثالوث النصارى الذى قررته المجامع، كما سيأتى ـ فإننا لا نخرج عن القول بأن المسيحية هى الأفلاطونية، والاختلاف بينهما فى الاسم فقط)[1].

وبناء على هذا الرأى يرجح الدكتور على عبد الواحد وافى القول: (بأن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن التأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة)[2]. ويتأكد ذلك من خلال ما نقله الدكتور عبد الرحمن بدوى عن بوستنيوس الذى قال: (إن الأفلاطونية المحدثة موجودة فى الآيات الأولى من إنجيل يوحنا، وكما أننا نجد أيضاً أن الكلمة تلقى نورها على الإنسان لمجرد ولادته سواءً أكان ذلك بعد المسيحية أم قبلها، فالكلمة إذن ظهرت قبل أن تتجسد وتأتى فى صورة المسيح، وعن طريق نور الكلمة ألقى النور فى الإنسان من قديم الزمان، ولو أنه كان ضئيلاً؛ لأن النور الكامل لم يظهر إلا بتجسد الكلمة فى المسيح، ولهذا فإن ما قال به القدماء من أشياء صحيحة لابد أن يعد صادراً عن الكلمة، ولما كانت الكلمة هى المسيح فإن ما قالوا به جاء متفقاً مع المسيحية أو مسيحياً)[3].

وهذا يعنى أن المسيحية لقحت حقاً بالفلسفة الوثنية القديمة، وأن من انتسبوا إلى المسيح قديماً من أمثال يوحنا صاحب الإنجيل وغيره قد استحسنوا هذا التلقيح الذى نجم عنه تلوث عقيدة التوحيد بالميكروب الوثنى، بل وظهور محاولات إبعاده نهائياً عن المسيحية من خلال قرارات المجامع التى اعترفت بهذه الفلسفة الوثنية وادعت ألوهية المسيح والروح القدس كما سيأتى فى حينه، إن شاء الله، ولكن يجب ألا نقطع بأن هذه المحاولات قد قبلها أتباع المسيح جميعاً فى القرون الأولى، بل ظهرت فئات وطوائف تدعو إلى نبذ هذه الفلسفة الوثنية والتمسك بعقيدة التوحيد التى جاء بها المسيح عليه السلام.

(١) محاضرات فى النصرانية ص٣٦، الإمام أبو زهرة، بتصرف.

(٢) الأسفار المقدس فى الأديان السابقة للإسلام ص١٢٩.

(٣) فلسفة العصور الوسطى ص١، د. عبد الرحمن بدوى، ط دار القلم، بيروت.

المبحث الثالث
بولس وموقفه من عقيدة التوحيد

لا يمكن لباحث فى المسيحية أن يغفل عن ذكر بولس (شاول)، الذى رقَّته المسيحية المثلثة إلى درجة رسول، والكثير من الباحثين يعتبره المؤسس الحقيقى للمسيحية بعد المسيح[1]، ومن ثم فلابد من ذكره حتى نعرف موقفه من عقيدة التوحيد التى سلمها المسيح لأتباعه من بعده، ولنترك بولس ذاته يتحدث عن..

المقطع الأول من حياته

يقول عن نفسه معرفاً: (أنا رجل يهودى، ولدت فى طرسوس كيليكية، ولكن ربيت فى هذه المدينة مؤدباً عند رجلى غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى)[2]. وهو بهذا يريد أن يُعرِّف سامعيه بأنه منذ نعومة أظفاره خاضع للناموس الذى نادى به المسيح، فهل هذا حق أم أن سيرته ستشهد على نقيض هذا الكلام؟ سنرى ويخبرنا شارل جنيبير عن طرسوس هذه قائلاً: (إنها تقع بين هضبة آسيا الصغرى والشام. وعن الأفكار التى كانت تجُلَب إليها بقول: إنها كانت سيلاً لا ينقطع من الأفكار والعقائد والتأثيرات المختلفة)[3].

أما عن العقائد التى وجدت فى هذه المدينة طرسوس فإن ول ديورانت يحدثنا عنها قائلاً: (إن طرسوس كانت كغيرها من المدن اليونانية، وبها الكثير من العقائد الخفية، فكان أهلها يعتقدون أن الإله الذى يعبدونه قد مات من أجلهم، ثم قام من قبره، وأنه إذ دعى بإيمان حق وصحب الدعاء بعض الطقوس

(١) اقصد بها المسيحية المثلثة التى ارست قواعدها المجامع.

(٢) أعمال الرسل ٢٢/٣.

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها ص٨١، شارل جنيبير، ترجمة د. عبد الحميد موسى.

الصحيحة استجاب لهم، وأنجاهم من الجحيم، وأشركهم معه فى موهبة الحياة الخالدة المباركة[1].

وهكذا نرى المقطع الأول من حياة بولس مليئاً بالأفكار والعقائد المختلفة التى تلقاها من غير بنى وطنه، فهو فى الأصل يهودى إلا أنه تربى تربية غير يهودية، ولكنه استطاع فيما بعد ـ كما يقول ديورانت أن يمزج مبادئ اليهود الأخلاقية بعقائد اليونانية فيما وراء الطبيعة)[2].

اعتناقه المسيحية

كان بولس من ألد أعداء المسيحية كما تشهد أعمال الرسل[3]، وفجأة يعتنق المسيحية إثر حلم يقول إنه رآه فغيَّر مجرى حياته كلها، وأصبح داعية المسيحية الأول، والمطوف بها شرقاً وغرباً والمتحمل فى سبيلها كل أذى واضطهاد، ويسوق أعمال الرسل حكاية اعتناقه للمسيحية فيقول: (وفى ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق فبغته برق حول نور من السماء فسقطت على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاول لماذا تضطهدنى؟ فقال: من أنت يا سيدى؟ فقال الرب: أنا يسوع الذى أنت تضطهده، صعب عليك أن ترفس مناخى، فقال وهو مرتعد ومتحير: يا رب ماذا تريد أن أفعل؟ فقال له الرب: قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغى أن تفعل)[4]. ودخل على التلاميذ وهم يعرفون عداءه (وحدثهم كيف أبصر الرب، وكيف جاء إلى دمشق باسم يسوع[5].

والحقيقة أن هذه القصة فى ذاتها تنبىء عن عقل مريض تميز به بولس، يمكن أن يقال إن به مرض لا شفاء له. ويصف شارل جنيبير هذه القصة: (بأنها نتجت عن أزمة نفسية وانتهت بقصة الرؤيا ليسوع، وكانت هذه الأزمنة

---

(١) انظرة قصة الحضارة ١١/ ٢٥٢ ترجمة محمد بدران.

(٢) انظر قصة الحضارة ١١/ ٢٥٢ ترجمة محمد بدران.

(٣) انظر أعمال الرسل: ٢٢.

(٤) انظر أعمال الرسل إصحاح ٩/ ٣-٦.

(٥) انظر أعمال الرسل إصحاح ٩/ ٢٧.

نتيجة لصراع داخلى مبهم طويل)[1]. ونوافقه بأنها أزمة نفسية، ولكننا لا نوافقه أن نهايتها كانت الرؤيا، فبولس لم ير المسيح فى حياته، فكيف به يراه بعد ذهابه؟ وكيف يقال إن الأزمة انتهت بالرؤيا؟ إن الأزمة بدات فى الحقيقة ببداية الرؤيا المزعومة، وكان من نتائجها ضياع ديانة المسيح، وإرساء قواعد المسيحية الجديدة باسم المسيح وحواريه، والشاهد على ذلك هو:

أعماله مع الحوارين «الموحدين»

يقول موريس بوكاى[2]: (بعد أن غادر المسيح الأرض، وحتى منتصف القرن الثانى ـ أى طيلة أكثر من قرن ـ كانت هناك معركة بين اتجاهين، أى بين ما يمكن تسميته بالمسيحية البولسية[3] وبين اليهودية المسيحية، ولم يحل الاتجاه الأول محل الثانى، ولم تنتصر البولسية على اليهودية إلا بشكل شديد التدرج)[4].

وهذا النص يكشف لنا النقاب عن أزمة بولس النفسية التى جعلته يكوّن طائفة غير موحدة تناهض كافة الموحدين بعد المسيح، وبلغت الجرأة ببولس انه كان ينظر إلى الشريعة الموسوية التى احتفظ بها المسيح نظرة سخرية واحتقار.

يقول الكردينال دانيلو فى مقال له: (إن اليهود المسيحيين الموحدين بسبب هذه النظرية انفصلوا تماماً عن بولس؛ لأن ديانة المعبد كانت أموراً باليةً فى نظر بولس وكان بولس، يرى أن المسيحية لابد أن تتحرر من انتمائها السياسى والدينى إلى اليهودية حتى تفتح ذراعيها لغير اليهود)[5]. وبناء على هذه النظرية يقول بوكاى: (إن اليهود المسيحيين كانوا يعتبرون بولس كخائن، وتصفه

---

(١) انظر المسيحية ونشاتها وتطورها ص٩.

(٢) هو طبيب فرنسى، واحد الذين عنوا بالدراسات العلمية ومقابلتها بالكتب المقدسة.

(٣) يقصد بوكاى بالمسيحية البولسية اى التى قامت على يد بولس لا المسيح، وهى المسيحية العالمية الثالوثية، أما اليهودية فهى التى تنتمى فى الحقيقة إلى المسيح، والتى لا تنبذ شيئاً من شرائع التوراة، ولم تقبل الانفتاح على عقائد العالم.

(٤) انظر القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص٧١.

(٥) انظر المصدر السابق ص٧١، ط دار المعارف.

وثائق يهودية مسيحية بالعدو، وتتهمه بتواطؤ تكتيكى، ولكن اليهودية المسيحية كانت تمثل حتى عام ٧٠م غالبة الكنيسة[١].

وبهذا يتبين لنا مدى الصراع الذى نشب بين بولس والموحدين، والذى لم يكن النصر فيه حليفاً لبولس، وكانت الغلبة فيه للموحدين «الحواريين».

بولس وموقفه من عقيدة التوحيد

والحقيقة أن الأزمة النفسية التى كان يمر بها بولس ـ رسول المسيحية فيما بعد ـ جعلته يتقبل بكل بساطة العقائد الوثنية التى كانت تحيط ببيئته، ويعرض بكل غرور عن عقيدة التوحيد، ورسائله شاهد إثبات على ذلك. يقول شارل جنيبير: (إن الدراسة المفصلة لرسائل بولس الكبرى[٢] تكشف لنا النقاب عن مزيج من الأفكار يبدو لأول وهلة أنها غريبة، فهى تجمع بين النصوص المقدسة القديمة وبين المفاهيم المنتشرة فى الأوساط الوثنية اليونانية، والأساطير الدينية الشرقية)[٣].

ومن المعلوم أن هذا المزج ساعدته فيه ثقافته القديمة فهو كان فى وسط يعتقد بالإله الإنسان والإله المصوب.. إلخ، وهو بفكره هذا بعيد عن الوسط المسيحى الأول، ولقد وجد بولس فى شخصية المسيح وفى الجو الذى تركه من بعده ما يصلح لأن يكون منه عقيدة جديدة تخالف عقيدة المسيح وحوارييه، فوجد فى ميلاد المسيح موقفاً يلتفت له الدهر، وفى معجزاته موقفاً يناظره موقف مولده، وفى موته وقيامته موقفاً ثالثاً، ومن خلال هذه المواقف يستطيع بحكم نشأته أن يكون عقيدةً جديدةً لدى البسطاء من الناس، خاصةً وأن لديه عقلاً يجمع بين اليهودية والرومانية، ومن خلالها يحقق ما يريد، فصور العقيدة الجديدة المناهضة لعقيدة التوحيد فى رسائله، واعتمدت المجامع المسيحية فيما

---

(١) انظر المصدر السابق ص٧١، دار المعارف.

(٢) يقصد جنيبير بالرسائل الكبرى أى الرسائل التى يجمع أكثر النقاد اليوم على صحة نسبتها إليه.

(٣) انظر المسيحية نشأتها وتطورها ص٩١ شارل جينبير، ترجمة د. عبد الحليم محمود.

بعد اعتماداً كلياً على هذه الرسائل ومصطلحاتها الغامضة.

يقول صاحب كتاب قصة الحضارة فى موسوعته هذه: (إن بولس أضاف إلى اللاهوت الشعبى الموسوى بعض آراء صوفية غامضة كانت قد ذاعت بين الناس بعد انتشار (سفر الحكمة) وفلسفة فيلون[1]، ومن ذلك قول بولس: (إن المسيح حكمة الله وابن الله الأول وبكر كل خليقة.. فإن فيه الكل... والكل به ولد قد خلق.. والذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل... وليس هو المسيح المنتظر «المسيا» اليهودى الذى سينجى إسرائيل من الأسر، بل هو الكلمة التى سينجى الناس كلهم بموته)[2]. وهذه الكلمات التى جمعها ديورانت من رسائل بولس، ووصفها بأنها مصطلحات غامضة جاءت إلى الناس من خلال أقوال فلسفية قديمة تكشف لنا عن هذا الفكر الذى تجول به بولس داخل العقيدة المسيحية. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى توضح لنا مدى العناد الذى يحمله بولس ضد المسيح وأقواله، فالمسيح حينما يقول: (بعثت لخراف بنى إسرائيل) نرى بولس يقول: (بل للناس أجمعين)، وحينما يقول المسيح: (أنا عبد الله ورسوله وإنسان وابن إنسان)، نرى بولس يقول: (بل أنت حكمة الله وابن الله الأول وبكر كل خليقة أنت الإله وفيك الكل والكل قد خلق لك وبك.. إلخ). وهو بهذا يريد أن يكوّن بالمسيح لا للمسيح عقيدةً جديدةً من نوع خاص؛ نوع فلسفى غريب على أتباع المسيح، لكنها تلبس ثوب المسيح ليتقبلها الناس فيما بعد. ولم يقتصر عمل بولس على مناهضته عقيدة التوحيد فحسب، بل حمل على شريعته وغيّر وألغى الكثير، كل ذلك ليُرضى أهل الوثن على حساب الديانة الجديدة.

ويُجمل الدكتور رؤوف شلبى موقف بولس من عقيدة المسيح وشريعته فيقول: (إن بولس هذا هو الذى أخرج ملة عيسى من ثوبها الطبيعى إلى ثوب

---

(١) هو فيلسوف يهودى من أكبر فلاسفة اليهود ولد سنة ٢٠ ق. م انظر كتاب المسيح فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٠٠، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

(٢) هذه الكلمات متناثرة فى جميع رسائله، وجمعها ول ديورانت هنا ليكشف بها موقف بولس من المسيح وعقيدته. انظر قصة الحضارة ١٢/ ٢٣٦.

جديد وهو الذى بدل وصف عيسى من ابن الإنسان الذى كان يطلقه عليه الحواريون إلى ابن الله، وهو الذى أصفى اختصاص ملة عيسى بشعبه اليهودى، وسمح للمشركين عامة بالدخول فيها، وأنه ألغى شريعة موسى فى الختان وكثيراً من الشرائع؛ إرضاءً للجدد من المشركين وبقية المجتمع اليونانى.. وأنه صاحب فضيحة الصلب والعشاء الربانى... إلخ)[1].

وبعد: فهذا هو بولس الذى تتخذه المسيحية الثالوثية رسولاً لها، وتؤمن بكافة أقواله ولا تعصى له أمراً، ولا أدرى لما كل هذا وهو الذى اعترف بأنه لم يقابل المسيح فى حياته ولم يتلقى على يديه مبادئ المسيحية، وأقواله مسجلة لهذا الاعتراف فى رسالته إلى أهل غلاطية: (وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذى بشرت به إنه ليس بحسب إنسان؛ لأنى لم أقبله من عند إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح)[2].

وهو بهذا يريد أن يقول أنه تلقى التعاليم من يسوع المسيح مباشرة، ولكن قصة دخوله المسيحية - كما حكاها هو فى أعمال الرسل - كانت بعد المسيح، ولا يقبل العقل السليم القول بأن المسيح أوحى إليه، ضوكل الذى استطاع أن يقوله كتّاب النصارى المنصفون للبحث العلمى من أمثال شارل جنيبير أنها أزمة نفسية، وليست قصة حقيقية، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً، ومن ثم فلا يصح التمسك بأقوال مريض نفسىٍّ، بل يجب ضربها وتحويل صاحبها إلى أقرب مستشفى عقلىٍّ إن صح التعبير، حتى لا تتمادى أقواله فى البيئة الإنسانية.

وخلاصة القول: إن بولس اليهودى النشأة، الرواقى الثقافة، الرومانى الفكرة، استطاع بكل دهاء وحيلة أن يُوجد فى المجتمع عقيدةً جديدةً تناهض عقيدة التوحيد فيما بعد، والناس فى عهده إزاء عقيدة التوحيد انقسموا إلى طائفتين: الأولى تؤيده، والثانية تؤيدها، فما هى هذه الطوائف؟

---

(١) يا أهل الكتاب تعالوا ص١٠٦.

(٢) رسائل بولس إلى أهل غلاطية عدد ١١، ١٢ الإصحاح الأول.

المبحث الرابع
عقيدة التوحيد بين الفرق المسيحية
قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م[1]

بدخول آراء بولس ابن الفلسفة وإعلانه القول بألوهية المسيح انقسم المجتمع إلى طائفتين؛ الأولى: تميل إلى فكره. والثانية: تؤيد عقيدة التوحيد وترفض قوله. وسأتحدث عن الطائفة الأولى ويمكن تسميتها بـ:

الطائفة البولسية؛ وهى تمثل الفرق التالية:

١ ـ فرقة التثليث. ٢ ـ فرقة إليان.

٣ ـ فرقة البربرانية. ٤ ـ فرقة مرقيون.

أولاً: فرقة التثليث

وهى الفقرة التى خضعت لأراء الأفلاطونية الحديثة (وذهبت إلى القول بأن الإله ثلاثة أقانيم؛ وهو الأب والابن وروح القدس، وأن الابن أو الكلمة هو المسيح، وكانت الإسكندرية من أشد الكنائس تعصباً لهذا المذهب الذى أصبح المذهب الرسمى المقرر لجميع الفرق المسيحية بعد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م)[2].

---

(١) هذا المجمع هو الذى حوّل المسيحية الموحدة بقرار سلطانى إلى مسيحية بولس الثالوثية.

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٢٢.

ثانياً: فرقة إليان

وهذه الفرقة بعدما سمت للشرك سمت أيضاً إلى تكوين رأى خاص بها تخالف به كل الفرق حتى ولو كانت قرينتها فى الشرق، وفى سبيل ذلك جنحت إلى هذا الرأى الذى ذكره الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» وفيه تقول: (إن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، لكنها مرت بها كالماء بالميزاب[1]، وما ظهر بها شخص المسيح فى الأعين فهو كالخيال والصورة فى المرآة وإلا فما كان جسماً متجسماً كثيفاً فى الحقيقة، وكذلك القتل والصلب إنما وقع على الخيال والحسبان، وهؤلاء يقال لهم الإليانية وهم قوم بالشام واليمن وأرمينية)[2].

ويفهم من كلام الشهرستانى عنها أنها انت تؤله المسيح وتجعله ابن الله، وتصور حقيقته فى هذه الصورة الخيالية وتدّعى أنه لم يوجد فى الحقيقة، وإنما الذى وُجد هو خياله وصورته، ونقول لهم: بمن إذن كنتم تؤمنون ـ كما تدّعون ـ بالمسيح أم بالصورة؟ إن كان إيمانكم بالمسيح فقد نقض قولكم، وإن كان بالصورة فلا إيمان لكم، وابحثوا لكم عن مسيح آخر يوجد بالحقيقة ـ ولنتركهم فى الخيال ـ لنرى.

ثالثاً: فرقة البربرانية

وهى تذهب أيضاً إلى القول بالوهية المسيح وأمه معاً، ويقرر ابن البطريق مذهب هذه الفرقة فيقول: (ومنهم من كان يقول إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية ويسمون المريميين)[3]. ويذهب الكثير من المسيحيين فى العصر الحديث إلى القول بأنه لم يقل أحد فى المسيحية عبر القرون بهذا القول، ولكن سعيد بن البطريق يرد عليهم بقوله هذا. ولقد كشف القرآن الكريم عن هذه الفرقة من خلال الحوار الذى دار بين المسيح وربه وسجلته

(١) الميزاب: القناة يجرى فيها الماء، من وزب الماء يزب وزوبا: سال، ويُجمع على ميازيب.

(٢) الملل والنحل ٢/ ٣٢ الشهرستانى.

(٣) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٢٦.

سورة المائدة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(١).

وبذلك يكون المسيح نابذاً لهذه الفرقة، ولقد نبّه الإسلام إلى تهافت هذه الفكرة التى طرأت على عقيدة المسيح فبرهن على دحضها ومن خلال برهانه حثّ المعقول على دفنها فقال سبحانه: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ...﴾(٢). وخليق بمن يأكل الطعام أن يكون فى احتياج إليه، فضلاً عما يعتريه منه، والإله ليس كذلك.

ويقول الأستاذ عبد الواحد وافى، وهو يؤرخ لهذه الفرقة قبل مجمع نيقية يقول: (وقد أوشكت هذه الفرقة على الانقراض فى نهاية المرحلة التى نتحدث عنها، وإن كان يبدو من ذكرها فى القرآن الكريم أنه كان لا يزال لمذهبها أتباع فى عهد الرسول - ﷺ - (القرن السابع الميلادى)(٣).

والناظر فى أعياد وطقوس المسيحية المعاصرة يرى أن العذراء لها نصيب من هذه الأعياد والطقوس، الأمر الذى يجعلنا نقول: إنه مازالت هناك رواسب وآثار لهذه الفرقة فى نفوسهم.

رابعاً: فرقة المرقيون

وهذه الفرقة: (تنتسب إلى مرقيون أو مرسيون وهو من رجال القرن الثانى الميلادى، وكان قسيساً ثم حكم عليه بالطرد والحرمان، ويقوم مذهبه على الاعتقاد بوجود إلهين؛ أحدهما: الإله العادل، أو الإله الخالق المهندس، وهوه الإله الذى اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً، وأنزل عليهم التوراة، والآخر: إله

(١) سورة المائدة آية ١١٦، ١١٧. (٢) سورة المائدة آية ٧٥.

(٣) الأسفار المقدسة للأديان المقدسة السابقة للإسلام ص١٢٢، د. على عبد الواحد وافى.

الخير الذى ظهر فى شخص المسيح، وخلّص الإنسانية من خطاياها، وكان للإله الأول السلطان على العالم حتى ظهر الإله الثانى، فبطلت جميع أعمال الإله الأول وزال سلطانه)[1]. وبالنظر فى أقوال هذه الفرقة يتبين لنا أنها مقتبسة فكرها من المذاهب الفارسية التى ذكرها الشهرستانى فى الملل والنّحل[2]، ويتبين انها تعتقد بوجود إلهين أحدهما للنور، والآخر للظلمة، ومن ثم فهى متأثرة بها، والإسلام دين الرحمة ينفى وجود إلهين فى العالم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[3]. وقال عز اسمه: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[4].

وإذا وجد إلهان فلابد من وجود خلاف بينهما، ولذا لا يستقر العالم، بل يزول، ولكن العالم بقى كما هو والذى زال هو أصحاب الفرقة حيث جاء فى كتاب الأسفار المقدسة للأديان السابقة للإسلام: (إن هذه الفرقة ظلت قوية حتى منتصف القرن الثالث ثم اضمحلت فيما بعد وانقرضت انقراضاً تاماً فى القرن العشرين)[5].

هذه هى أهم الفرق التى استقرت تحت راية الشرك، وتطاولت على مقام الألوهية، واتبعت الأراء البولسية الفلسفية، واقتبست للمسيحية أراء وثنية من هنا وهناك فجاءت فى صورة فكر مشتت لا يستقر على مبدأ ولا يدعو لحق ولكنه يصب فى النهاية فى مصب الفكر، ولما اكتشف الموحدون فى القرون الأولى هذه الآراء الدخيلة على عقيدتهم قابلوها بنقيضها، وأحيوا معتقد التوحيد الذى جاء به نبى الله عيسى عليه السلام، وكوّنوا فى سبيل ذلك جبهة مقابلة تضم العديد من الفرق الموحدة والتى يمكن تسميتها.

---

(١) انظر الأسفار المقدسة للأديان السابقة ص١٢١.

(٢) راجع آراء الديصانية والمرقيونية فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ١/٥٥، ٥٦، ٥٧.

(٣) سورة النحل آية ٥١. (٤) سورة الأنبياء آية ٢٩.

(٥) انظر كتاب الأسفاز المقدسة ص١٢٢، د. على عبد الواحد وافى.

طائفة الموحدين

ومن أهمها:

أولاً: فرقة البوليقانيون

وكان يقود حركتهم بولس الشمشاطى، وجاء قولهم على لسان ابن البطريق: (إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصْطُفِىَ ليكون مخلصاً للجوهر الإنسى، صحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة؛ ولذلك سمى ابن الله، ويقولون: إن الله جوهر واحد، واقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريك أنطاكية وهم البلقانيون)[1].

ويبدو من كلام ابن البطريق أن بولس وأتباعه لم يعرفوا عن المسيح سوى إنسان مخلوق بقدرة الله، وأن الله اصطفاه بالنبوة، وكانت تسميته بابن الله لا يقصد بها سوى التعبير المجازى وهو المحبة، وكانوا لا يعرفون عن الله إلا أنه واحد مسمى بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة التى قال بها الأليانية، ولا بروح القدس التى نطق بها أهل التثليث.

ومن الملاحظ أن مذهب هؤلاء سبق على لسان مؤرخ يؤمن بالثالوث، فجاء منطقه وتعبيره عن هؤلاء الموحدين بهذا السياق المذكور. أما إذا اتجهنا إلى ابن حزم المسلم فإنه يسوق عبارة بولس وأتباعه من الموحدين فى تعبير إسلامى واضح فيقول: (كان بولس بطريقياً بإنطاكية قبل ظهور النصرانية[2]، وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام خلقه الله فى بطن مريم من غير ذَكَر، وأنه إنسان لا إلهية فيه، وكان يقول: لا أدرى ما الكلمة ولا روح القدس)[3]. ولا فرق بين القولين إلا فى الصياغة.

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٣٦.

(٢) يعنى ابن حزم قبل ظهور عقيدة التثليث التى قُرِّرت من خلال المجامع.

(٣) انظر الفصل فى الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم الظاهرى ١/٣٩.

ثانياً: فرقة أبيون

وهى الفرقة التى أخذت على عاتقها محاربة بولس (شاول)، الذى ألغى شرائع موسى وأدعى فى نظير جعل النصرانية عالمية أن المسيح ليس هو المسيا المنتظر لدى اليهود، بل هو مخلّص العالم، وهو إله وابن إله ومن ثم وقف أتباع أبيون كما جاء فى كتاب الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، جبهة واحدةً (تقر جميع شرائع موسى، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عن أسفار العهد القديم، وتنكر ألوهية المسيح، وتعده مجرد بشر رسول، وكان لهذه الفرقة إنجيل خاص مدون باللغة الآرامية. وهو فيما يتعلق بشخص المسيح يتفق مع العقائد الإسلامية المستمدة من نصوص القرآن الكريم، وقد انقرضت هذه الفرقة فى أواخر القرن الرابع الميلادى)[1].

ومن المعروف أن الكثير من الأناجيل حكم عليها فيما بعد بالإعدام ومن خلال إعدامها ضاعت العقيدة الصحيحة وتخبط النصارى فى الثالوث المدعى.

ثالثاً: الأريوسيون[2]

وهى من أكبر الفرق الموحدة فى العهد الأول للمسيحية، شمّرت عن ساعديها، ونصّبت نفسها محامياً عن العقيدة، وأخذت تضرب الفرق البولسية بكل ما أوتيت من الحجج والبراهين، وأخذت على عاتقها إحياء معتقد التوحيد، وطرد الأقوال الدخيلة عليه. ويوم أن بدأ مذهب المساواة بين المسيح والإله يظهر على يد أورجنيس[3] وظهرت بدعة حلول الجزء الإلهى فى شخص عيسى

(١) انظر كتاب الأسفار المقدسة للأديان السابقة للإسلام ص١٠٨، ١٢٤.

(٢) نسبة إلى أريوس وهو قسيس فى كنيسة الإسكندرية، ليبى الأصل وعد عام (٢٧٠ وتوفى ٣٣٦) تاريخ الأقباط ١/١٥٠.

(٣) عاش ما بين القرن الثانى والثالث الميلادى (١٨٥ ـ ٢٥٤)، وكان يميل فى تفسيره للإنجيل إلى الأفلاطونية الحديثة: وكان يقول: إن المسيح كلمة الله، ولا يراد بالكلمة سوى العقل، فالمسيح عقل الله، والله وكلمته أزليان؛ لأن العقل الإنسانى فى اللحظة التى يتصور فيها وجود الله يتصور فيها وجود كلمته منه، فليس وجودها مسبوقاً بفترة من الزمان، وبناء عليه فعيسى إنسان إلهى مساوٍ للأب فى الوجود، انظر الجانب الإلهى هامش ص٧٤، وانظر ص٧٥، ٧٦.

الإنسان، كما يقول الدكتور البهى: (وقف أريوس منكراً أن عيسى ابن الله ومساوٍ له، وقال: إنه إنسان محض، وقد وجدت فترة من الزمن قبل خلقه فهو إنسانٌ حادث)[1]. ومعنى هذا أن المسيح ليس أزلياً، بل هو رسول مخلوق، والمخلوق لا يكون خالقاً، وإلا لأدى ذلك إلى انقلاب الحقائق.

ويؤكد هذا المعنى ما ساقه صاحب كتاب «تاريخ الأقباط» عن أريوس الذى نادى (بأن المسيح ليس أزلياً، وإنما هو مخلوق من الأب، وأن الابن ليس مساوٍ للأب فى الجوهر. ويعنى بالابن المسيح وبالأب ذات الله. أى أن المسيح لس مساوياً لله بل هو مخلوق)[2].

ويقول ابن حزم عن أريوس: (إن قوله هو التوحيد المجرد، وأن عيسى - ﷺ - عبد مخلوق، وأنه كلمة الله تعالى بها خلق السماوات والأرض)[3].

ويلاحظ أن أريوس حينما كان يرتفع صوته بكلمة التوحيد ونفى الوهية المسيح كان التعليل لرأيه مصاحباً له فنراه يقول: (كيف تتفق وحدة الإله مع جعل عيسى إلهاً أيضاً نعم هو شبيه للإله، على معنى انه قريب منه فى الدرجة والمنزلة، ولكنه ليس مساوياً له). ولقوة رأيه فى التوحيد (تبعه مشاعيون كثيرون، فكانت كنيسة أسيوط على رأيه، وعلى راسها ميليتوس، وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد، أقوياء فى المجاهرة بما يمتقدون، كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية.. وعلى الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهداً فى محاربته ومحاربة أرائه، ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقض عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع نيقية سنة ٣٢٥م بطرد أريوس وكفره، وإصدار قراره بألوهية المسيح)[4]، وبذلك يكون هذا القرار السلطانى بألوهية المسيح هو بداية التحول للعقيدة المسيحية فى الإله الواحد إلى الثالوث الوثنى الذى قررته المجامع فيما بعد.

(١) انظر الجانب الإلهى ص٧٧، د. محمد البهى.

(٢) تاريخ الأقباط ص١٥٠، زكى شنودة، بتصرف.

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١/٣٩، طبعة مصطفى الحلبى.

(٤) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٢٥.

تعقيب وتعليق:

هذه هى عقيدة التوحيد مازالت حية قوية فى قلوب الكثيرين من الفرق المسيحية التى لمحت الغزو الفكرى قادماً إليها من كل اتجاه بقيادة فرق ألبست نفسها ثوب المسيحية، وتقصمت الأفكار الوثنية وصاغتها بدقة فائقة، وأبرزتها فى صورة جديدة عليها رداء العقيدة، وامتازت بالحبكة الفنية والصياغة الفلسفية، ثم همست فى أسماع البسطاء من الناس قائلة: إن المسيح شريك لله، وأنه إله وابن إله. ولـلأسف مازال رنين هذه الهمسات يسمع فى ديار الكثيرين من أتباعهم حتى اليوم، ونسى هؤلاء وأولئك أن ذلك رجم بالغيب، وتجاوز للحد، وتطاول على مقام الألوهية بغير برهان، والعقائد لا تؤخذ من غير الأنبياء الذين حملوا الرسالة من رب السماء، وقد أفلح الموحدون حين قالوا لا إله إلا الله، وشمروا عن سواعدهم فى سبيل إحيائها وإسكات أصوات الدخلاء، وقد رأينا أريوس وأتباعه كيف قاوموا الثالوث الوثنى، ونازعوا هذا المبدأ الذى أبرزه بولس وفرقته، بيد أن الفرق الموحدة كانت أعلى صوتاً، وافصح قولاً، واقوم حجة، وأعلى مكانة، فمنهم قساوسة وعلماء وبطاركة، وكانوا جميعاً يهدفون إلى تقرير قضية واحدة وهى أن الله واحد أحد لا شريك له ولا ولد، وليس بأقنوم أو روح قدس. وإذا ما عرضنا هذه القضية التى انتهى إليها المسيحيون الموحدون على الإسلام لوجدنا أن لها قبولاً وارتياحاً، ولنرى ذلك فيما يلى:

موقف الإسلام من قضية الوحدانية فى المسيحية

لقد كانت دعوة الإسلام كلها قائمة وراء هذه القضية لتقريرها وتأييدها وترسيخ أساسها فى العقول والقلوب؛ وذلك لأن الله جل فى علاه هو الذى شهد لنفسه بالوحدانية شهادة الذات للذات، وصدّق بها الملائكة الكرام وأثنى عليها أولو العلم على مر القرون والأزمان ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]. ولقد تعرض الإمام ابن

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨.

جرير الطبرى لتفسير هذه الآية فقال: (إنما عنى جل ثناؤه بهذه الآية نفى ما أضافت النصارى الذين حاجّوا رسول الله ـ ﷺ ـ فى عيسى من النبوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك من أن له شريكاً واتخاذهم دونه أرباباً، فأخبرهم الله عن نفسه أنه الخالق لكل ما سواه، رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك رباً من دونه، وأن ذلك كل ما يشهد لنفسه وتنزيهاً لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك بما نسبوا إليها، كما سن لعباده أن يبدأوا فى أمورهم بذكره قبل ذكر غيره مؤدّياً خلقه بذلك)[1].

وإن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يرجع بالإنسان إلى وجدانه، ويعمل على إثبات الوحدانية لله رب العالمين عن طريق حسن النظام الموجود فى الكون البديع، والعناية فى تنسيقه وحسن تدبيره: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2]. هذه معارض لقدرة الله يعرض فيها ما أبدعت يد القدرة من آيات، وما أخرجت من نعم وما ثبت من مخلوقات، وقد حملت كل معروضة بين يديها لافتة تلقى كل من ينظر بهذا السؤال التقريرى من أنا؟ من صورنى وأبدع فيما صور؟ وتتلجلج ألسنة فلا تدرى ما تقول، وتتحرك ألسنة فتنطق بالحق وتلتوى ألسنة فترمى بالباطل، ثم تأتى هذه النداءات فى القرآن الكريم: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

(١) تفسير الطبرى ٣/ ٢١٠ ط الحلبى.   (٢) سورة النحل الآيات من ٥٩ ـ ٦٤.

يُشرِكُونَ﴾.

ولا يكتفى القرآن بهذه المعارض التى تبدأ مجهولة الصانع ثم تنتهى مضافة إلى إله واحد غير مثلث الأقانيم، بل يجىء بمعارض أخرى يبدو فيها المعبودون دون الله، وكأنهم مدعوون إلى امتحان حولهم وقوتهم إلى جانب حول الله وقوته فلا يكون إلا العجز والاستهزاء، يقول جل شانه: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١).

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾(٢). ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾(٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤). وهكذا تتعدد معارض الامتحان التى تكشف فيها أحوال تلك المعبودات وتظهر لعابديها فى قيود العجز والضعف.

وسبحان الواحد الذى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾

(الحج: ٧٣)

نفى الولد عن الإله الواحد

وإذا كان الموحدون المسيحيون قد قاوموا فكرة الولد المنسوبة لله تعالى فإن

(١) سورة القصص الآيات من ٧٠ ـ ٧٣.
(٢) سورة يونس: الآية ٣٤.
(٣) سورة فاطر من الآية ٤٠.
(٤) سورة الأعراف الآية ١٩٤.

الإسلام قد تصدى أيضاً لهذه الفكرة وحاول نفيها، وذلك من خلال الآيات الوفيرة المبثوثة فى القرآن الكريم؛ لأنها فكرة وثنية تتنافى مع وحدانية الإله، يقول تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

ويقول عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2]. ويقول جل شانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾[3]. وكان على النصارى الذين نسبوا الولد لله تعالى ومن سار على دربهم أن يسألوا أنفسهم: لماذا يتخذ الإله ولداً؟ هل هو فى حاجة إليه؟ هل يريد منه أن يدير الملك من بعده أو يساعده فى عمله؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إن الواحد منا فى هذه الحياة يريد أن يتزوج وينجب له ولداً لكى يساعده على متاعب الدهر ومصاعب الحياة، وإذا ما مات الأب فإن الابن يدير ثروته من بعده، ويُحيى له ذكره، فهل الإله الواحد الحى الذى لا يموت، القيوم على شئون خلقه، الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، الغنى عمن سواه، خالق الكون ومدبره، هل يريد بأن يتخذ ولداً لهذه الأمور؟ لا يرى عاقلٌ ذلك أبداً.

إن هذه المقولة الفاجرة قدضج منها الكون بأسره؛ لأنها نسبت إلى الرحمن الرحيم ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾[4]. إذن ما أكذب تلك القضية: أن الله له ولد، وما أصدق تلك القضية أن الله واحد لا شريك له فى الكون ولا ولد.

---

(١) سورة المؤمنون من آية ٩١.

(٢) سورة الإخلاص.

(٣) سورة الإسراء آية ١١١.

(٤) مريم الآيات من ٨٨ ـ ٩٥.

المجامع المسيحية بين القول بعقيدة التوحيد وإرساء مقولة التثليث

تمهيد:

أهمية دراسة المجامع

ترجع أهمية دراسة المجامع إلى كونها نقطة البدء الحقيقية فى تغير معالم الوحدانية التى عرفتها المسيحية الأولى، كما تبين لنا العوامل التى ساهمت فى بناء مقولة التثليث ونشرها، خاصة (إذا علمنا أن التثليث الذى يعتقده جماهير المسيحيين أو الكثرة الغالبة فيهم - لم يعلن للناس دفعةً واحدةً، بل فى أزمان متفاوتة مختلفة كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة، وكان ذلك بإعلان المجامع التى كانت لعدد من الأساقفة، وفيها يقرر المجمع رأياً معيناً)[1]. ولا يهمنا من هذه القرارات إلا ما يتعلق بالعقيدة.

معنى المجمع المسيحى

يقول ميشيل جرجس: (المجامع هيئات شورية فى الكنسية المسيحية رسم الرسل نظامها فى حياتهم، حيث عقدوا المجمع الأول بأورشليم سنة ٥١، ٥٢م، برئاسة يعقوب الرسول؛ للنظر فى مسالة الختان[2] عند الأمم، ومن ثم نسجت الكنيسة على منوالهم بعد ذلك)[3]. والذى يعرف من هذا النص أن المجمع هو عبارة عن هيئة شورية. ومن هنا نسأل: هل هى شورى ملتزمة بالنص، أم مطلقة حسب منطق العقل؟

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٢٠، ط دار الفكر العربى.

(٢) من المعلوم أن الختان مشروع فى اليهودية محرم فى المسيحية، والذى حرمه بولس لا المسيح ﷺ.

(٣) نقلاً عن كتاب يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٠٢، د. رؤوف شلبى.

إن كانت خاضعة للنص فلم حرّمتم الختان والنص يحلله؟ إن قلتم: إنها شريعة اليهود ولا تُلزَم بها الأمم، قيل لكم: لقد خالفتم النص القائل: (ما جئت لأنقض الناموس والأنبياء....)[1]، وإن قلتم بالنسخ سلم لكم، ولكن أين دليل النسخ عندكم؟ وهل حقاً تعترفون بالنسخ؟. إننى لا أرى ذلك.

وإن كانت شورى مطلقة حسب منطق العقل قيل لكم: قد خرجتم عن الوحى والشرع، وأصبحتم فى عداد الفلاسفة، فهل حقاً تكون الفلسفة فى يوم ما منسوبة إلى وحى السماء[2]؟

أنواع المجامع

إن المجامع فى المسيحية نوعان كما يقول صاحب الأقباط: (مجامع مسكونية أو عالمية، ومجامع مكانية أو إقليمية)[3]. واول هذه المجامع مجمع نيقية، وللمجتمعين فيه يرجع الفضل فى إخراج مسرحية التثليث الهزلية، والتى جاء الفصل الأول منها باسم ألوهية المسيح.

(١) إنجيل متّى إصحاح ٥/١٧.

(٢) راجع يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٠٤، د. رؤوف شلبى.

(٣) تاريخ الأقباط ١/ ١٧٠، زكى شنودة.

المبحث الأول
مجمع نيقية وألوهية المسيح ٣٢٥م

يذكر ابن حزم (أن المسيحية بقيت على التوحيد الخالص مدة لا تقل عن ثلاث مئة سنة.. إلى أن تنتصر قسنطين الملك، فأجبر الناس على النصرانية بالسيف والعطاء، وبلغ تشجيعه للنصرانية إلى درجة قصر الولاية على من تنصر من الناس)[1]. وكان من ثمار هذا التشجيع أن دخلت طوائف مختلفة من الوثنيين المملوءة رؤوسهم بالفكر الوثنى، الذى صبغت به المسيحية فيما بعد. فتكون مزيج غير تام التكوين، غير تام الاتحاد والامتزاج بين هذه الطوائف وأصحاب عقيدة التوحيد)[2] على حد تعبير اتجاهات مختلفة تدعو إلى ألوهية المسيح وإرساء عقيدة التثليث.

وعن هذه المسيحية الداخلية يحدثنا صاحب كتاب «تاريخ العصور الوسطى المبكرة» فيقول: (إنها كانت تخالف المسيحية الحقيقية ـ مسيحية التوحيد ـ حيث ابتدعت أشياء لا يرضى عنها المسيحيون الأصوليون الموحدون، فزعم أتباع بولس ـ المدعو عندهم بالرسول ـ ألوهية المسيح، وكنيسة الإسكندرية وأتباعها يقولون بالتثليث، وآخرون يدعون المسيح ابن الله، وكل هذا ضلال تنتزه عنه الرسالة الإلهية، وبدأ الصراع بين المسيحية الحقيقية والمسيحية الجديدة، واعتبر فى هذا الصراع المسيحيون الأصوليون متمردين، ومكث هذا الصراع حتى عقد مجمع نيقية (٣٢٥م) بدعوة من الإمبراطور قسطنطين الملك للبحث فى التعاليم الأريوسية)[3].

---

(١) راجع الفصل فى الملل والأهواء والنحل ١/٨٠٨.

(٢) انظر محاضرات فى النصرانية ص١٢٢.

(٣) تاريخ العصور الوسطى المبكرة ص٧٤، إسحاق عبيد.

ومن هذا القول نفهم أن التعاليم الأريوسية ـ وهى لا تخرج عن التوحيد ـ هى الوحيدة التى تقف فى الميدان لمحاربة أتباع المسيحية الجديدة؛ لأن هذه التعاليم هى التى تحمل روح المسيحية الأصلية، والغريب العجيب أن الأستاذ زكى شنودة يسمى هذه التعاليم الأريوسية بدعة، وهذه البدعة هى التى أدت إلى عقد مجمع نيقية. وأقول للأستاذ زكى شنودة إن البدعة كما نعلمها هى أمر مستحدث يؤدى إلى ضلال، واريوس فى تعاليمه كان يقول: (إن الأب وحده هو الله والابن مخلوق مصنوع، وقد كان الأب إذ لم يكن الابن). كما يقول ابن البطريق[1]. فهل هذا القول مستحدث وجديد على المسيحية؟ لا أرى ذلك. بدليل أنك قلت: (إن العيب ليس على أريوس، بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع فأخذ هو عنها)[2]. وإذا كانت هذه الفئات هى التى قالت بما قال أريوس فمعنى هذا أن أريوس ليس بمبتدع، بل يسير فى طريق أسلافه من الحواريين، والمبتدع هو من قال بألوهية المسيح ولا داعى لقلب الحقائق.

صورة حية من داخل المجمع

ولما كان هذا المجمع هو الأول من نوعه الذى يريد أن يناقش التعليم الأريوسية التى تتمسك بعقيدة التوحيد الخالصة أردنا أن نعرف مَنْ هؤلاء المناقشون؟ وإلى أدى دين ينتمون؟ حتى تكون لهم الصفة القانونية الشرعية لمناقشة عقيدة ورثها أريوس وأتباعه منذ أمد ليس بقريب، ولذلك سنترك المؤرخ المسيحى ابن البطريق ينقل إلينا صورة حية من داخل هذا المجمع النيقوى، يقول ابن البطريق: (بأمر من الإمبراطور اجتمع فى مدينة نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة، وكانوا مختلفى الأراء والأديان... فمنهم من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة من نار انفصلت من شعار نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية فيها، وهى مقالة سابليوس، ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما هو فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب،

---

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٢١.

(٢) تاريخ الأمة القبطية ١/١٧٥، زكى شنودة.

ومنهم من كان يقول إن المسيح إنسان مخلوق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم ويرون أن الله جوهر قديم واحد وأقنوم واحد ولا يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريك إنطاكية، ومنهم من كان يقول إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح وطالح وعدل بينهما.. ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاث مئة وثمانية عشراً سقفاً)[1]. هذا هو ما نقله ابن البطريق. واللقطة الأولى تكشف عن عدد الحاضرين وهو ٢٠٤٨، ويقول ابن البطريق: إن هؤلاء جميعاً كانوا أساقفة، ومعنى هذا أنهم كانوا على دين واحد وهو المسيحية، ولكن الرجل يتناقض مع نفسه حين قال إن هؤلاء كانوا مختلفى الأراء والأديان؛ ومعنى هذا أنهم ليسوا جميعاً من أتباع المسيحية، ولم يكونوا جميعاً أساقفة، وما ساقه هذا المؤرخ كشف لنا النقاب عن صدق هذا القول، فالديانة المسيحية الموحدة لم تعرف أن المسيح وأمه إلهان، أو أنه - ﷺ - كان شعلة من نار، ولم تره فى يوم ما إلهاً من دون الله، ولم يدرك أصحاب المسيح أن الإله الواحد ثلاثة هم: صالح وطالح وعدل بينهما، بل الذى أدرك هذه الأمور واعتقد بهذه الأقول هم الذين رضعوا من لبان الوثنية، وارتموا فى أحضان الفلسفة قروناً من الزمان طويلة، وهؤلاء وإن خلعوا على أنفسهم اسم المسيحية لم يكن لهم الحق القانونى والصفة الشرعية فى مناقشة التعاليم الأريوسية، ومع ذلك فقد شهدت ساحة المجمع أكبر مناقشة عقائدية بين هؤلاء الوثنين، خاصة من يريدون تأليه المسيح وبين الموحدين.

بين المؤلهين والموحدين

كانت مدرسة الإسكندرية هى زعيمة الفكر الوثنى الذى يدعو إلى تأليه المسيح داخل المجمع، ولذلك وقف بطريك الإسكندرية يعلن أمام جموع الحاضرين أن المسيح لم يكن بشراً رسولاً، بل كان إنساناً إلهاً. وهذا قوله الذى نقله إلينا أدولف هرنك: (دائماً إله دائماً ابن، وفى نفس الوقت أب، وفى نفس

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٢٦.

الوقت ابن.. والابن أزلى غير مخلوق، دائماً إله دائماً ابن)[1]. لقد كان هذا الرجل يعتقد بالوجود الأزلى للأب والابن، فالأب لا يمكن التفكير فيه بدون الابن الذى صدر عن الأب.

وللرد على هذه الأقوال وقف أريوس وأتباعه يعارضون، وكانت أقوالهم يغلب عليها الفكر التوحيدى من أن الإله الواحد الأحد هو الأزلى وحده، وأن الابن[2] ليس أزلياً، ولكنه خلق من خلق الله أوجده من العدم، وتتلخص تعاليم أريوس وبقية الموحدين داخل المجمع - كما يقول صاحب كتاب «الدولة والكنيسة» - فى الأمور التالية:

١ - (أن الأب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلهاً حقاً، فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق، ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين إلهان لا متناهيان.

٢ - أن الابن ليس غير مولود وليس جزءاً من غير المولود... وإنه قبل أن ولد وخلق أو قصد لم يكن؛ لأنه كان غير مولود، وعلى ذلك فالله لم يكن دائماً أباً، لأنه كان وحيداً.

٣ - إن الله تعالى له قوة طبيعة ليس كمثلها شىء - سرمدية - أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله وإنما هو إحدى هذه القوى... وعلاقته بالأب أنه مخلوق له[3]. والموحدون فى ذلك يتصورون أن هناك مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات، (والابن - المسيح - واحد من هذه المخلوقات، ومعرفته بالله تعالى معرفة غير كاملة، وما يراه الابن وما يعرفه فإنما هو بالنسبة لقواه، وبذلك لم يعد المسيح إلهاً حقاً، ولم يكن فى يوم ما أزلياً، بل هو مولود مخلوق بكلمة من الله)[4].

(١) تاريخ العقيدة د. ادلف هنرك نقلاً عن كتاب طائفة الموحدين ص١٤ المهندس احمد عبد الوهاب.

(٢) إذا ما قال الموحدون هنا بالبنوة فإنهم لا يقصدون سوى البنوة المجازية لا الحقيقة.

(٣) راجع كتاب الدولة والكنيسة ٢/١٦٠ د. رأفت عبد الحميد، ط دار المعارف المصرية.

(٤) المصدر السابق؛ بتصرف.

ولا شك أن هذا الفكر الذى اعتمد عليه هؤلاء الموحدون يصادقه الواقع الملموس للحياة اليومية فالكون كله يتحرك بدقة ونظام ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1]، ولو هناك إلهٌ يشارك الخالق فى هذا الوجود لما دامت هذه الدقة، ولتخلف هذا النظام؛ ولذلك أشار كتاب الإسلام إلى هذه النقطة بالذات قائلاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2].

وبناء عليه فأقوال الموحدين كان لها النصيب الوافر من الصحة، ومع ذلك فقد سمع الملك قسطنطين بعرض جميع الأراء المختلفة، (وأخلى لجميع الحاضرين داراً يجتمعون فيها، وأمرهم أن يتناظروا لينظر من منهم على الدين الصحيح فيتبعه، فاتفق منهم هؤلاء الثلاث مئة والثمانية عشر أسقفاً على دين واحد ورأي واحد)[3]، وهو تأليه المسيح.

تدخل الملك وإقصاء الموحدين

ولما كان من الطبيعى أن يمتد النقاش بين هذه الفرق المختلفة إلى أجل غير مسمى كان على الملك أن يتدخل لصالح الموحدين الذين كانت أقوالهم أقرب من غيرها إلى العقل والنقل، ولكن الملك خالف ما كان متوقعاً واقترب من الذين قالوا بتأليه المسيح (وهم الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً، ووضع لهم مجلساً خاصاً عظيماً، وجلس فى وسطهم، وأخذ خاتمة وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم: سلطتكم اليوم على مملكتى لتصنعوا ما ينبغى لكم أن تصنعوا، مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا الملك، وقلدوه سيفه، وقالوا له: أظهر دين النصرانية وذُبَّ عنه)[4].

---

(١) سورة يس آية ٤٠.　　(٢) سورة الأنبياء آية ٢٢.

(٣) راجع تاريخ ابن البطريق ١/ ١٢٦.

(٤) المصدر السابق ١/ ١٢٧.

أهم القرارات الملكية الصادرة عن المجمع

ولم ينقض المجمع إلا بعد إصدار قرارات مهمة تحمل المرسوم الملكى إلى كافة الطوائف المسيحية آنذاك، وكان من أهم ما قرره المجمع - مجمع الثلاثمئة والثمانية عشر - تكفير أريوس وبقية الموحدين، وإعلان المقولة الجديدة التى تجعل من المسيح رباً، وأنه هو ابن الله، ومساوٍ له فى جوهره.

صيغة العقيدة الجديدة

ولقد ذكرت مجلة الكرازة المرقسية الصيغة التى قررها المرسوم الملكى للعقيدة الجديدة على النحو التالى: (نؤمن بربٍّ واحدٍ أب ضابط الكل، وخالق السموات والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور، نور من نور، إله حق مولود غير مخلوق، مساوٍ للأب فى الجوهر الذى به كل شىء، هذا الذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجلِ خلاص نفوسنا، نزل من السماء، وتجسد فى الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس، وصُلِب عنا على عهد بيلاطس النبطى، وتألم، وقُبِر، وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، وليس لملكه انقضاء)[1].

وبهذا القرار الذى به صدرت العقيدة الجديدة نرى أن الخطوات العملية لإقصاء عقيدة التوحيد، التى عاشت أكثر من ثلاثة قرون فى المسيحية تقاوم الوثنية، بدأت تأخذ الصفة الرسمية وتؤيدها القرارات الملكية، ولكن هل يا ترى سيقف الموحدون مكتوفى الأيدى أمام هذه العقيدة المفروضة؟ وقبل أن نتعرض للإجابة على السؤال سنظهر بعين البحث العلمى الدقيق إلى ما دار فى المجمع، وما نتج عنه من عقيدة، لنبين وجهة نظرنا فى ذلك.

---

(١) انظر مجلة الكراوة المرقسية، الأعداد من ١ - ١٠ بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩٨٠م إلى ١٣ فبراير ١٩٨١م، شرح قانون الإيمان.

تقيم قرارات مجمع نيقية والملاحظات عليها

لفحص قرارات مجمع نيقية لابد لنا من دراسة نظريتين:

الأولى: عبارة عن نظرة عامة لما كان عليه الجميع.

الثانية: عبارة عن نظرة خاصة للفقرات التى احتوت عليها العقيدة الجديدة.

أولاً: نظرة عامة إلى المجتمع

بامر من قسطنطين كان عدد الحاضرين فى المجمع ٢٠٤٨ أسقفاً، وبقرار من قسنطين أيضاً تمثلت أراء المجمع فى ٣١٨ أسقفاً فقط، وابعدت أراء الأخرين.. وهنا لابد من وقفة لنسأل: أين ذهبت أراء الباقين؟ ولماذا أهملت بهذه الطريقة؟ وهل يصح للكنائس المسيحية جميعاً أن تلتزم بقرارات ٣١٨ أسقفاً فقط من ٢٠٤٨؟ ولماذا بها تلتزم هل لأنها أراء الأغلبية أما أنها تتناسب مع والعقل؟ أما إن كانت المسألة مسألة أغلبية (فإن الرواة يقولون ـ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة: إن آريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم انضم إلى أرائه أكثر من سبعمئة أسقف، وهذا العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النِّحل المخالفة، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية لكان الواجب أن تكون الغلبة لأريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على الوهية المسيح قرر تحريفها)(١).

وإن كان الأمر متوقفاً على العقل فإن العقول السليمة لا تتصور فى يوم ما أن رسولاً من البشر يرتق إلى درجة الألوهية ويملك زمام الكون، ويستطيع بقدرته أن يقرر فيه ما يشاء، وبينما هو كذلك تناله اليد البشرية، وأى يد هى؟ إنها أقذر يد عرفتها الإنسانية، وهى اليد اليهودية، تتناوله بالضرب والسب والشتم، ثم تُثنّى عليه بالقتل والتمثيل والصلب، ومع ذلك فهو مازال إلهاً. أى عقل هذا الذى يتصور إلهاً للكون بهذه الصورة المهينة؟ إن المسيح ـ ﷺ ـ لا

(١) راجع محاضراته فى النصرانية ص١٢٦، ١٢٧ وأيضاً كتاب النصرانية والإسلام ص٢٥ للأستاذ محمد عزت الطهطاوى.

يمكن أن يهبط بعقله إلى هذا الدرج، ويدعو لنفسه إلى هذه الألوهية، حاشا المسيح ورسالته، وحاشا الله رب العالمين أن يكون كذلك.

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن هو: من الذى اختلق هذه المقالة؟ ولماذا فرضها الملك على الجموع المسيحية؟ وابن البطريق - وهو ممن يعتقدون هذه العقيدة بلا روية - هو الذى ألزم نفسه بالإجابة على هذا السؤال حين قال: (ومنهم من كان يقول بألوهية المسيح، وهى مقالة بولس الرسول، ومقالة الثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً)[1]. وبذلك يقرر ابن البطريق فى غفلة من قلمه أن المسيح لم يقل أنه إله، وإنما الذى قال هو بولس الرسول والثلاثمئة وثمانية عشر أسقفاً، أما المسيح وحواريه فهم برءاء من هذه المقالة، ومع ذلك فقد كان لها النصر بفضل قسطنطين وسيفه.

من هو قسطنطين وما هى عقيدته؟

ذكر ول ديورانت فى كتابه «قصة الحضارة» ترجمة لقسطنطين، هذا الذى له اليد العليا فى فرض ألوهية المسيح، وإقصاء عقيدة التوحيد فقال: (إنه ابن غير شرعى لقسطنطيوس من محظيته الشرعية هلينا خادمة إحدى الحانات فى بثينا، فلما أصبح قسطنطيوس قيصراً طلب إليه دقلديانوس أن ينتحى عن هلينا ويتزوج بثيودورا ربيبة مكسيمان)[2]. أما عن ثقافته فإن صاحب كتاب «الدولة والكنيسة» هو الذى كشف لنا النقاب عنها حين قال: (إن قسطنطين لم يكن على قدر كبير من الثقافة)[3]. والسبب فى ذلك كما يقول ول ديورانت: (هو انخراطه فى سلك الجندية مبكراً)[4]. وعن العقيدة التى تربى فى أحضانها هذا الملك منذ نعومة أظفاره يحدثنا الدكتور رافت عبد الحميد قائلاً: (إنه بمولوده ونشأته الأولى كان وثنياً، وذلك بحكم بيئته التى شب فيها، فوالداه

(١) ابن البطريق ١/ ١٢٦.

(٢) قصة الحضارة ج٣ من المجلد الثالث ص٣٧٢، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران.

(٣) الدولة والكنيسة ٢/ ١٢٠، د. رافت عبد الحميد، ط دارالمعارف.

(٤) قصة الحضارة ج٣ من المجلد الثالث ص٣٧٢.

يحملان نفس العقيدة، وإن كان أبوه قد لجأ إلى صورة التوحيد الوثنى حيث كان من عباد إله الشمس)[1].

هذا هو قسطنطين، وهذه هى نشأته وثقافته وعقيدته الأولى، وهى أمور لابد من الوقوف عليها عند التعرض لهذا الملك الذى تدين بعقيدته اليوم الملايين من البشر المسيحيين. فهل كان هذا الرجل مسيحياً؟ وهل حقاً تخلص من وثنيته؟

قضية دخوله المسيحية

(لم يختلف الدارسون فى شىء كاختلافهم حول مسيحية قسطنطين، فقد أعلن هذا الرجل دخوله المسيحية، وابتعاده عن الوثنية فى خريف عام ٣١٢م، ولم يكن ذلك الاهتداء ـ كما يقول يوساب ـ على يد بشر، ولكن لرؤيا منامية بشره فيها المسيح، وأعطاه الصليب كشارة له ولجنوده)[2]. وما أكثر الرؤى المنامية فى المسيحية: (ومع ذلك فلم يستطع قسطنطين أن يتخلص من وثنيته القديمة والدليل على ذلك أنه فى سنة ٣٢١م قرر جعل يوم الأحد عيداً أسبوعياً وسماه يوم الشمس، مؤكداً بذلك قدسيته للشمس، وظلت المعابد الوثنية فى عهده مفتوحة للعبادة العامة فى نفس الوقت الذى أصدر فيه مرسومين ضد بعض الفرق المسيحية التى كانت تنعتها الكنيسة بالهرطقة مخافة الانقسام فى الدولة[3]، وهذه الأمور هى التى جعلت ول ديورانت يتساءل قائلاً: (ترى هل كان قسطنطين حين تحول إلى المسيحية مخلصاً فى عمله هذا؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية؟ أم كان هذا العمل حركة بارعة أملتها حكمته السياسية[4]، ثم يجيب الرجل قائلاً: (أكبر الظن أن الرأى الأخير هو الأصوب)[5].

ونحن نرى مع ديورانت أن هذه الإجابة قد حالفها الصواب وصادفها الواقع العملى الملموس لهذا الملك الذى قد أحاط نفسه بجماعات من الفلاسفة

(١) الدولة والكنيسة ٢/ ٣٧٢. (٢) راجع المصدر السابق ٢/٩٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ١٣٠، ١٣١.

(٤، ٥) قصة الحضارة ج٣ من المجلد الثالث ص٢٨٧.

الوثنين وقلما كان يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس، ولم يكن يتردد فى القضاء على الانشقاق: محافظة على وحدة الإمبراطورية، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون، ورأينا ذلك واضحاً داخل مجمع نيقية الذى أصدر العقيدة الجديدة للملأ، (ولو كان قسطنطين مسيحياً حقاً لكان مسيحياً أولاً وحاكماً سياسياً ثانياً، ولكن الآية انعكست كما يقول صاحب قصة الحضارة فكانت المسيحية وسيلة لا غاية)[1].

ويقول المؤرخ أبو سيبوس الذى تقدسه كلامه الكنيسة وتسميه سلطان المؤرخين: (إن قسطنطين عُمِّدَ حين كان أسير الفراش، وأن الذى عمده ذلك المؤرخ وكان له صديقاً، والتعميد ـ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة ـ هو إعلان دخول المسيحية[2]. وبناء عليه يتضح أمامنا أن هذا الملك لم يكن فى مقدوره أن يتخلص من وثنيته حتى آخر لحظة من حياته، ويوم أن تصدى لرئاسة المجمع كان بهذه الوثنية يدين، ولذلك لم ير حرجاً فى طرد الموحدين واحتضان من يقول بتأليه المسيح، لأن آراءهم إلى قلبه أقرب، وهذه نقطة مهمة فى حياة هذا الرجل الذى ترك بصمات واضحة على المسيحية لابد للنصارى من معرفتها حتى يمكنهم إدراك حقيقة ما به يدينون.

ثانياً: نظرة إلى الفقرات التى احتوت عليها العقيدة الجديدة

والناظر إلى فقرات هذه العقيدة يدرك من أول وهلة الجهود المضنية التى بذلها المجمع للوصول إلى هذه العقيدة لكى يجعل فقراتها مقدسة، ومع أن الأناجيل وملحقاتها[3] لم يرد فيها نص أو قرار كهذا إلا أن الحاضرين حاولوا الا يأتوا بكلمة من عندهم حتى لا يكون هناك اعتراض لمعترض، أو حجة

---

(١) قصة الحضارة ج٣ من المجلد الثالث ص٢٨٧.

(٢) محاضرات فى النصرانية ص١٢٨.

(٣) يقصد بها الرسائل.

لمخالف فاقتربوا من الأناجيل والرسائل، وأخرجوا إلينا هذه الفقرات على النحو التالى:

(نؤمن بإله واحد)	جاءت من إنجيل (يوحنا ٣/١٧)
(أب)	جاءت الرسالة الأولى لأهل تسالونيكى ١١/٣
(ضابط الكل)	جاءت من إنجيل (متى ٩/١٠، ٣٠)
(خالق السموات والأرض ما يُرى وما لا يُرى	جاءت من إنجيل (متى ٢٥/١١، خروج ١١/٢٠
(نؤمن برب واحد)	جاءت من العبرانيين ٨/١ والرؤيا ١٦/١٩
(يسوع المسيح)	جاءت من (العبرانيين ٨/١٣)
(ابن الله الوحيد)	جاءت من (يوحنا ١٦/٣)
(المولود من الأب قبل الدهور)	جاءت من (ميخا ١٦/٥)
(نور من نور)	جاءت من (عبرانيين ٣/١)
(إله حق)	جاءت من (يوحنا ١١/٥)
(من إله حق)	جاءت من (يوحنا ٥/١٧)
(مولود غير مخلوف)	جاءت من (يوحنا ٢٦/٥)
(مساو للأب فى الجوهر)	جاءت من (يوحنا ٢٠١/١٠)
(الذى به كل شىء)	جاءت من (يوحنا ٣/١)

(هذا هو النص الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاص نفوسنا) ليس له سند من نصوص العهد الجديد، وإنما وضع بمعرفة المجمع.

(ونزل من السماء وتجسد) جاء من (يوحنا ١٤/١ وعبرانيين ٥٠/١)

(من الروح القدس ومريم العذراء) جاء من (لوقا ٣٥/١)

(وتانس) جاء من (يوحنا ٨/ ٤٠)

(وصلب على عهد بيلاطى النبطى) جاء من (يوحنا ١٩/١٩)

(وتالم) جاء من (الرسالة الأولى لبطرس ١/ ١١)

(وقبر) جاء من (أشعياء ٩/٥٣، ومن متى ٢٧/ ٦٠)

(وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب)، (من سفر الرويا ١٤/١٤، والرسالة الأولى لكسورنتوس ١٥/ ٢).

(وصعد إلى السموات) (لوقا ٢٤/ ٥١)

(وجلس عن يمين أبيه) (مرقس ١٦/ ١٩)

(وأيضاً يأتى فى مجده) من (متى ٢٥/ ٣١)

(ليدين الأحياء والأموات) من (الأولى عبرانيين ١٠/ ٤٢)

(الذى ليس لملكه انقضاء) من (لوقا ١/ ٣٣)

هذه هى العقيدة الجديدة قبل تطويرها وما احتوت عليها من فقرات (ونود أن ننبه أن هذا التخريج ليس من عندنا، وإنما هو كما خرج عليه المؤتمرون قرارهم وقدموه محمولاً بين يدى هذه المذكرة الإيضاحية)[1].

والناظر إلى هذه العقيدة يرى أنها جاءت من أودية مختلفة وفى مقالات متباينة وفى أحوال متغايرة لا يجمع بينها حال أو مقام، وإن كانت مسطورة فى الأناجيل والرسائل والأسفار القديمة، ثم هى مع هذا أشلاء ممزقة قد انتزعت انتزاعاً من أصولها، ثم ضرب بعضها ببعض، فكانت هذا الكائن العجيب من أكوان النظم الكلامى، ونستطيع أن نتخذ من هذا القرار وفقراته المبعثرة وثيقةً تاريخيةً تدل على ما يلى:

أولاً: أن التثليث المسيحى لم يكن معروفاً إلى سنة ٣٢٥م من ميلاد المسيح،

(١) راجع فى ذلك كتاب «مناظرة بين الإسلام والنصرانية»، ط المملكة العربية السعودية الرياض ٢٠٧، ٢٠٨، وكتاب المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل، للأستاذ عبد الكريم الخطيب ص٢٤٩، ٢٥٠.

ولم يعترف المؤتمر المنعقد فى هذا العام بغير الأب والابن.

ثانياً: أن التثليث المسيحى لم يكن معروفاً إلى سنة ٣٢٥م من ميلاد المسيح، ولم يعترف المؤتمر المنعقد فى هذا العام بغير الأب والابن.

وفى ذلك يقول الدكتور محمد جميل غازى: (إنه إلى ذلك الحين لم يكن المسيح قد دخل ببنوته فى شركة مع الله على هذا النحو الذى يجعل منه «الله» مندمجاً فى اقنومية الآخرين؛ الأب وروح القدس، وغاية ما كان يتصور فى هذه البنوة أنها فرع من أصل، وأنها إن دانت لإله فلن تكون هى الإله)[1].

ثالثاً: إن العقيدة الجديدة الصادرة عن المجمع أعلنت بكل صراحة أن الله الأب هو خالق السموات والأرض، أما الابن فلا دخل له فى هذا الخلق، ولكن المسيحية بعد هذا أصبحت تدين بأن الله الأب لم يخلق شيئاً، أما الابن فهو الذى قام بعملية الخلق ـ وسنوضح هذه المسألة إن شاء الله عندما نتعرض لأعمال الثالوث ـ، وبناءً على هذه الأمور الثلاثة يمكننا القول بأن مسيحية التوحيد مازال أصلها ثابت وفرعها فى السماء، أما مسيحية التثليث فقد بقيت إلى ما بعد منتصف القرن الرابع غير مكتملة فى حقيقتها، ومازال الموقف من المسيح متارجحاً مضطرباً بين القول بالإله والقول بالإنسان، ولسد هذه الفجوة العميقة التى تتذبذب فيها شخصية المسيح عند النصارى المؤلهين كان عليهم أن يبادروا بعقد مجمع آخر مقدس من خلاله تحدد ملامح الصورة وتكتمل سطور العقيدة. وقبل أن نتعرض لهذا المجمع نعروض إلى إجابة السؤال الذى عرضناه وهو يستفسر عن موقف الموحدين إزاء العقيدة الجديدة.

---

(١) من مقالة د. محمد جميل غازى فى كتاب المناظرة بين الإسلام والنصرانية ص٢٠٨، ٢٠٩.

المبحث الثانى: موقف أصحاب عقيدة التوحيد من قرارات الألوهية

إن الوحدانية التى حاول رئيس مدرسة الإسكندرية اثناسيوس وبجواره الإمبراطور الوثنى قسطنطين إزهاق روحها والقضاء على أتباعها قدر لها الحق أن تظل حية قوية فى قلوب الكثيرين، (فقد كانت كنيسة أسيوط - كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة - على رأى أريوس زعيم الموحدين، وكان على رأس هذه الكنيسة ميلتوس، وفى الإسكندرية التى شبت فيها فكرة التاليه كان لأريوس العدد الوفير من الأنصار الموحدين، وكان هؤلاء كثيرين - من حيث العدد - وأقوياء - من حيث المجاهرة - بما يعتقدون كما كان لهذا الرأى أيضاً مشايعون فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية)[1]. ويوم أن أعلن قسطنطين ألوهية المسيح بكل صراحة وأمر بنفى أريوس وإحراق كتبه أعلن الكثيرون من القساوسة اعتراضهم على هذا الرأى ليس فى هذه البلاد فحسب بل فى كثير من البلاد الآسيوية، (حيث أظهر بعضهم - كما يقول ول ديورانت - عطفاً على أريوس، واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الآسيوية، وتردد فى المدائن أصداء الضجيج والاضطراب.. حيث كان الدين المسيحى - كما يقول يوسيبيوس: (مؤرخ وعالم مسيحى معاصر للجميع) - موضوع السخرية من الوثنيين حتى فى دور التمثيل نفسها)[2].

وبهذا نعلم أن عدد الموحدين فى كافة الأقطار ليس بالعدد اليسير، وكذلك كان الحال داخل المجمع، وفى عقبه. ولا يتمثل سبب انتشار رأى الموحدين فى العطف والشفقة على أريوس كما قال ديورانت، بل فى قوة الدليل، وقوة تصور

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٢٣ . بتصرف.

(٢) انظر قصة الحضارة ج٣ من المجلد الثالث ص٣٩٢، ول ديورانت.

العقيدة، وقوة الاقتناع بها، وسهولة دخولها إلى العقل واستساغه لها، ولذلك لم يكن فى مقدور اثناسيوس - المؤيد بمرسوم ملكى - القضاء على عقيدة الوحدانية، بل ربما كانت المحاولة للقضاء عليها سبباً فى شدة الاستمساك بها والمبالغة فى المحافظة عليها مما يراد بها، ومن ثم نشط الموحدون فى كل مكان ضد عقيدة الشرك، وقاموا بعقد عدة مجامع كان الهدف من ورائها إلغاء القرار النيقوى، وعزل اثناسيوس الذى تزعم الموقف فى مجمع نيقية، وكان أحد الأسباب فى إقرار هذه العقيدة. كما قاموا بسن عدة قوانين إيمانية تخالف قانون الإيمان، النيقوى وتتفق مع مبدأ التوحيد وهذه المجامع هى:

١ - مجمع صوّر ٣٣٥م. ٢ - مجمع إنطاكية الأول ٣٤١م.

٣ - مجمع سيرميوم ٣٥٧م. ٤ - مجمع ريمنى وسلوفية ٣٥٩م.

٥ - مجمع إنطاكية الثانى ٣٦١م. ٦ - مجمع القسطنطينية ٣٦١م.

وكانت هذه المجامع بمثابة رد فعل عملى ضد من قال بغير التوحيد وهذه هى:

خطوات الموحدين فى المجامع

أولاً: مجمع صور يرفض بالاجماع عقيدة الشرك سنة ٣٣٥م

لم يستسلم الموحدون إلى العقيدة الجديدة التى أصدرها مجمع نيقية، (ولكنهم صمموا على المقاومة حتى استطاعوا فى عام ٣٢٨ جعل الإمبراطور يعيد أريوس وأشياعه إلى كنائسهم، فى ذلك الوقت كان اثناسيوس قد تولى كرسى كنيسة الإسكندرية)[1]، ولما كان هذا الرجل هو المتزعم للمعتقد القائل بألوهية المسيح بعد الكسندروس كان من الطبيعى أن تشتد الأزمة بينه وبين الموحدين، (الأمر الذى جعل الإمبراطور قسطنطيوس ابن الإمبراطور قسطنطين السابق لم ير أمامه من حل سوى عقد مجمع من الأساقفة كما

(١) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٢١، مهندس أحمد عبد الوهاب.

يقول القس سليم سليمان فى قيسارية عام ٣٣٤م، ودعا اثناسيوس للاشتراك فيه، فلم يحضر، واخيراً قرر الإمبراطور قسطنطيوس عقد مجمع فى صور ٣٣٥، وحتم على اثناسيوس حضوره فحضر، وكذلك حضره كثيرون من الأساقفة الذين حضروا مجمع نيقية المسكونى الأول)[1]. وكان من بينهم أوسابيوس الموحد، أسقف نيقوميدية الذى ذكر عنه ابن البطريق أنه انتهز فرصة ذلك الاجتماع وأثار مقالة أريوس ورأيه فى المسيح وإنكار الوهيته وكان بجواره الكثيرون من الموحدين المتمسكين بعقيدتهم، ولم يكتفوا بالنقاش القولى، بل امتدت الأيدى إلى بطريك الإسكندرية، وعمدت إلى رأسه لإخراج الوثنية منها فضربوه حتى أدموه، وكادوا أن يقتلوه لولا تدخل ابن أخت الملك الذى كان حاضراً ذلك الاجتماع[2]، ثم اختتم المجمع جلساته (وأصدر المجتمعون قراراتهم بخلع اثناسيوس من منصبه وقبول المليتين طائفة من النصارى تؤيد رأى أريوس وأتباعه ـ فى الكنيسة، وقد أعدوا العدة لدفن قرارات مجمع نيقية)[3]، والعودة بالمسيحية مرةً أخرى إلى عقيدة التوحيد على أيدى الأريوسيين.

ثانياً: الموحدون داخل مجمع أنطاكية عام ٣٤١م

(ثم اشتد نفوذ الموحدين فى عهد قسطنطيونس الذى وافق على طلبهم بتعيين جريجوريوس أسقفاً على الكرسى الإسكندرى، وقد اضطر اثناسيوس إلى الهرب إلى روما عام ٣٤٠م)[4].

ويذكر الأستاذ كامل نخله: (أن الإمبراطور قسنطيوس، خضع إلى رأى أخيه قسطنس وحكم بإعادة اثناسيوس إلى الكنيسة مرة أخرى، واخذ يدعو بين الناس بتعاليمه التى تنحصر فى ألوهية المسيح (والتى لا تتفق مع العقل والمنطق)، مثل قوله: الأب إله، والابن إله والروح القدس إله ولكن ليسوا ثلاثة

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية ٤٦/١، تأليف القس سليم سليمان، دار الكتب تحت رقم ٢٣٥.

(٢) راجع فى ذلك تاريخ ابن البطريق ١٣١/١، محاضرات فى النصرانية ص١٣٠.

(٣) مختصر فى تاريخ الأمة القبطية ٤٦/١، وكتاب الدولة والكنيسة ٢٤١/٢، د. رافت عبد الحميد.

(٤) طائفة الموحدين ص٢٥ ـ أحمد عبد الوهاب.

آلهة، بل إله واحد، كذلك الأب رب، والابن رب والروح رب ولكنهم ليسوا ثلاثة أرباب بل رب واحد، لهذا فى جميع الأمور المذكورة ينبغى أن يعبد الثالوث فى وحدانية، والوحدانية فى ثالوث، فمن أراد أن يخلص فعليه أن يعبد الثالوث هكذا بالثالوث، عندئذ اجتمع فى إنطاكية سبعة وتسعون أسقفاً وسنوا مجموعة من القوانين تتفق مع التعاليم الآريوسية، وترفض أفكار اثناسيوس الوثنية والتى لا تخضع لأى منطق سليم.

ثالثاً: الموحدون فى مجمع سرميوم ٣٥٧م

وفى عام ٣٥٧م عقد الآريوسيون - كما يقول الأستاذ كامل نخلة -: (مجمعاً فى مدينة سرميوم فى جنوبى فرنسا برئاسة الأسقفين الغربيين أورزاس وفالانس، وحضره الإمبراطور قسطنطيوس بنفسه، وقد وضع ذلك الجمع صورة إيمان جديدة أنكر فيها مساواة الابن لأبيه فى الجوهر)[١]. وما ساقه الأستاذ كامل نخلة هنا يدل على أمرين:

الأول: أن عصا الموحدين كانت ثقيلة آنذاك وأصواتهم كانت مرتفعة، الأمر الذى أقلق الإمبراطور، وجعله يحضر هذا المجمع ولعقيدتهم ينصت ويستمع.

الثانى: أن هؤلاء كانوا يعترفون بأن الله جوهر ولذلك أنكروا مساواة الابن لأبيه فى الجوهر، ومع أننا سنناقش هذه القضية فيما بعد إلا أننا ننبه أن هؤلاء الموحدين لم يطلقوا على الله هذا الاسم فى يوم ما؛ لأن المسيح - ﷺ - لم يقل إن الله جوهر، وهم على درب المسيح يسيرون، وحسبنا أن الكاتب نفسه ممن يؤمن بفكرة الجوهر التى تطلق على الله تعالى. ونكتفى هنا بتتبع خطوات الموحدين فى المجامع.

(١) تاريخ اثناسيوس ص٨٢.

رابعاً: إعلان لواء التوحيد فى المسيحية
بعد مجمعى ريمنى وسلوقيه ٣٥٩

ولما ازدادت صيحات الموحدين النابعة من الفطرة بعقيدة لا إله إلا الله وعيسى رسول الله فى العالم المسيحى بأسره تحرك الإمبراطور قسطنطيوس - كما يقول صاحب تاريخ اثاسيوس - لتهدئة الأوضاع واستقرار الأمور (فعقد سنة ٣٥٩م مجمعين: أولهما فى مدينة رمنى وخصه بالغربين، والثانى فى مدينة سلوقيا بسوريا، وحضره من أساقفة مصر الأريوسين عشرة وخصه بالشرقيين، ولقد أسفر كلا المجمعين عن قرارات تؤيد الأريوسية كل التأييد... وهكذا باتت الكنيسة الغربية كلها آريوسية)[1].

ومعنى هذا أن قرارات مجمع نيقية التى تحمل عقيدة الشرك أخذت تُلقَى خلف الظهور بفضل الموحدين الذين انتشروا فى العالم كله، ولذلك يقول القس سليم سليمان: (إن مجمع ريمنى قد تسبب فى تحريف الإيمان النيقوى، وجر الهرطقة الأريوسية على العالم بأسره)[2]. وأقول لهذا القس أنك صَدَقْتَ حين قلت إن الموحدين قد استولوا على العالم بأسره؛ لأنهم مؤيدون بالمنطق السليم والعقيدة الصحيحة، وكذبت حين سميتهم هراطقة؛ لأن معنى هذه الكلمة أنهم زائفون عن طريق المسيح، ومبتدعون لأقوال تخالف أقوال الأنبياء، وهذا هو ما ينطبق عليكم أهل الثالوث لا عليهم.

خامساً: الموحدون فى مجمع إنطاكية الثانى ٣٦١م

ولتثبيت قرارات مجمعى ريمنى وسلوقية قام الموحدون فى إنطاكية ٣٦١م بعقد مجمع للأساقفة لطمس عقيدة الشرك، وعن الذى دار فى هذا المجمع يحدثنا صاحب كتاب «مختصر تاريخ الأمة القبطية» قائلاً: (لقد حقق الأريسيون نجاحاً كبيراً فى هذا المجمع، وصاغوا قانوناً إيمانياً ينص على أن

(١) تاريخ اثاسيوس ص٨٤، كامل صالح نخله.

(٢) مختصر تاريخ الأمة القبطية ص٣٦٢، القس سليم سليمان.

الابن غريب عن أبيه مختلف عنه فى الجوهر والمشيئة)[1]. كما قام الموحدون بنشر هذا القانون فى جميع الكنائس بعد أن تمت لهم الرئاسة على جميع الكنائس فى العالم بمقضى قانون مجمع ريمنى ٣٥٩م.

سادساً: قرارات الموحدين فى المجمع القسطنطينى الأول ٣٦١م

والمتتبع لتاريخ المجامع فى المسيحية يرى أن الكثير من الباحثين يطلقون على المجمع المنعقد فى القسطنطينية ٣٨١م: المجمع القسطنطينى الأول. وهو إطلاق أخذه الكتّاب المسلمون من النصارى، علماً بأن هناك مجمع عقد عام ٣٦١م فى القسطنطينية - والذى نحن بصدد الحديث عنه - أخفت الأقلام المسيحية الكثير من قراراته، ويكمن ذلك من وجهة نظرنا فى أن هذه القرارات كانت على يد الموحدين ومن ضمنها قراران هما من أهم القرارات التى تفيد البحث العلمى ضد المسائل العقدية فى المسيحية المزيفة.

القرار الأول: تثبيت قرارات مجمع إنطاكية المنعقد عام ٣٦١م، والتى تنص على أن الابن غريب عن أبيه مختلف عنه فى الجوهر.

القرار الثانى: وضع الموحدون سبعة عشر قانوناً إيمانياً أبعدت النصارى عن قانون الإيمان النيقوى، وعن هذين القرارين يتحدث القس سليم قائلاً: (ولقد شجع الظفر الأريسيين فعقدوا مجمعاً آخر فى إنطاكية ٣٦١م، أمضوا فيه سورة إيمان جديدة تعلم أن الابن غريب عن أبيه، مختلفٌ عنه فى الجوهر والمشيئة، وقد تثبتت هذه العقيدة الكفرية فى مجمع انعقد بالقسطنطينية فى نفس تلك السنة ثم انتشرت فى أنحاء العالم، وهكذا وضع الأريسيون سبعة عشر قانوناً للإيمان، أبعدتهم عن الحقيقة الأرثوذكسية المسطرة فى قانون الإيمان النيقوى)[2].

وكنا نود من هذا القس الذى يسجل لنا قلمه عداءه الشديد للموحدين،

---

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية ص٤٦٢، القس سليم سليمان.

(٢) مختصر تاريخ الأمة القبطية ص٤٣٦، القس سليم سليمان.

خاصةً حينما سمى عقيدة التوحيد التى يحملونها وعندها يدافعون عقيدة كفرية أن يسجل لنا بقلمه أيضاً السبعة عشر قانوناً بتفصيلاتها حتى نعرف ما هى، ولكن الرجل لا يذكر هذه القوانين إلا على سبيل الإجمال، ويشايعه فى ذلك الأستاذ كامل نخلة[1] فيذكر العدد إجمالاً لا تفصيلاً.

ولا نرى قلماً واحداً يفصح عن هذه التفصيلات فى كافة المكتبات المسيحية فى مصر[2].



(١) راجع تاريخ الناسيوس ص٨٨، كامل صالح نخلة.

(٢) راجعنا فى ذلك على سبيل المثال ـ مكتبة دار الكتب، ومكتبة كنيسة الفرنسكانى، ومكتبة دير الآباء الدونيمكان بالقاهرة.

وقفة للمراجعة والتقرير

إن حق لنا أن نقف قليلاً لمراجعة العقائد المسيحية فى تلك الفترة الحاسمة، والتى استغرقت أكثر من النصف الأول للقرن الرابع الميلادى، والتى انعقد خلالها عدد ليس بالقليل من المجامع المسيحية لحسم الصراع الدائر بين الموحدين والقائلين بألوهية المسيح كان علينا أن نقرر الآتى:

أولاً : إن عقيدة التوحيد التى حمل لواءها الأريسيون عقيدة قديمة قدم المسيحية، وهى تتلخص ببساطة شديدة فى أن الله تعالى واحدٌ أحدٌ، لا شريك له ولا ولد، وأن المسيح مخلوق غير أزلى صاحبته النعمة الإلهية. وهى عقيدة سهلة واضحة لا التواء فيها ولا تعقيد، بعكس عقيدة الشرك التى نادى بها المجمع النيقوى، وصاح بها اثناسيوس داخل وخارج المجامع المختلفة.

ثانياً: إن إثناسيوس هذا ـ والذى (يرجع إليه الفضل كما يقول ديورانت إلى تمسك الكنيسة بعقيدة التثليث وألوهية المسيح)[1] ـ هو ثالث ثلاثة قاموا بخراب العقيدة المسيحية الصحيحة بعد بولس وقسطنطين، بل هو راس الأمر كله، وتذكر عنه المصادر المسيحية بأنه كان بطريكاً لكنيسة الإسكندرية، وكانت الإسكندرية فى يوم ما تتغنى شعابها بفلسفة التثليث القائلة: (بأن العالم يوجد فى قمته ثلاثة أشياءهم الواحد والعقل والنفس)[2]، والتى عبر عنها اثناسيوس بالأب والابن والروح القدس، ومعنى هذا أن ذلك الرجل يوم أن نصب نفسه محامياً لألوهية المسيح لم يكن حماسه هذا ناجماً عن حبه للديانة المسيحية، بل عن عشقه لفلسفة الإسكندرية، وهذا هو المفتاح الحقيقى لعقيدة هذا الرجل الذى يدين له أهل الثالوث بالفضل والمنة.

---

(١) قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص٢٠.

(٢) تاريخ الفلسفة ص ٦٥، د. إبراهيم مدكور.

ثالثاً: إن الموحدين عقب مجمع نيقية ومن قبله لم يكونوا فى قلة، بل كانوا هم الأكثرية الواضحة فى كل المؤتمرات وأصحاب الكلمة الصادقة فى كافة الجلسات؛ ولذلك كانت دائماً، أبداً آذان الجماهير لهم صاغية، وقلوبها لعقيدتهم واعية، وقد تنبه الموحدون إلى هذا الأمر، فتعقبوا اثناسيوس فى كل مكان وبارزوه بالفكر فى كل ميدان، ويوم أن رأوا أن آذان الملوك بدأت تنصت إلى أرائه وتميل قلوبهم إلى عقيدته، زلزلوا الأرض تحت أقدام الملوك وقاموا بصحبة الجماهير الموحّدة بعقد عدد وفير من المجامع كانت بدايتها فى صور سنة ٣٣٥م. وفيه رأينا مدى القوة التى يتمتع بها هؤلاء الموحدون، الأمر الذى جعل الإمبراطور يخضع لقراراتهم، وينفى إثناسيوس خارج الدولة المسيحية، ويتولى كرسى كنيسة الإسكندرية جريجوريوس الموحد. (بل يصل الأمر إلى أن كثيراً من الكنائس الأخرى ـ كما يقول الشيخ محمد أبو زهرة ـ كان عليها رؤساء موحدون يتمسكون بالتوحيد ويحثون عليه، وكلما ولى أثقف غير موحد ثاروا عليه وهموا بقتله)[1]. ثم أكد هؤلاء الموحدون قوتهم فى مجمع إنطاكية ٣٤١م، وسنوا حشداً هائلاً من القوانين التى تحطم عقيدة الشرك، وبعد ذلك تجولوا فى أنحاء أوروبا فعقدوا فى فرنسا ٣٥٧م مجمع سرميوم، والذى كان من أهم قراراته مخالفة الابن للأب فى الجوهر، ولما غفل الملوك فترة عن قراراتهم صاحوا وهاجوا فى كافة أقطار العالم يرددون لا إله إلا الله عيسى رسول الله، وعلى هذه الصيحات استيقظ قسطنطينوس الملك فعقد مجمعى ريمنى وسلوقية، وما هى إلا سويعات معدودة من عقد هذين المجمعين حتى سادات كنائس العالم عقيدة التوحيد بفضل هؤلاء الموحدين.

ولما كان الحق هو الذى يحرك فقد جمعوا حشودهم فى إنطاكية والقسطنطينية ٣٦١م، وقاموا بمظاهرة واسعة النطاق ضد من يقول بألوهية المسيح، ووقتها أعلن الموحدون سبعة عشر قانوناً تخالف بأسرها قانون الإيمان النيقوى. وأمام هذه الانتصارات الزاحفة للموحدين (يقف الملك قسطنطينوس

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٣١، الأستاذ محمد أبو زهرة.

متأملاً فى مذهب أريوس وبقية الموحدين ويبحث بنفسه - كما يقول صاحب قصة الحضارة - بنوة المسيح، ويخرج من هذا البحث معلناً اعتناقه لمذهب أريوس)[1]، ولم يقف الرجل عند هذا الحد فحسب، بل يرى أن واجبه الأدبى يحتّم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع كنائس العالم المسيحى. ولا شك أن اعتناق هذا الملك لعقيدة أريوس ستؤدى إلى ازدياد قوة الموحدين، وقد كان ذلك حقاً، الأمر الذى جعل ول ديورانت يقول: (إنه أتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح لها فيه أنها ستؤمن بالتوحيد، وتتخلى عن ألوهية المسيح، وقد كان إثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله)[2].

وأرى أن ما ساقه ديورانت يعنى أن المسيحية انقطعت فى فترة ما عن التوحيد، ويعنى أيضاً أن القول بألوهية المسيح هو الأصل وعقيدة التوحيد هى العارضة. وحسبنا أن الكاتب مسيحى وهو يريد أن يؤيد ما يعتقد.

وأقول: إن عقيدة التوحيد لم تغب عن قلوب العامة أو الخاصة لحظةً واحدةً، ودليلنا على ذلك هذه المجامع التى عقدها الموحدون والتى أسلفنا لها ذكراً، والكاتب ذاته لم يُنكر أن إثناسيوس كان يقف وحده فى وجه العالم كله، وهو الذى ينادى بألوهية المسيح وحده، فهل من المعقول أن يكون العالم كله قد ذهب فكره وطار عقله ويبقى إثناسيوس وحده هو العاقل الوحيد فى هذا العالم؟!

ولا يسعنى إلا أن أقول: إن عقيدة التوحيد هى الأصل، ولذا بقيت حتى ذلك الحين حيةً قويةً فى قلوب الكثيرين، أما ألوهية المسيح فهى العارضة والدخيلة على عقيدة التوحيد.

---

(١) انظر قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص٢٠، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران.

(٢) قصة الحضارة ج٤ من المجلد الأول ص٢٠.

المبحث الثالث: المجمع القسطنطيني الثانى ٣٨١م وتقرير ألوهية الروح القدس

لقد أسلفنا الذكر بأن مسيحية التثليث لم يكتمل لها البنيان إلى ما بعد منتصف القرن الرابع الميلادى، وما كان ذلك إلا بفضل مقاومة الموحدين للقرار النيقوى الذى يتضمن إلغاء عقيدة التوحيد وتقرير ألوهية المسيح، أما الروح القدس فلم يكن قد اتخذ فى شأن ألوهيته قرار آنذاك، وظل الأمر هكذا مجهولاً حتى قويت شوكة مدرسة الإسكندرية مرة أخرى بفضل الأباطرة، فأبرزت على السطح فكرة ألوهية الروح القدس ليكتمل بها بنيان الثالوث فى المسيحية.

موقف الموحدين من هذه الفكرة

ولم يكن الموحدون الذين سهرت أعينهم فى حراسة العقيدة التوحيدية فى غفلة من الأمر، فتحركوا فى كل مكان لهذه الفكرة يرجمون، ولذلك المعتقد عن قلوب الناس يُبعدون، (وقام من بينهم رجلٌ يسمى مقدونيوس يجاهر أمام الملأ بأن الروح القدس ليس بإله، ولكنه مخلوق مصنوع، وشاعت مقالته بين الناس، ولم يجدوا فيها نكراً ولا أمراً لا يقره العقل أو تأباه المسيحية)[1]. ويذكر الأستاذ أحمد شلبى أن مقدونيوس لم يكن وحده فى الميدان، بل ناصره فى ذلك الكثير من القساوسة، من بينهم (الأسقف أو سابيوس، الذى أعلن إنكار وجود الأقانيم الثلاثة، وقال: إن للثالوث ذاتاً واحدةً وأقنوماً واحداً، وكان ذلك الخلاف داعياً لعقد مجمع جديد بيت فى الأمر، فعقد الإمبراطور تثاوديوس الكبير مجمع القسطنطينية ٣٨١م، ولم يحضره إلا مئة وخمسون أسقفاً)[2].

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٣٢، الأستاذ أبو زهرة.

(٢) المسيحية ص١٥٢ د. أحمد شلبى.

ويذكر صاحب كتاب «النصرانية والإسلام أن المجمع قرر ما يلى:

١ ـ (حرمان الأسقف مقدونيوس والأسقف أوسابيوس وإسقاط كلاً منهما من رتبته.

٢ ـ تقرير ألوهية الروح القدس. وبذلك اكتمل بنيان الثالوث فى نظرهم وصار الأب ويعنون به الله والابن ويعنون به المسيح، ثم الروح القدس وكل من هذه الثلاثة أقنوم (أى شخصى) إليه)[١].

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو:

من الذى قرر ألوهية الروح القدس؟

إن ابن البطريق ـ وهو المؤرخ المسيحى المعروف لدى مؤرخى المسيحية ـ هو الذى نصب نفسه للإجاب على هذا السؤال، فذكر أن ثيموثاوس ـ بطريق الإسكندرية، والذى لم يكن له فضل الصدارة فى رئاسة المجمع، بل كان له فضل القيادة فى القول والرأى العام؛ بسبب مساندة السلطة الحاكمة آنذاك ـ هو الذى قرر ألوهية المسيح حين قال: (ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله، وليس روح الله شيئاً غير حياته، فإذا قلنا إن حياته مخلوقة فقد زعمنا أنه غير حى، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به، ومن كفر به وجب عليه اللعن)[٢].

نظرة عاجلة إلى هذه الأقوال

وبنظرة عاجلة إلى هذه الأقوال نراها عبارة عن ضرب من الهلوسة الفكرية التى لا تصل بالعقل إلى منطق سديد، فضلاً عن عقيدة صحيحة، وما كان ذلك كذلك إلا بسبب أن المقدمة التى ساقها بطريك الإسكندرية والتى تقول بأن روح القدس هو روح الله مقدمة ساقطة خاطئة لا أساس لها من الصحة، ولا

(١) النصرانية والإسلام ص٤٥، الأستاذ محمد عزت الطهطاوى.

(٢) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٤٥.

يستطيع هو نفسه أن يقيم عليها دليلاً؛ لأن الأمر متعلق بذات الله تعالى، والإنسان حتى يوم الناس هذا لم ولن يستطيع أن يصل إلى معرفة روحه التى بين جنبيه، فكيف استطاع ذلك الرجل أن يرتقى إلى ذات الله تعالى، ويكشف لنا النقاب عن كنهها ويحدد لنا حقيقتها؟ إنْ هذا إلا إفكٌ مفترى.

(والحقيقة السائدة والصحيحة هى أن روح القدس خلقه الله واتخذه ليكون رسولاً بينه وبين من يريد أن يلقى عليه وحياً من خلقه أو أمراً كونياً)[1]. ولكن المجمع لم يكن ليفكر ولم يجتمع ليناقش، بل ليتخذ قراراً مبيتاً بليل، فيه يعلن ألوهية الروح القدس، ولعْن كل موحدٍ يقول بغير ذلك، وسرعان ما اتخذ القرار.

ويقول ابن البطريق فى بيان قرار المجتمعين: (زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمئة والثمانية عشر أسقفاً - الذين اجتمعوا فى نيقية - الإيمان بروح القدس الرب المحيى المنبثق من الأب... وأثبتوا أن الأب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاث خواص)[2].

ومن كلام ابن البطريق هذا نعلم أن العقيدة المسيحية التى بنيت على الثالوث هى من صنع البشر. والسماء منها براء، وإلا فما معنى قول ذلك الكاتب بأن هؤلاء زادوا فى الأمانة؟ إن الزيادة تعنى أن هذه الأمانة التى تشيِّد عليها عقيدتهم كانت ناقصة، ثم قدر لها أن تكتمل على يد هؤلاء المجتمعين فى القسطنطينية ٣٨١م، وإذا كان الأمر كذلك فما هو حكم من وضع أساس هذه الأمانة وهم الثلاثمئة وثمانية عشر رجلاً المجتمعون فى نيقية ٣٢٥م؟ إن بطريك الإسكندرية هو الذى يكشف النقاب عن هؤلاء وعقيدتهم فى قوله الذى نقله ابن البطريق والذى جاء فيه: (إن من لا يؤمن بكون روح القدس إلهاً يستحق اللعن، ويحكم عليه بالكفر)[3]. وهو بهذا - فى غفلة من أمره - يبين أن هؤلاء كفارٌ يستحقون اللعن والطرد.

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٣٢.

(٢) ابن البطريق ١/١٤٦.

(٣) راجع المرجع السابق ١/ ١٤٥.

وأقول إذا كان هؤلاء كفاراً وهم الذين وضعوا لكم اللبنة الأولى للثالوث، والتى تقول بأن المسيح إله فمعنى ذلك أن من يقتدى بهم ويسلم بصحة أقوالهم هو أيضاً فى عداد الكافرين، وبذا تكون العقيدة الثالوثية التى أرسيت قواعدها سنة ٣٢٥م فى نيقية، وتم بناؤها عام ٣٨١ فى القسطنطينية كانت من بدايتها إلى نهايتها تحت رعاية الكفار، والمسيح منهم براء.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن أمامنا هو: ما هى أدلة القوم على الوهية المسيح والروح القدس؟



المبحث الرابع: ما هى أدلة القوم على ألوهية المسيح والروح القدس؟

يرى بعض المسيحيين أن الذين تم على أيديهم إرساء عقيدة التثليث فى القرن الرابع الميلادى كانت لديهم أدلة كافية شافية على ألوهية المسيح والروح القدس سواء من الكتاب المقدس أم من واقع كلام المسيح ومعجزاته ونحن هنا سنذكر بعضها والرد عليها.

أولاً: ألوهية المسيح والأدلة عليها

١ ـ ما ذكره متّى فى إنجيله بأن رئيس الكهنة سألت السيد المسيح قائلاً: (أستحلفك بالله الحى أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الله الحى؟ قال له يسوع: أنت قلت)[١].

٢ ـ ما ذكره يوحنا أيضاً فى إنجيله: (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله... كل شىء به كان، وبغيره لم يكن شىء مما كان، والكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأيناه مجده مجداً)[٢].

٣ ـ ميلاد المسيح بغير أب دليلٌ عندهم أيضاً على ألوهيته، يقول صاحب كتاب «المسيحية فى الإسلام»: (اتخذت المسيحية منذ بدأتها الميلاد العجيب للمسيح برهاناً على لاهوته)[٣].

٤ ـ معجزات السيد المسيح التى صاحبته فى حياته يقول عنها صاحب كتاب «هل تجسد الله؟»: (إنها هى برهان قاطع على ألوهيته)[٤]. تلك هى أهم

(١) إنجيل متى إصحاح ٢٦/٦٣، ٦٤.   (٢) إنجيل يوحنا إصحاح ١/١، ٢، ١٤.

(٣) المسيحية فى الإسلام ص١٤٩ إبراهيم لوقا.

(٤) كتاب هل تجسد الله ص٤٠ الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة جاردن سيتى.

الأدلة على أساسها قرر المجتمعون فى نيقية سنة ٣٢٥م ألوهية المسيح، ونبذ عقيدة التوحيد.

نقد ومناقشة هذه الأدلة

أولاً: بالنسبة لما رواه متّى أو يوحنا لا يمكن أن يساق كدليل على ألوهية المسيح، خاصة إذا علمنا أن هذه الأناجيل هى من صنع متّى أو يوحنا أو من صنع الأجيال المتعاقبة ثم نسبت إليهم، ولا يستطيع النصارى أن يقيموا دليلاً واحداً على أن الصلة بين هذه الأناجيل وإنجيل عيسى، أو بين هذه الأناجيل وأصحابها لم تكن مقطوعة فى يوم ما. وبناء عليه فالاعتماد على الأناجيل لإثبات ألوهية المسيح عمل بعيد عن الصواب، ويؤكد ذلك ما ذكره الكاتب الكبير كالزوف Kalthoff الذى نقل إلينا الدكتور أحمد شلبى قوله: (بأن صورة المسيح بكل معالمها وملامحها أعدت قبل أن يُكتب سطر واحد من الأناجيل، وأن هذه الصورة هى من إنتاج الفلسفة العقلية (الميتافيزيقية) التى كانت إذ ذاك مسيطرة، وكانت آراؤها شائعة، وتكاد تكون عامة أو عالمية)[1].

ثانياً: وبالنسبة إلى النص الذى ساقه يوحنا فى البدء كان الكلمة... إلخ فإن دعاة الثالوث يفهمون منه أن الكلمة هى الله، وأن الله هو الكلمة، وأن هذه الكلمة، تجسدت وكانت المسيح، ومن ثم فالمسيح عندهم هو الله.

مناقشة النص ذاته

ومفهوم هذا النص لا يُسلّم به على هذا الوجه إلا كل إنسان قد اختل عقله، فهناك مثلاً:

أ - كلمة (فى البدء) أىّ بدء تعنى؟ ما حده الزمنى؟ وإذا كان له حد زمنى فهل يكون له متعلق بالله؟ وهل ذلك يليق بكمال الله الذى لا يحده زمان أو مكان.

---

(١) المسيحية ص١٤٧، د. أحمد شلبى.

ب ـ (وكان الكلمة الله). والكلمة كان فى البدء، فهل يعقل عاقل أن لله بدء؟ وماذا كان قبل البدء. إن الله تعالى كما يعرفه كل الموحدين أول بلا ابتداء.

ج ـ (والكلمة كان عند الله) ماذا تعنى كلمة العندية هنا؟ وكيف يتفق أن تكون الكلمة بدءاً يعنى الأولية المطلقة ثم توصف بأنها كانت عند الله؟ ثم كيف ترتفع هذه العندية ويكون الكلمة هو الله لا عند الله؟

ومع هذه التناقضات الواضحة لذلك النص اليوحانى والتى بدورها تحطم قرارات المجمع النيقوى فإن هؤلاء يتمسكون بأن المسيح هو الكلمة، وأن الكلمة قد تجسدت ولننظر هذه القضية أيضاً:

المسيح الكلمة وقضية التجسد

(إن الكلمة التى تعنيها المسيحية هنا ليست من كلمات الله التى خاطب بها أنبياءه أو خلق بها مخلوقاته بل هى ـ كما يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب ـ فكر الله أو عقله، فالمسيح هو منتوج هذه الكلمة، بل هو الكلمة ذاتها حل فى جسد بشرى، اتخذ من عذراء طاهرة وتجسد فيها)[1]. والسؤال الآن لماذا دعى المسيح (كلمة الله)؟ يقول القسيس منصور ـ صاحب رسالة التثليث والتوحيد ـ مجيباً: (وقد دعى المسيح كلمة الله استعارةً وتشبيهاً بالكلمة التى نتفوه بها وقت التكلم والكلمة هى:

أولاً: إعلان المتكلم (أى إظهارها)؛ لأنها ترجمان أفكاره وتبيان مقاصده ودليل على سجاياه، فكذلك المسيح هم إعلان الله للناس وبدونه لا نعرفه.

وثانياً: هى قوة المتكلم، فكذلك المسيح هو قوة الله الذى به خلق العالم.

وثالثاً: الكلمة هى ذات وجود دائم ملازم للعاقل الناطق فكذلك المسيح موجود أزلياً مع الأب، لذلك لقب بكلمة الله)[2].

(١) المسيح فى القرآن والتوراة والإنجيل ص١٤٦، الأستاذ عبد الكريم الخطيب.

(٢) رسالة التثليث والتوحيد ص١٧٤.

وأقول للقس يسى منصور صاحب هذه الأقوال إن سياقك لا أساس له من الصحة ويوم أن نقارن بين كلام الله وكلام البشر فاعلم أن ذلك تجديف فى حقه تعالى؛ لأنه يؤدى إلى الخلط بين المخلوق والخالق، وإذا كنت تقول بأن الكلمة هى إعلان عن المتكلم وترجمة لفكره فاعلم أن هذه الكلمة عبارة عن كيان منفصل عن ذات المتكلم، فالمتكلم شيء والكلمة شيء آخر، وواقع الحال يشهد بصحة ما نقول وفساد ما تقول. وقولك بأن الكلمة هى الذات بدليل أن من ينفخ فى المصباح ليطفئه لا يقال عنه بأن نفخته هذه هى ذاته حتى وإن كانت هذه النفخة هى القوة التى نفذت بها إرادته، والخطأ الظاهر قول ذلك القس بأن الكلمة هى ذات وجود دائم ملازم للعاقل الناطق؛ لأن ذلك لا دليل عليه، والصواب يتمثل فى كون الكلمة عمل متخلق من إرادة الإنسان يستدعيها فتستجيب له، وليست ذاتاً حالّة فيه ومتلبسة به، وإلا لحصل كون وجود ذاتين فى ذات واحدة، وبناء على ما سبق يتبين لنا أن كلمة الله لست هى الله.

هذا والقرآن الكريم حين ذكر كون المسيح كلمة الله لم يقصد مقصد النصارى، وإنما كونه خلق بكلمة الله كسائر المخلوقات، وقد تعرض الشيخ محمد رشيد رضا إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ (آل عمران: ٤٥)، قائلاً: (بأن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه وهى كقول القائل: ألقى إلى فلان كلمة سرنى بها، بمعنى أخبرنى خبراً فرحت به)[1]. ويقول فضيلة الشيخ الشعراوى: (إن البشارة كانت بالكلمة لأن الله تعالى يزاول سلطانه فى الملك بالكلمة؛ لا بالعلاج)[2]. وبناء على ذلك فالكلمة قد تطلق على بشارة المسيح لمريم بالميلاد، وقد تطلق على المسيح الكلمة هو الله. وأصحاب المسيحية الأولى الذين وجدوا قبل مجمع نيقية ومنهم القديس إثناسيوس المولود سنة ٢٩٧م كانوا يتصورون الكلمة بأنها مخلوقة لا خالقة، يقول هذا القديس: (وعندئذ يمكننا أن ندرك أن تجديد الخليقة كان من عمل نفس الكلمة التى خلقها الله

---

(١) انظر تفسير المنار ٣/ ٢٥٠ الشيخ محمد رشيد رضا.

(٢) مريم والمسيح ص٣٦، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى.

فى البداية)[1]، وصريحُ هذا النص ينطق بأن الكلمة مخلوقة لله كسائر كلماته، جل فى علاه.

ومع ذلك قالوا بأنها هى الله متجسد فى المسيح، ولنناقش الآن.

قضية التجسد

ونسأل: لماذا تجسدت هذه الكلمة بالذات فى شخص المسيح وما هى غاية هذا التجسد؟ يحاول العقل المسيحى الذى ألّه المسيح الإجابة على هذا السؤال قائلاً: (لم تكن غاية الله من التجسد أن يوفر الفداء لبنى البشر فحسب، بل ليعلن عن ذاته للبشر بصورة أكثر كمالاً)[2] ويقول القس يسى منصور: (والمسيح هو إعلان الله للناس وبدونه لا نعرفه)[3]. وبذلك نعلم أن السبب الأساسى الذى به تجسدت الكلمة هو إعلان الله تعالى عن ذاته، أما الغاية الكبرى فهى الفداء من الخطيئة التى وقع فيها آدم عليه السلام، وهنا يقفز سؤال:

لماذا يعلن الله عن ذاته؟

هل لأنه كان مجهولاً فى يوم ما؟ وهل من المعقول أن تصير الخلائق قروناً من الزمان طويلة لا تدرى من خالقها ورازقها؟ لا تدرى من يحرك الكون ويسير السحاب ويسخر الأنهار؟ وإذا كان الأمر كما تدعى المسيحية صحيحاً فمن إذن عرّف آدم ونوحاً وإبراهيم وداود وسليمان وأيوب وبقية الأنبياء بخالقهم؟! وإذا كانت المسيحية تقول بأن آدم عصى ربه ولم يتب فإن ذلك يعنى أن ربه كان إليه معلناً ومعروفاً، وإلا فليخبرنا هؤلاء أى رب هذا الذى عصاه آدم؟ وأى إله أوحى إلى موسى بالتوراة وأسفارها التى توجد بين ظرانيهم؟ حتى وإن سلمنا جدلاً بأن الله لم يعلن إلا حينما جاء المسيح فكم كانت المدة التى استعلن فيها؟ إن أصحاب كتاب «هل تجسد الله» يقولون: (ولمدة ثلاث وثلاثين سنة استمر ذلك

---

(١) تجسد الكلمة ص١٨ للقديس إثناسيوس الكبير، تعريب مرقس داود، الكنيسة الأسقفية.

(٢) هل تجسد الله؟ ص٥٦ أصدرته الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة جاردن سيتى، مصر ١٩٨٧م.

(٣) رسالة التثليث والتوحيد ص١٧٤، القسيس منصور.

الوصول بين الله والطبيعة البشرية بصورة بدت فيها الطبيعة البشرية واضحة جلية)[1]. ومعنى ذلك أن فترة الإعلان لم تستغرق سوى ثلاث وثلاثين سنة هى مدة حياة المسيح، وبعد ذلك عاد الأمر كما كان، وغاب الإله عن البشر، ونحن نتساءل أيضاً: ما حكم من لم يروا الإله منذ ذلك الحين إلى يوم الناس هذا؟ إنهم بلا شك قوم لا يعرفون لهم خالقاً، ومن ثمّ فلا يصح أن يدعوا أن هناك إلهاً، وهذا الحكم صادر عليهم من أصحاب قضية التجسد وليس منا. هؤلاء القوم الذين كان عليهم إن لم ينتبهوا إلى هذه الأمور، أن ينتبهوا إلى تلك السطور التى وضعت فى كتبهم، وهى بدورها تمنع رؤية الله متجسداً عن البشر. وأين؟ وفى إنجيل يوحنا الذى أثار قضية التجسد جاء فيه: (الله لم يره أحد قط... والابن الوحيد الذى فى حضن الأب هو خبر)[2]، يعنى هو رسول.

والإسلام يبين أن الجريمة الكبرى هى رؤية الله جهرة، قال تعالى لرسوله محمد - ﷺ - عن بنى إسرائيل: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ...﴾[3]. ويوم أن طلب نبى الله موسى رؤيته تعالى منعه وقال: ﴿لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[4]. وما كان ذلك كذلك إلا لأن هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع بتركيبته البشرية تحمل الأنوار الإلهية.

إن العلم الحديث يثبت أمامنا أن الأجهزة الكهربائية - كالتلفاز مثلاً - إذا ما زادت عليه قوة التيار الكهربائى وصل إلى درجة الاحتراق؛ لأنه معد لقوة معينة على قدر حجمه، وهو مصنوع بيد الإنسان الذى لم يستطع أن يقاوم بعينه ضوء الشمس، كيف به يقاوم ضوء الله خالق الشمس؟ وكيف به يستطيع أن يرى الله جهرة؟ إن العقلية المسيحية التى تؤمن بتجسد الإله لا أراها إلا أحط عقلية عرفتها البشرية، إن عقلية الرجل العربى البدوى الصحراوى التى

(١) هل تجسد الله؟ ص٥٩.
(٢) يوحنا ١/ ١٨.
(٣) سورة النساء آية: ١٥٣.
(٤) الأعراف آية: ١٤٣.

نشأت بين الرمال والأحجار لا بين الكنائس المزخرفة والفرش المبسوطة كانت أرقى درجة من العقلية المسيحية، لأن العربى كان لا يتصور أن يبعث الله بشراً رسولاً يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(١)، وهؤلاء يتصورون أن الإله ذاته أكل الطعام ومشى فى الأسواق وفدى البشرية من نفسه، وتلك أيضاً قضيةٌ كاذبة.

قضية الفداء قضية كاذبة

لأن الله تعالى تاب على آدم - عليه السلام - قال عز شأنه: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾(٢). ومن المغالطة الواضحة القول بأن الله لم يتب على آدم؛ لأنه هو التواب الرحيم، ومن كان هذا وصفه فإن باب رحمته لا يغلق أبداً، ولكن القوم أصرُّوا على إلصاق الخطيئة بآدم - عليه السلام - وغلق باب التوبة أمامه ووصل بهم الأمر أن يجعلوا حبل الخطيئة معلقاً فى أعناق ذريته إلى مجىء المسيح - عليه السلام - الإله ذاته المتجسد عندهم فيصلب من أجل غفران هذه الخطيئة وفداء البشرية، وسجلوا ذلك فى كتبهم المحرفة ظانِّين أنهم على حق فى أقوالهم، وأن هذا شرف لإلههم، علماً بأن هذه الحادثة إن صحت فهى وصمة عار تلحق بهم وبإلههم؛ لأنه لا يتصور كون إله خالق قادر يُقتَل ويُصلَب، وكتبهم ذاتها تعلن بأن كل من صلب على خشبة فهو ملعون.

والقرآن الكريم قد ناقش القضية وَبيَّن أن هناك حادث صلب قد وقع، ولكن ليس للمسيح والمسيح رُفع إلى الله تعالى. قال جلا فى علاه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(٣). وإذا كان حادث الصلب فى حد ذاته أسطورة فإن ما يترتب عليه أسطورة أخرى، تلك هى أسطورة (ابن الله الفادى) أو المخلص لأبناء لآدم من خطيئة أبيهم، هذه المقولة غير المعقولة لا تصلح أساساً للتعامل

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٧. (٢) سورة البقرة الآية: ٣٧.

(٣) سورة النساء الآية: ١٥٧.

البشرى، إذ إنها تنفى (المسؤولية الشخصية)، فكيف ارتضاها الله سبحانه لكى تكون سنته فى التعامل مع البشر؟ وإذا افترضنا أن واحداً من البشر ذهب إلى المحكمة متلبساً بجريمة قتل، يده ملوثة بالدم، وثبتت إدانته من كل وجه، أيحق له أو لمحاميه أن يدافع قائلاً: أنا قتلت ولكن زيداً من الناس سيتحمل عنى هذه المسئولية فحاكموه هو؟ فإذا كان ذلك لا يجوز فى عرف ومنطق البشر فكيف به يصح أمام عدالة الله القائل: ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ﴾[1]. والتوراة التى توجد بين يدى القوم تؤكد ذلك قائلة: (لا يُقتل الآباء عن الأولاد ولا يقتل الأولاد عن الآباء كل إنسان بخطئه يقتل). وبناء عليه فقضية فداء المسيح ـ المدعو إلهاً سنة ٣٢٥م ـ للبشرية قضية كاذبة خاطئة لا يرضى بها الواقع ولا تسلم بها الأديان الصحيحة.

ثالثاً: وبالنسبة لميلاد المسيح فقد عقدنا له فصلاً فى صدر الرسالة، وبيَّنا أنه لا يصلح أن يتخذ كدليل على ألوهية المسيح.

رابعاً: أما بالنسبة لمعجزات المسيح التى صاحبت دعوته فنحن فى الإسلام لا ننكرها؛ لأن المعجزة هى: (الأمر الخارق للعادة الذى قصد به إظهار صدق مدعى النبوة)[2]. والمسيح النبى الرسول كانت له كما يقول الشهرستانى: (آيات ظاهرة وبينات باهرة)[3] جاء ذكر بعضها على لسانه فى سورة آل عمران: ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4]. ولم تكن هذه المعجزات بمثابة التدليل على الوهيته، ولكنها بالتحقيق لصدق رسالته.

---

(١) سورة النجم الآية ٣٨.

(٢) محاضرات فى التوحيد ص٩، للشيخ صالح شرف.

(٣) الملل والنحل ص٣٩ للشهرستانى.

(٤) سورة آل عمران الآية: ٤٩.

ولقد نظر بعض القساوسة ـ كما ذكر ابن الخطيب ـ إلى هذه الآية الكريمة (وقالوا: إنها تدل على أن المسيح كان يعمل أعمال الله تماماً، ولذلك فهو الله)[1]، ونسى هؤلاء أن أعمال الله فى الخلق تختلف عن أعمال المسيح، فالله تعالى حين يخلق يخلق من عدم، والمسيح يوم أن خَلق خلق من الطين، والطين مادة موجودة أمام عينيه، فلو كان هو الله لخلق الطين أولاً، ومنه خلق الطير، وساعة أن نفخ الروح فيما صور قال: إن ذلك بإذن الله لا بإذنى. وإنجيل يوحنا أكد ذلك على لسان المسيح القائل: (أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً)[2]، فهل من المعقول أن ينسب الإله إلى نفسه عدم القدرة؟ فمن إذن يملك هذه القدرة إذا كان رب العالمين لا يملكها؟ نبئونا بعلم إن كنتم صادقين؟

أما مسألتا شفاء المرضى وإحياء الموتى فإنهما أيضاً لا يدلان على ألوهية المسيح، وإذا كان لوقا ذكر (أن هناك صبياً قد تقمصه الشيطان فانتهز يسوع الروح النجس وشفى الصبى وسلمه إلى أمه فبهت الجميع من عظمة الله)[3]، وإذا كان لوقا قد ذكر أيضاً (أن هناك عشرات المرضى شفوا من البرص على يده مرة واحدة)[4] فإن التوراة أخبرت أن نبى الله اليشع برئ على يديه نعمان السريانى الذى كان مريضاً بالبرص، كما أبصر عينى صبى أعمى)[5]. وإذا كان يوحنا أخبر (أن المسيح أحيا العاذر صديقه بعد أربعة أيام من موته)[6]، ولذلك فهو إله، فإن سفر الملوك الأول يروى أن نبى الله اليا (إلياس) أحيا ابن الأرملة ولم تقل له أم الصبى الآن علمت أنك الله، بل قالت: (الوقت علمت أنك رجل الله، وأن كلام الرب فى فمك حق)[7]. أما نبى الله حزقيال فقد جاء فى سفره أنه (أحيا جيشاً عظيماً جداً)[8]. فلو كان كل من شفى مريضاً أو أحيا ميتاً من

(١) راجع كتاب هذا هو الحق رداً على مفتريات كاهن كنيسة ص٧٧، لابن الخطيب.

(٢) يوحنا ٥/٣٠. (٣) انظر إنجيل لوقا ٩/٣٧ ـ ٤٢.

(٤) انظر إنجيل لوقا إصحاح ١٧/١١ ـ ١٦.

(٥) راجع سفر الملوك الإصحاح/ الخامس والسادس.

(٦) راجع يوحنا إصحاح/١١. (٧) سفر الملوك الأول إصحاح ١٧/٢٤.

(٨) انظر حزقيال إصحح ٣٧/١ ـ ١٠.

الأنبياء إلهاً لكثر فى الكون تعدد الآلهة، ولما استطاع العقل الإنسانى أن يقر لواحد منهم بالواحدنية. وإذا كان عُبّاد المسيح قد فتنوا بمعجزات المسيح ومن أجلها دعوة إلهاً فلماذا لم يفتتوا بإبراهيم جد المسيح يوم أن قطّع الطير ودعاه فجاءه سعياً؟ قال عز شانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. ولِمَ لم يفْتتوا بموسى الذى أخبر عنه فى سفر الخروج: (بأنه أخذ من النهر وسكب على اليابسة فصيّر الماء الذى أخذه من النهر على اليابسة دما)[2]؟ وهل كانت أعينهم فى غطاء عن يد موسى الذى قال له الرب: (أدخل يدك فى عبك، ثم أخرجها وإذا يده برصاء كالثلج، ثم قال له: رد يدك إلى عبك، فرد يده إلى عُبّه وإذا هى قد عادت مثل جسده)[3]؟ لماذا افتتن هذا بالمسيح ومعجزاته ولم يفتتوا بموسى كليم الله ورسوله؟ الذى أمره رب العالمين أن يلقى عصاه التى فى يده: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾[4] العصى الجامدة حولت بقدرة رب العالمين إلى حية تسعى أمام أعين الناظرين، ولم يقل أحدغ أن موسى إله من دون الله، علماً بان الأمر لا يقل فى روعته عن إحياء الميت، فلماذا يستحق المسيح الألوهية دون موسى؟! إن صاحب «كتاب الحق» هو كاهن مسيحى ناقشه ابن الخطيب فى كتابه «هذا هو الحق» وأدحض حججه أراد أن يبرهن على ألوهية المسيح بطريقة أخرى فقال: (إن المسيح يعلم كل شىء، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ (آل عمران: ٤٩)، ثم قال معجباً طربا: (لك المجد أيها المسيح إلهنا الذى كل شىء عريان ومكشوف لديك)[5]. وبذلك ظن ذلك الرجل المخمور أن المسيح استحق الألوهية؛ لأنه ينبئ قومه بما يأكلون ويدخرون

(١) سورة البقرة الآية: ٢٦٠.
(٢) سفر الخروج ٧/٢٠.
(٣) سفر الخروج ٤/٧٢٦.
(٤) سورة طه الآيات: ١٩ ـ ٢١.
(٥) كتاب الحق ص١٢٦ نقلاً عن كتاب «هذا هو الحق» ص٨٤ لابن الخطيب.

ونسى أن يوسف - عليه السلام - كانت لديه تلك الخاصة تماماً حين قال لصاحبيه فى السجن: ﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾[1]، ولم نر أحداً يعبد يوسف من دون الله، ولعل رجال التنويم المغناطيسى، ورجال الفلك فى زماننا يستحقون العبادة أيضاً؛ لأنه يمكنهم أن يصلوا إلى كثير من هذه الأشياء، وليس هذا طعناً فى المعجزات أو انتقاصاً من شأنها، ولكنه لبيان أن كل خارق للعادة إذا استوجب التقدير فلا يستوجب العبادة، حتى وإن ارتفعت هذه المعجزات إلى إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير وكشف بعض الغيبات، مادام القائم مستعيناً بالله، وإذا أراد النصارى إلزام الناس بتصديق معتقدهم فى المسيح فإننا نلزمهم بأن يأتوا إلينا بهذه المعجزات أمام أعيننا لنراها؛ لأنها معجزات حسية مرئية، ولكنهم لا يستطيعون؛ لأن المعجزة فى الأزمنة السابقة للإسلام كانت تنتهى بإنتهاء زمانها، أما الإسلام فمعجزته باقية بقاء الأزمنة وهى تتمثل فى القرآن الكريم، ولا تتمثل فى نبع الماء من بين أصابع النبى - ﷺ - ولا فى حنين الجذع ولا فى تسبيح الحصى.. إلخ؛ لأن هذه معجزات موقوتة بزمانها ونحن نصدقها، ولا نلزم الناس جميعاً بالقرآن الكريم، ولولا أنه تحدث عن بعض معجزات المسيح الرسول ما صدقنا إنجيلاً واحداً؛ لأنها أناجيل تحوم حولها الشكوك من كل جانب، فضلاً عن أن المعجزات ذاتها معجزات وقتية، وبذلك نكون قد بيّنّا أن المسيح الرسول لم يكن إلهاً فى يوم ما.

ثانياً: أدلة القوم على ألوهية الروح القدس

لقد حاول أصحاب الثالوث أن يقيموا أدلة على ألوهية الروح القدس المزعومة (سنة ٣٨١م) من كتبهم، ظانين أن هذه الفكرة أيضاً لها جذور فى اليهودية، ولذلك أكدت عليها المسيحية، يقول حبيب سعيد: (لعل فكرة ألوهية الروح القدس من أبرع الفكر التى اقتبسها علم اللاهوت المسيحى عن العهد القديم.. ثم يسوق قول المرنم: (أين أذهب من روحك ومن وجهك، أين أهرب؟).

(١) سورة يوسف الآية ٣٧.

(مزمور ١٣٩/ ٧). ثم يقول إن هذه الآية تؤكد ألوهية الروح القدس[1]. وينهض القديس إمبروسيوس إلى العهد الجديد فيسوق قول الرسل: (لأنه قد سر الروح القدس ونحن). (أعمال الرسل ١٥/٢٨). ثم يقول: وعندما يقول أى الرسل (قدس) فهم يشيرون ليس فقط إلى فاعل النعمة، بل أيضاً إلى مصدر تنفيذ ما أوصى به، وما قرأنا عن الروح القدس أنه سر، كذلك قيل عن الله؛ لأننا نقرأ عن الله انه سر، فالروح القدس هو الله الذى له مسرة خاصة وسيادة على قوته)[2].

نقد ومناقشة هذه الأدلة

إن ما ذكره حبيب سعيد لا يدل من قريب أو بعيد على أن العهد القديم فيه كلمة واحدة تدل على ألوهية الروح القدس، ويوم أن تعرّض العهد القديم للروح القدس أعطاه معان مختلفة من أهمها: أنه سفير الإله وحامل كلام الله إلى الرسل والأنبياء، يقول سفر الخروج:

أ - (ها أنا مرسلٌ ملاكاً أمام وجهك ليحفظك فى الطريق، وليجىء بك إلى المكان الذى أعددته، اختر زمنه واسمع لصوته، ولا تتمرد عليه؛ لأنه لا يُفصح عن ذنوبكم؛ لأن اسمى فيه)[3]. والعرف الدولى فى زماننا هذا يتفق على أن السفير هو ممثل الدولة ولرئيسها بالذات، وعلى ذلك فإن أى مساس بالسفير يعنى المساس برئيس الدولة. (فتعبيرات اسمى فيه) يعنى أنه يقوم مقام السفير بين الله سبحانه وتعالى، وبين خلقه ولم يكن إلهاً.

ب - وجاء أيضاً فى سفر صموئيل الأول: أن الله غضب من شاول ففارقه روح الرب إذ يقول: (وذهب روح الرب من عند شاول وبغتته روح ردىء من قبل الرب)[1]. وهنا نجد أن روح القدس يحل على الإنسان المطهر النقى، أما إذا أغضب ذلك الإنسان ربه فإن الروح القدس يفارقه ويصيبه روح شرير.

(١) الروح القدس فى العصر الحديث ص٢٢ حبيب سعيد.

(٢) الروح القدس الكتاب الثانى ص٥٦، للقديس إمبروسيوس، تعريب د. جورج بباوى.

(٣) سفر الخروج ٢٣/ ٢٠ - ٢١

(٤) صموئيل الأول ص١٦٥/١٤.

من هذا نرى داود يصلى داعياً ربه قائلاً: (قلباً نقياً اخلق فىَّ يا الله، وروحاً مستقيماً جدد فى داخلى. لا تطرحنى من قدام وجهك، وروحك القدس لا تنزعه منى)[1]. وهذا كله لا يعنى أن الروح القدس إلهاً، بل يعنى أنه خلق الله ينفذ أوامر خالقه ويتنزل بأمر الله على ما يشاء من عباده.

ج ـ وإذا نظرنا إلى ما ساقه القديس إمبروسيوس من العهد الجديد فإنه يعنى به أن الروح القدس والمسيح شىءٌ واحدٌ لا اختلاف بينهم، ومن ثم فالروح القدس إلهاً، وهذا خطأ فاحش قامت عليه العقيدة المسيحية التى تؤمن بالثالوث، وكتبهم تشهد بأن الروح القدس شخصية مختلفة عن المسيح وخالقه، فها هو إنجيل لوقا يقول: (لما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً، وإذ كان يصلى انفتحت السماء، ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة)[2].

وإذا كنا قد علمنا فى السطور السابقة أن الروح القدس كان مع أنبياء العهد القديم فإننا نراه هنا مع المسيح عند المعمودية، وهو معه فى التجربة، فالروح القدس ليس ثابتاً فى أحد، ولكنه يأتى للأنبياء حسب متطلبات الأحوال، وهذا يعنى أن ذات المسيح شىء وذات الروح القدس شىء آخر، يؤكد ذلك ما ذكره مرقس على لسان المسيح: (الحق أقول لكم إن جميع الخطاطا تغفر لبنى البشر والتجاديف التى يجدفونها، ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد)[3]. كل ذلك يؤكد أن الروح القدس شخصية تختلف عن المسيح، ولم تصل فى يوم ما إلى درجة كونها إلهاً. والآن نبين:

المفهوم الإسلامى للروح القدس

لقد جاءت عبارة الروح القدس فى القرآن الكريم، وقصد بها جبريل ـ ﷺ ـ، قال جل شأنه: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[4]. وهذا

---

(١) مزمور ٥١/١٠، ١١. (٢) إنجيل لوقا ٣/٢١ ـ ٢٢.

(٣) إنجيل مرقس ٣/٢٨ ـ ٢٩. (٤) سورة البقرة آية ٢٥٣.

يؤيد رسالة عيسى - ﷺ -، وجاء أيضاً ما يؤيد رسالة محمد - ﷺ - قال عز شـأنه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]. وكلها تفسر بجبريل - ﷺ - (قال ابن عباس - ٪ - : وتأييده بروح القدس وهو جبريل - ﷺ - ليدلهم على صدقه فيما جاءهم به، وقال محمد بن إسحاق:... إن نفراً من اليهود سألوا الرسول ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الروح، فقال: **«أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل، هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى؟ قالوا: نعم»**[2]. والتوراة أيدت كون روح القدس جبرائيل ﷺ، يقول سفر زكريا: (الوحى الذى أرسله الله بروحه عن يد الأنبياء)[3]. أى بوساطة روحه وهو جبريل ﷺ.

مما سبق يتبين لنا أن الإسلام لا يعنى بالروح القدس إلا جبريل ولم يكن ذلك الروح إلهاً، ولو كان إلهاً لكان له منهج وشرع معلوم به أوامر ونواهى، فهل يخبرنا أهل الثالوث عن المنهج الذى أمر به الروح القدس الإله عندهم كافة خلائقه من البشر ليسيروا عليه؟ أم أنه إله بدون منهج خلق الخلق وتركهم فى الظلمات يتخبطون؟ تعالى الله عما يقول المبطلون علواً كبيراً.

---

(١) سورة النحل آية: ١٠٢.

(٢) انظر تفسير ابن كثير لسورة البقرة الآية ٢٥٣، وسورة النحل الآية ١٠٢.

(٣) سفر زكريا ١٢/٧.

الفصل الرابع

الفرق النصرانية وأثرها
فى تحريف النصرانية

تمهيد:

لقد بدأت العوامل المؤثرة فى ظهور الفرق فى النصرانية منذ النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وكان كل منها يرى فى العقدة رأياً يخالف الأخرى، وكانت شخصية المسيح نفسها هى موضوع الخلاف ومحوره.

فقد ظل الكثيرون بعد رفع عيسى - عليه السلام - على إيمانهم بطبيعة المسيح كما عرفوه من قبل بشراً رسولاً، لم يرفعوه عن هذا المقام، وكان من هؤلاء «الجماعة الأولى» التى تحدثنا عنها، وأتباع آريوس وغيره من الداعين إلى التوحيد.

ويذكر بعض الباحثين أنه قد وجد فى حياة المسيح من حاول أن يرفعه عن هذا المقام - مقام الرسالة البشرية -، بالنظر إلى الخوارق والمعجزات التى جاء بها.

وكأن المسيح - عليه السلام - ساوره الشك فى بعض الأتباع من غير الحواريين فى فهمهم لحقيقته وحقيقة دعوته فقال لهم يوماً: «وأنتم من تعرفون أنى هو؟ أجاب بطرس: أنت المسيح»[1].

وقد ورد فى أعمال الرسل ما يؤكد وجود هذه النزعة المغالية من تأليه الأفراد لما يجرى على يديهم من خوارق المعجزات: «فالجموع لما رأوا ما صنع بولس رفعوا أصواتهم قائلين إن الإلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فلما سمع

(١) متى ٨/٢٩، طبعة الأرثوذكس.

الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما ووثبا نحو الجميع صارخين وقائلين: أيها الرجال لماذا تصنعون هذا نحن بشر نقبل الآلام مثلكم ونحن نبشركم بأن ترتدوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحى الذى صنع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها»[1].

وهكذا ذهب بعض الكتاب إلى أنه قد شاعت بعد رفع المسيح ـ عليه السلام ـ فكرة تأليهه عند بعض الفرق، ووضعت البذور الأولى لهذه الفكرة فى حياة المسيح، وإذا كانت قد وجدت البذور الأولى فى حياة المسيح ـ عليه السلام ـ وواجهها، فإنها ـ وبعد رفعه ـ وجدت ما ينميها ويبرزها[2]، فظهرت إلى الوجود، بدءاً بما نادى به بولس من ألوهية المسيح وبنوته لله، وما تبع ذلك من العقائد المختلطة بالوثنية فى البلاد التى دعا فيها إلى النصرانية مما يتواءم مع ديانتها.

ومهما يكن فإن ديورانت يقرر أن النصرانية مضى عليها نصف قرن من الزمان لاح فيها أنها ستؤمن بالتوحيد، وتتخلى عن عقيدة ألوهية المسيح[3]. يقصد بذلك أيام آريوس ودعوته.

كان لتمسك هؤلاء الموحدين الأثر الأكبر فى شدة الاختلاف بين طوائف النصرانية الأولى، حيث تباعدت شقة الاختلاف بينهم وبين غيرهم من غير الموحدين تباعداً شديداً.

وكان الخلاف يدور حول هوية المسيح:

أهو رسول من عند الله فقط من غير أن تكون له منزلة أكبر من شرف السفارة بين الله وخلقه؟ أم له بالله صلة خاصة يكون فيها أكبر من مجرد رسول، بحيث يكون فيها من الله بمنزلة الابن لأنه خلق من غير أب؟ أو يكون ابناً لله له صفة القدم كما لله تلك الصفة؟ وكل يزعم أن نحلته هى النصرانية

---

(١) أعمال الرسل ١٤/ ١١ ـ ١٥، طبعة الأرثوذكس.

(٢) راجع إنجيل برنابا بين الإسلام والنصرانية، ص٨٩، دعوة التوحيد، ص٢٢٨.

(٣) راجع قصة الحضارة، ١٢/ ٢٠.

الصحيحة التى جاء بها المسيح - ﷺ - ودعا إليها تلاميذه من بعده[1].

ونتيجة لهذه الاختلافات وتباين تلك العقائد والمذاهب التى استمدها كل مذهب من بيئته انتشر الشقاق بين النصارى وتشعبت نظرهم منذ العصور الأولى[2].

ما كان من أمر الخلاف بين بولس والجماعة الأولى بعد مجمع أورشليم، واستمرت الخلافات وتطورت وإن كانت بقيت فى أكثر الفترات كامنة لا تظهر إلا فى حالات فردية فى فترات الاضطرابات والكوارث التى نزلت بهم، ولا ننسى فى هذا المقام ما كان من بولس وأتباعه فيما بعد من إعراض عن الجماعة الأولى ومبادئها، وبالتالى إعراض عن النصوص التى بين أيديهم شفوية كانت أم مكتوبة.

وما لاح القرن الثانى حتى كانت قد فشت فى النصرانية آراء ملتوية ومذاهب شاذة حادت عن الرسالة المسيحية الأولى وجوهر الإنجيل[3].

ولم توجد الكتب التى تعين على تقوم هذه المقالات، وكل نحلة تروج بين الناس بقوة الداعى وحجته، لا سيّما أنه كان قد رسخ فى أذهان الناس تعظيم المسيح - ﷺ - ثم انتقلوا من التعظيم المعقول إلى الغلو المرذول[4].

وهكذا كثرت الفرق والمذاهب فى القرون الثلاثة الأولى بعد رفع المسيح ﷺ، فتكونت نتيجة لهذه الاختلافات والفرق المجامع المسكونية - التى بدأها قسطنطين بمجمع نيقية سنة ٣٢٥م وما تلاه - وأصبحت تمثل ركناً من أركان التنظيم الكنسى[5].

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٢٢، باختصار، دعوة التوحيد، ص٣٢٢.

(٢) راجع الاضطهاد الدينى، ص٤٩، دعوة التوحيد، ص٣٢٢.

(٣) فى موكب التاريخ عشرون قرناً، حبيب سعيد، ص١٩، دعوة التوحيد، ص٣٢٣.

(٤) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٤، ١٥٥.

(٥) راجع دعوة التوحيد، ص٣٢٤.

وإن كان د. رؤوف شلبى يرى أن المجامع وما نتج عنها كان سبباً فى تأصيل ظهور الفرق المسيحية وتبلورها[1].

أما القضايا العقدية التى دارت حولها اختلافات الفرق ـ وكانت من أهم العوامل فى تكوين تلك الفرق والتى لعبت بها الأهواء والفلسفات المختلفة دوراً كبيراً ـ فنتركز فيما يأتى:

١ ـ ظهور فكرة الإله المثلث الأقانيم ومحاولة تأصيل مفردات الثالوث الأقنومى عند بعض الفرق.

٢ ـ النزاع حول هوية المسيح من حيث ولادته وفاته.

٣ ـ النزاع حول ألوهية الروح القدس.

٤ ـ النزاع فى طبيعة المسيح عليه السلام، ودعوى الناسوت واللاهوت.

٥ ـ النزاع حول انبثاق الروح القدس.

٦ ـ قضية الصلب وأنها من صميم العقيدة النصرانية.

عصور ظهور الفرق فى النصرانية

ويمكن أن نقسم عصور النصرانية إلى ثلاثة عصور من حيث ظهور الفرق ونشوؤها:

١ ـ عصر التوحيد: والدعوة إلى التوحيد ظاهرة فى بدء دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ إلى رفعه، ثم بدأ ظهور الخلاف والانحراف بعد رفعه ـ عليه السلام ـ ابتداءً من دخول بولس النصرانية حتى انعقاد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. وقد كان للتوحيد فى هذه المرحلة ظهور واضح، كما أن بذور الفرق والانحرافات قد انغرست فى ذلك العصر.

٢ ـ عصر التثليث: وبدايته من إقرار مجمع نيقية لألوهية المسيح عليه السلام، ثم ما تلا ذلك بفترة وجيزة من إقرار ألوهية الروح القدس فى مجمع القسطنطينية

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص١٢١.

سنة ٣٨١م، وما تلاه من المجامع التى أقرت وثبتت التثليث فى قرارتها.

٢ ـ **العصر الأخير:** (عصر الانقسام) ويبدأ بانعقاد المجمع الثامن:

ـ المجمع الثامن الغربى اللاتينى المنعقد سنة ٨٦٩م.

ـ المجمع الثامن الشرقى اليونانى المنعقد سنة ٨٧٩م واللذان تولد عنهما انقسام الكنائس إلى كنيسة شرقية وأخرى غربية[١]، وأصبح لكل كنيسة طائفة تابعة لها تنادى بأراء معينة تخالف بها الطائفة الأخرى كما سنوضح فى هذا الفصل:

أولاً: عصر التوحيد:

لقد نشأ الصراع فى هذا العصر حول قضية ألوهية المسيح، وانقسم النصارى بين معارض لهذه الفكرة وهم الموحدون وبين مؤيد لها وهم المنحرفون[٢].

ويشمل كل من الفريقين جملة من الطوائف، وذلك على النحو التالى:

الموحدون

كان التوحيد هو الطابع العام للنصرانية فى أول أمرها كما ذكرنا آنفاً. فقد كان هو عقيدة الجماعة النصرانية الأولى. وتشير المصادر النصرانية إلى أسماء أشخاص موحدين عرفوا بإنكارهم لألوهية المسيح ـ ﷺ ـ وقولهم بالتوحيد، وإن ورد فى معتقداتهم بعض الأقوال المختلفة لكى يجمعهم إنكار ألوهية المسيح ومنهم: كورنثوس، أمونيوس السقاص، كريوكراتس، بالجيوس. حيث وردت أسماؤهم فى الرسائل[٣].

---

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص١٢١، ومحاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٩.

(٢) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ص٠ ٢٠٣/١، «النصرانية من التوحيد إلى التثليث»، ص١٦٦م، «الدين والدولة» لابن الطبرى، ص١٩٩، ٢٠٠، «الرد على النصارى» للجعفرى، ص٧١، ٧٢، «الفكر الإسلامى منابعه وآثاره»، ص٣٩ ـ ٤١، «كشاف اصطلاحات الفنون» ١٢٨٥/٣، «المغنى» ٨١/٥ ـ ٨٥، «تاريخ الفلسفة فى الإسلام» ص٢٠، «البدء والتاريخ» ٤٢/٤ ـ ٤٦.

(٣) راجع تفصيل أقوالهم فى دعوة التوحيد، ص٤٢٨ ـ ٤٣٥، تاريخ الكنيسة يوسيبيوس ١٥٧/٣، تاريخ الأقباط ١٤٣/١.

أما بالنسبة للفرق الموحدة فقد ظهرت فى العقود الأولى بعض الفرق القائلة بالتوحيد المجرد وإن لم يبلغوا حد الشهرة، وقوة النفوذ ونقاء المعتمد، فعندها جانب من الانحرافات التى شاعت أو كانت شائعة بالنسبة لقصورهم عن فهم دعوة المسيح ﷺ، ولكنهم رغم ذلك يجمعهم القول بالتوحيد ونفى تأليه المسيح(١). وقد كانت هذه الفرق امتداداً للجماعة الأولى ـ كنيسة بيت المقدس.

ومن أهم هذه الفرق:

١ ـ الأبيونيون

وقد عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل «أبيونيم» والتى ربما تعنى الأغمار لأنهم كانوا من نكرات اليهود، وقيل إن هذا الاسم هم الذين أطلقوه على أنفسهم بمعنى أنهم الفقراء إلى الله(٢).

وزعم صاحب كتاب «تاريخ الكنيسة» أنهم سموا بالأبيونيين لأنهم اعتقدوا فى المسيح اعتقادات فقيرة، فهذا الاسم يعبر عن فقرهم فى التفكير(٣)، وليس «أبيون» اسم زعيم هذه الفرقة فتنسب إليه كما ذهب د. وافى(٤). فإن زعيمها يدعى «سيرنيش الفريسى»(٥).

ورث الأبيونيون الجماعة الأولى فى الشام والعراق، وهناك تشابه كبير بين هذه الجماعة وجماعة وادى قمران كما تدل عليه مخطوطات البحر الميت، وقد استدل بهذا كثير من الباحثين على أن جماعة الفقراء هذه قد مثلت الحق وهى البقية الصالحة مما كان عليه النصارى فى أول أمرهم(٦).

وقد ظهرت هذه الفرقة بعد خراب أورشليم سنة ٧٠م، وقيل ظهرت فى

---

(١) يجب ملاحظة أن المعتمد فى الحديث عن هذه الفرق من حكاية خصومهم عنهم واحتمال الكذب والافتراء وارد هنا.

(٢) راجع الموسوعة النقدية، ص٤٢. (٣) تاريخ الكنسية، يوسيبيوس، ص١٥٥.

(٤) الأسفار المقدسة، وافى، ص١٢٤. (٥) الموسوعة النقدية، ص٤٢.

(٦) مذكرات الأديان.

أواخر القرن الثانى الميلادى[1]. وقد رفضوا القول بألوهية المسيح وقالوا: إن المسيح ليس سوى نبى.

وأطلق على هذه الجماعة أتباع كنيسة الختان لرأيهم فى وجوبه، وقد أخذت هذه الفرقة على عاتقها محاربة بولس، وقد أقروا جميع شرائع موسى، واعتبروا عيسى المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم.

وقد انتشرت أفكارهم فى فلسطين والأقطار المجاورة ومراكز الشتات بل وبلغت روما، ثم انقرضت فى أواخر القرن الر ابع الميلادى ـ أى بعد مجمع نيقية ـ بقوة الحكم والسلطات.

وتعتمد هذه الجماعة إنجيلاً غير الأناجيل الأربعة التى اعتمدت فى هذا المجمع يقال له: «إنجيل العبرانيين» أو «إنجيل الأبيونيين»[2].

٢ـ جماعة «الموحدين لله»

وهم جماعة موحدة، والفرق بينهم وبين الجماعة السابقة أنهم كانوا يستخدمون اليونانية، وكانوا يواجهون النصارى المبتدعين الذين تأثروا بالديانة والثقافة اليونانية، ولذلك كانت هذه الجماعة أكثر انتشاراً فى بلاد الشام وما جاورها.

ظهرت هذه الجماعة فى أواخر القرن الثانى وبدايات القرن الثالث، وقالوا بأن الملك لله تعالى الواحد وليس معه ثان. وقد سماهم مخالفون برافضى الكلمة لأنهم رفضوا أن يكون الكلمة أى المسيح ـ ﷺ ـ إلهاً، لكنهم أقروا بأنه ـ ﷺ ـ كلمة من الله ولدته البتول، ورفضوا دعوى المؤلهين بأن الكلمة والروح القدس إلهان، وأكدوا وحدانية الخالق.

(١) الكنيسة المسيحية فى عصر الرسل، ص٢٦٦ نقلاً عن رسائل الرسل.

(٢) راجع محمد فى التوراة، الطهطاوى، ص٨٦، اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص٢٩٧، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص٨٦، ٨٧، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٠٨، ١٢٤، المسيح فى مصادر العقائد المسيحية، ص٣٧.

وأهم ممثليها أرتِيَمون (ت ٢٣٠م) فى روما وثيودوتس (ت٢٢٠). وقد ذكر أرتيمون أن عقيدة النصرانية الأصيلة الإقرار بعقيدة التوحيد الذى أنكره المبتدعون. وذكر أن جميع الأساقفة كانوا على القول بالوحدانية إلى أيام فكتور (١٨٩ ـ ١٩٩م)[١].

٣ ـ الشمشاطيون

وهم أتباع بولس الشمشاطى، كان أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٥م[٢]، من أتباع أرتيمون، وكانت عقيدتهم التوحيد الخالص، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه إنسان لا إلهية فيه البتة[٣]. ويضيف النشار فى عقيدة بولس الشمشاطى، أنه كان يرى أن الله كرمه وسماه ابنه على التبنى لا على الولادة والاتحاد[٤]. وأن الله جوهر واحد وأقنوم واحد، وهو وأتباعه لا يؤمنون بألوهية الكلمة ولا بألوهية الروح القدس.

ويسمون عند بعض المؤرخين بالبوليقانيين. وابن البطريق عندما يشرح مذهب بولس الشمشاطى يؤول كلامه بما يوحى أنه من المثلثين[٥]. وإن كان كلام الشمشاطى لا يوافق عقيدة المثلثين بحال. وقد تعرض فى تاريخ الكنيسة للاتهام بأنه من أكبر هراطقة الكنيسة فى العصور الأولى[٦].

وقد عقد فى أنطاكية ثلاثة مجامع فى الفترة من سنة ٢٦٤م إلى سنة ٢٦٩م للنظر فى أمره، وقررت هذه المجامع حرمانه وطرده، لكن بقى مذهبه

---

(١) اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس، ص١٠٥.

(٢) راجع محمد فى التوراة، الطهطاوى، ص٨٦، اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص٢٩٨، الملل والنحل، ص١١٢، ١١٣، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٢٤.

(٣) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٥١، الفصل، ص١٠٩، ١١٠.

(٤) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، النشار، ص٩٧، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٢.

(٥) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة ، ص١٥١.

(٦) تاريخ الكنيسة، ص٣٧٩.

وأتباعه حتى انقرضوا فى القرن السابع الميلادى[1]. بعدأن أصبحت عقيدة التثليث عقيدة النصارى بصفة عامة. كما سنرى فيما بعد.

٤ ـ الأريوسيون

وهم أتباع أريوس (٢٥٠م ـ ٣٣٦م) المشهور بالموحد، كان قسيساً فى الإسكندرية فى بداية القرن الرابع الميلادى، وعرف بنشاطه الدينى، واعترف به الأسقف الجديد «إسكندر» الذى تولى ـ رئاسة كنيسة الإسكندرية ـ عام ٣١٢م.

وكان اعتقاده بأن المسيح مجرد بشر وليس إلهاً وابناً لله[2]. وننقل أحمد عبد الوهاب: أن أريوس قد حاول أن يثبت أن المسيح هو الكلمة ـ كلمة الله ـ وبناء عليه فإنه لا يشارك الله فى وجوده الحقيقى، إنه من جوهر مختلف عن جوهر الله الأب، فهو ليس أزلياً مع الأب، وهو مخلوق رغم انه أول المخلوقات وأرقاها، وقد كان هناك زمن لم يكن الابن فيه موجوداً.

وينقل عنهم مخالفوهم أن الأريوسية ترى أن المسيح أرقى المخلوقات، به خلق كل شىء، وله علاقة خاصة مع الله فهو مخلوق ربانى، ولكن العلاقة بينه وبين المخلوقات تتوقف على العطاء الإلهى، والروح يقف بجانب الابن كجوهر ثان مستقل[3].

وقد خلف «اثناسيوس» «إسكندر» فى رئاسة كنيسة الإسكندرية، وقد خالف أريوس فى عقيدته حيث ذهب إلى أن المسيح إله غير مخلوق يشارك الله فى أزليته، وكذلك الروح القدس فالأب إله والابن إله والروح القدس إله، فمن أراد أن يخلص نفسه ـ حسب زعمه ـ فعليه أن يعتقد بالثالوث[4].

(١) راجع محمد فى التوراة، ص٨٦.

(٢) راجع مختصر تاريخ الكنيسة ١/ ٢٧٦ ـ ٢٨١، فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية، ٢/٢٨٧.

(٣) راجع طائفة الموحدين، ص١٠، ١١، ١٦، فلسفة الفكر الدينى ٢/٢٨٧، تاريخ الأقباط، ص١٥٠ بتصرف، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص٨٨، رسائل الرسل، ص١٦٢ ـ ١٧، History of dogma p8 - 20.

(٤) راجع نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٢، ٤٣.

وقد تشيع لأريوس الكثيرون فى الإسكندرية وفلسطين ومقدونية والقسطنطينية وحصلت افتراقات عدة داخل كنيسة الإسكندرية فى تلك الفترة، وفى سنة ٣٢٥م. حكم مجمع نيقية بطرد أريوس من الكنيسة وكفره وأصدر قراره بألوهية المسيح، فبدأت فرقته فى الانقراض[١].

ولم يكن أريوس أول من دعا إلى هذه العقيدة، فبعض المصادر النصرانية تذكر أن مرقس كان ينكر ألوهية المسيح[٢].

وبعد أريوس كان ملتوس قسيس كنيسة أسيوط، ذهب مذهب أريوس فى عقيدة التوحيد، وقد انقرضت الفرقة الأريوسية ومن تبعها بعد مجمع نيقية[٣].

ثانياً: المنحرفون

فى هذا العصر وبجوار الموحدين، وجدت آراء من دخلوا فى النصرانية وفيهم بقايا وثنية، ففهموا النصرانية على ضوء ما عرفوه وما استقر فى نفوسهم من آراء ومعتقدات سابقة، وهذه الفرقة هى:

١ ـ البولسية:

نسبة إلى بولس (شاؤول اليهودى) ويعتبر وهو أتباعه أول طائفة ظهرت فى مقابل الجماعة الموحدة الأولى.

وقد عقدنا كتاباً خاصاً للحديث عن انحرافات بولس وتحريفاته التى أدخلها على عقيدة التوحيد فى النصرانية وأشاعها بين أتباعه «نشر دار النافذة». وتعتبر الفرق الخارجة عن التوحيد فى هذا العصر من ذيول جماعة بولس الأولى.

---

(١) راجع محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، الطهطاوى، ص٨٧، أضواء على المسيحية، ص١٢٢، طائفة الموحدين، ص١٢، ١٣.

(٢) نشأة الطوائف المسيحية، ص٢٩، ٣٠.

(٣) محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، الطهطاوى، ص٨٧.

٢ ـ الغنوصية الباطنية

ظهرت فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى الميلادى، ويذكر الباحثون أنها مهدت السبيل للنصرانية الهللينية، وكان ظهورها فى الإسكندرية، ويرجع الباحثون أصلها إلى يهودا حادوا عن الطريق الصحيح. وتنسب إلى سيمون الساحر السامرى الذى واجهه يعقوب وبطرس وقد زادت فتنتهم بعد سنة ١٣٥م وكانت تهدف إلى فصل النصرانية عن اليهودية وإلباسها ثوباً هللينياً، فأدخلوا الفلسفة الهللينية عليها، واشتهروا بطقوس الإباحية والفحشاء، ورفض التشريع.

وقد قالوا بإلهين إله الخير ويقابله إله الشر خالق المادة والشر. وتدعى العالمية وترفض حصر الدعوة فى بنى إسرائيل، وقد اندثرت هذه الطائفة ومن ينتسب إليها، ولكنها مهدت قبل اندثارها لتحريف النصرانية الحقة وظهور النصرانية المثلثة[١].

ومن العلماء من ذهب إلى أن المذهب الغنوصى ظهر أو يعود إلى «ساتورينيوس» الذى كان يعلم فى أنطاكية زمن تراجان، وقد ذهب إلى أن العلم نشأ بواسطة سبعة ملائكة أحدهم كان إله اليهود، وهذا العالم يحتوى على شعلة الحياة من الأب، ولقد نزل المخلص الذى لم تكن له ولادة بشرية ولا جسماً بشرياً لمساعدة الطيبين الذين لم يكونوا يملكون هذه الشعلة، ويكون الخلاص من خلال الزهد والتنسك ونجحت هذه التعاليم بصورة محلية فى سوريا، ثم انتقلت إلى أبعد من ذلك.

ومن الغنوصيين فى الإسكندرية «باسيليديس» وكان يدرس فى الإسكندرية ١٣٠م، اعتمد على مذهب الرواقية، فعنده أن الله الأعلى هو عدم الوجود، وأسفل منه توجد ٣١٥ سماء، والتى نشأت منه والتى لا نرى منها إلا أدنى سماء وآخرها، وهذا هو موطن الملائكة الخالقة التى منها يعتبر إله اليهود هو

(١) راجع A study of early chiristianity، ص٣١٦، ٣١٧، نشأة الطوائف، ص٤٠، History and thought of the early church، ص٤٥.

الرئيسي، وهذا الهبوط من عدم الوجود إلى العالم المادى لم يكتمل دون عوائق، ودخلت الفوضى. والهدف إعادة الإنسجام ومع هذا الهدف نزل الإنجيل المتطابق مع الأعلى وحل فى يسوع ابن مريم وهكذا، ثم أخذ يسوع الذى أوحى إليه دون معاناة لأنه عند الصليب كان سيمون السريانى هو الذى مات فى الحقيقة.

وقد ألف باسيليديس أربعة كتب من التفاسير حول الكتاب المقدس، وكان أول نصرانى يسجل اسلماً فى شرح فلسفة الدين المرتكز على النصرانية والمستمد من مصادر يهودية وثنية[1].

وأعظم شخصيات المذهب الغنوصى «فالنتينوس» والذى كان يعلم لروما أثناء حكم أنطونيو، أى زمن كتابة راعى هيرمس[2]. كان فالنتينوس: أكثر تأثيراً من «باسيليديس» (ت١٦٥م) وكان يرى مثل «باسيليدس» أن الله كائن فردى متعال لا يمكن معرفته، لكنه لم ينشأ من العدم التام، وقد احتفظ هو وأتباعه بإطار يهودى إلى حد كبير فى أسطورتهم فى الخلق[3].

٢ـ المرقيونية

وتنسب إلى مرقيون (٨٥ ـ ١٦٠م)، وكان من أهم زعماء الفنوصية الباطنية التى تحدثنا عنها آنفاً، وكان مرقيون قسيساً من رجال القرن الثانى الميلادى، اعتقد بوجود إلهين: أحدهما عادل اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً له وأنزل عليهم التوراة، والإله الآخر إله الخير ظهر متمثلاً فى المسيح وخلص الإنسان من الخطايا وأبطل أعمال الإله الأول، وذهب د. أحمد شلبى والشيخ أبو زهرة إلى أنه كان يقول إن الآلهة ثلاثة صالح وطالح وعدل بينهما[4].

وبناء على هذا فإن هذه الطائفة لم تكن ترى قدسية لكتب العهد القديم بل

---

(١) The rise of christianity، ص٢٠٥.

(٢) History and Thought of the early church، ص٤٨، ٤٩.

(٣) The rise of christianity، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٤) أضواء على المسيحية، ص١٢٢، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٢، ١٥٣.

ترفضها جميعاً، ولا تعتمد إلا على إنجيل خاص بها وهو إنجيل (مرقيون) وقد اقتربت هذه الطائفة من ديانة زرادشت بقولها بوجود إلهين وانقرضت فى القرن العاشر الميلادى[١].

وذكر صاحب كتاب نشأة الطوائف المسيحية أن مارسيون أو مرقيون صنف اول قائمة بالكتب وأعطاها لقبها الرسمى قائمة رسمية للأسفار المقدسة (Canon)، التى عتبرت بأن لها سلطان الرسل، وفى نهاية القرن الثانى ظهرت قائمة (Canon)، تتضمن معظم كتب العهد الجديد كما هى اليوم[٢].

٤ ـ البربرانية

وهى فرقة كانت تعتقد أن المسيح وأمه إلهان من دون الله، أطلقوا على انسهم المريميين، وقد ظلت حتى القرن السابع الميلادى[٣].

٥ ـ فرقة إليان

ذهبت إلى القول بأن المسيح إله وأنه ابن إله مر فى البطن كما يمر الماء فى الميزاب، لأن الكلمة الابن دخلت من إذنها وخرجت لتوها من حيث يخرج الولد، وإن ما ظهر فى شخص المسيح وقتله وصلبه فى أعين الناس هو خيال شبيه بالصورة التى تظهر فى المرآة، وقد انقرضت هذه الفرقة بعد القرن الثالث عشر الميلادى وكان لها أتباع فى اليمن والشام[٤].

---

(١) الميزان فى مقارنة الأديان، ص١٠٤، الفهرست، ص٤٨٤، اليهودية والمسيحية، الأعظمى ص٢٩٦، نشأة الفكر الفلسفى، ص١٨٩، وافى، ص١٢٢، وقد ذكر أنها انقرضت فى القرن العشرين.

(٢) نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٠، ٤١، وانظر المسيحية بين التوحيد والتثيث، ص٨٤، History and Thought of the early church ص٥١.

(٣) اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص٢٩٦، الميزان فى مقارنة الأديان، ص١٠٤، أضواء على المسيحية، ص١٢٢، الفصل ٤٨/٢، والمسيحية بين التوحيد والتثليث، ص٨٣، ٨٤.

(٤) اليهودية والمسيحية، الأعظمى، ص٢٩٦، الميزان فى مقارنة الأديان، ص١٠٤، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص٨٢، ٨٣، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٢.

تلك كانت أهم الفرق التى حادت عن طريق التوحيد - وإن ظهرت فى عصره -، وخرجت بالنصرانية عن طابعها الأصيل فجاءت فى صورة فكر مشتت لا يستقر على مبدأ.

والناظر فى تاريخ ذلك العصر يجد أنه أفرز فرقاً كثيرة وخطيرة جداً على ديانة المسيح - ﷺ -، حيث غيرت ديانته وظهرت المذاهب والأقوال العديدة فى المسيح وتعاليمه[1].

وفى هذا يقول «سلسس» ساخراً: إن المسيحيين تفرقوا شيعاً كثيرة حتى أصبح هم كل فرد منهم أن يكون لنفسه حزباً[2].

واستطاع إيرينيوس أن يحصى عام ١٨٧م عشرين شيعة مختلفة من النصارى. وأحصى إيفانيوس فى عام ٣٨٤م ثمانين[3].

وقد كان ظهور الفرق المنحرفة فى أواخر هذا العصر إرهاصاً لظهور الفرق فى عصر التثليث.

ثانياً: عصر التثليث

بعد مجمع نيقى أبعد التوحيد رسمياً من الديانة النصرانية، إلا أن الحكومة الرومانية لم تستطع أن تقضى على التوحيد بذلك المجمع، ولكنها أخذت تبعد الموحدين عن مكان الرئاسة فى الكنائس، وبكل الوسائل حتى حيل بين العامة وبين صوت التوحيد، وعندئذ كانت الفرق التى تظهر بعد ذلك كما يقول الشيخ أبو زهرة فى ظل الوهية المسيح فى الجملة إن استثنينا مقدونيوس وفرقته[4].

---

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى ٣٩٦/١، تاريخ الكنيسة جون لوريمر ١٢٠/١، ١٠٢/١ - ١٢٣، ٤٩٠/١ - ٤٩٧، ٥٩٢ - ٦٢٠.

(٢) قصة الحضارة ١١/ ٢١٤.

(٣) قصة الحضارة ١١/ ٢١٤.

(٤) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص ١٥٦، ١٥٧.

١ ـ الأبوليناريون

وهم اتباع مقدونيوس. وكانوا أول فرقة ظهرت فى ذلك العصر، أنكرت أن يكون روح القدس إلهاً وقاومت فرض الألوهية، ويذكر ابن حزم عن مقدونيوس أنه كان يقول بالتوحيد المجرد، وأن عيسى - ﷺ - عبد مخلوق إنسان نبى رسول الله كسائر الأنبياء عليهم السلام، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله، وأن روح القدس والكلمة مخلوقان، والله خلق كل ذلك[١].

يقول الشيخ «أبو زهرة»: ولعل مقدونيوس كل من الموحدين فهاله أن يبدأ الأساقفة بتأليه المسيح، ويثنون بتأليه روح القدس فجاهر بإنكار الثانى.

قال «واند»: ارتبط اسمه بمذهب القدس على الرغم أنه لا علاقة له بذلك، وكان الرأى الذى نسب إليه امتداد للعقيدة الأريوسية فيما يتلعق بالكلمة لكى يجعله يشمل قضية الروح، ووفقاً لذلك لا يمكن الاعتقاد بأن الروح من نفس الجوهر مع الإله الأعلى لأنه مخلوق، وأفضل شىء اعتقده المقدونيون عن الروح أنه ملك أعلى، ولهذا فإن كثيراً ما يطلق عليهم اسم مقاتلون ضد الروح[٢].

وفى الوقت الذى أنكر فيه مقدونيوس ألوهية روح القدس لم تكن عقيدة التثليث قد أعلنت فى مجمع عام، ولعله كان موضع حديث البطاركة كون روح القدس إلهاً فتصدى لإنكار ذلك، وتلقى الناس كلامه بالقبول، ولذا لم ينعقد المجمع للرد عليه إلا بعد أن مات بعدة سنوات[٣].

٢ ـ النسطورية

نسبة إلى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٢٨م[٤]، أى أنه ما بين القرن الرابع والخامس كما ذهب إليه أكثر المؤرخين خلافاً لما ذهب إليه

(١) راجع الفصل فى الملل ١/ ١١٠.

(٢) History and Thought of the early church، ص١٨٧، وذكر واند ان الأبوليناربة هم اتباع ابوليناريوس والذى ركز على الطبيعة البشرية للابن، ص١٨٨ ـ ٣٦٥.

(٣) محاضرات فى النصرنية، أبو زهرة، ص١٥٦، ١٥٧، أضواء على المسيحية، ص١٢٣.

(٤) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٥، المنجد فى الإعلام، ص٧٠٨.

الشهرستانى أنه ظهر فى أيام المأمون[1]، وما ذهب إليه النشار أنه ظهر فى أوائل القرن الثانى الميلادى[2].

ويصور الشيخ أبو زهرة مذهب نسطور بأنه ذهب إلى القول بأن عيسى لم يكن إلهاً فى حد ذاته، بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة أو هو ملهم من الله وأنه فوق الناس[3].

وعنده أن الأقنوم الثانى وهو الابن لم يكن إلهاً تجسد ولدته مريم ـ كما يرى ذلك من يراه من المثلثين ـ بل كان يرى أن مريم ولدت الإنسان ثم اتحد الأقنوم الثانى به بعد ولادته وليس ذلك الاتحاد اتحاد مزج وجعلهما شيئاً واحداً، فليس اتحاداً حقيقياً بل اتحاداً مجازياً، لأن الإله منحه المحبة فصار بمنزلة الابن، ومعنى ذلك أن المسيح لم يكن فيه عنصر إلهى قط فليس إلهاً ولا ابن إله، وهذا ما تقرره صاحبة كتاب «تاريخ الأمة القبطية» وهو أن كلام نسطور يلزم منه إنكار الوهية المسيح[4]. وهو ما يؤكده أحمد شلبى أيضاً حيث أكد أن مذهب نسطور كان محاولة للعودة إلى التوحيد[5].

ويصور النشار مذهبه أنه ناقش فكرة الجوهر والأقانيم نقاشاً عقلياً، وانتهى إلى أن المسيح إنسان وولد إنساناً، ثم حدثت النعمة الإلهية التى نزلت على الرسل من قبل فاتصل اللاهوت بهذا الإنسان ولكن صلته بالمسيح أكثر دواماً واستقراراً فيه ولذلك سمى الابن الوحيد. وقد تمّ هذا الاتحاد كإشراق الشمس فى الكوة أو على بلور أو كظهور النقش فى الخاتم، وإشراق الشمس فى الكوة لم يجعل الكوة شمساً ولا ظهور النقش فى الخاتم جعل الخاتم نقشاً،

(١) الملل والنحل ١/ ٢٢٤. (٢) نشأة الفكر الفلسفى ١/٩٦.

(٣) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٥.

(٤) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٥ ـ ١٥٧، وراجع أضواء على المسيحية، ص١٢٢، النصرانية من التوحيد، ص٢٠٢، تاريخ الأقباط ١/١٧٧، مختصر تاريخ الكنيسة ١/٢٣٨، ٢٣٩، فلسفة الفكر الدينى ٢/٢٩٠ ـ ٣٠٢، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٧، ٤٨.

(٥) المسيحية، شلبى، ص١٨٩.

إنما هو صدور عن المشيئة الإلهية، وهو يرى أن القتل فيما يزعمه النصارى وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته[1].

ونقل فى فلسفة الفكر الدينى أنه كان يقول بأقنومين لا بأقنوم واحد وأن المسيح يقوم بهما، وينسب إليه القول جهراً بالإثنينية الأقنومية فى المسيح وتبادل العمل بين طبيعتى اللاهوت والناسوت وكأنه يقول بالاتحاد عن الطبيعيتين[2].

ولعلَّ لويس جرديه يصور مذهب نسطور بما آل إليه أمر النساطرة من بعده كما سنوضح.

وللقضاء على مذهب نسطور[3] لأنه كان يقول بأقنومين لا بثلاثة، عقد مجمع لأجل محاكمته فى أفسس سنة ٤٣١م، فقرروا فيه إبعاد نسطور عن منصبه ونفيه إلى مصر، واتفقوا على لعنه ولعن أتباعه. ويرى د/ عمر الفاروق أستاذ الأديان أن هذا كان أول افتراق بين الثالوثيين والكنيسة النسطورية، لكن النسطوريين الذين جاءوا من بعده انحرفوا عن مبادئه، وقالوا بامتزاج اللاهوت بالناسوت امتزاجاً حقيقياً لا مجازياً[4].

٣ ـ اليعقوبيون أو اليعاقبة

نسبة إلى يعقوب البراذعى الذى انتحل مذهب القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة وهى التقاء اللاهوت والناسوت فى المسيح، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت.

ونسبة هذه الفرقة إلى يعقوب البراذعى لأنه أنشط الدعاة إلى هذا المذهب لا لأنه مبتدعه ومنشؤه، فإن هذا المذهب أسبق من يعقوب وأول من أعلنه بطريرك الإسكندرية فى منتصف القرن الخامس الميلادى، أما يعقوب فقد وجد فى القرن السابع الميلادى.

(١) نشأة الفكر الفلسفى ١/٩٦.   (٢) راجع فلسفة الفكر الدينى ٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٥.

(٣) الأفكار المقدسة، وافى، ص١٣٢.

(٤) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٧ ـ ١٥٩، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٣٤.

وكان أن عقد النصارى مجمعاً في أفسس سنة ٤٢١م، وقرروا فيه القول بالطبيعة الواحدة، ثم رفض ذلك القرار في مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، وتسبب ذلك في تمسك الكنيسة المصرية برأى بطريركها والانفصال عن الكنيسة الرومانية[١]، وهو مذهب الأقباط في مصر.

٤ ـ الملكانيون:

نسبة إلى الملك والملك بالآرامية «ملكاً» أى قيصر الروم[٢] لا على أنه نسبة إلى شخص اسمه ملكاً الذى ظهر بأرض الروم كما ذكر الشهرستانى[٣].

والملكانيّة مذهب من وافق القيصر في مجمع خلقدونية الرابع، حيث قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح وتذرعت بناسوته، فهو عندهم له طبيعتان لاهوتية وناسوتية، وأن الله عبارة عن ثلاثة أقانيم الأب والابن وروح القدس، وهم جل النصارى، وقد انقسموا إلى طوائف منهم:

ثالثاً: عصر الانقسام

١ ـ المارونية:

أتباع يوحنا مارون الذى قال بالمشيئة الواحدة لله مع القول بالطبيعتين، وكان قوله هو السبب في انعقاد المجمع السادس عام ٦٨٠م، والذى قرر نفي يوحنا ولعنه وإقرار مشيئتين لله[٤]. ولكنه استمر على قوله والتزم قوله أتباعه، وكونوا بذلك الكنيسة المارونية.

---

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص١٢٣، نشأة الفكر الفلسفي ٩٧/١، ٩٨، محاضرات في النصرانية، أبو زهرة، ص١٥٩، ١٦٠ ـ ١٧٥، النصرانية من التوحيد، ص٢٠٣، نشأة الطوائف، ص٤٩ حيث اشار إلى طوائف أخرى ذهبت إلى هذا القول بالاتحاد بين الطبيعتين.

(٢) ذكر ابن كثير أن الملكية نسبة إلى دين الملك وهو قسطنطين. انظر البداية والنهاية، ١٥٤/٢.

(٣) الملل والنحل ٢٢/١.

(٤) الأسفار المقدسة، وافي، ص١٣٤، أضواء على المسيحية، ص١٢٢.

٢ـ الكاثوليك

وكنيستهم تسمّى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية، ومعنى الكاثوليكية، أى العامة، وسميت غربية أو لاتينية لإمتداد نفوذها إلى الغرب اللاتين خاصة، وإن كان لها أتباع فيما عدا ذلك من البلدان، وسميت الكنيسة البطرسية أو الرسولية لأن أتباعها يدعون أن مؤسسها الأول هو بطرس كبير الحواريين، والبابوات فى روما خلفاؤه.

والكنيسة الكاثوليكية تتبع النظام البابوى، ويرأسه البابا والكرادلة، وهم أصحاب الحق الأول والأخير فى تنظيم الكنيسة.

وأهم ما يتميزون به:

١ ـ قولهم بأن الروح القدس انبثق من الأب والابن معاً.

٢ ـ يبيحون أكل الدم المخنوق.

٣ ـ أن البابا فى الفاتيكان هو الرئيس العام على جميع الكنائس الكاثوليكية.

٤ ـ تحريم الطلاق بتاتاً حتى فى حالة الزنا.

٣ـ الأرثوذكس

وتسمّى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليوانية، لأن أكثر أتباعها من الروم الشرقيين ومن البلاد الشرقية على العموم كروسيا، والبلقان واليونان. كان مقرها الأصلى القسطنطينية. وقد انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية عام ١٠٥٤م، وهى الآن مؤلفة من عدة كنائس مستقلة.

وأهم ما يتميزون به:

١ ـ أن الروح القدس انبثق عندهم من الأب فقط.

٢ ـ تحريم الطلاق إلا فى حالة الزنا فإنه يجوز عندهم.

٣ ـ لا يجتمعون تحت لواء رئيس واحد بل كل كنيسة مستقلة بنفسها[١].

---

(١) دراسات فى الأديان، الخلف، ص٢٣٨.

٤ ـ البروتستانت

وهم أتباع مارتن لوثر الذى ظهر فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى فى ألمانيا، وكان ينادى بإصلاح الكنيسة وتخليصها من الفساد الذى صار صيغة لها.

وأهم ما يتميز به أتباع هذه الطائفة:

١ ـ أن صكوك الغفران دجل وكذب، وأن الخطايا والذنوب لا تغفر إلا بالندم والتوبة.

٢ ـ أن لكل أحد الحق فى فهم الإنجيل وقراءته، وليس وقفاً على الكنيسة.

٣ ـ تحريم الصور والتماثيل فى الكنائس باعتبارها مظهراً من مظاهر الوثنية.

٤ ـ منع الرهبنة.

٥ ـ أن العشاء الربانى تذكار لما حل بالمسيح من الصلب فى زعمهم، وأنكروا أن يتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح عليه السلام.

٦ ـ ليس لكنائسهم رئيس عام يتبعون قوله.

وقد انتشرت هذه الطائفة فى ألمانيا كما ذكرنا وبريطانيا وكثير من بلاد أوربا وأمريكا الشمالية[١].

تلك كانت أهم الفرق التى ظهرت فى تاريخ النصرانية والتى كان لها دور بارز فى تحريف عقائدها.

ويمكن إبراز أهم نتائج ظهور الفرق فيما يأتى:

أولاً: لقد أدى ظهور الفرق إلى تحريف النصرانية وعقائدها، وذلك بترك عقيدة التوحيد التى بنيت عليها النصرانية، والتى بقيت عدة قرون يدعو إليها المخلصون من النصارى، ويدافعون عنها سواء كانوا أفراداً أو جماعات.

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٦١ ـ ١٦٤ ـ ١٨٠، دراسات فى الأديان، الخلف، ص٢٣٩.

ويتضح تحريف هذه الفرق لعقيدة التوحيد فيما تبنته من عقائد وثنية أو مثلثة، وما اختلفت فيه من الأراء فى شأن طبيعة المسيح ومشيئته، حيث ذهب بعضها إلى القول بوحدة هذه الطبيعة أو المشيئة أو بتعددها، وحيث اختلفوا فى طبيعة العلاقة بينه وبين الله على نحو ما ذكرنا عن أصحاب وأتباع الفرق السابقة، متأثرين فى تحريفهم للعقدة النصرانية بالوثنيات والثقافات التى كانوا عليها قبل تنصرهم، والتى كانت لا تزال محيطة بهم فى مواطن النصرانية.

ثانياً: قام أرباب هذه الفرق بتحريف الأناجيل الكثيرة التى كانت شائعة فى ذلك العصر، بحيث تتفق نصوصها مع عقيدة تلك الفرق.

ثالثاً: أدى ظهور الفرق النصرانية إلى انعقاد المجامع لحسم الخلاف الناتج عن تعدد العقائد المحرفة فيما بينها، مما نتج عنه أحياناً انفصال بعض الكنائس عن بعضها، وإقرار العقائد المنحرفة واستبعاد النزعات التوحيدية.

رابعاً: لدى أدى افتراق الطوائف النصرانية فى عقائدها كما رأينا، وما تبعه من الصراع الطائفى فيما بينها - لقد أدى كل ذلك إلى ظهور اضطهاد الطوائف النصرانية بعضها لبعض، سواء كان ذلك الاضطهاد بين الأفراد أو الجماعات.

وهكذا كان ظهور الفرق النصرانية والاختلاف فيما بينها عاملاً مهماً من عوامل تحريف العقيدة بكل ما ترتب على هذا التحريف من نتائج.

المجامع النصرانية وأثرها فى تحريف العقيدة

تمهيد:

المجامع فى النصرانية هى كما يقول علماؤهم جماعات شورية[1] فى الكنيسة تبحث فى الأمور المتعلقة بالديانة النصرانية وأحوال الكنائس.

ويرى النصارى أن تلاميذ المسيح هم الذين رسموا نظام هذه المجامع فى حياتهم، حيث عقدوا المجمع بأورشليم بعد ترك المسيح لهم باثنتين وعشرين سنة، وقرر هذا المجمع كما رأينا، عدم التمسك بالختان، بل زاد على ذلك عدم التمسك بمحرمات التوراة، إلا تحريم الزنا وأكل المخنوق وأكل الدم وأكل ذبائح الأوثان، ويقرر علماؤهم أن التلاميذ بهذا المجمع الذى بيّنه سفر الأعمال فى إصحاحه الخامس عشر قد سنوا للنصارى سنة جمع المجامع لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة.

والمجامع عندهما قسمان: مجامع عامة أو على - حد تعبيرهم - مجامع مسكونية: أى تجمع الكنائس النصرانية من كل أنحاء المعمورة المسكونة. ومجاميع محلية أو مكانية - على حد تعبيرهم - وهى التى تعقدها كنائس مذهب أو أمة فى دوائرها الخاصة من أساقفتها وقساوستها إما لإقرار عقيدة أو لرفض عقائد أخرى[2]. إلى غير ذلك من الشئون المحلية للكنائس.

(١) يقول الدكتور سعود الخلف معلقاً: هكذا يزعم النصارى أنها هيئات شورية والناظر فى تلك المجامع خاصة التى بحثت فى العقيدة يجد أنها تنتهى ولم يتفق المجتمعون على الأمور التى بحثت فيكون هنالك جبر وموافقة قسرية على قول من تلك الأقوال، وإن لم يكن جبر يحدث الانقسام بأن تذهب كل مجموعة بقولها الذى جاءت به وهو ما يتنافى مع كونها شورية إلا أن يقال أنها هيئات شورية إلزامية. دراسات فى الأديان، ص١٥٢.

(٢) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٢٠، ١٢١، النصرانية والإسلام، الخلف، ص١٩١، =

وفيما يتعلق بالمجامع المسكونية - وهى موضوع حديثنا - يقول د. عمر أستاذ الأديان: «لم يتحقق فى المجامع شرط المسكونية أبداً، وإنما يقال لها مسكونية على فرض حضور جميع أساقفة العالم، ولعل القول إنها عامة أقرب إلى الصواب».

وكلامنا هنا سيقتصر على المجامع المسكونية - كما يسمونها - سواء وافق على قرارتها جميع الحاضرين فيها، أو لم يوافق عليها بعضهم. وذلك فى حدود الدراسة لهذه المجامع، من مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، إلى مجمع القسطنطينية الخامس سنة ٨٧٩م، والذى انقسمت بعده الكنائس إلى شرقية وغربية.

وقد كانت تلك الفترة وما عقد فيها من مجامع هى التى تقررت فيها العقائد النصرانية عند معتنقيها، وهى التى رسمت التقاليد الكنسية القائمة فى الكنائس إلى الآن، وأقرت كل ما طرأ على النصرانية من تحريفات عقدية وتشريعية.

ونبدأ بأول هذه المجامع وأعظمها أثراً فى تاريخ العقيدة النصرانية - وهو مجمع نيقية سنة ٣٢٥م[1].

١ - مجمع نيقية سنة ٣٢٥م

وقد انعقد هذا المجمع بسبب التعارض والاختلاف العقدى الموجود فى الكنيسة فى تلك الأزمان، وذلك أنه ما إن توقف الاضطهاد الواقع على النصارى من قبل الرومان بمرسوم ميلان[2]. حتى ظهر على السطح ذلك

= المسيحية، شلبى، ص١٩٧، وأضواء على المسيحية، ص٩٤، ٩٥، وراجع دائرة المعارف البريطانية ٥٨٧/٦، ٥٨٨، دائرة معارف الدين والأخلاق حيث تقسم المجامع إلى عشرة أنواع نقلاً عن دراسات فى النصرانية، مزروعة، ص١٣٨، ١٣٩.

(١) نيقية مدينة فى تركيا تسمى الآن «ازنك». نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٤.

(٢) مرسوم ميلان أصدره الإمبراطور قسطنطين لهسينيوس سنة ٣١٣م، ويقضى بإعطاء النصارى الحرية فى الديانة وإرجاع أملاكهم المغتصبة وإقرار حرية الأديان عموماً. انظر نص المرسوم فى كتاب تاريخ أوروبا للعصور الوسطى، ص٥٠. تأليف، د. الباز العرينى.

الخلاف العقدى الكبير بين طوائف النصارى، والذى كان يخفيه من قبل الاضطهاد الواقع على طوائف النصارى والذى كان من أسباب رسوخ هذه الانحرافات العقدية كما سيتبين.

وكان أبرز وجوه الاختلاف: ذلك الخلاف والتعارض بين دعوة كنيسة الإسكندرية التى تنادى بألوهية المسيح على مذهب بولس، وبين دعوة الأسقف الليبى «آريوس» فى الإسكندرية أيضاً. الذى وُصفَ بأنه عالم مثقف، وواعظ مفوه، وزاهد متقشف، وعالم بالتفسير، حيث أخذ ينادى بأن الله إله واحد غير مولود أزلى، أما الابن فهو ليس أزلياً وغير مولود من الأب وأن هذا الابن خرج من العدم مثل كل الخلائق حسب مشيئة الله وقصده[1].

وشايع أريوس فى دعوته العديد من الأساقفة، منهم أسقف نيقوميدية المسمى أوسابيوس وغيره.

وكان الإمبراطور «قسطنطين» فى ذلك الوقت قد أبدى تعاطفاً قويا تجاه النصارى ورفع عنهم الاضطهاد واهتم بشئونهم[2]، فهاله ما رأى من انقسام النصارى، وأدرك خطورة تلك الانقسامات على دولته، والتى كان أخطرها ما كان بين أسقف كنيسة الإسكندرية الكسندروس وآريوس وأتباعه.

وكان الخلاف قد تطور بينهما وذلك بأن طلب أسقف الإسكندرية عقد مجمع ـ محلى ـ فى الإسكندرية للنظر فى قضية آريوس ودعوته، فقرر ذلك المجمع طرد آريوس من الخدمة، وقد أدى هذا إلى خروج «آريوس» من كنيسة الإسكندرية مجمعاً ـ محلياً ـ قررَ فيه قبول آريوس وأتباعه وكتابة طلب إلى

(١) راجع كتاب «تاريخ الفكر المسيحى» ١/ ٦١٩.

(٢) يرجح المؤرخ هـ. فيشر: أن أهداف قسطنطين فى ذلك التقريب للنصارى كانت أهدافاً سياسية حيث رأى أن الديانة النصرانية تنتشر على حساب الأديان الأخرى، كما أنه أراد أن يكونوا عوناً له فى القضاء على إمبراطور بيزنطه ليسينيوس. وهذا ما تحقق له فيما بعد وكان قسطنطين يعتبر نفسه الكاهن الأعظم للديانة النصرانية وهو فى نفس الوقت يجمع بين عبادة الشمس والانتساب للنصرانية، ولم يسمح بتعميده إلا وهو على فراش الموت على مذهب آريوس وذلك سنة ٣٣٧م. راجع، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى تأليف هـ. فيشر ترجمة محمد زيادة، ص٦، ٧.

أسقف الإسكندرية برفع الحرمان الذى قرروه عليه[1].

فهذا ما جعل الإمبراطور «قسطنطين» يدعو إلى مجمع عام فى نيقية سنة ٣٢٥م لبحث هذه القضية.

ومما نوقش فى هذا المجمع مسألة الكتب المشكوك فى قداستها سواء تلك التى زادت بها الترجمة السبعينية لأسفار التوراة على الأصل العبرى، أو غيرها من أسفار النصارى انفسهم[2].

وقد اختلف كلام النصارى فى ذكر عدد المجتمعين فى هذا المجمع فالبعض يرى أن عدد المجتمعين كان ٣١٨ أسقفاً فقط، وبعضهم يرى أنهم ما بين ٣٠٠ ـ ٥٢٠[3]. ويذكر مارى سليمان فى كتاب «المجدل» وكذلك ابن البطريق أن عددهم كان (٢٠٤٨) أسقفاً[4].

أما مذاهب الحاضرين فكانت متباينة تبايناً شديداً ـ كما يقول ابن البطريق ـ لأنهم كانوا مختلفين فى الآراء والمعتقدات:

ـ **فمنهم من كان يقول:** إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية.

ـ **ومنهم من كان يقول:** إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها وهى مقالة سابليوس.

ـ **ومنهم من كان يقول:** لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب.

ـ **ومنهم من كان يقول:** إن المسيح مخلوق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره، وأن الابن من مريم، ويرون أن الله جوهر قديم واحد واقنوم واحد ولا

(١) انظر: تاريخ الفكر المسيحى (١/٦٢١، ٦٢٢).

(٢) فى مقارنة الأديان، الشرقاوى، ص٣٢.

(٣) راجع تاريخ الفكر المسيحى (١/٦٢١، ٦٢٢) وتاريخ الكنيسة ـ لجون لوريمر (٣/٤٢).

(٤) راجع كتاب أخبار بطاركة المشرق من كتاب المجدل، ص١٥، وكتاب يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص٢١٢. وينقل هذا عن ابن البطريق زكى شنودة فى تاريخ الأقباط.

يؤمنون بالكلمة ولا بالروح القدس، وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية.

- **ومنهم من كان يقول:** إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، طالح، وعدم بينهما. وهى مقالة مرقيون وأصحابه.

- **ومنهم من كان يقول:** بألوهية المسيح، وهى مقالة بولس ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً[1].

وبعد أن تداول المجتمعون الآراء فى ذلك المجمع خرجوا بتقرير ألوهية المسيح - عليه السلام - وبنوته لله - حسب زعمهم -[2] وأنه مساو لله جلا وعلا[3]، وأنه مولود منه غير مخلوق - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً..

كما قرروا أن هذا الإله تجسد بصورة البشر لخلاص الناس، ثم ارتفع إلى السماء بعد قيامته من الموت، وهذا ما تضمنه قانون الإيمان النيقوى، حيث جاء فيه: «نؤمن بإله واحد الله الأب كلى القدرة، خالق كل شىء، ما يرى وما لا

(١) كتاب محاضرات فى النصرانية، ص١٢٤، حيث ينقل عن ابن البطريق، وكذلك نقلها زكى شنودة فى كتابه «تاريخ الأقباط» ونقلها عنه، د. رؤوف شلبى فى كتابه يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، ص١٢٢.

(٢) يلاحظ هنا أن نص قانون الإيمان الذى قرروه فى ذلك المجمع هو النص الذى قدمه أسقف الإسكندرية القائل بألوهية المسيح، والبعض يذكر أن كلمة «أن الابن من نفس جوهر الأب»، وهى التى كان يدور حولها الخلاف الكبير بين أولئك المجتمعين كانت من اقتراح الإمبراطور قسطنطين. راجع تاريخ الكنيسة (٤٨/١) ومن المعلوم أن قسطنطين كان فى ذلك الوقت لا يزال وثنياً، لم يعلن دخوله فى النصرانية، وهذا يدلنا على مستوى تلك الموافقة الظاهرية التى وقعت فى ذلك المجمع وأنها إنما كانت ترؤس الإمبراطور ذلك المجمع وتدخله المباشر فيه. وخطورة تلك الإضافة التى ركز عليها فى ذلك المجمع أنها نقلت المسيح من أن يكون بشراً مخلوقاً إلى إله خالق، وأورثت النصرانية كل الانحرافات التى حدثت بعد ذلك والجدل الطويل حول المسيح والمجمعات الكثيرة التى انعقدت حول ما تفرع عن الكلام حول المسيح وطبيعته، كما جعل النصرانية تنقل من صف الدين السماوى الموحد إلى صف الدين السماوى الموحد إلى صف الأديان الوضعية التى تقوم على تعدد الآلهة وعبادة غير الله. راجع النصرانية والإسلام، الخلف، ص١٩٦، ١٩٧.

(٣) قال فى البحث الصريح: الاعتقاد بأن سيدنا عيسى مساو لله فى الجوهر هو بدعة حديثة مستجدة فى الديانة النصرانية سنة ٣٦٠م انظر مخطوطة البحث الصريح، لوحة: ٤.

يرى، ونؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله، المولود من الأب، إله من إله، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، من ذات الجوهر مثل الأب، به خلق الكل، ما في السموات وما على الأرض، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل وتجسد وعاش بين الناس، الذى تألم وفي اليوم الثالث قام، وصعد إلى السموات، ويأتى ليدين الأحياء والأموات»[1].

كما تقرر في هذا المجمع لعن آريوس ومشايعيه، وحرق كتبه، وقد قرر هذا المجمع كذلك أن تعاليم الدين لا يمكن تلقيها من الكتب رأساً، بل من أفواه العلماء ورجال الكهنوت وأن أقوالهم حجة[2].

وقد وقع كثير من المجتمعين على هذه القرارات لمناصرة قسطنطين لها، ويرى ابن البطريق أن (٣١٨) أسقفاً فقط هم الذين أظهروا هذا القول ووقعوا عليه وخالفهم بقية الأساقفة[3]، والبعض الآخر يرى أن الجميع وقعوا عليها ما عدا «يوسابيوس» أسقف «نيقوميدية» في قول بعضهم وشخص أخر، فقد رفضا التوقيع على ذلك النص[4].

وهكذا انتصر القائلون بألوهية المسيح بمساندة وتأييد الإمبراطور، حيث ينص المؤرخون على ترأسه لذلك المجمع[5].

---

(١) تاريخ المسيحية ٤٨/١.

(٢) راجع الكتب السماوية، ص٣٤، قصة الحضارة ٢٨٧/١١.

(٣) راجع محاضرات فى النصرانية، ص١٢٤.

(٤) راجع مجموعة الشرع الكنسى، ص٤٢، تاريخ الكنيسة، ص٤٩.

(٥) راجع النصرانية والإسلام، الخلف، ص١٩٧، ١٩٨، تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى، فيشر، ص٨، تاريخ أوروبا للعصور الوسطى، الباز العرينى، ص٧٤، وانظر مجمع نيقية مجموعة الشرع الكنسى، ص٤١ وما بعدها، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٤، ٤٥، المسيحية بين التوحيد والتثليث، عبد المنعم عثمان، ص٩٦ ـ ١٠٦، المجامع، ص١٠٢ ـ ١٠٦، أضواء على المسيحية، ص٩٦ ـ ١٠٠، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٢٨ ـ ٣٨، أهم عوامل انحراف النصرانية، ص١٨٤ ـ ١٨٩، مختصر تاريخ الكنيسة، ص٢٨٢ ـ ٢٨٤، الأسفار المقدسة، ص١٢٥، ١٢٦، المسيحية، شلبى، ص١٤٦ ـ ١٤٩ ـ ١٩٨، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٥٧ ـ ١٨٣، لمحة تاريخية عن الإنقسام الكنسى إبراهيم خليل أحمد، المنهل، عدد ٥، جمادى الأولى، سنة ١٣٩٨، إبريل، مايو ١٩٧٨م، =

ومما يدل على أن القول بألوهية المسيح لم يكن مجمعاً عليه ما يذكره القس «حنا الخضرى» ـ بعد ذكر الانتصار الذى حققه مشايعو مقولة بولس ـ قال: «ولكن للأسف الشديد كانت الحقيقة الواقعة تختلف الاختلاف كله عن القرارات المجمعية، فقد رجع الأساقفة بعد مجمع نيقية إلى أبرشياتهم والقسوس إلى كنائسهم وبدأ كل منهم يعلم ما كان يعلم به قبلاً. بل إن البعض تطرف فى الهرطقة التى فاقت هرطقة «آريوس» نفسه. فمع أن آريوس وبعض أتباعه نفوا، إلا أن الأريوسية بنت عشها فى حدائق كثيرين من الأساقفة والرعاة[1].

ومن الجدير بالذكر أن الأناجيل التى اختارتها الكنيسة كانت مجهولة لدى النصارى ولم تعرف إلا فى عصر متأخر حتى قيل: إنه لم يكن معترفاً بها قبل إقرار الكنيسة. ويذكر بعض المؤرخين أنه لا توجد إشارة إلى إنجيل متى ومرقس ولوقا قبل آخر القرن الثانى أو ابتداء القرن الثالث، وأول من ذكرها أرينيوس عام ٢٠٩م وأورد بعض الدلائل على عددها، ثم قرر أنها مجرد صور لإنجيل واحد، ثم جاء أكليمندس الإسكندرى ٢١٦م فاجتهد وقرر ان الأربعة واجبة التسليم واعترف بصحتها[2].

ويعزو ابن البطريق إلى هذا المجمع اعتماد الأناجيل الأربعة وإلغاء ما عداها[3].

قرر هذا المجمع (نيقية) وجوب تسليم سفر (يهوديت) فقط ويظهر ذلك من المقدمة التى كتبها جيروم على هذا السفر، فظلت الأسفار الأخرى المشكوك فيها كما هى غير مسلمة من علماء مجمع نيقية[4].

= مجلة الأزهر، جـ٤، السنة ٥٧، ربيع الآخرة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م، محمد الحديدى الطير، الأزهر، جـ٢، سنة ٣٨، صفر ١٣٨٦، مايو ١٩٦٦، دين الله ودين القوة، أحمد حسن الزيات، والله واحد أم ثالوث، ص٢٥.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحى، ص٦٤٣. وانظر مقالة «بورمانس موريس»، ص٥، مجلة إسلاميات مسيحيات، روما، ١٩٧٦م، المعهد البابوى للدراسات الإسلامية.

(٢) راجع: الإنجيل والصليب، ص١٤ ـ ١٩.

(٣) راجع: الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة، عبد القادر شيبة الحمد، ص٤٢.

(٤) ثم انعقد مجمع لوذيسيا سنة ٣٦٤م فأقر حكم المجلس الأول وزاد عليه وجوب تسليم سبعة =

ولما كان قرار مجمع نيقية بألوهية المسيح فرض بقوة السلطان فإن السلطان وهو الإمبراطور رجع فيما بعد عنه وأمر بعقد مجمع صور سنة ٣٣٤م وقرر فيه إعادة «آريوس» إلى الكنيسة، وخلع «أثناسيوس» أسقف الإسكندرية، أحد أكبر المدافعين عن عقيدة ألوهية المسيح[1].

ويذكر ابن البطريق هذا المجمع بقوله أن أوسابيوس أسقف نيقوميديا كان موحداً من أنصار آريوس، تقرب إلى قسطنطين لتزال عنه اللعنة، وجعله بطريرك القسطنطينية، وما إن ولي هذه الولاية حتى صار يعمل للوحدانية في الخفاء فكان المجمع الإقليمي في صور، وهو مجمع لا يذكره النصارى تصريحاً، وإن كانت كتاباتهم لا تستطيع إغفاله[2].

وهكذا يتبين أن هذا المجمع الذي يعد من أخطر المجامع كانت ألعوبة بيد الإمبراطور الذي كان وثنياً ولم يكن من أهل تلك الملّة وقت ترأسه ذلك المجمع، كما أن المجتمعين لم يكونوا يعتمدون على نصوص متفق عليها مقبولة لدى الجميع وإلا لتم الإذعان لمدلولها، وإنما كانوا يعتمدون على تصوراتهم أو تصورات

= أسفار: سفر أستير، رسالة يعقوب، رسالة بطرس الثانية، رسالة يوحنا الثانية، رسالة يهوذا، رسالة بولس إلى العبرانيين. وقرر هذا المجمع إبقاء سفر رؤيا يوحنا مشكوكاً فيه وغير مسلم من الكنيسة. ثم انعقد مجمع قرطاج سنة ٣٩٧ وأعيد انعقاده عام ٤١٩م، برئاسة أوغسطس وأقر حكم المجالس السابقة بشأن الأسفار المقدسة المعتمدة والشكوك فيها وزاد عليها وجوب تسليم سبعة أسفار أخرى: الحكمة، طوبيا، باروخ، إيكليزيا ستيكس، المقابين الأول، المقابين الثاني، رؤيا يوحنا.

وقد عد سفر باروخ جزءاً من سفر ارمياء لأن باروخ كان بمنزلة نائب أرمياء وخليفته فلم يكتب اسم سفر باروخ على حده في فهرست أسماء الأسفار. راجع مقارنة الأديان، الشرقاوي، ص٣٢، ٣٤، محاضرات في الأديان إبراهيم خليل، ص١٣ ـ ١٧.

قال في علم اللاهوت النظامي: وأما زعم البعض أن مجمع لاودكية ٢٦٤م عين قانونياً الأسفار القانونية فغير صحيح والصواب هو أن ذلك المجمع إنما ذكر فهرس الأسفار التي كانت مقبولة. ولا ريب أنه لما كانت أسفار العهد الجديد قد كتبت وأرسلت في أول الأمر إلى أفراد وكنائس متفرقة في أقطار العالم خلافاً لأسفار العهد القديم اقتضى وقت طويل لإذاعتها ولمعرفتها أنها قانونية. ص٩٧.

(١) راجع تاريخ الفكر المسيحي ٦٥٠/١، تاريخ الكنيسة ٥٩/٢، دراسات في الأديان. الخلف، ص٩٩.

(٢) راجع دراسات في الأديان، الخلف، ص١٩٨، محاضرات في النصرانية، ص١٢٩، كتاب يا أهل الكتاب، ص٢١٧، ٢١٨، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص١٠٨، ١٠٩.

أمثالهم من الناس فلهذا وقع الإعراض عنها بعد عودتهم إلى كنائسهم[1].

وقد استمر نشاط الموحدين بعد هذا المجمع ونفوذهم وعقدت مجامع عدة كان للموحدين فيها أصوات مرتفعة، وقد دلت المصادر على أنهم لم يكونوا قلة بل كانوا هم الأكثرية[2].

٢ـ مجمع القسطنطينية ٣٨١م

دعا الإمبراطور «ثيودوسيوس» سنة ٣٨١م إلى عقد مجمع القسطنطينية لمواجهة دعوات كانت منتشرة بين الكنائس، منها:

- دعوة «مقدونيوس» الذى كان أسقفاً للقسطنطينية، الذى نادى بأن الروح القدس مخلوق وليس إلهاً.

- ودعوة «سابيليوس» الذى كان ينكر وجود ثلاثة أقانيم.

- دعوة «أبوليناريوس» الذى كان أسقفاً على اللاذقية والشام والذى أنكر وجود نفس بشرية فى المسيح.

فحضر ذلك المجمع مائة وخمسون أسقفاً. قرروا فيه ألوهية الروح القدس، ولعن وطرد من خالف ذلك مع إثباته لعقيدة نيقية[3]، فاكتمل بذلك ثالوث النصارى بهذا المجمع الأب والابن والروح القدس ووضع المجمع تكملة قانون الإيمان النيقوى حيث زادوا الإيمان بألوهية الروح القدس[4].

---

(١) راجع دراسات فى الأديان، الخلف، ص١٩٩.

(٢) راجع المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص١٠٩ ـ ١١٥، طائفة الموحدين، ص٢٥، قصة الحضارة ٤٥/٢٠.

(٣) راجع مجموعة الشرح الكتسى، ص٢٤١ وما بعدها، تاريخ الكنيسة (١٠٤/٢ ـ ١١١)، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٨٣، تاريخ المسيحية حبيب سعيد، ص١٥٢، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٢، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٥، ٤٦، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٢٦، ١٢٧، المسيحية، شلبى، ص١٥٦، ١٥٧، ١٩٩، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٤٠، ٤١، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢١٨ ـ ٢٢٢، أضواء على المسيحية، ص١٠٠، ١٠١، المجامع النصرانية، ص١٠٧، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص١١٦ ـ ١١٨.

(٤) المجامع النصرانية، ص١٠٨.

وكما هو ظاهر فإن هذا المجمع عقد بدعوة من الإمبراطور «ثيودسيوس» الذى أمر بانعقاده لمصلحة القائلين بألوهية المسيح والمثلثين من النصارى[1].

وقد عقد عام ٣٩٢ فى روما[2] مجمع آخر زعم البعض أنه مسكونى، وفى الواقع أنه لم يكن كذلك، ولم يرد ضمن مجموعة الشرع الكنسى أنه من ضمن المجامع المسكونية، وكان انعقاده لترتيب الأسفار، والذى قرر أن تكون أسفار العهد الجديد على الترتيب التالى: الأناجيل الأربعة، رسائل بولس الأربعة عشر، رؤيا يوحنا وأعمال الرسل، الرسائل الكاثوليكية أو الجامعية وعددها سبعة رسائل.

٣ ـ مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١م

وقد انعقد هذا المجمع لمواجهة قول «نسطور» أسقف القسطنطينية، بأن المسيح له طبيعتان إلهية وإنسانية بشرية[3] وأن مريم والدة الإنسان وليست والدة الإله.

فعقد المجمع فى أفسس سنة ٤٣١م بحضور مائة وستين أسقفاً، وقرر فيه أن المسيح إله وإنسان ذو طبيعة واحدة وأقنوم واحد، وأن مريم أم الإله وحكم على «نسطور» بالطرد من الكنيسة[4].

---

(١) راجع النصرانية والإسلام، ص٢٠٠، ومعاول الهدم والتدمير، ص٥١.

(٢) ذكر الطهطاوى أنه تمّ اعتماد الأناجيل الأربعة سنة ٣٢٥م، راجع محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص٩٥. وهو أمر ليس له ما يؤيده.

(٣) راجع كتاب تاريخ الفكر المسيحى، ١٧٠/٢، تاريخ الكنيسة جون لوريمر، ٢١٥/٢، ويذكر البعض أن نسطورا كان يرى أن المسيح لم يكن إلهاً وإنما هو إنسان مملوء من البركة والنعمة. راجع كتاب النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٨٤.

(٤) راجع، مجموعة الشرع الكنسى، ص٢٨٨، تاريخ الكنيسة جون لوريمر (٢١٩/٢)، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٨٥، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٥، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٢٣ ـ ٢٢٦، محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن، ص٩٠، ٩١، المسيح، عبود، ص٩٠، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٣٢، نشأة الطوائف المسيحية ٤٨، مختصر تاريخ الكنيسة ص٢٤٦، المسيحية، شلبى، ص١٩٩، أضواء على المسيحية، ص١٠٢ ـ ١٠٤، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٤٤ ـ ٤٦، المجامع النصرانية، ص١١٠ ـ ١١٤، دراسات فى الأديان، ص١٦١.

وبعد مجمع افسس عُقدت مجامع عديدة[1] كلها تبحث عن طبيعة المسيح - ﷺ - منها:

٤ - مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م

وفى هذا المجمع عادوا للبحث فى طبيعة المسيح وقرر المجتمعون فيه: أن المسيح له طبيعتان إلهية وبشرية. وقد قال ابن البطريق فى بيان قرار هذا المجمع قالوا: إن مريم العذراء ولدت إلهنا ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبقة الإلهية ومع الناس فى الطبقة الإنسانية وشهدوا أن المسيح له طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد ولعنوا نسطوريوس ومن يقول مقالته[2].

وكان المناصرون لهذا القول هم الأساقفة الغربيون (الكاثوليك) الذين لعنوا وطردوا من لا يقول بهذا القول. ولم توافقهم الكنائس الشرقية على هذا وقد أصروا على قرارهم السابق فى مجمع «أفسس» بأن المسيح له طبيعة واحدة إلهية وبشرية[3]، وهذا من أهم الفوارق بين الكاثوليك القائلين بالطبيعتين، والأقباط والأرمن والسريان القائلين بالطبيعة الواحدة[4].

---

(١) انظر: كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٢٦، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٤٧، نشأة الطوائف المسيحية، ص٤٩، ومن هذه المجامع مجمع اللصوص، سنة ٤٤٩. والذى سمى بذلك لطبيعة إجراءاته، وأفسس الثانى. المسيحية، شلبى، ١٩٩، النصرانية من التوحيد، ص١٨٥، قصة الحضارة، ١٤/ ١٠٢.

(٢) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٨.

(٣) مجموعة الشرع الكنسى، ص٣٦٤، وما بعدها، المجامع النصرانية، ص١١٤ - ١١٧، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص ٢٢٧ - ٢٩٩، المسيح، عبود، ص٩٠، المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص١٨٥، ١٨٦، عقيدتنا التثليث والصلب، ٤٧، النصرانية من التوحيد إلى التثليث، ص١٨٦، المسيحية، شلبى، ص١٩٤، نشأة الطوائف المسيحية، ص٥٠، ٥١، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٣٧، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٢٣، أضواء على المسيحية، ١٠ - ١٦، دراسات فى الأديان، ص١٦٢.

(٤) يلاحظ أن لازم ذلك هو أن المسيح - تعالى الله عن قولهم - كان إلهاً وهو فى بطن امه، وأمه مريم حملت بالإله، فهى بهذا عندهم والدة الإله - تعالى عن قولهم وقاتلهم الله أنى يؤفكون - وهذا الكلام كما انه لا دليل شرعى عليه، فهو مرفوض عقلاً، ولا يمكن بحال تصوره، كما انهم لا يستطيعون أن يقيموا على هذا أدنى دليل، وإن دل ذلك فإنما يدل على فساد عقولهم وعظيم انحرافهم وتغلغل الوثنية فيهم.

وهنا نرى انشقاقاً بين النصرانية المثلثة، واختلافاً سيكون بعيد المدى فى الأجيال المقبلة، وهو أساس اختلاف الكنائس إلى يومنا الحاضر، فهذا المجمع يرى أن المسيح له طبيعتان أحدهما إنسانية يشارك فيها الناس والأخرى لاهوتية، وأقنوم الابن مكون من الطبيعتين، وهو بذلك يخالف النسطوريين القائلين أن أقنوم الابن لم يكن من العنصرين، بل من العنصر الإنسانى وحده، ويخالف قرار أفسس الثانى الذى يقول إن المسيح له طبيعة واحدة تجسد فيها العنصر اللاهوتى من الروح القدس ومن مريم العذراء، مصيراً هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين، ومشيئة واحدة.

وقد بدت آثار ذلك المجمع سريعة واضحة. فقد اشتد النزاع بسبب هذا بين المصريين والرومان، فثار المصريون وغضبوا عندما رأوا بطريركاً يعين على غير مذهبهم، وغلى غير رغبتهم، فصاروا يتحينون الفرص، كلما لاحت لهم.

وظهر للمذهب المصرى داعية قوى الشكيمة قوى العارضة، بليغ الأثر، اسمه يعقوب البراذعى، وقد أخذ يدعو الناس إلى اعتناق مذهب الكنيسة المصرية، ومن ذلك الحين أطلقت كلمة يعقوبيين على جميع الذين يذهبون إلى أن للمسيح طبيعة واحدة اشتقاقاً من اسم يعقوب البراذعى زعيم هذا الحزب.

ولكن من الخلط الكبير عزو هذا المذهب إلى يعقوب لأن هذا المذهب نشأ قبله وهو أخذ به ودعا إليه[1].

وعلى هذا استقرت عقائد كل من مصر والحبشة وأثيوبيا ومعظم مناطق أفريقيا على أن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، والعذراء تدعى والدة الإله.

ومذهب الكاثوليك: يقضى بأن للمسيح طبيعتين فالمسيح أقنوم إلهى بحت له طبيعة إلهية وطبيعة بشرية. ومن الملاحظ فى هذا المذهب أنه بنى فى شكله

---

(١) راجع المسيحية بين التوحيد والتثليث، ص١٨٦، ١٨٧.

على مذهب نسطور الذى قال بطبيعتين فى المسيح، إلا أن روح هذا المذهب الكاثوليكى تختلف عن مذهب نسطور، ووجه الاختلاف فى أن نسطور كان يرى بأن المسيح إنسان قد اتصل به اللاهوت بعد ولادته وأفاض عليه، ولذلك فإن مريم لم تكن إلا إنساناً.

أما الكاثوليك فيرون أن مريم ولدت الاثنين جميعاً فهى قد ولدت يسوع الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيئتان وأقنوم واحد.

ويبدو أن الانقسام حول طبيعة المسيح الغير مفهومة فى العقيدة الجديدة لم تتوقف عنه هذا الحد فحسب، بل بدأ يتجول داخل أصحاب المذهب الواحد، ولذلك تراجعت بعض الصفوف فى الكنيسة الأرثوذكسية عن مذهبها فى المسيح، منها كنيسة أورشليم، وهى من الكنائس الشرقية التابع للأرثوذكس، والتى ارتضت قرارات خلقدونية - القائلة بالطبيعتين - التى رفضتها الكنيسة المصرية القبطية[1].

وهكذا كانت هذه المجامع الأربعة السابقة هى التى أقرت بها العقيدة النصرانية الحاضرة. فأولها قرر ألوهية المسيح، وثانيها قرر ألوهية الروح القدس، وثالثها قرر أن المسيح اجتمع فيه الإنسان والإله لا الإنسان فقط وإن مريم ولدت الاثنين، ورابعها قرر أن المسيح ذو طبيعتين منفصلتين لا طبيعة واحدة محددة.

والمجامع الثلاثة الأولى اتفقوا على أنها مجامع عامة - وإن كانت لم تتحقق فيها صفة العموميّة، أما المجمع الرابع فهو ليس مجمعاً عاماً فى نظر المصريين والكنائس التى تنهج نهج كنيستهم.

والمجامع التالية بعد ذلك ليس فيها مجمع قد أجمع عليه النصارى بأنه

---

(١) راجع المسيحية، بين التوحيد والتثليث، ص١٨٧ - ١٩٠، المجامع، ص١٢٤، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٤٢.

مجمع مسكونى كما يعبرون، فكل هذه المجامع لم تمثل فيها الكنيسة المصرية بعد انشقاقها عن كنيسة روما أو انشقاق كنيسة روما عنها.

٥ـ مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣م

وقد حضره مائة وأربعون أسقفاً وكان سبب انعقاده كما يقول ابن البطريق أن بعض الأساقفة اعتنق فكرة تناسخ الأرواح حتى قال بعضهم إنه ليس هنا قيامة. وزعم بعضهم أن شخص المسيح لم يكن حقيقياً بل كان خيالياً(١). وقرر هذا المجمع فساد هذه العقيدة وبطلانها وأكدوا أن القيامة حق والبعث حق والحساب حق والجزاء حق كما قرروا حرمان أولئك الذين نادوا بتناسخ الأرواح(٢).

بينما ترى دائرة معارف الدين والأخلاق أن عقده كان للدفاع عن النسطورية وتأكيداً للقول بالطبيعة الواحدة للمسيح(٣).

ويرفض د. رؤوف شلبى الرأى الذى يقول إنه عقد لإقرار ما توصل له مجمع خلقدونية، ويرى أن المجتمعين قد أيدوا مذهب الطبيعة الواحدة ولعنوا أصحاب فكرة تناسخ الأرواح وطردوهم وأثبتوا أن عيسى كان شخصية حقيقية ولعنوا كل من قال إنه خيال(٤).

مجامع بعد بعثة النبى ـ ﷺ ـ عام ٦١٠م:

(١) راجع المجامع النصرانية، ص١١٧.

(٢) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٢، ١٤٣، المسيحية، شلبى، ١٩٩، أضواء على المسيحية، ص١١٠، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٥٢، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ٢٣١ ـ ٢٣٤، المجامع النصرانية، ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) ٤/١٩١، ١٩٢.

(٤) راجع كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٣٢، المجامع النصرانية، ١١٨، ومجموعة الشرع الكنسى، ص٤٤٦، وما بعدها.

٦ـ مجمع القسطنطينية الثالث ٦٨٠م

نادى يوحنا مارون بسوريا أن يسوع ذو طبيعتين طبيعة إلهية وطبيعة ناسوتية وهو ذو مشيئة إلهية واحدة، فانعقد المجمع بمدينة القسطنطينية لبحث هذا القول وقرر أن يسوع ذو طبيعتين طبعية إلهية وطبيعة ناسوتية وذو مشيئتين مشيئة إلهية ومشيئة ناسوتية، إلا أن السوريين تشبثوا بقول يوحنا مارون السابق وخرجوا منفصلين عن الكنيسة الأم منشئين الموارنة بالشام على أساس المشيئة الإلهية الواحدة[١].

وهو ما يعنى انقسام الكنيسة الملكانية أو الكاثوليكية القائلة بالطبيعتين، حيث فارقت الكنيسة المارونية ـ بعد هذا المجمع ـ الكنيسة الأم وقالت بالمشيئة الواحدة لطبيعتى المسيح، خلافاً لمن قال بالطبيعتين والمشيئتين[٢].

٧ـ مجمع نقية الثانى ٧٨٧م

دعا الإمبراطور قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤م إلى عقد مجمع بمدينة القسطنطينية، دعا فيه إلى تحريم اتخاذ الصور والتماثيل، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، وقد اعتذر عن حضور هذا المجمع بطاركة أنطاكية، وبيت المقدس، والإسكندرية، ولم يحضره سوى ٣٤٠ أسقفاً، برئاسة بطريرك القسطنطينية، ولهذا لم يعتبر هذا المجمع مسكونياً على الحقيقة.

ولأجل هذا انعقد مجمع نيقية الثانى سنة ٧٨٧م، وكان مجمعاً مسكونياً حضره ٣٧٧ أسقفاً، وأصدروا القرار بتقديس صور المسيح والقديسين وعبادتها.

وقد وافق عليه عدد كبير من الكنائس فاعتبروه عاماً، وخالفته أخرى فلم تعتبره كذلك[٣].

(١) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٣، ١٤٤، الأسفار المقدسة، وافى ١٢٤. المسيحية، شلبى، ١٩٥، ٢٠٠، أضواء على المسيحية، ص١١١، عقيدتنا التثليث والصلب، ص٥٢، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، المجامع النصرانية ١١٨ ـ ١٢٠، مجموعة الشرع الكنسى، ص٤٨٦، وما بعدها.

(٢) المجامع، ص١٢٤.

(٣) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٤، ١٤٥، مختصر تاريخ الكنيسة، ٢٩٥، ٢٩٦=

٨ ـ مجمع القسطنطينية الرابع عام ٨٦٩م

وقد انعقد بسبب الخلاف بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما فى الروح القدس هل انبثق من الأب فقط وهو زعم كنيسة القسطنطينية، أم من الأب والابن معاً كما هو زعم كنيسة روما؟

حيث نادى الأسقف «فوسيوس» أسقف القسطنطينية بأن الروح القدس منبثق عن الأب فقط، وقد قرر هذا المجمع أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن وهو قول كنيسة روما. كما قرر حرمان فوسيوس ونفيه من البلاد[1].

٩ ـ مجمع القسطنطينية الخامس سنة ٨٧٩م

لم تكد تمضى عشر سنوات على المجمع الأخير حتى استعاد الأسقف فوسيوس مكانته وانعقد هذا المجمع وأصدر قراراته ببطلان قرارات المجمع السابق المنعقد عام ٨٦٩م، وأكد أن الروح القدس منبثق من الأب فقط، ونجم عن هذا انشطار الكنيسة إلى الروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك فظهرت كنيسة الروم الأرثوذكس بالقسطنطينية فى الشرق، وكنيسة الروم الكاثوليك فى الغرب، ونشأ كرسى البابوية فى الشرق نظير كرسى البابوية فى الغرب، ونجم عن ذلك عدم الاعتراف ببابا روما على الإطلاق مع اختلافات جوهرية عقدية بينهما[2].

وهكذا كان هذان المجمعان هما السبب فى انقسام الكنيسة إلى شرقية يونانية وغربية لاتينية، وتسمّى البطرسيّة لكون مشايعيها يعتقدون أن مؤسسها

= كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ٢٣٥ ـ ٢٣٩، أضواء على المسيحية، ص١١١، قصة الحضارة، ١٢/١٤، وقد ذكر فى قصة الحضارة ان عدد الأساقفة فيه ٢٥٠، المجامع النصرانية ١٢٠ ـ ١٢١، مجموعة الشرع الكنسى، ٧٦١، وما بعدها.

(١) راجع، النصرانية والإسلام، الخلف، ص٢٠٢، محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٥، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٣٥، المسيحية، شلبى، ٢٠٠، مجموعة الشرع الكنسى ٧٦١، وما بعدها.

(٢) محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ١٤٦، الأسفار المقدسة، وافى، ص١٣٥، المسيحية، شلبى، ص٢٠٠، أضواء على المسيحية، ص١١٢، كتاب يا أهل الكتاب تعالوا، ص٢٤٠ ـ ٢٤٢، مجموعة الشرع الكنسى، ٨٤٦، وما بعدها.

الأول هو بطرس الرسول فى زعمهم وأنه كبير الحواريين ورئيسهم، وتسمّى الغربية لكون سلطاتها فى بلاد الغرب.

وأما الكنيسة اليونانية ويقال لها أيضاً كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية فأكثر مشايعيها فى الشرق وسلطانها منه، وهى تشترك مع الكنيسة الكاثوليكية فى كثير من التقاليد النصرانية، ولكنها تخالفها فى انبثاق الروح القدس فتقول إنه من الأب فقط كما بينا، ولا تعترف إلا بالمجامع السابقة على المجمع الذى أوجد الانفصال - السبعة التى سبقت مجمع القسطنطينية الأخير - كما لا تعترف لبابا رومية بالسيادة أو الرئاسة.

ولكن لمرور الزمن وما أحيط به من تقديس بين مشايعيه وعند الملوك ولكثرة معتنقى مذهبه تتساهل الكنيسة الشرقية فتعترف له بالتقدم بالسلطان، ويليه فى الرتبة بطريرك القسطنطينية والمشايعون لها فى بلاد روسيا واليونان والعرب وكثير من جزر البحر الأبيض وغير هؤلاء[1].

وهكذا تقرر الانفصال بين الكنائس على النحو التالى:

١ - الكنيسة المصرية بالإسكندرية وحدها، ومقر رئاستها القاهرة، وقد انشقت عام ٤٥١م حيث لم توافق على قرارات خلقدونية.

٢ - الكنيسة المارونية فى سوريا وانشقت عام ٦٨٠م، حيث لم توافق على قرارات مجمع القسطنطينية الثالث.

٣ - الكنيسة الشرقية اليونانية الأرثوذكسية وحدها، ومقر رئاستها القسطنطينية.

٤ - الكنيسة الغربية البطرسية البابوية وحدها، ومقر رئاستها روما.

وقد تلا هذا المجمع عدة مجامع أخرى ساهمت فى تقرير بعض العقائد لدى النصارى من أهمها:

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية، أبو زهرة، ص١٤٦، ١٤٧.

١٠ ـ المجمع التاسع (مجمع لاتران[1] الأول) عام ١١٢٣م

وقد انعقد فى روما. ومن أهم قراراته أن تعيين الأساقفة من شأن البابا لا من شأن الحكام.

١١ ـ المجمع العاشر عام ١١٣٩م

وقد انعقد فى روما كذلك لإزالة الخلافات بين الكنيسة، لكنه فشل فى التوصل إلى حل الخلافات بين الكنيستين الشرقية اليونية والغربية اللاتينية.

١٢ ـ المجمع الحادى عشر (مجمع لاتران الثالث) عام ١١٧٩م

وفيه توصلوا إلى انتخاب البابا بثلى عدد الكرادلة، والسكوت عما شاع من استحالة الخبز والخمر فى العشاء الربانى إلى جسد ودم المسيح.

١٣ ـ المجمع الثانى عشر (مجمع لاتران الرابع) عام ١٢١٠م

وقد انعقد فى روما. وتقرر فيه أن العشاء الربانى يتحول إلى جسد ودم المسيح، وأن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء، وهو ما تطور فيما بعد إلى وثائق تباع عرفت باسم صكوك الغفران كما ذكرنا.

ثم توالت المجامع على شكل هذه المجمعات إلى أن احتدت المنازعات بسبب ظهور البروتستانت، فكان أهم المجامع بعد ذلك المجمعين التاسع عشر والعشرين.

١٤ ـ التاسع عشر: من عام ١٥٤٢ إلى عام ١٥٦٣م

ثم انعقاد هذا المؤتمر المتواصل انعقاده من عام ١٥٤٢ إلى عام ١٥٦٣م للرد على الأفكار التى نادى بها البروتستانت، وكان مكان الانعقاد فى مدينة (ترانتو) شمال إيطاليا.

---

(١) لاتران: قصر فى روما كان مقاماً للباباوات مدة عشرة قرون تقريباً. انظر المنجد، ص٦٠٦.

١٥ ـ العشرون «الفاتيكان المسكون الأول» عام ١٨٦٩م

وقد انعقد فى روما. ويسمّى «مجمع الفاتيكان المسكونى الأول». وقد انعقد لمواجهة العصر الحديث وعلومه، والاكتشافات العلمية التى تقطع بعدم مصداقية الأناجيل من الناحية التاريخية أو العلمية، وأهم ما جاء فى قراراته أن البابا معصوم، الأمر الذى أدى إلى انقسامات وخلافات جديدة بين الكنائس[١].

١٦ ـ مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥م

والذى يعده الباحثون أول مجمع يتخذ خطاً هجومياً على كافة المستويات باتخاذه قرارات لا سابقة لها فى التاريخ تتلخص أهمها فى:

ـ فرض العقيدة الكاثوليكية على العالم أجمع.

ـ الإجهاز على النظام الشيوعى بزعم إلحاده.

ـ تبرئة اليهود من دم المسيح رغم كل النصوص وكل أقوال المسيح التى تدين ذلك.

ـ الإجهاز على الإسلام والمسلمين تحت ستار إقرار مبدأ الحوار مع الديانات غير المسيحية.

كما قام هذا المجمع بمناقشة القضايا التالية والبتّ فيها:

ـ مفهوم الله والإنسان المسيحى الحالى.

ـ البنية الداخلية للكنيسة وبخاصة دور البابا الرئاسى المتسلط فيها وعليها.

ـ الأحداث السياسية لهذا العصر.

ـ التوترات القائمة فى قلب الفاتيكان.

ـ تكوين القساوسة ووحدة رجال اللاهوت.

ـ الاستعانة بالعلمانيين كأدوات استشعار لرجال الكهنوت والمبشرين.

---

(١) راجع أضواء على المسيحية، ص١١٦، المسيحية، شلبى، ٢٠٠، تنصير العالم، ص٧٥.

- دور العذراء فى الكنيسة.

- النشاط التبشيرى لغير المسيحيين.

وإن ظل أخطر قراراته هو تنصير العالم. لذلك قام بإنشاء «المجلس الدائم لأساقفة الكنيسة العالمية»، الذى تتلخص مهمته فى إعلام وإرشاد مقر العمليات العالمى الخاضع للبابا.

أما عبارة تحديث الكنيسة التى ابتدعها المجمع فتعنى إعادة صياغة العقيدة بكل ما فيها من لا معقول وتقديمها بعبارات ومفاهيم يقبلها العصر الحديث أو تتمشى مع عقليته، أى أن الكنيسة ناقضت موقفها السابق من العصر الحديث وبدأت تتحايل لتتمشى معه. ويمكن القول أن كل ما يتخذ من خطوات يتواكب من أجل تنفيذ مخطط تنصير العالم(١).

- والواقع أنه من خلال دراستنا للمجامع المسكونية وما تقرر فيها يتبين لنا أن النصارى لا يملكون أدلة صحيحة صريحة يستندون إليها فى عقائدهم، لهذا اختلفوا تلك الاختلافات الخطيرة التى تمس جميع جوانب العقيدة لديهم على نحو ما هو واضح فيما قدمناه.

- وما يستند إليه النصارى ويتحمسون له لا يعدو أن يكون فهماً خاصاً يسعى أصحابه لتثبيته عن طريق تلك المجامع، ولا يخلو الأمر من الأهواء والأغراض الخاصة من حب الرئاسة وفرض السيطرة.

- ولم تكن هذه المجامع فى يوم من الأيام هيئات شورية يتبادل فيها القساوسة الأراء تبادلاً حراً، ويتوصلون فيها إلى الحق بأدلته، بل كانت تعقد فى أغلب الأحيان لفرض رأى أو تصور معين، وبقوة السلطان أو قوة الكنيسة.

ولقد كانت تلك المجامع أداة بيد الأباطرة الرومان يسخرونها لرغباتهم فى التوسع والسيطرة أو تحقيق أغراض سياسية.

- ولقد رأينا فيما سبق كيف أن المجامع قررت قرارات عقدية معينة، ولعنت

---

(١) تنصير العالم، ص٧٥، ٧٦.

وحرمت من لم يقل بها، وقررت أن سبيل النجاة هو اعتقاد تلك العقائد، وهنا سؤال يطرح نفسه: ما هو حال حواربى المسيح وأوائل النصارى الذين لم يكونوا يعتقدون تلك العقائد، ولم يتكلموا فيها بكلمة واحدة كالتثليث وطبيعة المسيح وانبثاق الروح القدس من الأب أو الأب والابن معاً؟ إلى غير ذلك.

- لقد صاغت المجامع العقائد بكل تفاصيلها، دون أن يكون لها أصول نصية شرعية، مما يجعلنا نقرر أنها ليست إلا عملاً بشرياً.

ونبرز فيما يلى أهم ما كان لهذه المجامع من آثار فى تحريف العقيدة النصرانية:

أولاً: نمت البذرة التى وضعها بولس فى الانحراف بالنصرانية عن عقيدة التوحيد، فقررت هذه المجامع ألوهية المسيح، مع ما وقع بين هذه المجامع المتابعة من تضارب فيما قررته بشأن طبيعة المسيح، وهل هو ذو طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، أو ذو طبيعتين ومشيئتين.

ثانياً: تقررت فى هذه المجامع عقيدة التثليث بعد أن تقرر تأليه روح القدس، بالإضافة إلى الأب والابن منحرفة بذلك عن مسار التوحيد، وقد غلبت هذه العقيدة على الديانة النصرانية منذ بداية القرن الرابع، متأثرة فيما قررته بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والتى تزعمها أفلوطين فى القرن الثالث الميلادى وإليه تنسب الأفلوطينية الحديثة وكانت آراء هذه المدرسة تتلخص فى الآتى:

- أن الله منشئ الأشياء ولا يحتاج إلى موجد.
- أن العقل هو أول شىء صدر عنه كأنه يتولد منه.
- ومن العقل انبثقت الروح التى هى وحدة الأرواح.

فمن هذا الثالوث يصدر كل شىء ومنه تولد كل شىء. وقد نشأ بطريرك الإسكندرية الذى كان له الدور الأكبر فى مجمع نيقية فى هذه البيئة التى انتعش فيها مذهب أفلوطين، لذلك لم يكن عجباً منه عند تواجده فى مجمع نيقية أن يكون من المدافعين بشدة عن عقيدة التثليث وتكرر منه ذلك فى المجمع

القسطنطينى الأول، حتى صارت عقيدة وقراراً لكل من المجتمعين سرت بعد ذلك إلى جميع الكنائس النصرانية.

أما عن السر فى ميل أباطرة الرومان إلى عقيدة ألوهية المسيح والموت والقيامة فيوضحه ما جاء فى كتاب «مصادر المسيحية» نقلاً عن تاريخ سوريا للمطران «يوسف الدبس»: أن القديس يوستنيوس قال فى عريضته للقيصر أدريان أنطونيوس:

«إننا إذ نقول إن الله خلق ونظم العالم لا نقول إلا ما قاله أفلاطون، وإن قلنا بعد الموت حياة أخرى يعاقب فيها الأشرار ويثاب الأبرار فلا نقول إلا ما قال شعراؤكم وفلاسفتكم، وإن قلنا إنه لا يلزم أن نسجد لعمل اليدين فذلك قول شعراؤكم، وإن قلنا إن الكلمة أو ابن الله البكر قد تجسد بنوع خارق للطبيعة وعلق على الصليب ثم قام وصعد إلى السماء فلا يحق لكم أن تستغربوا هذا المقال لأنكم تعزون هذه الأمور إلى من تدعون أنهم أبناء المشترى وإلى بعض ملوككم»[1].

ونستخلص من كل ذلك أن الوثنية وقد كانت غالبة على أهل الأرض دفعت المتأثرين بها والذين اعتنقوا النصرانية إلى أن يستمدوا مما رسخ فى أذهانهم واستقر فى خيالهم من أمور الشرك ما طمسوا به الحق السماوى الذى جاء به المسيح - ﷺ - من عقيدة نقية فى التوحيد المجرد لله وحده، وأنه إنسان مرسل بالحق طبقاً لما ورد فى الإصحاح الثامن من العدد ٤٠ من إنجيل يوحنا مخاطباً اليهود قال: «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله» فمسخوا ذلك بعقيدتهم الحالية التى ترتكز على التثليث كما قدمنا سالفاً.

ثالثاً: فتحت هذه المجامع الباب على مصراعيه للخصوم والشقاق بين النصارى فى البلاد المختلفة، وتحول الانحراف عند الطوائف إلى عقائد ثابتة تأكدت فى وثائق مجمعة تعتبر ملزمة ومعترف بها.

(١) تاريخ سورية، ٢/٤٣.

رابعاً: تتحمل المجامع - ولا سيما مجمع نيقية - مسئولية ضياع النسخة الأصلية للإنجيل المنزل على عيسى ﷺ، وذلك بما قررته ودعت إليه مما هو خلاف العقيدة المنزلة على عيسى ﷺ. وإذا أخذنا بكلام ابن البطريق وكذلك عبد الأحد داود بعده، ثابت من قرارات مجمع نيقية اعتماد الأناجيل الأربعة المعروفة وحرق جميع ما سواها، فيترتب على ذلك أن المجمع كان سبباً مباشراً فى ضياع الإنجيل الصحيح وفقدانه للأبد.

خامساً: لقد كانت المجامع من أعظم أسباب الفرقة والاختلاف بين الكنائس النصرانية، ذلك أن المجتمعين فى تلك المجامع لم يخرجوا فى واحد منها متفقين على عقيدة واحدة، بل كلما اجتمعوا فى مجمع يزداد اختلافهم، وبالتالى انقسامهم، وبذلك انقسمت الكنائس فيما بينها بسبب اختلاف موقفها فيما تقرره أو ترفضه المجامع من العقائد.

سادساً: لما كانت المجامع تتكون من أساقفة الكنائس، وكانت تجتمع إما تلبية لأمر الإمبراطور ليفرض عن طريقهم ما يريد من عقائد ترتبط بحاجاته السياسية، أو استجابة من الإمبراطور لرغبتهم، وانعقاد هذه المجامع ليفرضوا عن طريقها من العقائد ما يريدون، بغض النظر عن مدى صحتها، ومدى مطابقتها للنصوص العقدية - لما كانت المجامع بهذه المثابة فإنها كانت فى الواقع تمثل سلطة مطلقة تفرض على النصارى ما تشاء من العقائد، ولا تدع لأى نصرانى حرية استقاء العقائد من النصوص المقدسة على الوجه الصحيح، فإذا أضفنا إلى ذلك ما قرره أحد المجامع من عصمة البابا، فإن ذلك يعنى تقرير سلطانه المطلق فى أمر العقيدة.

وقد ساعد كل ذلك على فرض ما يريده الأساقفة والبابوات من عقائد محرفة ليس بينها وبين العقيدة التوحيدية الأولى أدنى صلة.

ولعل هذا يوضحه ما قرره مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥م، والذى قرر أن تعاليم الدين لا يمكن تلقيها من الكتب رأساً، بل من أفواه العلماء ورجال الكهنوت، وأن أقوالهم حجة.

ومن قبله ما كتبه الأسقف «اجناسيوس» أسقف أنطاكية سنة ١٠٧م إلى النصارى في «سميرنا»:

«عليكم جميعاً أن تطيعوا آباء السماء كما أطاع عيسى أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يباشر أحد منكم شأناً من الشئون التى تقوم بها الكنيسة كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة بدون حضور آباء الكنيسة، وأنّى يوجد الأسقف فإن حضوره يُعَدّ حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية».

«الأب والأئمة الروحانيون لهم سلطان لقيادتنا وإرشاردنا باسم المسيح، فمن أيديهم نتلقى حياة الطهر عن طريق التعميد، وهم الذين يعطوننا الخبز المقدس فى العشاء الربانى، وهم الذين يربوننا لنصبح أبناء الله، وهم عوض عيسى وآباؤنا الروحانيون، فعلينا أن نتعمق فى احترامهم وحبهم وطاعتهم».

«وكل رجال الكنيسة العظام من الأب المقدس إلى الأساقفة يصدرون الأوامر لتنظيم الكنيسة ولسلامة المسيحيين من الذنوب والهموم النفسية وتشجيعهم على فهم الحياة الكنسية».

«والمسيحيون أعضاء يتكون منهم جسد عيسى المقدس فعليهم أن يمتثلوا لأوامر الأساقفة وأن يسلموا أنفسهم للآباء الروحانيين»[1].

وهكذا فإن المجامع النصرانية هى المصدر الحقيقى للديانة النصرانية المحرفة، لأن تلك الفهوم التى كانت تقرر وتصدر وفقها القرارات لم تكن تعتمد على نصوص قطعية واضحة، بل أحياناً كانت تعتمد على نصوص متشابهة وكلام محتمل لأكثر من معنى ويكون من أقلها احتمالاً المفهوم الذى تدعيه الكنيسة.

سابعاً: كان تقرير المجامع لعقيدة التثليث، أو العقائد المحرفة عموماً يقترن دائماً بلعن دعاة التوحيد أو المخالفين عموماً لقرارات الأغلبية فى المجامع واضطهادهم وإعلان طردهم من الكنيسة، وقدى أدى هذا الموقف إلى تثبيت العقائد

(١) راجع المسيحية، شلبى، ص١٥١.

المحرفة على حساب عقيدة التوحيد الصحيحة فى عقول النصارى وقلوبهم.

ثامناً: كان نتيجة لانقسام الكنائس أن فسدت الكنيسة بشقيها الشرقى والغربى، وامتد فسادها إلى خارج حدودها داخل المجتمع النصرانى. ودخلت الخرافات والأساطير والتقاليد الوثنية فى صلب عقائدها وتعاليمها وطقوسها، وامتزج كل ذلك بالتفسيرات المتناقضة لنصوص الأناجيل، وقد ظهر هذا فى مجامع لاحقة عقدت فيما بعد بشأن الطقوس الدينية، وهو ما اختلفت فيه الكنائس أيضاً.

ومن أمثلة ذلك:

مسألة الاستحالة أو العشاء الربانى:

وقد ذكرنا عقيدة النصارى فى ذلك ولكن الجديد هنا أنها أصبحت شعيرة لها سماتها، حيث يعتقد النصارى بتحول الخمر إلى دم ويستحيل الخبز إلى لحم، لحم شخص معروف، بل إله معبود لدى القوم.

وقد ثبت من نصوص العهد القديم والجديد ما يدل على بطلان هذه الحادثة من أساسها. ومن ثم فالنص المعتمد عليه فى مسألة الاستحالة نص باطل وكاذب، وكان على الكنيسة أن تفكر قبل أن تشرع ولكنها كما يقول الشيخ أبو زهرة: «فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته وإلا عرضوا للطرد والحرمان...»[1].

أما المسألة الثانية:

فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسىء فى الدنيا، وهى من المسائل التى أبرزتها الكنيسة إلى حيز الوجود بدون دليل أو برهان حتى تعطى لنفسها قوة تفوق قوة أى سلطان، ومن ثم تكون باسم الثالوث صاحبة الأمر والنهى، وعقدت لهذه المسألة المجمع الثانى عشر، والذى ضرب بسيف الحرمان على كل من كان له اعتراض على هذا القرار.

(١) محاضرات فى النصرانية، ابو زهرة، ص١٧١.

ثم تبع ذلك الاعتراف بالذنب أمام القساوسة وما كان يحدث فى خلوات الاعتراف من فضائح. تلا ذلك ما روجته الكنيسة من عصمة البابا وذلك فى بيان عام لتابعيها، وجعل طاعة آباء الكنيسة كطاعة عيسى عليه السلام.

وهكذا بعدت النصرانية بعداً تاماً عن تعاليم المسيح - عليه السلام - وظهرت على السطح باسم الثالوث نصرانية جديدة فاسدة تسمى نصرانية القساوسة.

ويصدق عليهم فيما يدعونه من عقيدة ويشرعونه للناس أنهم جعلوا انفسهم أرباباً من دون الله يحلون ويحرمون فينطبق عليهم قول الله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (التوبة: ٣٠، ٣١).

حالة الفرق والمذاهب المسيحية
بعد خلقيدونية النساطرة

مدرسة نصيبين مركزاً للنسطورية. اساقفة نسطوريون: ١ ـ برصوما. ٢ ـ نرسيس. ٣ ـ باباى الأكبر. مآل النساطرة.

النساطرة

رأى النساطرة فى مجمع خلقيدونية انتصاراً لمذهبهم الذى حُرِمَ، وكُفِّر فى افسس سنة ٤٣١. وأما أتباع القديس كيرلّس الشديد والتمسك بصيغه العقدية، فانخدعوا عن أمرهم، وظنّوا أنهم ظُلموا. وقد ولّد هذه العقيدة النفسية عندهم فَهْمُهُم الضيق للصيغ الإسكندرانية أولاً، وهتافات النصر التى صدرت عن خصومهم النساطرة ثانياً. فاعتقدوا أن ما تقرّر فى خلقيدونية إنما كان عدولاً عما تمّ الإجماع عليه فى أفسس سنة ٤٣١، حيث كُفّر نسطور، وحُرم، تمّ تثبيت عقيدة العذراد أمّاً لله. وخرج هؤلاء وأولئك بتعاليم يختلف بعضها عن بعض، ولم يجمع بين الطرفين سوى اليقين بأن كلاً منهما هو الذى أصبح الزائد عن حرمة العقيدة المسيحية القويمة. ثم جاءت غايات السياسة وأغراضها، وتَزَيّتْ النزعة القومية تلك الصيغ العقدية المختلفة التى أخذ أصحابها يلجؤون إليها، لا لشىء، إلا ليحققوا استقلالهم عن بيزنطة[1].

مدرية نصيبين مركزاً للنسطورية

بعد أن أغلقت مدرسة الرها فى سنة ٤٨٩، انتقل أساتذتها وطلبتها المتأثرون بتعاليم نسطور إلى مدرسة نصيبين، وكانت يومئذٍ جزءاً ممّا كان

(١) غ و ق، الفكر الدينى، ج٢، ص٣٢١ ـ ٣٢٢.

يُسمّى بسورية الشرقية (العراق)[1]. كان هؤلاء الأساتذة يترجمون ما يتلقونه من علماء أنطاكية إلى لغتهم السريانية، ولاسيما مؤلفات تيودوروس المصيصى، وهو من الذين رفضوا عقيدة أمّ الله وصفاً للعذراء مريم. كما رفضوا أن يكون المسيح ابن الله حقاً وطبعاً[2]. ويبدو أن العامل القومى هو الذى كان وراء استخدام هؤلاء الأساتذة للغة السريانية وحدها فى شعائرهم الدينية ومؤلفاتهم العقدية، وبذلك انفصلوا انفصالاً تاماً عن اللغة اليونانية، وعن كل صلة لهم ببيزنطة[3].

أساقفة نسطوريون

كان من أشد المهاجرين النساطرة من الرها إلى نصيبين تحمّساً للمذهب رجلان كانا هما المؤسسان الحقيقيان للمدرسة الجديدة وهما برصوما ونرسيس. وكانا قد غادرا الرها إلى نصيبين سنة ٤٥٧. ثم إنهما هما اللذان ضمنا للنسطورية الانتشار فى الكنيسة الكلدانية، وحملا هذه الكنيسة على الانشقاق نهائياً عن أنطاكية، ومن خلالها عن بيزنطة[4].

١ ـ برصوما

أما برصوما، فكان قد عُيّن أسقفاً على نصيبين، وتوفى سنة ٤٩٠، وهو الذى أسس المدرسة، ووضع لها قوانينها وسلّم إدارتها لنرسيس، ثم ناشد ملك الفرس المجوسى فيروز شاه (٤٥٧ ـ ٤٨٤)، أن يقبل النساطرة وحدهم مسيحيين فى

(١) كانت سورية فى ذلك الزمان تمتد من سواحل البحر المتوسط إلى مرتفعات إيران، وكان أهلها يتكلمون اللغة السريانية، ثم إنهم كانوا يميزون فيها ثلاثة أقسام: سورة الغربية وعاصمتها أنطاكية، وسورية الوسطى أو الفراتية وعاصمتها مدينة الرها، ثم أخيراً سورية الشرقية، وكانت تمتدّ من المنطقة الواقعة شمال نهر دجلة إلى مصبه فى الجنوب، وكانت عاصمتها (أردشير) أو (سلوقية اقتيزيفون) نحو الجنوب بقليل من المكان الذى بنى فيه فيما بعد العباسيون مدينتهم بغداد (غ و ق، الفكر الدينى، ج٢، ص٢٢٢).

(٢) غ و ق، الفكر الدينى، ج٢، ص٢٠٣.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٢٤.

(٤) غ و ق، الفكر الدينى ، ج٢، ص٢٢٤.

بلاده، (وكان الرومان قد تنازلوا للفرس عن سورية الشرقية منذ عام ٣٦٣)، وصوّر له الفرق المسيحية الأخرى تأتمر به مع بيزنطة. فنصّبوا أسقفاً نسطورياً على أردشير، عاصمة سورية الشرقية، وتبعه سائر أساقفة البلاد فى مذهبه. وبذلك تم انشقاق الكنيسة الكلدانية نهائياً عن الكنيسة الكبرى[1].

٢ ـ برنسيس

أما نرسيس، فبقى حتى موته (٥٠٧)، أى ٥٠ سنة، روح مدرسة نصيبين ورأسها المدّبر. وهو الذى جعلها مركزاً لإشعاع النسطورية وانتشارها.

كان أولو الأمر فى المدرسة، إبّان نشأتها، قد تقيّدوا بالصيغة العقدية التى انعقد عليها الإجماع سنة ٤٣١، (وهى الصيغة القائلة بأن المسيح أقنوام واحد فى طبيعتين)[2].

لكنهم لم يلبثوا أن تخيّلوا فى هذه الصيغة شيئاً من اللّبْس (منشؤه الخلط بين مفهومى الأقنوم والطبيعة). وأخذوا، تحت تأثير نرسيس، يتجهون إلى القول بالإثنينية الأقنومية (مما يعنى أن اللاهوت والناسوت فى المسيح، كلاً منهما، منفصل عن الأخر وأن العذراء ليست أمّ الله)[3].

٣ ـ باباى الأكبر

كان بابى رئيسساً على دير إبراهيم فى الجبل المعروف اليوم باسم «طور عبدين»، فوق نصيبين، فى شمال سورية الشرقية. وقد قام بالدور الحاسم فى توحيد صفوف النساطرة من الناحية العقدية والسياسية، فاشتهر عندهم باسم باباى الأكبر. أما من حيث العقيدة، فإنه لم يزل بخصومها يتتبعهم فى الأديرة

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٢) نذكر أن الأقنوم هو ما يقوم فى ذاته ولذاته، على حين أن الطبيعة لا تقوم بذاتها، بل هى جزء من كل أو جزء فى كل. ولذلك لا يصحّ من وجهة نظر مسيحية قويمة، أن تكون الطبيعة اقنوماً ـ الكاتب.

(٣) غ و ق، الفكر الدينى، ج٢، ص٣٢٥.

وخارجها، ويستعين عليهم حتى بضباط البلاط الفارسى. وقيل إنّ انُتخب رئيساً على أساقفة النساطرة فى أردشير، فرفض حتى يستطيع أن يتفرغ لمهمته التى كانت تتطلب منه تجولاً مستمراً وتنقلاً من مكان إلى آخر. مات الرجل فى ٦٢٧، وخلّف آثاراً كثيرة أهمها كتابة «فى الاتحاد»[١].

فى هذا الكتاب يعترف بابى بأن العذراء أم الله. ويلحّ على إثبات وحدة الأقنوم فى المسيح. لكنه، من ناحية ثانية، ينسب للمسيح طبيعتين كاملتين، كل منهما قائمة فى ذاتها وبذاتها، مما يجعل اعترافه بأن العذراء أمّ الله لا ينهض على أساس. وبذلك يخرج عما أجمع عليه الآباء فى مجمع أفسس وخلقيدونية[٢].

مآل النساطرة

بهذه العقيدة، انفصل النساطرة عن الكنيسة الأم، وانسحبوا إلى مناطقهم من بلاد فارس وسورية الشرقية (العراق)، داخلين فى نفوذ الفرس، وكانت الحيرة، الواقعة فى جنوبى الكوفة، عاصمتهم الكبرى بين العرب اللخميين. على أن قوماً من المونوفيزية (القائلين بالطبيعة الواحدة) كانوا هم أيضاً، ومنذ القرن السادس، قد استوطنوا هذه المدينة. لكنهم كانوا لجؤوا إليها فراراً من اضطهاد بيزنطة، ريثما يتوصل أئمتهم، بدورهم، إلى الاستقلال فى القرن السابع بمصر وبقسمى سورية الغربية والفراتية. والواقع أن هؤلاء الأئمة استطاعوا، فى نهاية الأمر، أن يفصلوا هذه الأقطار من القومية البيزنطية والثقافة اليونانية، لاجئين فى صوغ شعائرهم الدينية، مثلما فعل النساطرة، إلى اللغة القبطية فى مصر، واللغة السريانية فى سورية[٣].

(١) المرجع السابق، ص٣٢٥ ـ ٣٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٢٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٣٢٧.

ب ـ حالة الفرق والمذاهب المسيحية بعد خلقيدونية:

المونوفيزية

تبيّن معنا، فيما تقدم، أن الإشكالية الكبرى التى نشأت عنها المذاهب والفرق المسيحية ترجع إلى تحديد ماهية العلاقة بين اللاهوت والناسوت فى المسيح: هل هو أقنوم واحد فى طبيعتين أم هى كينونة فى أقنومين؟

وبما أن الأقنوم هو ما يقدم فى ذاته وبذاته مستقلاً عن كل شىء سواه، فإن قول النساطرة بأن المسيح ذو أقنومين معناه اللاهوت والناسوت، اللذين اجتمعا فى المسيح، منفصلين أحدهما عن الآخر انفصالاً تاماً، ينتج عنه أن الذى صُلب، ومات، إنما هو يسوع الإنسان لا يسوع ابن الله، وتالياً إن الله وَلَدتْهُ العذراء إنما هو أيضاً يسوع الإنسان/ وإن السيدة العذراء ليست أمّ الله، بل أم يسوع الإنسان.

فى الطرف المقابل مما ذهب إليه النساطرة، قام مذهب المونوفيزية، وهم أصحاب الطبيعة الواحدة فى المسيح، وكأنه رجْعٌ معاكس على ما قال به الأوّلون. ولعل أشد غلاة المونوفيزية أفتيخيس الذى ذهب إلى أن المسيح كان قبل التجسّد ذا طبيعتين، لكنه بعد التجسّد تلاشت الطبيعة البشرية أمام الطبيعة الإلهية، ولم يبق غيرُ هذه الأخيرة، وقد مرَّ معنا أن أفتيخيس قد كُفّر، وحُرِم.

على أن الذى ضبط المنوفيزية المعتدلة فى سورية بصيغتها النهائية، كما أخذ بها من عُرفوا باليعاقبة فيما بعد، هو سفيروس الأنطاكى الذى اعتلى سدة بطريركية أنطاكية ٥١٢ إلى ٥١٨.

ويقوم مذهب الرجل على أن المسيح طبيعة واحدة أو أقنوم واحد، وهو الكلمة الذى تجسّد، لا ليصبح شيئاً آخر، بل ليكون موجوداً على وجه آخر[١].



---

(١) غ و ق، الفكر الدينى، ص٢٣٠ ـ ٢٣١.

لا يمكننا القول إن الاختلافات المذهبية أو العقدية لم تكن شعاراً لتطلعات قومية كانت ترمى إلى الاستقلال عن هيمنة بيزنطة واللغة اليونانية على المسيحية الشرقية. وقد اشتدّت هذه الميول عندما تدخّل الإمبراطور يوستيفانوس فى المسائل اللاهوتية، جاعلاً من نفسه حَكَماً فيها، محاولاً التوفيق بين مقرارات مجمعى أفسس وخلقيدونية، لكن هذه المحاولات لم تنجح إلا فى تنظيم كنيسة مونوفيزية فى سورية الغربية والفراتية على رأسها يعقوب بن عدادى؛ ومن هنا عُرف أتباعها باليعاقبة الذين اعتمدوا السريانية لغة لاهوتية وطقسية لكنيستهم. ومثل ذلك فعل المصريون، إذ تمذهبوا بالمونوفيزية، واعتمدوا اللغة القبطية فى طقوسهم[1].



ظهور هرطقة جديدة تتزامن مع ظهور الإسلام: القول بالمشيئة الواحدة فى المسيح

القول بالمشيئة الواحدة فى المسيح إنما جاء من قبل بطريرك القسطنطينية سرجيوس (٥٣١ ـ ٦٣٨)، فى محاولة منه لكسب ولاء المونوفيزية، أقباطاً ويعاقبة، لبيزنطة التى كان يتهدد إمبراطوريتها العربُ من الجنوب والفرس من الشرق. وقد عُرف أتباع هذا المذهب «بالمونوتيلية»، أو أصحاب المشيئة الواحدة، وكان منهم الموارنة[2]. وهذا القول تؤدى إليه المونوفيزية، الطبيعة الواحدة، مثلما تؤدى المقدمات إلى النتائج. لقى هذا القول مقاومة من القديس سفرونيوس، أسقف أورشليم الذى سلّم مفاتيح القدس إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب ﷺ. فكتب سرجيوس إلى البابا هونوريوس (٦٢١ ـ ٦٣٨) مبيّناً له ضرورة الأخذ بهذه النظرية تجنّباً للفتنة التى كانت تذّر بقرنها فى الجانب المشرقى من الإمبراطورية. وافقه البابا على ما ذهب إليه، وتأسيساً على هذه

(١) غ و ق، الفكر الدينى، ج٢، ص ٣٣٧ ـ ٣٤١.

(٢) انظر أديب نصر الدين، الينابيع فى المسيحية والإسلام، بيروت ١٩٩٤، ص١٧٤ وما بعدها.

الموافقة، أصدر الإمبراطور هرقل مرسوماً تضمن الصيغة التالية: «إنّا نعترف بمشيئة واحدة في ربنا يسوع المسيح الإله الحقيقي»[1].

وفي جواب البابا إلى سرجيوس جاء قوله: «إنّا نعترف بمشيئة واحدة في ربنا يسوع المسيح، لأنه واضح أن اللاهوت تولّى ناسوته بكل ما فيه ما عدا الخطيئة»[2]. أي أن الناسوت يخضع للاهوت بمثل ما يخضع الجسد للنفس... لكن البابوات الذين خلفوا هونوريوس ارتدوا عمّا ذهب إليه ـ الأمر الذي أحدث انشقاقاً بين بيزنطة والكنيسة الكاثوليكية بروما انتهى إلى عقد مجمع مسكوني هو الثالث في القسطنطينية بين ٦٨٠ و ٦٨١ برعاية الإمبراطور قسطنطين الرابع (٦٦٨ ـ ٦٨٦)، والبابا القديس أغاثون (٦٧٨ ـ ٦٨١)، وفيه تقرر وجوب الإيمان «بأن في المسيح فعاليتين طبيعيتين، حقيقيتين، بدون تقسيم، ولا استحالة، ولا تفريق، ولا امتزاج، وهاتان المشيئتان الطبيعيتان الحقيقيتان، لا تضادُّ إحداهما الأخرى».. بل «كلتا الطبيعتين في المسيح تعمل، بالاشتراك مع الأخرى، ما هو خاص بها»[3].



(١) غ و ق، الفكر الديني، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) غ و ق، الفكر الديني، ص٢٤٧.

(٣) غ و ق، الفكر الديني، ص٢٤٩.

عقيدة النصارى فى الحلول والاتحاد

أ ـ معنى الحلول والاتحاد

١ ـ معنى الحلول

الحلول لغة: النزول. و «حلّ بالمكان يَحُلّ حولاً، ومحلا، ومحلا، وحلا وحَلَلا، وذلك نزول القوم بمحلة. وهو نقيض الارتحال قال الأسود بن يعفر:

كما فالتى من كريم كان ذا ثقة يذكى الوقود بجُمّد ليلة الحَلل

وحلّ واحتل به، واحتله نزل به»[١].

وجاء الحلول فى القاموس المحيط بمعنى النزول أيضاً[٢].

«وحل غضب الله على الناس: نزل، وفى التنزيل العزيز:

﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾[٣].

والمكان وبه ـ حلولاً: نزل به. وفى التنزيل العزيز: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾[٤]. ويقال: حللت بهم، وحللت عليهم. و ـ البيت سكنه. فهو حال جمع حلول وحُلاّل وحلّل»[٥].

وجاء فى التعريفات للجرجانى: «الحلول السّريانى ـ بفتح السين المشددة والراء المهملة ـ عبارة عن: اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما

---

(١) ابن منظور/ لسان العرب/ ج١١ ص١٦٣ فصل الحاء باب اللم.

(٢) للفيروز أبادى جـ٢ ص ٣٥٩ فصل «الحاء باب اللام».

(٣) سورة طه/ آية ٨١. (٤) سورة الرعد / اية ٣١.

(٥) المعجم الوسيط جـ ١، ص١٩٣.

انظر كذلك محمد فريد وجدى / دائرة معارف القرن العشرين جـ٣ ص٤٧٩.

إشارة إلى الآخر، كحلول ماء الورد فى الورد. فيسمى السارى حالاً، والمسرى محلاً.

والحلول الجوارى، عبارة عن: كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر، كحلول الماء فى الكوز».

ولعل الجرجانى يقصد بـ«اتحاد الجسمين»، حصول أحدهما فى الآخر، واختصاصه به، وإلاَّ فهناك فرق بين حلول الشىء ُى الشىء، وبين اتحادهما معاً، بحيث يصيران شيئاً واحداً، كما سنذكره بعد قليل فى تعريف الاتحاد عند الجرجانى نفسه.

والحلول نوعان:

حلول عام: ومعناه - عند القائلين به - حلول الله فى الكون فيصبح الكون كله بكل جزئياته محلاً له سبحانه وتعالى. وهو قول غالب متعبدة الجهمية[1]. الذين يقولون: «إن الله بذاته فى كل مكان، ولا يخلو منه مكان».

وحلول خاص: ويقصد به حلول ذات الله، أو صفة من صفاته فى جسد إنسان معيّن من خلقه، أو روحه، أو فى أى مكائن آخر حياً كان أو جماداً. بحيث يصبح هذا الشخص المعين، أو الكائن المعين محلاً للإله ومظهراً له.

وهذا النوع من الحلول هو الذى تقول به النصارى، حيث يقولون: إن ذات الله حلت فى عيسى وتدرعت[2] به، كحلول الماء فى الإناء.

وكلا النوعين باطل فى حق الله - سبحانه وتعالى: لما يترتب عليه من المحالات فى حقه عز وجل[3].

(١) أتباع جهم بن صفوان.

(٢) تدرع الرجل لبس الدرع، وتدرعت المرأة لبست الدرع. وكون ذات الله تدرعت بالمسيح - على حد قول النصارى - أى اتخذته درعاً كما يتدرع الإنسان قميصه. فاللاهوت تدرع الناسوت. تعالى الله عن قولهم.

(٣) انظرْ ابن تيمية مجموع الرسائل والمسائل جـ١ ص٩٧/٩٨ ط١.

وأنظر كذلك مجموعة الرسائل الكبرى جـ٤ ص٢٤، ٢٥.

وعلى العموم فلفظ الحلول «لفظ مجمل يراد به معنى باطل»، ويراد به معنى حق ـ كما سيأتى ـ وقد جاء فى كلام الأنبياء لفظ الحلول بالمعنى الصحيح، فتأوله من فى قلبه زيغ كالنصارى وأشباههم عن المعنى الباطل، وقابلهم آخرون أنكروا هذا الاسم بجميع معانيه، وكلا الأمرين باطل»[1].

٢ ـ معنى الاتحاد

الاتحاد لغة صيرورة الشيئين واحداً. و«أحّد الاثنين» أى صيرهما واحداً»[2].

ويقول الجرجانى فى تعريفاته: «الاتحاد هو تصيير الذاتين واحدة، ولا يكون إلاّ فى العدد، من الاثنين فصاعداً»[3].

ويقول أيضاً: «الاتحاد هو امتزاج الشيئين، واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً»[4].

والاتحاد نوعان:

اتحاد عام: وهو اتحاد الذات الإلهية مع جميع الكائنات فتصبح عين وجودها. وهو قول الملاحدة الذين يزعمون أنّ ذات الإله سبحانه هى عين وجود الكائنات.

اتحاد خاص: وهو اتحاد الذات الإلهية ببعض الناس المخصوصين، وامتزاج هذه الذات مع الإنسان فى شخص واحد، كما تقول بذلك فرق النصارى، حيث يقولون باتحاد اللاهوت والناسوت معا، وامتزاجهما فى شخص المسيح ﷺ.

وكلا النوعين باطل فى حق الله عز وجل؛ لما يترتب عليهما من المحالات فى حقّه سبحانه وتعالى[5].

---

(١) ابن تيمية/ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح/ جـ٣ ص١١٧/ ١١٨.

(٢) انظر الإمام السيد محمد مرتضى الزبيدى/ تاج العروس جـ٢ ص٢٨٨ فصل الهمزة باب الدال. وانظر كذلك الجرجانى فى تعريفاته ص٦.

(٣) الجرجانى فى تعريفاته: صفحة ٦.

(٤) المرجع السابق.

(٥) ابن تيمية/ مجموع الفتاوى/ جـ٢ ص١٧١ بتصرف.

٣ ـ العلاقة بين الحلول والإتحاد

الإتحاد مبنى على الحلول، فالقائلون بالاتحاد قد تدرجوا من القول بالحلول أولاً، ثمّ ارتقوا إلى القول بالإتحاد . ففى الحلول بقاء الأثنينية، بمعنى أن يحلّ أحد الشيئين فى الآخر، مع احتفاظ كل منهما بذاته.

امّا فى الاتحاد ففناء اللاثنينية، بحيث تصبح الذات الإنسانية، والذات الإلهية شيئاً واحداً، فلا اثنينية بين ذات الإله، وذات الإنسان حينئذ.

وعقيدتا الحلول والاتحاد انتهت ببعض الفرق إلى القول بوحدة الوجود . حيث يقولون: لا حلول ولا اتحاد، بل ليس إلاّ موجود واحد .

وفى الحقيقة «يعتبر القول بالحلول والإتحاد خطوات أولى فى طريق القول بالوحدة، ويعتبر القول بوحدة الوجود ترقياً للقول بالإتحاد، وإمعاناً فى محو الاثنينية فى الوجود»[1].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى بيان معنى وحدة الوجود ـ عند القائلين بها:

«أنّ الوجود عندهم واحد، وهم يجعلون وجود الخالق عين وجود المخلوقات، وليس للخالق عندهم وجود مباين لوجود المخلوقات، منفصل عنها أصلاً، بل عندهم ماثمّ غير الخالق، ولا سواه. ولهذا قالوا: أنّ آدم من الله بمنزلة إنسان العين من العين»[2].

ومؤدى مذهب وحدة الوجود: أن لا موجود غير الله، وكل ما فى الكون مما سواه ليس إلاّ مظاهر صفاته، وأسمائه، فهو الأول، والآخر والظاهر، والباطن. ولا وجود بحقّ إلاّ له، فهو قيوم كل شىء، منه مادته، وروحه معاً»[3].

إذن فالقول بوحدة الوجود يعني: أنّ وجود المخلوقات عين وجود الخالق، لا

(١) د. حسين جابر موسى/ تنزيه الله فى الفكر الإسلامى ص٣١٧ (رسالة دكتوراه).

(٢) مجموع الفتاوى جـ٢ ص١١٢ وكذلك الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان صفحة ٨٢، ٨٣.

(٣) محمد فريد وجدى/ دائرة معارف القرن العشرين/ جـ١٠ ص٧٦٤.

فرق بينهما من حيث الحقيقة، أمّا ما يظن أنّه فرق بين وجود الخالق، ووجود المخلوق، فإنما هو - فى نظر أصحاب وحدة الوجود - أمر يقضى به الحسّ الظاهر، والعقل القاصر عن إدراك الحقيقة على ما هى عليه فى ذاتها، من وحدة ذاتية تجتمع فيها الأشياء جميعاً.

ب- عقائد فرق النصارى فى حلول الإله فى المسيح واتحاده به:

تمهيد:

قبل الكلام عن عقائد الفرق المسيحية فيما يتعلق بحلول الإله فى المسيح، واتحاده به - كما يزعمون - نحبّ أن نقرر أنّه كانت بين المسيحيين فرق تقول بتوحيد الله وتنزيهه، وتنكر القول بألوهية المسيح، وما بنى عليه هذا القول من حلول الله فيه، واتحاده به، وإذا كانت هذه الفرق قد انقرضت وبادت أمام قوة السلطان، وإرهابه للموحدين، وأمام تيار الإنحراف الدينى الذى عمّ الكنائس المسيحية. فقد بقى تيار التوحيد عبر القرون عند قلة من المسيحيين كما سنفصل ذلك فيما بعد ومن هذه الفرق الموحدة التى انقرضت:

(١) «فرقة أبيون» التى تنكر الوهية المسيح، وتعتبره مجرد بشر رسول، وقد انقرضت فى أواخر القرن الرابع الميلادى.

(٢) فرقة بولس الشمشاطى[١] الذى أنكر هو الآخر الوهية المسيح، وقرّر بشريته. وقد انقرضت هذه الفرقة فى القرن السابع الميلادى.

(٣) فرقة الأريوسيين: التى كانت تقاوم كنيسة الإسكندرية، فيما تذهب إليه من القول بألوهية المسيح، وبنوته. فقرر أريوس أن المسيح ليس إلهاً، ولا ابن إله، وإنما هو بشر مخلوق. وقد انقرضت هذه الفرقة فى أواخر القرن الخامس الميلادى[١].

---

(١) بعض المراجع تذكر أنه بولس السميساطى. انظر بطرس البستانى فى دائرة معارفه/ المجلد الخامس ص٧٠٤.

(٢) انظر الدكتور على عبد الواحد وافى/ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام/ ص١٠٠/١٠٢ بتصرف.

لم يكتب لهذه الفرق البقاء - كما ذكرنا آنفاً - ولم يبق إلاّ الفرق القائلة بالحلول والاتحاد، على اختلاف بينها فى التفاصيل، كما سنرى.

وكبار الفرق المسيحية - التى عنى ابن تيمية بالرد عليها - ثلاث: النسطورية، واليعقوبية، والملكانية.

وقبل أن نتكلم بالتفصيل عن هذه الفرق، وما يتمثّل فى عقائدها حول المسيح من الحلول والإتحاد، لابدّ من الإشارة إلى أنّ ما ذهبت إليه من هذا الحلول والاتحاد لم يبدأ تبكّون هذه الفرق فى عصورها المختلفة، وإنما بدأ القول به على يد بولس الذى أشاع بأقواله بين المسيحيين عقيدتا الحلول والإتحاد فى المسيح منذ سنوات المسيحية الأولى. لقد كان بولس كما قيل عنه: «ذا لسانين، وذا وجهين».

وهكذا انتشرت عقيدتا الحلول والإتحاد بين فئات كثيرة من المسيحيين اعتنقوها وهم الذين تكونت منهم فيما بعد الفرق المسيحية التى تدين بها، والتى سنشرح عقائدها الآن، ونرتّب الحديث عنها حسب ظهورها الزمنى كما قلنا من قبل.

١ - عقيدة النسطورية فى الحلول والاتحاد

تنسب النسطورية إلى نسطور، الذى كان بطريركاً للقسطنطينية سنة ٤٢٨م[1]. والذى ذهب إلى القول بأن مريم العذراء لم تلد الإله بل ولدت الإنسان فقط؛ لأنّ ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً؛ ولأن المخلوق لا يلد الخالق. وعلى هذا، فمريم لا تسمى والدة الإله، بل والدة المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، أى اتّحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم الثانى اتحاداً مجازياً، فمنحه الله المحبة، ووهبه النعمة، فصار بمنزلة الابن»[2].

(١) ذكر الشهرستانى فى «الملل والنحل» أنها تنسب إلى نسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون (جـ٢ ص٦٤)، وهذا خطأ. والصحيح أنّها تنسب إلى نسطور الذى كان بطريركاً للقسطنطينية. كما ذكر ذلك ابن حزم فى كتابه «الفصل» (جـ١ ص٤٩)، وسائر كتب الفرق.

(٢) انظر الدكتور أحمد شلبى/ المسيحية ص١٨٩/ ١٩٠.

ومذهب نسطور على هذا محاولة للقرب من التوحيد، وإن كان قد وضع بقوله: «باتحاد الكلمة بجسد المسيح بعد الولادة» الأساس للقول بطبيعتين للمسيح، وهو القول الذى قال به النساطرة فيما بعد.

ولهذا الاتجاه التوحيدى عند نسطور، انعقد مجمع أفسس الأول سنة (٤٣١م)، وقرر: لعن، وطرد نسطور، الذى ينكر ألوهية المسيح.

ويصوّر الشهرستانى مذهب النساطرة على النحو الآتى:

«قال (أى نسطور): إن الله - تعالى - واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعلم، والحياة. وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هى هو، واتحدت الكلمة بجسد عيسى - عليه السلام - لا على طريق الامتزاج - كما قالت الملكانية - ولا على طريق الظهورية - كما قالت اليعقوبية - ولكن كإشراق الشمس فى كوّة، أو على بلور، أو كظهور النقش فى الخاتم..

ويعنى بقوله: هو واحد بالجوهر، أى ليس مركباً من جنس، بل هو بسيط واحد.

ويعنى بالحياة والعلم، أقنومين، جوهرين، أى أصلين مبداين للعالم، ثمّ فسر العلم بالنطق والكلمة.

ويرجع منتهى كلامه إلى إثبات كونه تعالى موجوداً، حياً، ناطقاً، كما تقوله الفلاسفة فى حدّ الإنسان. إلاّ أن هذه المعانى تتغاير فى الإنسان؛ لكونه مركباً، وهو - أى الله - جوهر بسيط غير مركب...

وزعمت النساطرة أن الابن (الكلمة) لم يزل متولّداً من الأب، وإنما تجسد، واتحد بجسد المسيح حين ولد. والحدوث راجع إلى الجسد والناسوت فهو إله إنسان اتحدا. وهما جوهران، اقنومان، طبيعتان: جوهر قديم، وجوهر محدث، إله تام وإنسان تام، ولم يبطل الإتحاد قدم القديم، ولا حدوث المحدث، لكنهما صارا مسيحاً واحداً، مشيئة واحد[1].

(١) نجد أن الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه «الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة =

وأما قولهم فى القتل والصلب، فيخالف قول الملكانية واليعقوبية حيث يذكرون (أى النساطرة): أن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته، ولا من جهة لاهوته؛ لأن الإله لا تحله الآلام...»[1].

وينقل ابن حزم عن النساطرة تصورهم لكيفية اتحاد اللاهوت بالناسوت فى المسيح بأنهم يقولون: «إن الإله اتحد مع إنسان، بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً، كإتحاد الماء يلقى فى الزيت، فكل واحد منهما باق بحسبه»[2].

ومعنى ذلك أن نسطور يذهب إلى القول بطبيعة واحدة للمسيح، وبالتالى بمشيئة واحدة له، ولكنه إذ قال باتحاد اللاهوت به بعد ولادته، وضع الأساس الذى تطور به أتباعه فيما بعد، حيث قالوا بطبيعتين للمسيح، وإن بقوا على الإحتفاظ بقوله بمشيئة واحدة له.

وسوى نرى أن النساطرة بهذا الرأى قد جمعوا بين قولى زعيمهم نسطور ومخالفيه من الملكانيين، فتابعوا الملكانيين فى القول بالطبيعتين، وتابعوا نسطور فى القول بالمشيئة الواحد، وسوف يتضح لنا ذلك عند عرضنا لعقيدة الملكانية. والنساطرة بهذا كما هو واضح قد انفصلوا عن زعيمهم نسطور حيث تطوروا بمذهبه على هذا النحو، وانفصلوا عن الكنيسة الشرقية، صاحبة القول بالطبيعة الواحدة ـ كما سيأتى ـ وأصبحت لهم كنيستهم الخاصة.

وليس من غرضنا التأريخ لهم ولكنيستهم ولا لوضعهم المعاصر وعلاقتهم بالكنيسة الغربية. وحسبنا ما قدمناه عن مذهبهم الذى يتصل بغرضنا فى هذا الفصل.

= للإسلام» ص١١١ قد ذكر أنه لم يقل بالمشيئة الواحدة إلاّ المارونيون. وهذا يخالف ما نقلناه هنا عن الشهرستانى، فالمارونيون مسبوقون بالقول بالمشيئة الواحدة على ما نقله الشهرستانى عن النساطرة بأنهم قالوا بالمشيئة الواحدة أيضاً.

(١) الملل والنحل/ جـ٢ ص ٦٤، ٦٥.

(٢) الفصل فى «الملل والأهواء والنحل» جـ١ ص٥٣.

(٢) عقيدة اليعقوبية فى الحلول والاتحاد

تنسب إلى يعقوب البرادعى، لا كمؤسس لمذهبها، وإنما كمجدد له فى القرن السادس الميلادى (٥٤٣م)، حيث «نشأ هذا المذهب قبل ظهور يعقوب البرادعى بأمد طويل، ولا أدل على ذلك من أنه قد أخذ بهذا الرأى ـ وهو أن للمسيح طبيعة واحدة ـ معظم المجتمعين فى مجمع أفسس الثانى الذى انعقد فى منتصف القرن الخامس الميلادى»[1].

فقد أعلن بطريرك الإسكندرية «البابا كيراس» بأن للمسيح طبيعة واحدة، ومشيئة واحدة. وعقد لهذا الغرض مجمع أفسس الثانى[2] بالأناضول سنة ٤٤٩م (عقدة بطريرك الإسكندرية آنذاك البابا ديسقورس) واتخذ قراراً يوافق عقيدة البابا كيرس حول طبيعة المسيح. ثم كان مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ رداً على قرارات هذا المجمع ورفضها.

واليعاقبة إذ يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح الناشئة من اتحاد الأقنوم الثانى به (أى بالمسيح) يقررون بذلك أن مريم ولدت إلهاً، ولم تلد إنساناً عادياً، بل ابن الله المتجسد، لذلك هى حقاً أم الإله. يقول الشهرستانى فى تصوير مذهب اليعاقبة هذا:

«اليعقوبية قالوا بالأقانيم الثلاثة إلاّ أنهم قالوا: انقلبت الكلمة (الأقنوم الثانى) لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح، وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[3]. فمنهم من قال المسيح هو الله، ومنهم من قال ظهر اللاهوت بالناسوت فصار ناسوت المسيح، مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التى هى فى حكم الصفة بل صار هو هو. وهذا كما يقال: ظهر الملك بصورة إنسان، أو ظهر الشيطان بصورة حيوان. كما أخبر

(١) د. على عبد الواحد وافى الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٠٩.

(٢) سماه الكاثوليك ـ تهكماً ـ مجمع اللصوص؛ لأنه ـ فى نظرهم ـ مجمع غير شرعى.

(٣) سورة المائدة، آية ٧٢.

التنزيل عن جبريل - عليه السلام - : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾(١).

وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد، أقنوم واحد، إلا أنه من جوهرين وربما قالوا: طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الإله القديم، وجوهر الإنسان المحدث تركباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً أقنوماً واحداً، وهو إنسان كله وإله كله، فيقال الإنسان صار إلهاً ولا ينعكس، فلا يقال الإله صار إنساناً كالفحمة تطرح فى النار فيقال صارت الفحمة ناراً، ولا يقال صارت النار فحمة وهى فى الحقيقة لا ناراً مطلقة، ولا فحمة مطلقة، بل هى جمرة، وزعموا (أى اليماقبة) أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئى لا الكى. وربما عبروا عن الاتحاد بالامتزاج، والإدراع، والحلول كحلول سورة الإنسان فى المرآة المجلوة...

واليعقوبية لما اعتقدت أن المسيح هو جوهر من جوهرين وهو إله وهو المولود. قالوا: إن مريم ولدت إلها - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - وكذلك قالوا فى القتل: وقع على الجوهر، الذى هو من جوهرين. وقالوا: ولو وقع على أحدهما لبطل الاتحاد، وزعم بعضهم: أنا نثبت وجهين للجوهر القديم.

فالمسيح قديم من وجه، محدث من وجه. وزعم قوم من اليعقوبية: أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، لكنها مرت بها كالماء فى الميزاب»(٢).

وينقل ابن حزم عن اليماقبة مذهبهم فى المسيح - عليه السلام -، وتصورهم لكيفية اتحاد اللاهوت بالناسوت به حيث يقولون: «إن الإله اتحد من الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً كاتحاد الماء يلقى فى الخمر، فيصران شيئاً واحداً»(٣).

وليس من غرضنا أن نؤرخ لنشأة الكنيسة اليعقوبية، ولا أن نتتبع الوضع المعاصر لهذه الكنيسة واتباعها، وإنما الذى نريد أن نقوله: إنها نشأت فى أول

---

(١) سورة مريم آية: ١٧.

(٢) الملل والنحل جـ٢ ص٦٦/ ٦٧.

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ١ ص٥٢.

أمرها فى أحضان الكنيسة الشرقية بالقسطنطينية، وأن زعيمها (يعقوب) قام مجدداً لما تقرر فى مجمعى تلك الكنيسة (مجمع أفسس الأول والثانى) من القول بالطبيعة الواحدة للمسيح والمشيئة الواحدة له. وقد ظل هذا القول هو عقيدة كنيسة القسطنطينية حتى تسمت باسم الكنيسة الأرثوذكسية (أى الكنيسة المستقيمة الرأى) وانفصلت بذلك عن الكنيسة الغربية فى روما. وذلك فى الربع الأخير من القرن التاسع. فالمذهب الأرثوذكسى المعاصر يقول بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة للمسيح.

(٣) عقيدة الملكانية فى الحلول والاتحاد

أصحاب هذا المذهب يقولون بأن للمسيح طبيعتين:

طبيعة إلهية، وطبيعة ناسوتية، فهم يتفقون مع النساطرة فى القول بأن للمسيح طبيعتين، لكنهم يختلفون عنهم فى أنهم يقولون إن مريم ولدت الإله والإنسان معاً. فهى قد ولدت يسوع الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية، مع الناس فى الطبيعة الإنسانية. بينما قال النساطرة: إن مريم ولدت الإنسان فقط، ثم اتحد به اللاهوت بعد الولادة - كما ذكرنا من قبل - وقد تقرر هذا المذهب بصورة قاطعة فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م الذى عقد للرد على القائلين بالطبيعة الواحدة فى مجمع أفسس الثانى، وتقرر فيه (أى فى مجمع خلقيدونية) طرد نسطور القائل بولادة مريم لجسد المسيح فقط.

ويلخص (ابن البطريق) قرار مجمع خلقيدونية هذا إذ يقول:

قالوا: إن مريم العذراء ولدت إلهنا ربنا يسوع المسيح، الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية، ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية. وشهدوا أن للمسيح طبيعتين، وأقنوم واحد، ووجه واحد.. ولعنوا المجمع الثانى الذى كان بأفسس»[1].

وقد انتصر لهذا المذهب الإمبراطور الرومانى آنذاك، وحضور مجمع

---

(١) انظر الدكتور على عبد الواحد وافى/ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١١٠.
وراجع أيضاً كتاب الدكتور أحمد شلبى / المسيحية ص١٩١، ١٩٦.

خلقيدونية هو وزوجته الملكة؛ لذلك سمى هذا المذهب بالمذهب الملكانى(1).

ويقول الشهرستانى فى بيان أراء هذه الفرقة:

«قالوا (أى الملكانية): إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، وتدرعت بناسوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس أقنوم الحياة. ولا يسمون العلم قبل تدرعه ابناً، بل المسيح مع ما تدرع به ابن. فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الخمر اللبن أو الماء اللبن. وصرحت الملكانية: بأن الجوهر غير الأقانيم، وذلك كالموصوف والصفة.. وقالت: إن المسيح ناسوت كلى لا جزئى، وهو قديم أزلى من قديم أزلى، ولقد ولدت مريم عليها السلام إلهاً أزلياً. والقتل والصلب وقع على الناسوت واللاهوت، وأطلقوا لفظ الأبوة والبنوة على الله عز وجل، وعلى المسيح...»(2).

ويقول ابن حزم فى بيانه مقاله الملكانية:

«إنهم قالوا: إن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس. كلها لم تزل، وإن عيسى - ﷺ - إله تام كله، وإنسان تام كله، لم ينله شىء من ذلك، وأن مريم ولدت الإله والإنسان، وأنهما معاً شيئاً واحداً»(3).

وينقل عنهم ابن حزم كذلك قولهم:

«إنّ الإله اتّحد مع الإنسان بمعنى أنهما صارا شيئاً واحداً، كاتحاد النار فى الصفيحة المحماة»(4).

فالمذهب الملكانى إذن يقول بطبيعتين ومشيئتين للمسيح ﷺ. إلاّ أنه - وكعادة المسيحيين فى مخالفة بعضهم بعضاً ولعن بعضهم البعض - قد ظهر فى

---

(1) ينسب الشهرستانى فى الملل والنحل (جـ2 ص62) هذا المذهب إلى شخص اسمه ملكاً. وقد أخطأ فى ذلك، وراجعه فى هذا الخطأ الدكتور على عبد الواحد وافى فى الأسفار المقدسة ص110.

(2) الملل والنحل جـ2 ص62.

(3) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ1 ص49.

(4) المرجع السابق جـ1، ص53.

القرن السابع الميلادى (٦٦٧) شخص يدعى (يوحنا مارون). فخالف هذا الاتجاه، وذهب إلى أن المسيح مع أنه ذو طبيعتين، إلا أن له مشيئة واحدة، وإرادة واحدة هى المشيئة الإلهية، والإرادة الإلهية؛ لإلتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد. ولكن بطارقة الكنيسة الغربية فى روما لم يرق لهم هذا الرأى ولم يقبلوه، وأشاروا على الإمبراطور أن يعقد مجمعاً ليقرر أن للمسيح طبيعتين، ومشيئتين، بعد أن عرفوا أنه يشاركهم الرأى، فعقد مجمع القسطنطينية السادسة سنة (٦٨٠م)، وقرر أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، ولعن طرد (يوحنا مارون)، ومن تبعه، وكفر من يقول بالمشيئة الواحدة[1]. وجاء فى قرار المجمع ما يلى:

«إننا نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد هو الكلمة الأزلية الدائم، المستوى مع الأب الإله فى أقنوم واحد ووجه واحد، يعرف تاماً بناسوته، تاماً بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين، ومشئتين فى أقنوم واحد... فهو يعمل ما يشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته، وما يشبه الإله أن يعمله فى طبيعته... وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين»[2].

وهكذا نجدهم دائماً يجتمعون على الضلال، ويفترقون على اللعن.

فالقول بالطبيعتين، والمشيئتين، هو قول الكنيسة الغربية منذ بداية الأمر، وحتى بعد أن تميّزت عن غيرها من الكنائس، فى أواخر القرن التاسع باسم الكنيسة الكاثوليكية[3](أى العامة أو العالمية). وبذلك يكون المذهب الكاثوليكى المعاصر، هو امتداد للمذهب الملكانى، على نحو ما يعبّر عنه المؤرخون الإسلاميون.

---

(١) انظر الدكتور/ عبد الواحد وافى/ الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١١١.
وانظر كذلك الدكتور أحمد شلبى/ المسيحية ص١٩٢ ط٥.

(٢) نقلاً عن كتاب الدكتور على عبد الواحد وافى / الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١١١.

(٣) فى أواخر القرن التاسع الميلادى (٨٧٩) حينما حصل انفصال مذهبى بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، تسمت الكنيسة الشرقية بالأرثوذكسية التى يقول بالطبيعة الواحدة، والمشيئة الواحدة للمسيح، وبانبثاق روح القدس عن الله الأب فقط. وتتبع نظام الإكليروسى، الذى يبدأ من البطريرك، ثم المطارنة، ثم الأساقفة... إلخ. =

جـ ـ إبطال ابن تيمية لعقيدة النصارى فى الحلول والاتحاد

تناول ابن تيمية شبهات النصارى التى يستدلون بها على عقيدتهم فى الحلول والاتحاد ـ تناول تلك الشبهات بالردود المطولة عليها بما يبطلها خلال كتابه الجواب الصحيح، ويمكننا أن نستخلص من تلك الردود الطويلة أن شبهات النصارى فى الحلول والإتحاد يمكن وضعها تحت نقاط كلية يحاولون بها تصحيح ما يذهبون إليه من الحلول والإتحاد ـ كما يزعمون ـ وأن ردود ابن تيمية لا تنحصر فى تلك النقط الكلية، بل يضيف ابن تيمية إلى إبطال شبهاتهم المندرجة تحت هذه النقاط أدلة أخرى يبطل فيها عقيدة الحلول والاتحاد عندهم. وهذه الوجوه يمكن حصرها بالتالى فى وجوه كلية تندرج تحتها تلك الأدلة.

وابن تيمية لم يعمد إلى هذا التنسيق المنهجى لردوده على النصارى وأدلته على بطلان عقائدهم، بل كان يسرد هذه الردود والأدلة سرداً دون تبويب. إلاّ أننا وجدنا أن مثل هذا التنسيق والتبويب لشبهات النصارى وردود ابن تيمية عليها، وأدلته التى يبطل بها عقائدهم يعين على الإحاطة بالموضوع من جميع وجوهه إحاطة منظمة مع توضيح تلك الوجوه التى تندرج تحتها الشبهات والردود عليها والأدلة المبطلة لتلك العقائد.

ويمكن ذكر مجمل الوجوه التى تندرج تحتها شبهات النصارى على عقائدهم فى الحلول والاتحاد وبالتالى تتوجه إليها أجوبة ابن تيمية فيما يأتى:

أولاً: استدلال النصارى على عقائدهم فى الحلول والاتحاد بالنصوص المقدسة عندهم. وردود ابن تيمية على ذلك.

= وتسمت الكنيسة الغربية بالكاثوليكية، وذهبت إلى القول بالطبيعتين للمسيح، وبالمشيئتين، وبانبثاق روح القدس عن الأب والابن معاً، وبالنظام البابوى الذى يرأسه البابا، والكرادلة.. انظر الدكتور أحمد شلبى المسيحية ص٢٢٧/ ٢٢٨ ط ٥.

ثانياً: استشهاد النصارى بمعجزات المسيح وأعماله وفضائله وما يقتضيه ذلك من فضله على جميع مَنْ سواه مِن الأنبياء فى نظرهم - استشهادهم بكل ذلك على ما يزعمونه من حلول اللاهوت فيه واتحاده به، وأنه ليس كغيره من البشر. وردود ابن تيمية على ذلك.

ومن وجهة ابن تيمية فإنه يضيف إلى ردوده على عقيدة النصارى من الوجهين السابقين - يضيف إلى ذلك إبطاله لتلك العقيدة من وجهين آخرين:

أولاً: ما يثبته - ابن تيمية - من تناقض القول بالحلول والاتحاد عند النصارى مع العقيدة الصحيحة فى الله.

ثانياً: ما يرتّبه - ابن تيمية - على القول بالحلول والاتحاد من استلزامه للمحالات العقلية التى لا يجوز فى حق الله عز وجل أو التى تتناقض مع البدائه العقلية السليمة.

وسوف نعرض فيما يلى إبطال ابن تيمية لعقيدة الحلول والاتحاد عند النصارى من جميع هذه الوجوه. وذلك بإيراد نصوص كلامه فى هذا المقام لما تتميز به تلك النصوص من الوضوح والقوة.

أولاً: إبطال ابن تيمية لاستشهادات النصارى بكتبهم المقدسة على الحلول والاتحاد

لقد كثرت النصوص التى يستشهد بها النصارى فى كتبهم المقدسة - فى زعمهم - على صحة ما يعتقدونه من حلول اللاهوت فى الناسوت المسيحى واتحاده به وتجسده فيه. وقد أبطل ابن تيمية استشهاداتهم بتلك النصوص إما بإثبات زيفها وتحريفها، ومن ثم لا يصح الاستشهاد بها فى باب العقائد، وإما ببيان عدم دلالتها على ما يعتقدونه إذا فهمت على وجهها الصحيح - وذلك على فرض صحتها ولوجدلا - وبيان أنهم يحمّلون ألفاظها من الدلالات مال تحتمله.

وسوف نختار من هذه النصوص الكثيرة أهم ما يستشهدون به على

عقيدتهم فى الحلول والاتحاد. مع عرض ردود ابن تيمية عليها:

١ ـ يستشهد النصارى بما نقلوه عن أرميا من قوله عن ولادة عيسى:

«يقول لداود ابن، وهو ضوء النور يملك الملك، ويعلّم ويفهم ويقيم الحق والعدل فى الأرض، ويخلّص من آمن به من اليهود، ومن بنى إسرائيل وغيرهم، ويبقى بيت المقدس بغير مقاتل، ويسمى الإله»[1].

ويرد عليها ابن تيمية بقوله:

«... أما قول ارمياء: «واسمه الإله» فهذا يدل على أنه ليس هو الله رب العالمين، وإنما لفظ الإله اسم سمى كما يسمى موسى إلهاً لفرعون عندهم فى التوراة، إذ لو كان هو الله رب العالمين لكان أجلّ من أن يقال «ويسمى الإله» فإن الله تبارك وتعالى لا يعرّف بمثل هذا، ولا يقال فيه: إن الله يسمى الإله...

وقال: «يملك الملك» ورب العالمين مازال ولا يزال مالكاً للملك سبحانه. وأيضاً فإنه قال: «يقوم لداود ابن هو ضوء النور» ومعلوم أن الابن الذى من نسل داود الذى اسم أمه مريم هو الناسوت فقط فإن اللاهوت ليس من نسل بشر، وقد تبين أن هذا الناسوت الذى هو ابن داود، ويسمى الإله، فعلم أن هذا اسم للناسوت المخلوق لا للإله الخالق.

وأيضاً، فإنه قال: و«هو ضوء النور» فلم يجعله النور نفسه، بل جعله ضوء النور، والله تعالى منوّر كل نور، فكيف يكون هو ضوء النور، والله تعالى قد سمى محمداً ـ ﷺ ـ سراجاً منيراً، ولم يكن بذلك خالقاً، فكيف إذا سمى ضوء النور؟ وأيضاً فإنه لم يجعل القائم إلاّ ابن داود، وابن داود مخلوق، وأضاف الفعل إلى هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله رب العالمين قد اتحد بالناسوت البشرى لَبيّن (ارمياء) وغيره من الأنبياء ذلك بياناً قاطعاً للعذر، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التى هى إما صريحة أو ظاهرة فى نقيض ذلك، او مجملة لا تدل على ذلك، فإنه من المعلوم أن أخبارهم بإتيان بنى من الأنبياء أمر معتاد

---

(١) سفر أرمياء ٢٣: ١٥ ـ ١٦.

ممكن، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدلائل الواضحة ما يزيل الشبهة. وأما الأخبار بمجيئ الرب نفسه وحلوله، أو اتحاده بناسوت بشرى فهو: إما ممتنع غير ممكن كما يقوله أكثر العقلاء من بنى آدم.. وإما ممكن ـ كما يقوله بعض الناس ـ وحينئذٍ فإمكانه خفى على أكثر العقلاء وهوه أمر غير معتاد، وإتيان الرب بنفسه أعظم من إتيان كل رسول ونبى، ولاسيما إذا كان إتيانه باتحاده ببشر لم يظهر على يديه من الآيات ما يختص بالإلهية، بل لم يظهر على يديه إلاّ ما ظهر على يد غيره من الأنبياء ما هو مثله أو أعظم منه والله تعالى لما كان يكلم موسى، ولم يكن موسى يراه ولا يتحد لا بموسى ولا بغيره، ومع هذا فقد أظهر من الآيات على ذلك، وعلى نبوة موسى مالم يظهر مثله ولا قريب منه على يد المسيح.

فلو كان هو بذاته متحداً بناسوت بشرى لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخباراً صريحاً بيناً لا يحتمل التأويلات، ولكان الرب يظهر على ذلك من الآيات مالم يظهر على يد رسول ولا نبى، فكيف والأنبياء لم ينطقوا فى ذلك بلفظ صريح، بل النصوص الصريحة تدل على أن المسيح مخلوق ولم تأت آية على خلاف ذلك، بل إنما تدل الآيات على نبوة المسيح فقط»[1].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٢ ص ١٨٧ ـ ١٨٩.

الفرق المسيحية التى كانت موجودة
عند ظهور الإسلام

ـ المذاهب الرئيسية: الأريُوسيَّة والنّساطرة واليعاقبه والملكانية:

بزغ فجر الإسلام والمسيحيون مختلفون فيما بينهم، ومتفرقون إلى كنائس عديدة منقسمة إما على أساس عرقى، أو على أساس مذهبى، والذى يهمنا ـ هنا ـ هو الانقسمات المذهبية؛ حيث يمكن إجمال المذاهب المسيحية المختلفة، المنتشرة فى العالم المسيحى إبان طلوع فجر الإسلام؛ أى فى مطلع القرن السابع الميلادى، فى أربعة اتجاهات أو مذاهب رئيسية هى: المذهب الأريوسى (أو الأريانى)، والمذهب النسطورى، والمذهب اليعقوبى، والمذهب الملكانى.

وفيما يلى شرح موجز لقصة نشأة هذه المذاهب وموضوع اختلافها:

كان أساس ومحور الاختلاف الذى فرَّ المسيحيين فرقاً متنازعة هو اختلافهم حول تفسير طبيعة السيد المسيح ﷺ: هل هو بشر مخلوق كسائر المخلوقات؟ أم هو الله المُتجسِّد الذى تأنَّس فظهر بصورة عيسى؟

صحيح أن المسيحيين الأوائل اختلفوا ـ فيما بينهم ـ فى مسائل عديدة، لكن أياً منها لم يكن له أهمية اختلافهم بشأن طبيعة المسيح (إله أم بشر)، وصلة الجانب البشرى فيه مع الجانب الإلهى (عند مَنْ قال بإلهيَّته)؛ لأنَّ هذا الاختلاف كان أساس نشأة الفرَق المسيحية القديمة المُتعادية والمُتخاصمة.

ويرى المُتتبِّع للأفكار المسيحية فى القرون الثلاثة الأولى، التالية لصُعُود المسيح ﷺ، أن التيار الذى غلب وساد تدريجياً حتى صار كأنه هو الأصل، كان تيار القائلين بأن عيسى ابن مريم كان ابن الله حقيقةً، على معنى تأليهى لهذه

النبوة؛ أى أنه إله حقيقى من جنس وجوهر أبيه الله، وأنه تجسد وتأنّس ظاهراً فى صورة عيسى الذى ولد بنفخ الروح القدس من مريم العذراء عليها السلام. ولقد مالت الأكثرية إلى هذا التصور عن شخص المسيح؛ بسبب الإنبهار بمُعجزاته الخارقة؛ لاسيما إحياء الموتى، وشفاء الأكمه والأبرص.. إلخ، بالإضافة لحياته الفائقة الرحمة بينهم، وكلماته الربانية عظيمة التأثير فيهم، فصاروا يشعرون كأن الله نفسه كان حاضراً بينهم، ويعمل بتأثيره فيهم، وقد ساعدت الثقافة اليونانية الهيلينيستية السائدة فى منطقة الشرق الأدنى فى ذلك الحين، والتى كانت تؤمن - أصلاً - بتجسد الآلهة، وأن لبعض الآلهة أبناء يتجسدون ويظهرون على الأرض بشكل عُظماء وفاتحين ومُخلّصين[1]، ساعدت على انتشار وغلبة هذا التصور المغالى بشأن شخص عيسى ابن مريم؛ معتبرين إياه: الله الذى حضر بنفسه.

وقد ساد هذا الاعتقاد تدريجياً، فى الفترة الأولى، بشكله البسيط، دون أن يخاض فيه، فى مباحث وتعمُّقات مثل أنّه: هل الله الابن مساوٍ لله الأب فى الدّرجة والجوهر؟ أم الأب أعظم منه؟ وأنه كيف امتجزت الألوهية بالبشرية فى الابن الإله المتجسد؟ ونحو ذلك من المباحث والتعمقات التى كان لابد لها أن تطرح أمام الفكر فيما بعد. ومن الجهة الأخرى كان هناك تيار توحيدى، لاسيما بين المسيحيين من أصل يهودى، كان ينفى قدم المسيح وإلهيته، ويؤكد مخلوقيته وحدوثه، ويؤمن بتفرد الله الآب تعالى وحده بالإلهية، وينظر إلى المسيح كنظرته إلى أنبياء الله العظماء أمثال إبراهيم ومُوسى وداود، ولم يكن هذا التيار بقوة الأول، لكنه استمرَّ تياراً موجوداً له أنصاره وأتباعه، وتذكر المراجع التاريخية النصرانية، التى تتحدث عن تاريخ الكنيسة المبكر، أسماء عدة فرق فى القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تُنكر التثليث وإلهية المسيح مثل: الإبيونيِّيّن Ebionites (فرقة من المسيحيين الأوائل من أصل يهودى ظلوا

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى «المسيحية وأساطير التجسد فى الشرق الأدنى القديم اليونان» - سورية - مصر، دانييل إ. باسوك دار الأوائل، ط١، ٢٠٠٢.

متمسكين بشريعة التوراة) والموناركيانيين Dynamic Movarchians (أتباع الأسقف بولس الشمشاطى)، والغنوصيين Gnostics، والباسيليديين -Bas lildians، والكاربوقراطيين Ansita Carpocr، (والأخيران من فروع الغنوصيين)، والآريوسيين أو الآريانيين (أتباع الأسقف آريوس الإسكندرى)[1].

ومن أشهر الأساقفة أو البطاركة المسيحيين الكبار القدماء - كما تذكره مصادر تاريخ المسيحية - الذين ثبتوا على التوحيد ونفى التثليث نافين ألوهية المسيح أو بنوّته الحقيقة لله بمعنى الانبثاق من الله والمساواة فى الجوهر له): ديودوروس Diodore أسقف طرسوس، وبُولُس الشّمشاطى Ssataomaspaul of أسقف وبطريرك انطاكية، الذى كان يشرح بنوّة المسيح لله على معنى مجازى يرى بأن الله اتخذ يسوع الإنسان المخلوق كابن له؛ أى تبناه، لا أن المسيح مولود أو منبثق من الله، فالبنوة - على قوله - بنوة مجازية لا تفيد أكثر من شدة القرب والاتصال والحظوة والمكانة للمسيح لدى الله تعالى. ومنهم الأسقف لوسيان الأنطاكى أستاذ آريوس (توفى ٣١٢م) والأسقف الليبى الأصل الشهير: آريوس Arius أسقف كنيسة بوكاليس فى الإسكندرية (٢٥٠ - ٣٣٦م) والذى نالت آراؤه شهرة وانتشاراً كبيرين، وصار له أتباع كثيرون، وبقيت آراؤه حيَّة بين الكثيرين لعدة قرون، ثم آلت للإنقراض، ثم أعيد إحياؤها أثناء حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر، والأسقف يوزيبيوس النيقوميدى -Co medialnus of ibesue (توفى ٣٤٢م) أسقف بيروت، ثم نقل لنيقوميديا قرب القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، وكان من أتباع لوسيان الأنطاكى، ومن أصدقاء آريوس[2].

---

(١) كتاب "The Early Church" أى الكنيسة الباكرة، تأليف: Henry Chadwick، طبعة جديدة، نشر Penguin Books, 1990 (لندن/ إنجلترا) ص٨٤ - ٩٠، ١٢٣ - ١٢٦.

(٢) المصدر السابق.

ـ الآريانية أو المذهب الآريوسى
(نسبة لأسقف الإسكندرية آريوس)

درس آريُوس فى مدرسة لوسيان اللاهوتية فى أنطاكية، حيث كان يدرس عديد من اللاهوتيين الذين يحملون نفس عقيدة آريُوس أيضاً. وبعد أن تم ترسيمه قسيساً فى الإسكندرية عام ٣١٩م، اختلف آريوس مع أسقف الإسكندرية حولى إلهية المسيح. وأظهر عقيدته التى مُودَّاها نفى إلهية المسيح، واعتباره مخلوقاً. وقد نُفى آريوس عام ٣٢٥ إلى إلليريا Airylll، بسبب عقيدته تلك، إلا أن عقيدته كان لها انصار ومؤيدون يُشاطرونه فيها الرأى، فاستمروا على الإعلان بذلك، مما أثار معارك من الجدل فى جسد كل الكنيسة، وهزّها لمدة أكثر من نصف قرن. وعلى الرغم من أن عقيدة آريوس تم تحريمها على مستوى الإمبراطورية الرومانية من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٧٩، إلا أنها استمرت فى البقاء لقرنين تاليين بين قبائل البرابرة فى أوروبا التى كانت قد اهتدت إلى المسيحية عبر أساقفة آريوسيين.

كان آريُوس يعلم أن الله لا يمكن أنْ يُولد؛ لأنه بلا بداية. وبناءً على ذلك، فيما أن الابن؛ أى الشخص الثانى من الثالوث، مولودٌ، فلا يمكن أن يكون إلهاً بنفس مُستوى أو معنى الوهية الأب. وبالتالى؛ فإن الابن لم يتولد من نفس الجوهر الألوهى للأب، ولم يوجد منذ الأزل، بل خلقه الله من لا شىء، كما خلق سائر المخلوقات، فالابن موجود بإرادة الأب ومشيئته. وبكلمة أخرى؛ فإن علاقة الابن بالأب ليست علاقة انبثاق جوهرى أو ولادة حقيقية، بل هى علاقة خالق بمخلوق، والبنوة بين الأب والابن هى بنوة بالتبنى. وقد كان آريوس يسعى ـ عبر هذا التعليم ـ إلى الحفاظ على التفرُّد والعُلُوّ الإلهيين المطلقين، والذى رآهما مهددين بالأفكار اللاهوتية التى كانت تطرح فى عصر كالأفكار الموناركيانية Movarchianism[1].

(١) المصدر السابق، وموسوعة إنكارتا الأمريكية: مادة الآريانية Aryanism، ومادة آريُوس Arius.

أدى اللفظ وتصارع الأراء الذى أثاره تعليم آريوس إلى عقد أول مجمع مسكونى فى نيقية عام ٣٢٥م، والذى حضره ٣١٨ سقفاً، ذهب أكثريتهم إلى النص على العقيدة التى اشتهرت باسم العقيدة النيقاوية، وصارت دستور الإيمان المسيحى الأرثوذكسى، ونصها هو التالى:

«يسوع المسيح (هو) ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حقٌ من إله حقٍ، مولود غير مخلوق، مُساو للأب فى الجوهر، الذى به كل شىء ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسَّد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى، وتألم، وقبر، وقام فى اليوم الثالث»[1].

وأهم ما فى هذه العقيدة أنها أكدت أن ابن الله لم يخلق، بل ولد Tob-egotten nedem؛ فهو من نفس جوهر الأب؛ أى مساو له فى الألوهية، فالابن جزء من الثالوث، وليس جزءاً من المخلوقات. وكانت هذه أول عقيدة يتم فرضها على جميع الكنائس، ولم تكن هناك عقيدة شُمُولية قبلها، وأرْفق تثبيت هذه العقيدة بتحريم تعليم آريوس، واعتباره هرطقة.

لكنّ؛ على الرغم من إدانة تعليم آريوس إلا أن تعليمه لم يمت. فقد تابعه الكثيرون الذين كانوا يعتقدون بقوله، ورفضوا قرار مجمع نيقية، بل إن الإمبراطور قسطنطين الأول وتحت تأثير المؤرخ الكنسى الإغريقى يوسيبيوس القيصرانى Eusebius of Caesarea قام باستدعاء مهمتان تؤيدان أراء أريوس: الأولى هو الإمبراطور قسطنطينوس الثانى Constantinus II خليفة قسطنطين الأول، والشخصية الثانية هى الأسقف واللاهوتى يوزيبيوس النيقوميدى Eu-sebius of Nicomedia والذى أصبح ـ فيما بعد ـ بطريرك القسطنطينية، وصار أحد قادة العقيدة الأريوسية.

بحلول عام ٣٥٩م، كانت الأريوسية (أو الأريانية Arianism) قد سادت فى

(١) كتاب سوسنة سليمان فى أصول العقائد والأديان، لمؤلفه النصرانى: نوفل أفندى نوفل، طبع المطبعة الأمريكية فى بيروت عام ١٩٢٢، ص١٣٧.

ربوع الإمبراطورية، وأصبحت تمثل العقيدة الرسمية لها، إلا أن الآريانيين سرعان ما اختلفوا فيما بينهم، وانقسموا إلى حزبين: الأول أطلق عليهم انصاف الآريانيين The Semi - Arins كانوا أساقفة شرقيين محافظين، قبلوا بالعقيدة النيقاوية، لكنهم تحفظوا على عبارة «هومواوسيوس» Homoousios والتى تعنى من نفس الجوهر، أو «من نفس الطبيعة» المستخدمة بحق المسيح بشأن مساواته مع الله فى الجوهر والطبيعة؛ لأنهم كانوا يرونها مخالفة لنصوص الإنجيل؛ مثل قول المسيح: «أمضى إلى الأب؛ لأن أبى أعظم منى»، (يوحنا ٢٨/١٤)، ونحوه من النصوص، والحزب الثانى هم الآريانيون الجدد الذين لم يترددوا فى التأكيد على مخلوقية الابن، وأنه من طبيعة مختلفة مع الأب تماماً. وهؤلاء الأخيرون كانوا - أيضاً - من القائلين بأن الروح القدس هو مخلوق كذلك مثله مثل الابن، وأن الأولية والأزلية؛ أى الإلهية خاصة بالأب الواحد الأحد؛ أى كانوا نُفاةً للتثليث.

على أثر وفاة الإمبراطور قسطنطينوس الثانى عام ٣٦١م، وحكم «فالينس» Valens، الذى قام باضطهاد الآريانيين، تمهد الطريق لانتصار العقيدة النيقاوية، التى أعاد الإمبراطور ثيودوسيوس عام ٣٧٩، تأكيدها فى المجمع المسكونى الثانى (مجمع القسطنطينية الأول) المُنعقد عام ٣٨١م.

ومع ذلك؛ فإن الأسقف القوطى «يولفيلاس» Ulfilas كان قد نشر الإيمان المسيحى التوحيدى طبقاً للعقيدة الآريانية بين شعبه، الذين أصروا على المحافظة على هذه العقيدة كمميِّز لهويتهم القومية. ولقد أبدى الملك ثيودوريك، ملك الأستروقوطيين Ostrogoths ومؤسس المملكة الأستروقوطية فى إيطاليا، تسامحاً كبيراً تجاه رعاياه من أتباع العقيدة الأرثوذكسية، فى حين قام الملك فنداس Vansals الآريُوسى باضطهاد أتباع العقيدة النيقاوية اضطهاداً قاسياً بعد أن سيطر على الأقاليم الرومانية فى أفريقيا. ولم يتم تحوُّل جميع الشعوب الجرمانية إلى العقيدة النيقاوية إلا فى أواخر القرن الميلادى السادس[1].

(١) موسوعة إنكارتا الأمريكية، مادة الآريانية Aryanism.

المذهب النسطوري

بعد المجمعين المسكونيين الأوَّليَّيْن مجمع نيقية الذى حكم بإلهية الابن ومساواته التَّامَّة للآب ومجمع القسطنطينية الذى حكم بإلهية روح القدس ومساواته للأب أيضاً، بقى الخلاف فى طبيعة المسيح، وكيفية اتحاد اللاهوت - المزعوم فيه مع الناسوت - يتفاعل، إلى أن خطب أحد القسوس فى القسطنطينية، ويقال له: أنستهاسيوس خطبة أنكر فيها تلقيب العذراء المباركة بوالدة الإله، وقال: إنما هى أم المسيح، وليست أم الله، فتابعه على ذلك بطريك وانطاكية نسطوريوس، وتابعه فى الأمر الأسقف بيلاجيوس، وكثير من نصارى المشرق، فانعقد لهذا السبب المجمع الثالث فى مدينة أفسس سنة ٤٣١م، بأمر الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، ورئاسة «كيرللس» بطريرك الإسكندرية، وكان أعضاؤه نحو ٢٠٠ أسقفاً، وكان انعقاده لأجل دحض تعليم نسطوريوس وبيلاجيوس، وتم ذلك تحت رئاسة كيرللس بطريرك الإسكندرية قبل وصول الأساقفة الشرقيين الذين - عند وصولهم - اجتمعوا تحت رئاسة يوحنا الأنطاكى، وعزلوا كيرللس الإسكندرى، فارتفعت الدعوى إلى الإمبراطور الذى ختم مع رأى الأكثرين ضدًّ نسطوريوس، أما هذا المجمع؛ فحكم بوجود اتحاد جوهرى بين الطبيعتين فى المسيح، وبأن الإله والإنسان فى المسيح هما واحد، وبأن مريم والدة الله، فرفض البطريرك نسطوريوس ذلك المجمع، وبقى على عقيدته التى اتَّبعه عليها الكثيرون فى المشرق، وعُرف مذهبهم باسمه؛ أىّ النسطوريون، أو النساطرة، وهو مذهب يؤكد على التمايز والفصل بين الطبيعة الإلهية للمسيح والطبيعة البشرية، فالمسيح ليس طبيعتين فحسب، بل أقنومين؛ أى شخصيتين متمايزتين أيضاً، وهما شخصية عيسى المسيح الذى كان بشراً، وهذا البشر هو وحده الذى ولد من مريم العذراء، وبالتالى؛ فمريم هى والدة يسوع، وليست والدة الله، وكذلك هذا البشر هو الذى حسب اعتقادهم - تألم، وصلب، ومات على الصليب، وليس الله، لأن الله حىٌّ لا يموت[1].

---

(١) المصدران السابقان.

المذهب اليعقوبي (اللاخلقيدوني)
والمذهب الملكاني (الخلقيدوني)

بعض دحض الكنيسة الرومانية لتعليم آريوس، ثم تعليم نسطوريوس، ظهر «أفتيخيوس» في القرن الخامس الميلادي أيضاً، وأراد أن يقي ذاته من آراء النساطرة المذكورين، وكان رئيس دير، فأخذ يُعلِّم بأنَّ المسيح حين تجسَّد لم يكن له إلاَّ ذات واحدة وطبيعة واحدة، وأيَّد ذلك «ثيودوسيوس الثاني» إمبراطور القسطنطينية بمجمع عقده في أفسس سنة ٤٤٩م، تحت رياسة «ديسقوروس» بطريرك الإسكندرية، وكان أعضاؤه ١٣٥ أسقفاً، حكموا بأنَّ المسيح ذا طبيعة واحدة، مثبتين بذلك قول الراهب «أفتيخيوس»، ومن هنا؛ تسمى القائلون بهذا المذهب؛ أي مُقلدو «ديسقوروس» بطريرك الإسكندرية، بالمونوفيزية، يعني القائلون بوحدة الطبيعة في المسيح، وبعد نهاية هذا المجمع الأفسسي ثار أوباش الرُّهبان على فلافيانوس بطريرك القسطنطينية، وضربوه، حتَّى مات!.

لكنْ؛ بعد ذلك بسنتين، انعقد مجمع آخر في خلقدونية عام ٤٥١م، بأمر الإمبراطور مرسيانوس، وكان أعضاؤه ٥٢٠ أسقفاً، كلهم من أساقفة المشرق، ما عدا اثنين كانا من أساقفة أفريقية، وأربعة من المغرب من طرف ليون، وكان انعقاده ضدَّ الراهب «أفتيخيوس» وبطريرك الإسكندرية «ديسقوروس»؛ حيثُ أبطل تعليمهما بوحدة طبيعة المسيح، واعتبر المجمع الأفسسي الأخير مجمعاً باطلاً، وسمَّاه مجمع اللصوص، وفصل بطريرك الإسكندرية «ديسقوروس» المذكور عن البطريركية، وعلَّم بأنَّ للمسيح ذاتاً واحدة، ولكنْ؛ بطبيعتين اثنتين: طبيعة لاهوتية، وطبيعة ناسوتية.

شكلت قرارات هذا المجمع الرابع الخلقيدوني، لاسيما قرار عَزْل بطريرك الإسكندرية «ديسقوروس»، الذي كانت له مكانة عظيمة لدى الأقباط المسيحيين، الأرضية التي أدَّت إلى حدوث أحد أهمِّ الانشقاقات في جسد المسيحية؛ حيث رفض الأقباط قرارات مجمع خلقيدونية، وأصروا على بطركية

«ديسقوروس»، وعلى عقيدتهم المُونُوفيزيَّة (أىْ القائلة بوحدة طبيعة المسيح)، فانعقد مجمع خامس تال فى القسطنطينية، سنة ٥٥٢م، سُمِّى بالمجمع القسطنطينى الثانى، بأمر الإمبراطور «يوستيانوس» ضدَّ «أوريجانوس، وضد معلمى الطبيعة الواحدة، فلم يعد أمام الأقباط وسائر القائلين بالطبيعة الواحدة من مسيحى المشرق من حل سوى إعلان الانفصال عن الكنيسة العامة، وبهذا؛ نشأت الكنيسة الأرثوذوكسية القبطية، التى مركز كرسى بطركيتها «الإسكندرية»، وتبعتها الكنيسة الحبشية والأريترية، كما انفصلت كذلك الكنيسة الفريغورية الأرمنية؛ لأنها كانت تؤمن بالطبيعة الواحدة أيضاً، كما ظهر فى شمال سورية الأسقف «يعقوب البرادعى» أسقف أورفا، فشرح العقيدة المونوفيزية بصورة جديدة غير صورتها الأولى، وأخذ يجمع فروع هذا المذهب، إلى أن مات فى سنة ٥٧٨م، فتبعه كثير من مسيحيى الشام. وصار مذهبهم يُعْرَف باسم المذهب اليعقوبى الذى كان مذهب الكنيسة الأرثوذوكسية السريانية (أى السورية) التى كان كرسى بطركيتها فى «أنطاكية».

أما بقية المسيحيين الذين أخذوا بقرارات المجمع الخلقيدونى حول المسيح ذى الطبيعتين الإلهية والبشرية؛ فسموا بالملكانيين؛ نظراً لأنهم أخذوا برأى ملك (أى إمبراطور) الروم البيزنطى الذى ناصر فكرة الطبيعتين كما مر[1].

وهكذا؛ علاوة على انفصال الأريوسيين السابق، انقسم بقية المسيحيين إلى ثلاثة مذاهب هى:

(١) النساطرة: وكانوا أقلية قليلة العدد فى سورية الطبيعية وتركيا وشمال العراق، وسموا كذلك بالآشوريين، ومن العراق انتشروا نحو فارس والهند؛ حيثُ لا تزال توجد منهم أقلية فى شمال غرب إيران تدعى بالآشوريين، وأقلية بالهند، وهم يعتبرون خلافهم مع الكنيسة الأرثوذوكسية (الخلقيدونية) خلافاً لفظياً، وقد نجحت البعثات التبشيرية الكاثوليكية باستمالة العديد منهم إلى المذهب الكاثوليكى.

---

(١) المصدران السابقان، وكتاب محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد ابو زهرة.

(٢) اليعاقبة: القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، وهو مذهب السريان الأرثوذوكس فى بلاد الشام، ونحوه مذهب الكنيسة القبطية فى مصر التى مركزها الإسكندرية، وتتبعها كنيسة الحبشة واريتريا، كما هو مذهب أكثر الأرمن. وهذان هما من الذين لم يعترفوا بقرارات مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م.

قلت: وفى هؤلاء جاء فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧). وقوله سبحانه كذلك: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾

(المائدة: ٧٢)

(٣) الملكانيون: وهم نصارى مصر وسورية الذين خضعوا لمقرارات مجمع خلقيدونية، الذى حرم المونوفيزية عام ٤٥١م، مؤكداً على أن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية. وقد دعاهم المونوفيزيون بهذا الاسم على سبيل السخرية، لأنهم انحازوا فى موقفهم هذا إلى الإمبراطور البيزنطى الذى أعلن قبوله تلك المقررات. وفى العام ١٧٢٤، انضوى فريق من الملكيين تحت لواء الكثلكة، فى حين صدف فريق منهم عن ذلك، فعرفوا بالروم الأرثوذكس.

والواقع أن مع هذه الفرق المسيحية الثلاثة اتفقت على أن المسيح بشرٌ وإلهٌ بنفس الوقت! وإنما اختلفت مع بعضها فى مدى تأكيدها وإبرازها لأحد الجانبين الإلهى أو البشرى فى المسيح؛ أىْ اختلفت فى الأولويات، وليس فى أصل المسألة. فاليعاقبة يؤكدون الجانب الإلهى أكثر، وعلى عكسهم النساطرة الذين يبرزون أكثر الجانب البشرى، فى حين يطرح الجمهور الأعظم رؤية متوازية ومتعادلة للجانبين الإلهى والبشرى، دون ترجيح أو أولوية لأىٍّ منهما على الآخر.

هذا؛ ولما كانت الدولة الرومية البيزنطية تحتل بلاد سورية الطبيعية ومصر، فقد قاموا بمحاولات قوية، وباستخدام الترهيب والترغيب لتحويل النساطرة واليعاقبة إلى مذهبهم الملكانى أو الخليقدونى، فلم يكونوا يعينون فى المناصب الكنسية إلا من تحول إلى مذهبهم، وكانوا يقرِّبون من صار ملكانياً، ويبعدون من يرفض ذلك من أصحاب المذاهب المحلية، ولعل ذلك كان من البيزنطيين بدافع امتزجت فيه السياسة مع الدافع الدينى، ذلك لأن تحول نصارى المشرق للمذهب الذى يدين به إمبراطور بيزنطة كان وسيلة لضمان ولائهم له وخضوعهم وطاعتهم له، أكثر مما لو بقوا على مذاهبهم المخالفة لمذهب الإمبراطور. ومن هنا؛ فقد كان مسيحيُّو بلاد المشرق متبرمين بالحكم البيزنطى، ومتأذِّين من التمييز والاضطهاد المذهبى الذى تعاملهم به الدولة الرومية المحتلة، مما جعل كثيراً منهم يتساهلون ويتوانون عن الدافع عن تلك الإمبراطورية البيزنطية أمام الفتح العربى الإسلامى، أملاً بأن يرفع عنهم العرب المسلمون الاضطهاد المذهبى؛ إذ طالما أنهم غير نصارى، فلن يتدخلوا فى خصوصياتهم المذهبية. وكان هذا أحد العوامل الهامة التى ساعدت فى سرعة فتح بلاد الشام والعراق ومصر من قبل العرب المسلمين.

القول بالمشيئة الواحدة للمسيح والكنيسة المارونية:

المارونيون طائفة مسيحية كاثوليكية شرقية، ترجع هى جذور تأسيسها إلى أوائل القرن الخامس للميلاد إلى ناسك سورى ظهر فى وادى نهر العاصى هو مار مارون (أى القديس مارون) المتوفى حوالى العام ٤١٠م، كما أنها تنتسب كذلك إلى القدِّيس «يوحنا مارون» بطريرك أنطاكية فى الفترة ما بين ٦٨٥ - ٧٠٧م، والذى تمكَّن المسيحيون المحليون تحت قيادته من هزيمة جيوش الإمبراطور البيزنطى «جوستينيان الثانى» الغازية، سنة ٦٨٤م، مما أعطى للمارونيين - حينذاك - استقلالية عن الدولة البيزنطية.

على الرغم من أن المارونيين اليوم يؤكدون أنهم كنيسة كاثوليكية متحدة مع الكرسى البابوى فى روما وتابعة له، إلا أن هناك شواهد تؤكد أنهم كانوا -

لقرون عدة ـ مونوثيليتيين؛ أى قائلون بالمشيئة الواحدة للسيِّد المسيح: بمعنى أنه كان للسيد المسيح مشيئة إلهية فقط، ولم تكن له مشيئة بشرية. وهذه العقيدة كانت الكنيسة التقليدية قد اعتبرتها عقيدة هرطقية عقدت لأجلها المجمع المسكونى السادس، أى مجمع قسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠م، بأمر الإمبراطور يوغاناقوس، الذى دعا لعقده لمناقشة دعوى بطريرك القسطنطينية «سرجيوس»، الذى أكد بأن المسيح، وإن كان له طبيعتان إلهية وبشرية، إلا أن له مشيئة واحدة فقط هى المشيئة الإلهية فحسب. وكان القديس «يوحنا مارون» يتفق مع هذه العقيدة. وقد خرج ذلك المجمع، والذى بلغ عدد المجتمعين له ٢٨٩ أسقفاً، بقرارين هامَّين:

١ ـ إن المسيح له طبيعتان، وله مشيئتان كذلك.

٢ ـ لعن وطرد كل من يقول بالطبيعة الواحدة، أو يقول بالمشيئة الواحدة.

وبحسب ما يذكره الأسقف ويليام من أهل صُور، سعى البطريرك المارونى إلى الاتحاد مع البطريرك اللاتينى لأنطاكية عام ١١٨٢م، إلا أن الاتحاد التام بين الكنيسة المارونية الشرقية واللاتينية الغربية لم يتحقق بالفعل إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، وذلك بفضل المساعى الحثيثة للراهب اليسوعى «جورج إيليانو»، وهكذا، وفى عام ١٥٨٤م، أسس البابا غريغورى الثالث عشر، الكلية المارونية فى روما، والتى بقيت مُزدهرة تحت الإدارة اليسوعية إلى القرن العشرين، وأصبحت مركز تدريب هاماً للأساقفة والزُّعماء الدينيين.

يوجد الموارنة اليوم فى لبنان؛ حيث يُؤلِّفون كُبرى طوائف المسيحية؛ كما يوجد أقليات قليلة منهم فى سورية وقبرص، وقد هاجر كثير منهم إلى عدد من المغتربات الأمريكية؛ حيث يبلغ عددهم فى الولايات المتحدة وحدها ما يربو على ١٥٠٫٠٠٠، كما يوجدون فى المكسيك وكندا وغيرها من مناطق القارة الأمريكية. أما رئيسهم الروحى: فهو بطريرك يُعرق باسم «بطريرك أنطاكية وسائر المشرق»، وكُرسيه فى (بكركى) بلبنان، وهم يتلون طقوسهم بالسريانية

والعربية، وفى طقوسهم - أيضاً تأثر بالطقوس اللاتينية[1].

الخلاف بشأن تقديس الأيقونات والتماثيل والصور:

منذ القرون الأولى للمسيحية كان هناك خلاف بين المسيحيين حول تقديس التماثيل والصور، أو ما يعرف بالأيقونات، وجواز احترامها والتماس البركة منها، وهل يدخل ذلك تحت نوع من أنواع الوثنية أم لا؟ وقد احتدم هذا الخلاف فى القرن الثامن الميلادى - ربما تحت تأثير الأفكار الإسلامية التوحيدية المجاورة المشددة على التوحيد ورفض عبادة التماثيل والصور. كما يرى بعض المؤرخين - ووصل الخلاف إلى أوجه فى عام ٧٥٤م، حين تم عقد مجمع بأمر الإمبراطور قسطنطين الخامس ليقرر تحريم اتخاذ الصور والتماثيل فى العبادة، وتحريم طلب الشفاعة من مريم العذراء. فأوقعت هذه القرارات معركة من الآراء بين مخالف وموافق، مما أدى إلى عقد المجمع المسكونى السابع فى نيقية عام ٧٨٧م، الذى كان مجمع نيقية الثانى، وذلك بأمر الملكة إيرنيى، وذلك للنظر فى قرارات مجمع الملك قسطنطين الخامس الذى انعقد فى عام ٧٥٤م، وكان عدد المُجتمعين لهذا المجمع ٢٧٧ أسقفاً. وخرج بقرارات نقض فيها قرارات المجمع الذى سبقه، وأكد على:

١ - تقديس الأيقونات؛ أى صور المسيح والقديسين.

٢ - وضعها فى الكنائس، والأبنية المقدسة، والبيوت، والطرقات، لأن النظر إلى ربنا يسوع المسيح - على حد قولهم - ووالدته، والقديسين يُشعرنا بالميل إلى التفكير فيهم[2].

---

(١) الموسوعة البريطانية: مادة المارونيون Maronites، ومادة الكنيسة المارونية Maronite Church وكتاب «أضواء على المسيحية»، أحمد يوسف شلبى، ص١١١.

(٢) كتاب: «أضواء على المسيحية»، أحمد يوسف شلبى، ص١١١ - ١١٢.

الفصل الخامس

انقسام الكنيسة حول فهم الثالوث
وما ترتب على ذلك

لم يكن تقرير التثليث فى المسيحية سنة ٣٨١م كعقيدة جديدة على الوجه الذى بيّناه عملاً سهلاً بل كان عملاً معقداً سبّب كثيراً من الاختلافات والاتجاهات، لا بين من قالوا به وبين من أنكروه فحسب، بل بين الجماعات التى اتفقت على المبدأ واعتنقته، ثم عادت تفكر فيه، وعلى هذا كان عرض العقيدة الجديدة على العقل البشرى مجالاً للتفريق بين أصحابها.

أسباب الانقسام

يرى مؤرخو الأديان أن أسباب الانقسام بين المسيحيين تنحصر فى هذين السؤالين:

١ ـ هل المسيح ذو طبيعة واحدة لأنه إله أم ذو طبيعتين: إلهية لأنه الله، وإنسانية لأنه ابن مريم (ومريم من البشر)، فيكون بذلك اجتمع فيه اللاهوت والناسوت على حد تعبيرهم؟

٢ ـ هل الروح القدس منبثق من الأب أم من الأب والابن معاً؟

وقد ولد السؤال الأول عقب إعلان نسطور رأيه فى المسيح سنة ٤٣١م، أى بعد أكثر من نصف قرن من إعلان التثليث كعقيدة رسمية، فما هو مذهب نسطور فى المسيح.

مذهب نسطور فى المسيح وطبيعته

لقد كان نسطور هذا بطريكاً للقسطنطينية سنة ٤٣١م، ويعتبر مذهبه كا يقول الدكتور أحمد شلبى: (محاولة للعودة إلى التوحيد)[1]. ويؤكد ذلك بما نقله ابن البطريق عن نسطور الذى قال: (إن هذا الإنسان الذى يقول: إنه المسيح بالمحبة متحد مع الأب ويقال إنه الله أو ابن الله ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة)[2].

وبهذا القول يريد نسطور أن يرجع بالناس إلى المسيحية الأصلية ومنبعها الصافى المتمثل فى تفرد الإله بالوحدانية، واعتبار المسيح ابناً لله مجازاً كسائر الخلائق الأخيار، ثم أخذ يبرهن على مذهبه فى المسيح المدعو إلهاً بقوله: (إن مريم لم تلد إلهاً؛ لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً؛ ولأن المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنساناً، ولكنه كان إلهاً وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله بل والدة المسيح الإنسان وقد جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته، أى اتحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم الثانى اتحاداً مجازياً فمنحه ووهبه النعمة)[3].

ولا شك أن هذا الرأى الذى أدلى به نسطور فى المسيح وطبيعته منطقياً ومقبولاً، فالتمادى بالقول بألوهية المسيح قد يؤدى حتماً إلى إعلان ألوهية مريم والدة المسيح، ومن ثم تلتبس العقائد على الخلائق، ويتكاثر فى الكون عدد الآلهة، وتتحول المسيحية إلى تربيع بعد تثليث، ولا ندرى كم سيصل عدد الآلهة فى المسيحية مع مرور الزمن وتعاقب السنوات، لأن ما يسرى على مريم قد يسرى على أمها وأبيها وبقية أحوالها، وبناء على هذا الاستنباط يكون نسطور من منكرى ألوهية المسيح ومن أنصار عقيدة التوحيد، وهذا يعنى أن الموحدين مازالوا يتجولون بعقيدتهم فى ربوع المسيحية حتى وإن قرر التثليث كعقيدة رسمية.

---

(١) المسيحية ص١٨٩، د. احمد شلبى.

(٢) تاريخ ابن البطريق/ ١٥٦١.

(٣) تاريخ الأقباط ج١ ص ١٥٩، زكى شنودة.

موقف أصحاب عقيدة التثليث
من مذهب نسطور سنة ٤٣١م

وكالعادة هرع أصحاب الثالوث إلى المجامع لنصرة عقيدتهم وإسكات من يحاول أن يرجع بالمسيحية إلى التوحيد، فأمر الملك تاوديوس الصغير بعقد مجمع فى مدينة إفسس بالأناضول سنة ٤٣١م للنظر فى رأى نسطور، حضره نحو مئتان من الأساقفة، وبلا تعقل ولا روية قرروا ـ كما يقول ابن البطريق ـ : (أن مريم العذراء والدة الإله، وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين، متوحد فى الأقنوم، وهو خلاف المحبة، ثم أعلنوا نفى نسطور إلى صعيد مصر)[1]. ولا شك أن هذا المجمع وقراراته يوضّح لنا عدة أمور منها:

أ ـ أن نسطور لم يكن وحيداً فريداً فى الميدان، بل كان له مشايعون وأنصار كثيرون يقولون برأيه فى المسيح، ويناصرون عقيدة التوحيد، وإذا كان الشيخ محمد أبو زهرة قد ذكر: (أن نسطور كان يناصره بطريق أنطاكية فقط ولم يحضر المجمع لعلمهم بما دُبِّر لهما)[2] فإن زكى شنودة قد ذكر: (أن نسطور جاء ومعه أربعون أسقفاً من أشياعه وبذلك كل جهد فى إثبات كل معتقداته)[3]. وهذا هو الأقرب إلى الصواب لأمرين:

الأول: أن كاتبه مؤرخ مسيحى.

والثانى: أنه لا يمكن للملك أن يأمر بعقد مجمع ثم يحضره مئتان من الأساقفة من أجل نسطور فقط، وهذا يؤكد قولنا بأن نسطور لم يكن وحيداً.

ب ـ أن هذا المجمع قرر طبيعتين للمسيح، ثم تضمن القرار ألوهية مريم والدة المسيح، وبهذا تكون المسيحية المثلثة قد تطورت كما استنبطنا من مذهب نسطور سابقاً من تثليث إلى تربيع سنة ٤٣١م فى إفسس. حتى وإن أنكر

---

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ١٥٧.

(٢) راجع محاضرة فى النصرانية ص١٣٦، الشيخ/ محمد ابو زهرة.

(٣) تاريخ الأقباط ١/ ١٦.

أصحاب المسيحية ذلك، وقد لفت القرآن الكريم الأنظار إلى القول بألوهية مريم فقال عز شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[1].

ومنطوق الآية الكريمة يعني أن المسيح الذى يقرر الآن مجمع إفسس التصديق على ألوهيته وأمه وتحديد طبيعته لا علم له بما يجري تحت سقف هذا المجمع، ولا علم له أيضاً بأن البشر عبدوه واتخذوه إلهاً من قبل، وإلهٌ لا يعلم أن البشر عبدوه لا يصح أن يتخذ فى شأنه قرار، ولا داعى لفحص طبيعته، ومع ذلك فقد قرر هؤلاء تأليه أمه وتحديد طبيعته، ثم نفُوا نسطور الذى قرر بشريَّته. (إلا أن هذا النفى لم يُمت مذهب نسطور، وأحياه من بعده عالم مسيحى اسمه «برصوما»... ومن ثم انتشر فى الشرق، ولا يزال حتى الآن شائعاً فى العراق والموصل والجزيرة)[2]. والسؤال الآن هل القول بطبيعتين للمسيح يوافق عليه أصحاب عقيدة التثليث قاطبةً أم لا؟

أعاصير الخلاف بين أصحاب الثالوث سنة ٤٤٩م حول طبيعة المسيح

يذكر ميشيل جرجس فى كتابه «الكنيسة المصرية»: (أن أوطاخى رئيس دير بالقرب من القسطنطينية قد تطرق فى الجدل مع الأريوسيين فقال: إن طبيعة المسيح الناسوتية اندمجت فى اللاهوتية - أى أن المسيح ذو طبيعة واحدة -. فعقد له مجمع فى إفسس سنة ٤٤٩م بأمر من الإمبراطور.. وتولى رئاسته ديسقورس بابا الإسكندرية، وحضر يوليوس نائباً عن أسقف روما، وناقش المجمع أوطاخى، فاعترف بتمسكه بقانون الإيمان النيقى، فحكم المجمع ببراءته)[3].

---

(١) سورة المائدة الآية: ١١٦.   (٢) المسيحية ص١٩، د. أحمد شلبى.

(٣) كتاب الكنيسة المصرية، ميشيل جرجس نقلاً عن كتاب (يا أهل الكتاب تعالوا) ص_٢٢٦، د. رؤوف شلبى.

مجمع خلكدونية سنة ٤٥١م وتحقق الإنقسام الكنيسى

ولحاجة فى نفس أسقف روما قد تكون متمثلة فى السيطرة على العالم المسيحى بما فيه كنيسة الإسكندرية أخذ يسعى لعقد مجمع لا لمناهضته نسطور وأشياعه هذه المرة، بل لمناهضة رئيس كنيسة الإسكندرية (ديسقورس) الذى صادق أوطاخى، وأعلن فى مجمع إفسس الثانى أن للمسيح طبيعتين فى طبيعة واحدة أى اجتمع فيه اللاهوت بالناسوت، فعقد مجمع خلكدونية سنة ٤٥١م. (وكان أول اقتراح طلبه مندوبو رومية، كما تقول مؤلفة كتاب «الأمة القبطية» هو: انسحاب ديسقورس بطريك الإسكندرية، فلما سئلوا عن الباعث كان الجواب أنه لم يستأذن الكرسى الرسولى فى عقد المجمع السابق، ويقصد بالكرسى الرسولى بابا القسطنطينية، ولكن المجمع قرر بقاء ديسقورس إلا أنه على غير كرسى الرئاسة..)[١].

نتائج المجمع

وبعد مناقشات حادة بين جموع الحاضرين جاءت نتائج المجمع كالآتى:

(١) للمسيح طبيعتان منفصلتان لا طبيعة واحدة، فالألوهية طبيعة والناسوتية طبيعة التقيا فى المسيح.

(٢) لعن ديسقورس وكل من يشايعه فى مقالته ونفيه إلى فلسطين.

(٣) إبطال قرارات مجمع إفسس الثانى المنعقد بتاريخ ٤٤٩م[٢].

ولما كانت هذه النتائج موافقة لمزاج رئيس كنيسة روما وقص لها طرباً. بيد أن المصريين حينما سمعوا بما وقع لرئيسهم ثاروا وغضبوا وأعلنوا رفضهم لقرارات هذا المجمع. ومن هنا دب الانفصال اليقينى بين أصحاب الثالوث.

وانقسمت الكنيسة آنذاك إلى شرقية وغربية حول طبيعة المسيح ولذلك

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٣٨ الشيخ. محمد ابو زهرة، بتصرف.

(٢) يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٢٨، د. رؤوف شلبى.

يقول المؤرخ بورى Bury: (هذه المشكلة استمرت قائمة تمثل سبباً للخلاف الدينى والتباعد بين الشرق والغرب. ويقول دوش Doch: نلاحظ أن الخلاف حول تفسير بعض المسائل الدينية كان دائماً من العوامل التى زادت من اتساع الفجوة بين الكنيستين الشرقية والغربية)(١).

وأقول: إن هذه الفجوة لا يمكن أن تمحى من جبين المسيحية: لأن السبب الرئيس فى بقائها إن لم يتمثل فى العوامل النفسية لرؤساء الكنائس والمتضمنة حب السيطرة فهو يتمثل فى عدم فهم الثالوث وحقيقته: لأن شرعية هذا الثالوث الذى اتخذ كعقيدة رسمية لم تكن بوحى من السماء، وإنما بقرارات أرضية قذف بها البشر فى المجامع المسيحية، وأمرٌ كهذا لابد أن يحدث بسببه خلاف وسيستمر هذا الخلاف بين الكنيستين إلى قيام الساعة: لأن كلتيهما على باطل، ولو كان أحدهما على حق لظهر فى يوم ما؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(٢). هذا وقد أطلق على الكنيسة الغربية اسم الكاثوليك والشرقية اسم الأرثوذكس(٣).

وبذلك نرى أن:

١ ـ مذهب الأرثوذكس

(يقضى بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وذاتاً واحدة أقنومية، اتحدت مع الجسد، وصارت بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج، ولذلك فالعذراء تدعى بحق والدة الإله)(٤). وعلى هذا المذهب تستقر عقائد كل من

(١) يا أهل الكتاب تعالوا: ص٢٢٧، د. رؤوف شلبى.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٨.

(٣) كلمة كاثوليك Ctholique ماخوذة من كلمة يونانية Kitholikos بمعنى العام او العالمى، اى إنها الديانة العامية أو العالمية. وكلمة أرثوذكس Orthodox مؤخوذة من كلمتين يونانيتين وهما: Or-thos بمعنى الحق او المستقيم، و dox بمعنى الراى او المذهب، فمعناهما المذهب الحق او المستقيم، (انظر الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٣، د. على عبد الواحد وفى).

(٤) راجع تاريخ الأقباط ص١٦، زكى شنودة.

مصر والحبشة وأثيوبيا ومعظم مناطق إفريقيا، وهذا هو ما جاء فى كتاب «تاريخ المسيحية فى مصر»: (كنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم؛ أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثانى، أى أقنوم الابن، تجسد من الروح اقدس، ومن مريم العذراء، فصيّر هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزه عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا صار الابن المتجسد طبيعة، واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة)[1].

٢ـ مذهب الكاثوليك

يقتضى بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين، فالمسيح أقنوم إلهى بحت، ولكن له ذاتين وكيانين هما الإله والإنسان. ومن الملاحظ على هذا المذهب أنه بنى فى شكله على مذهب نسطور الذى قال بطبيعتين فى المسيح، إلا أن روح هذا المذهب الكاثولوكى تختلف عن مذهب نسطور، ووجه الاختلاف فى أن نسطور كان يرى بأن المسيح قد اتصل به اللاهوت بعد ولادته، وأفاض عليه برحمته ولذلك فمريم لم تلد إلا إنساناً. أما الكاثوليك فيرون أن مريم ولدت الاثنين جميعاً، فهى قد ولدت يسوع الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية. ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية، فهو طبيعتان ومشيئتان، وأقنوم واحد ولقد ذكر الدكتور على عبد الواحد وافى (أن مذهب الطبيعتين أخذت به جميع الكنائس الأخرى)[2] أى الكنائس الغربية.

انقسام الكنيسة الأرثوذكسية

ويبدو أن الانقسام حول طبيعة المسيح اللامفهومة فى العقيدة الجديدة لم يتوقف عند هذا الحد فحسب، بل بدا يتجول داخل أصحاب المذهب الواحد. ولذلك

(١) محاضرات فى الناصرية ص١٤١، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٣٢، د. على عبد الواحد وافى.

رأينا تراجع بعض الصفوف فى الكنيسة الأرثوذكسية عن مذهبها فى المسيح.

يقول شحادة ونقولا خورى فى كتاب «كنيسة أورشليم الأرثوذكسية»: إن هذه الكنيسة تعترف بقرارات خلقيدونية وهذا قولهما: (ومات بطرس أسقف القبائل العربية مخلفاً إفسكولاروس ثم يوحنا الذى صحب «يوفيناليوس» مع عدة أساقفة من فلسطين، لحضور المجمع المسكونى الرابع، الذى عقد فى خلكيدون سنة ٤٥١م على عهد الإمبراطور «ماركيانوس» ضد هرطقة افتيشيسى وديسيقورس، القائلين بأن فى المسيح طبيعتين فقط، وكان عدد آبائه ستمئة، فعلموا أن فى المسيح طبيعتين متحدتين بدون اختلاط ولا انفصال، وقد تقرر فى هذا المجمع بطريكية أسقف أورشليم، وتأيدت سائر مطالبه المذكورة آنفاً.. وتولى يوفينا ليوسى الكرسى الأورشليمى)(١).

فتبين بهذا أن كنيسة أورشليم وهى من الكنائس الشرقية التابعة للأرثوذكس تقول بالطبيعتين. وهو بخلاف ما عليه بقية الكنائس الشرقية.

انقسام الكنيسة الكاثوليكية

وقد انقسمت أيضاً الكنيسة الكاثوليكية القائلة بالطبيعتين يوم أن أعلن الأسقف يوحنا مارون سنة ٦٦٧م مذهبه الجديد الذى يتضمن: (أن المسيح ذو طبيعتين: طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت فى شخصه، ولكنه ذو مشيئة واحدة هى مشيئة الله)(٢). إلا أن هذا المذهب لم يرق لكثير من البطارقة، فأوعزوا إلى الإمبراطور أن يجمع مجمعاً عاماً فى زعمهم ليقر بأن المسيح ذو طبيعتين وذو مشيئتين، فعقد لهذا السبب مجمع القسطنطينية عام ٦٨٠م وحضره نحو تسعة وثمانون ومئتى أسقف، وقد كان من عمله لعن وطرد كل من يقول بالمشيئة الواحدة، كما لعن وحرّم وكفّر كل من قال بالطبيعة الواحدة وقرروا الأتى كما جاء فى تاريخ ابن البطريق: (نؤمن بأن الواحد من الثالوث الابن الوحيد الذى

---

(١) يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٢، د. رؤوف شلبى.

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص٢٥٤، ط الرياضى.

هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الأب الإله فى أقنوم واحد ووجه واحد يعرف تماماً بناسوته تماماً بلاهوته فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد... إله وإنسان وبهما يكمل قول الحق، وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها فتعملان بمشيئتين غير متضادتين)[1]. وقرروا لعن كل من يذهب مذهب مارون، إلا أن أتباعه تكاثروا عقب هذا القرار وكونوا لهم طائفة، وعنها يقول محمد أبو زهرة: (إن هذه الطائفة مازالت متوطنة بجبل لبنان، ولها بطريك خاص، وإن كانت تقر بالرياسة لبطريك روما)[2].

من أى الأقانيم جاء انبثاق الروح القدس؟

هذا هو السؤال الذى جاء عقب السؤال عن طبيعة المسيح، وبسببه اتسعت هوة الخلاف بين أرباب الكنيسة. والملاحظ أن ميلاد هذا السؤال كان فى القرن الثامن الميلادى، أى بعد أن عمل الفكر الوثنى بمموله فى العقلية المسيحية عدة قرون، وقد أخذ بطاركة الكنيسة فى الإجابة على هذا السؤال، فذهب فوسيوس بطريرك القسطنطينية إلى القول: (بأن الروح القدس انبثق عن الأب الأقنوم الأول وحده، وعلى العادة خالفه بطريرك روما وقال: إن انبثاق الروح القدس كان من الأب والابن معاً، فاجتمع نفر من الأساقفة فى القسطنطينية سنة ٨٦٩م للنظر فى هذه المسألة بعد أن احتالوا على عزل فوسيوس وأتوا بآخر يميل معهم ويرى ما يرونه)[3]، ثم عقدوا مجمعاً جاءت قراراته على النحو التالى:

١ ـ إن انبثاق الروح القدس فى الأب والابن معاً.

٢ ـ إن كل من يريد المحكمة فى أمر يتعلق بالمسيحية وعقائدها يرفع دعوى إلى الكنيسة بروما.

(١) تاريخ ابن البطريق ١/ ٢١٠.

(٢) محاضرات فى النصرانية ص١٦٠/ الشيخ محمد أبو زهرة.

(٣) يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٤١، د. رؤوف شلبى.

٣ ـ إن جميع المسيحيين خاضعون لكل المراسيم التى يقوم بها رئيس كنيسة روما.

٤ ـ لعن البطريك المعزول فوسيوس، وحرمانه هو وأتباعه. وقد استطاع فوسيوس هذا أن يعود إلى منصبه، ويردد رأيه فى الروح القدس)[١].

والناظر فى هذا القرارات يجد أن كنيسة روما الكاثوليكية كانت تملك آنذاك عضلات قوية بها تحكمت فى المجمع، فجاءت قراراته موافقة لرأيها عكس الكنيسة الأرثوذكسية. هذا ويطلق على الكنيسة الكاثوليكية اسم الكنيسة البطرسية، وعنها يقول صاحب سوسنة سليمان: (وهى تدعى أنها أم الكنائس ومعلمتهن، وربما حق لها ذلك لجهة التفاسير التى تبنى عليها أصولها التقليدية ونظامات المجامع وترتيبها وهى أيضاً تأمر بها. وتمتد شوكتها عنى الخصوص فى بلاد إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وشعوبها منتشرة فى أقطار الأرض)[٢]. ولأن الخلاف بين الكاثوليك والأرثوذكس حول انبثاق الروح القدس لا يعتمد على دليل منطقى أو برهان ساطع لطائفة منهما بات واضحاً لدينا أن الخلاف سيستمر إلى ما شاء الله، ولذلك يقول الأستاذ العقاد: (وقد استقر الرأى على ذلك مع خلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية فى موضوع الروح القدس وعلاقته بالأب والابن، فإن الكنيسة الشرقية تقول: إنه يصدر من الأب وحده، والكنيسة الغربية تقول: إنه يصدر من الأب والابن على السواء)[٣]. وقد ترتب على هذا الانقسامه فى فهم الثالوث بروز عقائد وشعائر جديدة غريبة عن المسيحية الأولى، وقبل أن نتحدث عن هذه العقائد والشعائر نقف قليلاً أمام هذه الأراء الكنيسة التى دارت حول طبيعة المسيح وانبثاق الروح القدس.

---

(١) معاضرات فى النصرانية ص١٤٦، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) سوسنة سليمان ص١٥٤، ١٥٥، نوفل نعمة الله.

(٣) الله وهو كتاب فى نشأة العقيدة الإلهية ص١٦٨، الأستاذ العقاد.

نظرة فاحصة لهذه الأراء الكاثوليكية الأرثوذكسية

والناظر فى هذه الأراء الكاثوليكية والتى دارت حول عقيدة التثليث يرى أن أصحابها اتفقوا على اسم الثالوث، ولكنهم حينما تعرضوا لشرحه كانوا شركاء متشاكسون لا يقفون عند رأى موحد، ولا يتمسكون ببرهان قويم. ومن ثم نادت كل طائفة برأى تخالف به الأخرى؛ (فالكاثوليك نادوا بعقيدة تعدد الآلهة، وادعوا أن المسيح إله من آلهة ثلاثة، وهو ذو طبيعتين ومشيئتين: طبيعة لاهوتية كاملة، وناسوتية كاملة والروح القدس منبثق من الأب والابن معاً. أما الأرثوذكس فقد نادوا بعقيدة تجسد الإله، وأن المسيح عندهم ذو طبيعة واحدة حيث حل الإله كما يقولون فى بطن مريم، ثم اتحد وخرج إنساناً هو المسيح يسوع)[1]. وبناء عليه فالمسيح فى معتقدهم مرَّ عندهم بمراحل ثلاث هى الحلول ثم الاتحاد ثم خروجه فى صورة إنسان، وأطلقوا عليه لفظ الألوهية، ويرون أن الروح القدس منبثق من الأب وحده. ولقد ندد القرآن الكريم بمذهب الكاثوليك والأرثوذكس معاً، وقال مقالة تحمل التهديد، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[2].

ومنطوق هذه الآية الكريمة يعنى: لا تقولوا ثلاثة آلهة متعددين، أو ثلاثة مراحل للإله الواحد. ثم رد على الكاثوليك بقوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[3]. ورد على الأرثوذكس بقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾[4]. ثم تصدى علماء الإسلام لإبطال القول بالحلول والاتحاد للإله الواحد فى المسيح والذى نجم عن هذه الأراء الكاثوليكية والأرثوذكسية.

---

(١) مقدمة كتاب الأعلام ص٢٧، ٢٨ للإمام القرطبى، بتصرف يسير.

(٢) سورة النساء آية ١٧١. (٣) سورة المائدة آية ٧٣.

(٤) سورة المائدة آية ٧٢.

إبطال الحلول والاتحاد عند أصحاب هذه الآراء

يقول صاحب المقاصد: (لو حلَّ الواجب فى جسم، فلو قبلَ المحل الانقسامَ للزم انقسامه الواجب وتركبه واحتياجه إلى أجزائه، وأيضاً لو حل فى جسم كانت ذاتيته قابلة للحلول فى الأجسام لعدم وجود مخصص وهو ضرورى البطلان والتالى فيما تقدم باطل. فالقول بالحلول على الله تعالى محال، وإذا كان من المحال حلول ذاته تعالى فى غيره فكذلك من المحال حلول صفته فى غيره؛ لأن انتقال الصفات محال، إذ الانتقال من خواص الذوات المتميزة والأجسام)[1]. ويقول الإمام الجوينى: (لو حل أقنوم الكلمة (الابن) فى جسد المسيح أو خالطه فهو فى حال الحلول إما ذات وإما صفة، فإن كان أقنوم الكلمة فى حال الحلول ذات فإن فارقت الأب لزم التعدد؛ لأن الانتقال يقتضى الاستقلال فى الصفات والذات، وتعدد الآلهة محال ببرهان التوارد والتمانع)[2]. كما يلزم أيضاً انتفاء الذات بانتفا جزئها المتنقل، وإن لم يكن يفارق الأب لزم وجود ذات واحد فى مكانين مختلفين، وشغلهما حيزين متباينين فى زمن واحد وهو محال. وإن كان أقنوم الكلمة فى حالة الحلول صفة؛ فإن فارقت الأب فقد بقى الله بدون كلمة وهو نقص لا يليق به تعالى، كما يلزم عليه انتقال وهو محال، لأن انتقال من خواص الذوات والأعراض والصفات، وإن لم تفارقه لزم قيام الصفة الواحدة بمكانين مختلفين فى وقت واحد وهو محال)[3].

(١) شرح المقاصد ج١ ص٦٨ سعد الدين التفتازانى. يجب أن يعرف أن كلمة واجب لا يطلقها على الله إلا الفلاسفة أما فى لغة الشرع فلا لإنها لم ترد فيه.

(٢) وبرهان التوراة تقريره أن يقال لو وجد إلهان وأرادا، أى اتفقا على إيجاد شىء، فإما أن يوجداه معاً بالاستقلال... فيلزمه وقوع أثر واحد بمؤثرين وهذا محال، وإما أن يوجداه معا متعاونين... وهذا محال أيضاً لما يلزمه من كون كل إله منهما عاجز وفى حاجة إلى معاونة الآخر.. وإما أن يوجده أحدهما فقط، وهو أيضاً محال لما يلزمه من عجز الآخر... أما برهان التمانع فحاصله أنه لو وجد إلهان متصفان بكمال القدرة وسائر صفات الإله، وتعلقت إرادة أحدهما بشىء، كحركة الجسم مثلاً - أى اختلفا فى إيجاده - فإما يتمكن الآخر من إرادة ضده أو لا يتمكن، والتالى بقسميه باطلة، فبطل التعدد وتثبتت الوحدة لله تعالى. (راجع محاضرات فى التوحيد، العقيدة، الفكر الحديث) د. محمد شمس الدين ص٥١، ٥٢.

(٣) الشامل للجوينى ص٥٨٢، ٥٨٣، وراجع إظهار الحق ٢٧٧/١ للشيخ رحمة الله الهندى، دار التراث.

وأقول: إن قضية الحلول هذه لم يدل عليها عقل ولا نقل ولا نطق بها نبى من الأنبياء مدعياً أن الله يحل فى بشر، ومن ثم فمسألة حلول الله فى المسيح مسألة باطلة لا أساس لها فى النقل، ولا برهان لها عند العقل، وإن اجتمع الكاثوليك والأرثوذكس على القول بأن هناك اتحاد بدون حلول قلنا لكل طائفة منهما ما قاله القائل: «ليس هذا بعشك فادرجى». وما ذاك إلا (لأن بعض العلماء ـ كما يذكر أستاذنا محمد شمس الدين إبراهيم ـ (يرى أن الحكم بامتناع الاتحاد حكم بديهى لا يحتاج إلى دليل، والبعض الآخر يمنعه بدليل؛ حاصله أنه لو اتحد شىء بآخر فإن بقى لكل منهما وجوده الخاص له فلا إتحاد، بل هما اثنان، وإنْ وُجْد أحدهما وإنعدام الآخر فلا اتحاد أيضاً؛ إذ لا معنى لإتحاد المعدوم بالموجود، وإن انعدما ووجد ثالث فلا اتحاد أيضاً؛ لأن الثالث غيرهما وهذا الدليل يمنع اتحاد الاثنين مطلقاً)[1].

وبناء عليه أقوال إن اللاهوت ـ كما يزعم هؤلاء ـ إن اتحد بناسوت المسيح، فإن بقى اللاهوت لاهوتاً والناسوت ناسوتاً فلا اتحاد؛ لأن كلاً منهما له ما يميزه، وإن انعدم الناسوت وبقى اللاهوت فلا اتحاد؛ لأن المعدوم يستحيل أن يقال إنه موجود وإلا فما معنى كونه معدوماً، والنصارى لا يتراجعون عن القول بوجود الناسوت، فالمسيح بشر كسائر البشر، وتبطل عقيدة الطائفتين فى ألوهية المسيح وإن انعدما معاً ووُجد ثالثُ فلا معنى للإتحاد: لأن الثالث غيرهما. وإن أصر هؤلاء على أن اللاهوت والناسوت اتّحدا حقاص.

وبعد هذه البراهين العقلية التى تبطل الاتحاد فإنى أقول: إن هذا الاتحاد لابد أن يغيّر من صفة اللاهوت والناسوت، فلم يبق حينئذ اللاهوت لاهوتاً ولا الناسوت ناسوتاً، بل صارا جوهراً ثالثاً. وبناءً عليه فالمسيح غير الله. والله غير المسيح فذاك مخلوق كسائر الخلائق، ولذا قال سبحانه وتعالى فى حقه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[2]. والله الخلاق ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

(١) محاضرات فى التوحيد والعقيد، الفكر الحديث ١/٤١، د. محمد شمس الدين إبراهيم، دار الأنوار.

(٢) سورة الزخرف اية ٥٩.

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]. ويستحيل أن يتحدد المخلوق الفانى بالخالق الباقى، إلا أن أصحاب هذه الأراء قالوا: إن الاتحاد لا يعنى شيئاً ثالثاً؛ لأنه جاء على جهة الظهور، كظهور كتابة الخاتم إذا وقع على طين أو شمع، أو كظهور صورة الإنسان فى المرآة. وقد أجاب الشيخ رحمة الله الهندى قائلاً: (إن هذا القول لا يثبت الاتحاد الحقيقى، بل يثبت التغاير؛ لأنه كما أن كتابة الخاتم الظاهر على الطين أو شمع غير الخاتم وصورة الإنسان فى المرآة غير الإنسان، فكذلك يكون أقنوم الابن المسيح ﷺ الناسوت، بل غاية ما يلزم أن يكون ظهور اثر صفة الأقنوم فيه أكثر من ظهوره فى غيره، كما أن ظهور تأثير شعاع الشمس فى بعض الأحجار التى تتولد منها الجواهر المعروفة أزيد من تأثيره فى الأحجار التى هى غير تلك الأحجار)[2]. وبذلك تبطل أقوالهم وتتلاشى حججهم، ولا يصح أن يقولوا إن اللاهوت حلَّ أو اتحد بالناسوت. والآن نسأل؟

ما هى مصادر هذه الأراء؟

يرى أصحابها أن مصدرها الأناجيل، وخاصة إنجيل يوحنا الذى جاء فيه: (أنا الأب واحد)[3]. وهذا يعنى عندهم أن الله اتحد بناسوت المسيح، وحلَّ فيه. وهذا القول لا نصيب له من الصحة؛ لأنه من سبيل المجاز، فالمسيح يقصد ما يقصدون؛ بدليل أن يوحنا نفسه ذكر نصاً آخر على لسان المسيح صرح فيه بالحلول له ولغيره: (من يعترف أن يسوع ابن الله فالله حالّ فيه، وهو أيضاً حالّ فى الله)[4]. فلو كان المسيح يقصد أن كل من حلّ فيه الإله فهو إله لكان معنى ذلك أن يوحنا أيضاً إله، وكل من آمن ببنوة المسيح إله، ولكن المسيح لم يقصد إلا البنوة المجازية، أى القرب من جنبات الله بالكلية، ويوحنا وسائر التلاميذ - إن كان هو منهم - فهموا ما قصده المسيح.

---

(١) سورة الشورى آية ١١.

(٢) إظهار الحق ص٣٢٧، الشيخ رحمة الله الهندى.

(٣) إنجيل يوحنا إصحاح ٣٠/١٠.   (٤) إنجيل يوحنا إصحاح ١٥/٤.

وإذا كـــان الأرثوذكس والكاثوليك ومـن ســـار على دربهم يريدون أن يلووا أعناق الحقيقة، ويثبتوا أن قضيتى الاتحاد والحلول تكتسبان شرعيتهما من كتبهم، فإن ذلك لا يمنع القول بأن أصل مقولة الاتحاد والحلول التى ولدها العقل المسيحى لم تكن مسيحية فى أصلها. والبيرونى[1] فى كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة» (يذكر أن أصل فكرة الحلول هندى، وأن هذه الفكرة دخلت إلى أعماق المسيحية، وكذلك فكرة الاتحاد، فالهنود منشأ هذا القول، وأنهم يذهبون فى الوجود إلى أنه شىء واحد، وينقل البيرونى نصوصاً من كتبهم المقدسة تقول: إن جميع الأشياء عند التحقيق إلهيا؛ لأن بشن ـ أى الله ـ جعل منه أرضاً يستقر الحيوان عليها، وجعل من الأرض ماء ليتغذى الحيوان، وجعل منها نراً وريحاً لينمّيه وينشّئه، وجعل قلباً لكل حيوان... ففى الناس جميعاً قوة إلهية بها تعقل الأشياء بالذات[2]. ويصدّق الدكتور على سامى النشار على كلام البيرونى قائلاً: (ولا ينكر أحد أبداً أن فكرة الحلول والاتحاد منشؤها الهند، وأثبت البحث العلمى الأوربى أن جانباً كبيراً من تعاليم المسيحية فى الحلول إنما منشؤه هندى)[3]. ويقول فضية الشيخ أبو زهرة: (والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت فى إنسان اسمه كرشنه، والتقى فيه الإله بالإنسان أو حل فيه اللاهوت فى الناسوت فى كرشنة، كما يعبر المسيحيون عن المسيح، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية)[4].

وأقـــول: إذا كـــانت هذه الأراء الهندية أســبق من الأراء والكاثوليكيـــة والأورثوذكسية والتى لا تملك لصحتها دليلاً واحداً من كتبها علمنا إذن المشتق والمشتق منه، والأصل وما تفرع عنه، وعلى أصحاب الثالوث جميعاً أن يبحثوا

(١) هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (٩٦٢ ـ ١٠٤٨م)، مؤلف عربى سافر إلى الهند، ودرس لغة أهلها، وحصل على كثير من العلوم، وكان مؤرخاً لغوياً وأديباً وعالماً بالرياضيات والفلك والطب والفلسفة والأديان (الإسلام دين المستقبل ص٩٦ روجيه جارودى ترجمة عبد المجيد بارودى).

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ٤٤/١.

(٣) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام ص٤٧، د. على سامى النشار، طبعة دار المعارف.

(٤) الديانات القديمة ص٢٨، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى.

عن أصل دينهم، ولا يتمادوا فى القول على الله ونبيه عيسى زوراً وبهتاناً. ولله در القائل فيهم وفى أقوالهم هذه:

محال لا يساويه محال وقول فى الحقيقة لا يقال

وفكر كاذب وحديث زور بدا منهم ومنشؤه الخيال

تعالى الله ما قالوه كفر وذنب فى العواقب لا يقال

إبطال قضية الانبثاق

إن قضية الانبثاق التى دار حولها الفكر المسيحى ـ وبسببها توطن الشقاق بين الكاثوليك والأرثوذكس ـ لعجيبة وغريبة، وتكمن غرابتها فى كونها مختصة بالروح القدس فقط، وهو الأقنوم الثالث فى ترتيب الثالوث. علماً بأن أتباعه متفقون فى عدم وجود فرق بين أفراده، فهم ـ على حسب زعمهم ـ ثلاثة فى واحد. فلماذا إذن ينسب الإنبثاق للروح القدس دون الابن مثلاً؟ هل جدّ جديدٌ به تميز هذا عن ذاك؟

إن الابن عندهم هو الكلمة، والكلمة صفة من صفات الله تعالى، وقديماً قرر أسلاف هؤلاء فى المجمع القسطنطينى سنة ٣٨١م كما ذكرنا سابقاً أن الروح القدس هو روح الله، وروح الله عندهم هى حياته، وحياته صفة من صفاته قائمة بذاته تعالى، فلو انبثقت هذه الصفة عن الذات لانبثقت عنه سائر الصفات. وهذا هو ما قرره الإمام ابن تيمية فى قوله: (لو كان القائم بنفسه منبثقاً لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقة منه، بل الانبثاق فى الكلام أظهر منه فى الحياة، فإن الكلام يخرج من المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من الحى فلو كان فى الصفات ما هو منبثق لكان الصفة التى يسمونها الابن ـ ويقولون هى العلم والكلام أو النطق والحياة، أولى بأن تكون من الحياة التى هى أبعد عن ذلك الكلام)[١].

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٥٩/٢ للإمام ابن تيمية، ط المدنى المؤسسة السعودية بمصر.

وبهذا لا يكون الروح القدس منبثقاً من الأب فقط، ولا من الأب والابن معاً، إنما هو خلق كسائر خلق الله، خصه الله بحمل رسالته إلى سائر أنبيائه عليهم السلام، وسيبقى الخلاف بين هؤلاء قائماً على باطل إلى يوم الدين.

ما ترتب على هذا الانقسام الكنسى

كان من الطبيعى أن يترتب على هذا الانقسام الكنسى حول فهم الثالوث بروز عقائد وأحكام جديدة أخذت تطل برؤوسها على المجتمع المسيحى المحتضن للثالوث الوثنى، ونتيجة لفساد المسيحية آنذاك كان من الطبيعى أيضاً أن تفسد الكنيسة بشقيها، وأن يمتد فسادها إلى خارج حدودها، مما كان له الأثر الواضح فى المحيط المسيحى، بيد أن هناك صرخات إصلاحية دوّت داخل الكنيسة وخارجها قاصدة إصلاح حالها وردها إلى الواجهة الصواب التى عليها قامت الأديان السماوية. هذا وقبل أن نسطر لهذه الصرخات أو الصيحات الإصلاحية لابد أن نعطى نبذة قصيرة عن أهم العقائد والأحكام التى وضعتها الكنيسة المثلثة وقدمتها للمسيحيين كعقائد وشرائع سماوية جاء بها المسيح ـ ﷺ ـ وسنرى هنا أن الكاثوليك والأرثوذكس مازالوا شركاء متشاكسين أيضاً حول بعض هذه الأحكام ومن أمثلتها:

أ ـ مسألة الاستحالة أو العشاء الربانى

وعنها يحدثنا الشيخ محمد أبو زهرة قائلاً: (إن المسيحيين يأكلون يوم الفصح خبزاً ويشربون الخمر، ويسمون ذلك بالعشاء الربانى، ولقد زعمت الكنيسة أن ذلك الخبز يستحيل إلى جسد.

المسيح وذلك الخمر يستحيل إلى دم المسيح المسفوك، فمن أكلهما وقد استحالا هذه الاستحالة فقد أدخل المسيح فى جسده بلحمة ودمه)[1].

أما عن المصدر الذى عليه اعتمدت الكنيسة للأخذ بهذا الحكم فهو ما جاء فى إنجيل متى: (وبينما هم يأكلون أخذ يسوع قطعة خبز، وبعد أن باركها

(١) محاضرات فى النصرانية ص١٧، الشيخ محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربى.

كسرها وأعطاها لتلاميذه وقال: خذوا هذا هو جسدى، ثم أخذ كأساً من الخمر، وبعد أن باركها أعطاها لهم، وقال اشربوا جميعاً من هذه الكأس، فهذا هو دمى دم العهد الذى يسفك من أجل كثير لمحو الخطايا)[1]. ولا شك أن هذا الحكم الذى قالت به كنيسة الثالوث غريبٌ وعجيبٌ، ولا أدرى هل حقاً توجد عقلية إنسانية تصدق بهذا الهراء وتؤمن بهذه المقولات. إذ كيف تتحول الخمر إلى دم، وكيف يستحيل الخبز إلى لحم؟ ولحم من لحم شخص معروف، بل إله معبود لدى القوم، ما هذا الهراء؟ وكيف يكون التصديق به؟ بل كيف يتهم عبّاد الثالوث نبى الله ورسوله عيسى - عليه السلام - بأنه شرب خمراً وفرض شربه على القوم؟ إننى أوقن أن هذا النص الذى اتخذته الكنيسة كدليل على ما تقول نص كاذب، وقائلة أفّاك أثيم، ولا أقول ذلك جزافاً، بل أمامنا شواهد تثبت أن الخمر محرمة فى العهدين القديم والجديد، ومن ثم يثبت ما نقول. وهناك بعض من هذه النصوص وتلك الشواهد:

أولاً: فى العهد القديم

١ - جاء فى سفر الأمثال: (الخمر مستهزئة، المسكر عجاج، ومن يترنح بهما فليس بحكيم)[2].

٢ - وجاء فى سفر أشعياء: (ويل للأبطال على شرب الخمر، ولذوى القدرة على مزج السكر)[3].

٣ - وجاء فى سفر اللاويين: (وكلم الرب هارون قائلاً: خمراً لا تشرب، ومسكراً لا تشرب أنت وبنوك معك)[4].

٤ - وقد أعلن سفر الأمثال أن الفقر فى شرب الخمر: (محب الخمر والدهن لا يستغنى)[5].

---

(١) إنجيل متى إصحاح ٢٦/ ٢٦، ٢٧، ٢٨.

(٢) سفر الأمثال إصحاح، ١/٢٠.

(٣) سفر أشعياء إصحاح ٢٢/٥.

(٤) سفر اللاويين، ١٠/٨، ٩.

(٥) سفر الأمثال: ١٧/٢١.

٥ ـ كما نهى هذا السفر أيضاً عن مجالسة من يشربون الخمر: (لا تكن بين شريبى الخمر، بين المتلفين أجسادهم؛ لأن السكّير والمسرف يفتقران)[1].

ثانياً: فى العهد الجديد

١ ـ حيث جاء فى رسالة بولس الرسول ـ عندهم إلى أهل إفسس: (ولا تسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة، بل امتلئوا بالروح)[2].

٢ ـ وفى رسالة بطرس الأولى: (لنكون قد علمنا إرادة الأمم، سالكين فى الدعارة والشهوات وإدمان الخمر والبطر والمنادمات وعبادة الأوثان المحرمة)[3].

ولا نريد أن نستطرد فى ذكر هذه النصوص. ولكن بهذا القدر يمكننا القول بأن العهدين «القديم والجديد» قد سطرت فيهما نصوص تدل على أن الخمر محرمة. ولما جاء الإسلام أكد على تحريم الخمر، وذلك من خلال آيات وفيرة جاء ذكرها فى القرآن الكريم:

١ ـ قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[4].

٢ ـ وقال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[5].

٣ ـ وقال تبارك اسمه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[6].

والتى يعنينا فى هذا المقام أن السيد المسيح ـ ﷺ ـ لم يشرب الخمر، وأن الكتب المقدسة لدى القوم شهدت بذلك، ومن ثم فالنص المعتمد عليه فى مسألة

---

(١) سفر الأمثال: ٢٣/٢٠، ٢١.   (٢) رسالة بولس إلى أهل إفسس إصحاح ١٨/٥.

(٣) رسالة بطرس فنولى إصحاح ٣/٤.

(٤) سورة البقرة آية ٢١٩.   (٥) سورة النساء آية ٤٣.

(٦) سورة المائدة آية ٩٠.

الاستحالة نص باطل وكاذب، وكان على الكنيسة أن تفكر قبل أن تشرع ولكنها (فرضت على الناس قبوله ومنعتهم من مناقشته، وإلا عرِّضوا للطرد والحرمان... ولقد خالفت فى بعض شأنه أى العشاء الربانى الكنيسة لاكاثوليكية غيرها من الكنائس. فالكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ترى أن العشاء الربانى لا يكون بالفطير، بينما تراه الكنيسة اللاتينية. ووجد من أحرار الفكر من ينكرون هذه الاستحالة، ويعتقدون أنها غير ممكنة فى العقل، ولا سائغة فى الفكر)[١].

(ب) **أما المسألة الثانية:** فهى مسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران للمسىء فى الدنيا، وهى من المسائل التى أبرزتها الكنيسة إلى حيز الوجود بدون دليل أو برهان حتى تعطى لنفسها قوة تفوق قوة أى سلطان، ومن ثم تكون باسم الثالوث صاحبة الأمر والنهى، وعقدت لهذه المسألة المجمع الثانى عشر، وقد جاء فى كتاب «تاريخ الكنيسة» بيان قرار المجمع فى هذا الشأن: (أنهى المجمع تعليمه فيما يتعلق بأمر الغفران فقال: إن يسوع المسيح ما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذى نالته من العلا منذ الأيام الأولى، وقد أعلم المجمع المقدس، وأمر بأن تحفظ للكنيسة فى الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحى المثبتة بسلطان المجامع)[٢]. ثم ضرب المجمع بسيف الحرمان على كل من كان له اعتراض على هذا القرار، وقد نقل إلينا صاحب «سوسنة سليمان» صورة من صور صك الغفران التى يمحو بها القس ذنوب العباد (ربنا يسوع المسيح يرحمك يا فلان ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القداسة. وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيعة ومن كل علة وإن كانت محفوظة لأبينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى وأمحو جميع أقذار المذنب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية ص١٧١، الشيخ محمد أبو زهرة.

(٢) كتاب تاريخ الكنيسة نقلاً عن محاضرات فى النصرانية ص١٧١، الشيخ محمد أبو زهرة.

عام لتابعيها جاء فيه: (عليكم أن تطيعوا آباء الكنيسة كما أطاع عيسى أباه، أطيعوا أئمتكم الروحانيين كما تطيعون الرسل، ولا يباشر أحدكم شأناً من الشؤون (كالتعميد والزواج وحضور الموت والصلاة) بدون حضور آباء الكنيسة، وأنى يوجد الأسقف فإن حضوره يعد حضوراً للمسيح نفسه تبعاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية)[1].

ولم تكتف الكنيسة بهذا الإعلان، بل توسعت فى سلطتها خارج حدودها، وتطلعت إلى كراسى الملوك، علماً بأن القاعدة المعروفة عند أربابها هى: (أعطوا ما ليقصر لقيصر وما لله لله) مع العلم أن كل شىء لله تعالى. وبمرور الزمن اخترقت هذه القاعدة: (ونشأ صراع عنيف بين السلطة والكنيسة للسيطرة من أحدهما على الآخر، إلا أن التهديد الحقيقى للكنيسة بدا بانجراف القائمين عليها، وتحول البابوات إلى أوغاد وفجار على حد قول تعبير جورج سباين)[2]. وأصبحت المناصب الدينية فى المزاد العلنى توزع بأساليب الدناءة حتى كانت ماروزيا وهى ابنة أحد كبار موظفى القصر البابوى، (تعين بنفوذها بعض أصدقائها فى مناصب البابوية ومنهم البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ - ٩١١)، وبلغ من استهتارها أن عينت فى هذا المنصب الدينى ابنها غير الشرعى من سرجيوس هذا باسم البابا يوحنا الحادى عشر، كما عينت أحد أحفادها باسم البابا يوحنا الثانى عشر وكان صبياً فى السادسة عشرة من عمره، وهو البابا الذى اتهم بتعيين طفل فى العاشرة من عمره فى وظيفة أسقف)[3].

وهكذا بعدت المسيحية بعداً تاماً عن تعاليم السيد المسيح - عليه السلام - وظهرت على السطح باسم الثالوث مسيحية جديدة فاسدة تسمى مسيحية القساوسة، والتى عنها قال روسو: (إن مسيحية القساوسة تعطى للناس تشريعين ورئيسين

---

(١) المسيحية ص٢٠٠، د. أحمد شلبى.

(٢) تطور الفكر السياسى ٣/ ٤٧٢ جورج سباين، ترجمة راشد البراوى.

(٣) راجع معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى ص١٦٦، د. عبده فراج، طبعة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م.

ووطنيين، أحدهما دينى والآخر مدنى، وتخضعهم لواجبات متناقضة، وتقوم على أكاذيب تخدع الناس، وتجعلهم بلهاء يؤمنون بالخرافات، ويفرقون عبادة الله الحقيقية فى طوفان من الطقوس الجوفاء، وهى دين متعصب)[1]. وهذا التعصب هو الذى جعل الفساد الدينى يتتابع والانحراف الخلقى يتوالى، وتحكم رجال الدين فى عقول الناس وعقائدهم واستحوذوا على أموالهم وامتهنوا أعراضهم وأهدروا دماءهم، حتى تنادى الناس جميعاً بالإصلاح الشامل. فكانت الثورة الكبرى ثورة الإصلاح، وبسببها تحررت العقول عن بعض الطقوس الكنيسية، وسادت روح النقد كل شىء حتى وصلت إلى عقيدة الثالوث التى حرمت الكنيسة مناقشتها، مما كان له الأثر الواضح على هذه العقيدة فى المسيحية.

(١) العقد الاجتماعى ص٢٣٢ ترجمة عبد الكريم أحمد، مراجعة توفيق اسكندر، ط دار سعد. مصر.

ثورة الإصلاح وأثرها على
عقيدة الثالوث فى المسيحية ١٥١٧م

ظلت الشعوب المسيحية ردحاً من الزمان تدين بالثالوث دون دليل أو برهان، ثم تبع ذلك تفشى الفساد الكنسى الذى أسلفنا له الذكر إلى أن تمخض الزمان بثورة إصلاحية عارمة، وذلك فى أكتوبر ١٥١٧م، وكان من أبرز رجالها: مارتن لوثر الألمانى، وزونجلى السويسرى، وكلفن الفرنسى. وكان لفكرة الثورة هذه أثر واضح على عقيدة الثالوث فى المسيحية.

١ ـ مارتن لوثر الألمانى (١٤٣٨ ـ ١٥٤٦م) وأعماله

هو راهب كاثوليكى كشف سوء حال الكنيسة وانحراف رجالها عن جادة الصواب، فندد بعقائدها، وقام بتعليق نظرياته الخمس والتسعين على باب كاتدرائية فيتنبرج بألمانيا، وهى تنص على أن الناس سواسية فى الأمور المتعلقة باللاهوت، وأن كل إنسان على ظهر الأرض مسئول عن إنقاذ روحه، وله من كلمة الرب المسطرة فى الكتاب المقدس ما يساعد على ذلك، وأن الإنسان يبرأ من الإثم بالإيمان وحده دون توسط من بابا أو غيره، (ثم حارب صكوك الغفران، ونظر إليها كوسائل للرق وللعبودية، وألقى الأضواء كما يقول الدكتور محمد البهى ـ على عقيدة التثليث)[١]. وكانت أقواله عن التثليث كما جاء فى كتاب «حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر»: (على أنه تعبير يفتقد القوة[٢]، وأنه تعبير لم يوجد فى الأسفار)[٣].

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٥٠، د. محمد البهى، ط٩ مكتبة وهبة.

(٢) لقد بيّنا زيف النصوص التى يتخذها النصارى دليلاً على صحة الثالوث، خاصة فى إنجيل متّى ويوحنا.

(٣) حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر ص١١٥، مهندس أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة.

ثم حارب سلطة البابا، وجعل السلطة الوحيدة في المسيحة هي الكتاب المقدس وكلمة الله (النص)، ولم يقف البابا ليو العاشر مكتوف اليدين، بل استصدر حكمين ضد هذا الراهب: الحكم الأول: الحرمان من الحياة الأبدية. والحكم الثاني: الإعدام بالنار)[1]. ولم يأبه لوثر بهذا القرار، بل عمد إلى الإنذار الذي أرسله إليه فحرقه في ميدان من أكبر ميادين المدينة، وسط جمع حاشد من الناس، وفي سنة ١٥٢٠م جمع البابا مجمعاً، وفيه قرر محاكمة لوثر فلم يذعن لوثر لهذا القرار أيضاً، (ولما حاول الإمبراطور سنة ١٩٢٩م أن ينفذ هذا القرار ثار أنصار لوثر واحتجوا على ذلك، ومن ثم سمي أتباع نحلته بالبروتستانت، أي المحتجين، وأخذ لوثر من ذلك الحين ينشر مبادئه المعارضة للكنيسة الكاثوليكية، والتي تكونت منها النحلة البروتستانية، كما أخذ الناس يدخلون في نحلته أفواجاً)[2]، على حد تعبير الدكتور علي عبد الواحد وافي.

٢ ـ زونجلي السويسري (١٤٨٤ ـ ١٥٣١م) وأعماله

لقد ظهر هذا الرجل في العصر نفسه الذي ظهر فيه مارتن لوثر، ودعا إلى كثير مما دعا إليه لوثر في شئون الدين، (وثار على صكوك الغفران وغيرها من مفاسد الكنيسة الكاثوليكية، وتبعه ناس كثيرون، لكنه مات قتيلاً أثناء صراع وقع بين أنصاره وأنصار الكنيسة الكاثوليكية، وكانت دعوته منفصلة عن دعوة لوثر، وإن اتفقت معها في مبادئها)[3].

٣ ـ كلفن الفرنسي (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤م) وموقفه من الثالوث

ولقد سلك كلفن طريقة لوثر في معارضة الكنيسة، واحتضن منهجه الذي يدعو إلى رفض سلطة البابوات على العقول، ثم أقر لوثر ـ كما يقول الدكتور البهي ـ (على أن الإنجيل وحده هو المصدر للحقيقة المسيحية دون تفسيراته

---

(١) كتاب ـ محمد ﷺ ـ في التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٠٨، إبراهيم خليل أحمد.

(٢) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٤٢، د. علي عبد الواحد وافي.

(٣) المصدر السابق ص١٤٢.

وشروحه، وأوضح رأيه فى عقيدة التثليث وفقاً للأصول المسيحية)[1]. ويبدو أن هذه العقيدة كانت فى نظر كلفن لا قيمة لها؛ ولذلك يذكر لنا فبلر فى كتابه «تاريخ الموحدين»: (أن كلفن قد أعلن أن قانون الإيمان الذى صدر عن مجمع نيقية كان يناسبه أن يُغنَى كأغنية بدلاً من أن يُحفظ كبيان عن العقيدة. لقد رفض كلفن قانون الإيمان الذى أصدره أثناسيوس وبدلاً من ذلك جعل قانون الرسل والوصايا العشر والصلاة الربانية أساس كتاب «خلاصة العقيدة»، الذى صدر فى جنيف عام ١٥٤١م، فمن النادر جداً أن نجد ذكراً للثالوث فى هذا الكتاب، ولو كانت لعقيدة الثالوث أهمية كبيرة لكان كلفن ركز عليها)[2].

وبهذا نرى أن حركة لوثر وزونجلى وكلفن الإصلاحية عرّضت المسيحية للجدل حول الكثير من عقائدها، بعد أن كانت تلك العقائد مصونة من النقاش، حتى وإن احتوت على أخطاء واضحة فلا يصح لأحد أن يقترب إليها بعين النقد، ومن تسوّل له نفسه بذلك تنهار عليه قرارات الحرمان والطرد من الكنيسة، ثم الحكم عليهم أيضاً بالكفر والفجور، بيد أن هؤلاء ضربوا بالكثير من قرارات الكنيسة عرض الحائط وتبعتهم حشود هائلة من المسيحيين والذين اكتووا بنار القساوسة قروناً من الزمان طويلة، ثم كونوا لأنفسهم مذهباً خاصاً يطلق عليه «المذهب البروتستانتى»، وله أنشئوا الكنيسة البروتستانتية، ثم أعلنت باسم رجالها أن الكتاب المقدس هو الحكم الفصل بينها وبين الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية، ولهذا المذهب يدين الآن (معظم أهل ألمانيا والدنمارك والنرويج وهولندا وأمريكا الشمالية وسويسرا)[3].

ويمكن تلخيص هذا المذهب فى الأمور التالية:

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغرب ص٢٥٠. د. محمد البهى.

(٢) راجع طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٣٥. أحمد عبد الوهاب. مكتبة وهبة.

(٣) محاضرات فى النصرانية ص١٨٥. الشيخ محمد أبو زهرة.

أهم مبادئ المذهب البرتستانتي

١ - عدم أخذ الأفكار المتعلقة بالعقائد والشرائع والعبادات إلا من الكتاب المقدس وحده، على حين أن الكنائس الأخرى تستمد أحكامها من الكتاب المقدس، ومن قرارات المجامع، وأراء البابوات، ورؤساء الكنائس البرتستانية (الكنائس الإنجيلية) (لاعتمادها على الإنجيل خاصة، وعلى سائر أسفار الكتاب المقدس بوجه عام، بينما سميت الكنائس التقليدية لاعتمادها على التقاليد المستمدة من المجامع ومن أراء رؤساء الكنيسة، وجعلها لهؤلاء الرؤساء سلطان في تقرير حقائق العقائد والعبادات والشرائع)[١].

٢ - لا تقر البرتستانية في مذهبها البابوية والرياسة العامة في شئون الدين؛ ولذلك لا يوجد للكنائس البروتستانتية رئيس عام بل يعتبر البابا كبير المرشدين، وليس خليفة للسيد المسيح[٢].

٣ - ينكر المذهب البروتستانتي في كل الإنكار أن يكون لرجل الدين الحق في غفران الذنوب، سواء في حالة الاحتضار أو غيرها، وإنما جعل ذلك الحق لله وحده.

ويرى المؤرخون أن هذا المبدأ من أهم المبادئ التي قام من أجلها المذهب البروتستانتي، وبسببه ألغيت صكوك الغفران.

٤ - ينكر المذنب البروتستانتي جميع ما تقيمه الكنائس الأخرى للسيدة مريم أم المسيح - عليهما السلام - من طقوس واحتفالات وأعياد، ويعتبر البروتستانت ذلك خروجاً عن الدين.

٥ - يقرر المذهب البروتستانتي أن العشاء الرباني تذكار لما قام به المسيح من فداء للخليقة، أما ما يقال من استحالته إلى دم وجسد المسيح فهو خرافة.

٦ - يعلن البروتستانتية في مذهبها أن كل مسيحي له الحق في فهم الكتاب

(١) الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ص١٤٤، د. علي عبد الواحد.

(٢) يا أهل الكتاب تعالوا ص٢٧٠، د. رؤوف شلبي.

المقدس عندهم دون الرجوع إلى رجل الكنيسة، ولا صلاة إلا بلغة مفهومة.

٧ ـ تلغى البروتستانتية فى مذهبها نظام الرهبنة، وهى لا تحرم الزواج على رجال الدين، كما تحرمه الكاثوليكية على جميع الرهبان والقسس بمختلف درجاتهم[١].

٨ ـ تحرم البروتستانية وضع الصور والتماثيل فى أماكن العبادة واتجاه المصلين استناداً لما جاء فى التوراة: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامى، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً صورة مما فى السماء من فوق، وما فى الأرض من أسفل، وما فى الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن؛ لأنى أنا الرب إلهك إله غيور)[٢] وهم يرون أن ما أمرت به التوراة يجب الأخذ به طالما أنه لم يرد عن المسيح ما يبطل التوراة.

تلك هم أهم مبادئ المذهب البروستانى والذى أعلن عقب ثورة الإصلاح سنة ١٥١٧م، ويرى الكثيرون من المؤرخين الغربين أن هؤلاء استمدوا أكثرية هذه المبادئ، وخاصة المبدأ الأخير مبدأ تحريم الصور من المسلمين، وفى هذا يقول. و. طمسون فى كتابه «تاريخ العصور الوسطى» و. ج. أوستر جوسكى فى كتابه «تاريخ الدولة البيزنطية»: (إن الحرب على الأيقونات أى الصور والتماثيل بدأت فى الدولة الإسلامية عندما أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣م بإزالة جميع الأيقونات من الكنائس الواقعة داخل حدود الدولة العربية، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الدولة البيزنطية، فبدأ ليو الثالث حملة ضد الأيقونات وعبادتها سنة ٦٢٦م)[٣].

وهذا القول قد يعنى أن البروتستانت قد اتصلوا بالمسلمين عن طريق

---

(١) راجع فى ذلك محاضرات فى النصرانية ص١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، للشيخ محمد ابو زهرة، وكتاب الأسفار المقدسة ص١٤٥، د. على عبد الواحد وافى.

(٢) سفر التثنية إصحاح ٥/٧، ٨، ٩.

(٣) نقلاً عن كتاب محمد ـ ﷺ ـ فى التوراة والإنجيل والقرآن ص٢٣٥، للأستاذ إبراهيم خليل أحمد، الذى كان قساً فأسلم.

الدولة البيزنطية فحسب، بيد أنى أرى أنهم بعد ذلك قد اتصلوا بالمسلمين، واطلعوا على عقيدتهم، وذلك عن طريق الحروب الصليبية التى واكبت مطلع ثورتهم، وإذا كان الأمر كذلك فهم قد تأثروا بنور الإسلام فى هذه الجزئية بالذات أكثر من تأثرهم بكتابهم المقدس لديهم.

النقد الموجه لمذهب البروتستانت

وإذا كنا قد علمنا سابقاً أن لوثر وكلفن قد ألقوا الضوء على عقيدة الثالوث، وبينوا أنها عقيدة خرافية لا أساس لها فى الكتاب المقدس عندهم فإننا كنا نتوقع أن هذين الرجلين بجوار بقية المصلحين فى عهدهم لابد أن يرفقوا فى مذهبهم بنداً من خلاله نعلم موقفهم النهائى من عقيدة الثالوث، ويبدو أن ما قالوه شىء وما دوّنوه فى مذهبهم شىء آخر، حيث بدأ هذا المذهب خالياً من أى إشارة لأمر العقيدة، ولذلك بقيت البروتستانتية كغيرها من النِّحَل (تؤمن بالتثليث وألوهية المسيح وبنوته لله تعالى، وصلبه وقيامته... إلخ)[1]. وهذا الإيمان لا يتوافق ومنهجهم الذى ألزموا به أنفسهم أمام الناس. فهم قد التزموا فى مطلع مذهبهم بالاحتكام إلى الكتاب المقدس، وعدم أخذ العقائد إلا منه، والباحث فى هذا الكتاب لا يجد بين دفتيه نصاً واحداً يصرح بشرعية الثالوث، بل أكثر نصوصه ينبثق من بينها شعاع التوحيد، وأيضاً قد التزموا فى مذهبهم بخلع سلطان الكنيسة والمجامع، علماً بأن التاريخ يثبت أن هذه المجامع هى التى تسببت فى إخفاء عقيدة التوحيد التى دانت بها المسيحية قرابة ثلاثة قرون أو يزيد وإرساء عقيدة التثليث، فلو كان هؤلاء جادين فى مبادئهم هذه العقيدة التى قررها القساوسة سنة ٣٨١م فى مجمع القسطنطينية، أو على الأقل كان عليهم أن يركنوا ولو قليلاً إلى دراسة القرارات المنبثقة عن هذه المجامع وينظروا فى سندها فيما رأوه قوياً قبلوه، وما وجدوه ضعيفاً رفضوه. وبهذا يكونون قد ساروا فى موكب الإصلاح إلى آخر مداه، كما يحتم عليها منطقهم، أما وأنهم يقفون فى منتصف الطريق، ويخالفون الكنيسة فى أمور فرعية أعظمها تلك التى

(١) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام ص١٤٢، د. على عبد الواحد وافى.

ضمها مذهبهم سالف الذكر، ثم يدينون بالثالوث المفروض على العقول فرضاً دون دليل أو برهان زاعمين بعد ذلك أنهم أحدثوا فى المسيحية إصلاحاً من القمة إلى القاع، فإن هذا هو ما يرفضه منطقهم الذى الزموا به أنفسهم ويرفضه واقع الكنيسة ورجالها.

أثر هذه الحركة الإصلاحية على الثالوث فى المسيحية

وإذا كان هؤلاء المصلحون عندهم لم يتعرضوا للثالوث فى مذهبهم، ولم يسايروا موكب الإصلاح إلى آخر مداه. فإننا لا ننكر أن حركتهم هذه قد تمخضت بالفعل بعد ذلك عن آثار إيجابية أحدثت فيما بعد ضجة ضد الثالوث الكنسى أعقبه ظهور طوائف الموحدين مرة أخرى على الساحة المسيحية، ومن أهم هذه الآثار ما يلى:

١ ـ بروز محاولات فلسفية لتحرير العقل من وطأة الثالوث

حيث تحرك الكثيرون من الفلاسفة والعلماء فى المسيحية حاملين على عاتقهم مواصلة السير فى موكب الإصلاح، وبصحبتهم منهج الثورة الإصلاحية ـ عندهم ـ المتمثل فى أحقية كل مسيحى فى فهم الكتاب المقدس دون تدخل من أحد البابوات أو القساوسة، وباسم هذا المنهج أخذوا فى تحرير العقول من الأدران الكنيسة، ومن وطأة الثالوث الجاثى قرابة ألف عام أو يزيد، وكان مطلع هذه المحاولات عقب الثورة الإصلاحية، وعلى وجه التحديد فى القرن السابع عشر الميلادى، حيث قام جماعة من المفكرين وعلى رأسهم سبينوز[١] SpINOZ وليبنتز[٢] Leibntis ولوك[٣] Locke بمحاولة تقريب بين الطوائف المسيحية المختلفة على أساس من التعاليم الأصلية للمسيحية، وابتدعوا لهذه المحاولة ما أسموه بنظام العقيدة، وكتبوا خطابات ثلاثة عن التسامح، وعبّروا عن هذا

---

(١) عاش بين سنتى ١٦٣١ ـ ١٧٧٧م. (٢) عاش بين سنتى ١٦٤٦ ـ ١٧١٦م.

(٣) عاش بين سنتى ١٦٣٢ ـ ١٧٠٤م.

التسامح فى الكلمة المعروفة «كنيسة حرة»، فى دولة حرة - ثم تحولت هذه المحاولة من الوجهة النظرية عند الفلاسفة الثلاثة إلى القيام بتعليل عقلى لمسيحية عامة صافية، وأطلقوا على هذا التعليل (دين الطبيعة) أو دين العقل)[1]. وهو إطلاق بلا شك غاشم ولا يصح أن يطلق على أديان تنسب إلى السماء، ولا أجدنى فى حاجة إلى مناقشته حتى لا نخرج عن طى الموضوع.

أساس هذا الدين عندهم

جعل هؤلاء الفلاسفة أساس هذا الدين عندهم الإيمان الكامل، وعرفوا الوحى - كما يقول الدكتور البهى - (بأنه ما كان فوق العقل البشرى، لكنه ينسجم مع العقل، أى أن الذى يعتبر وحياً هو ما لا يستطيع العقل أن يجده من نفسه، ولكن مع ذلك يمكن له أن يفهمه فى وفاق وانسجام مع تفكيره الصحيح)[2]. وأقوال الفلاسفة هنا ليس المقصود منها نقض الإيمان فى حد ذاته، إنما القصد هو نقض ما طرأ عليه، وهم بهذا كانوا يهدفون بلا شك إلى تحرير العقول من العقائد اللامفهومة وإثبات كرامتها التى أهدرتها الكنيسة عبر القرون بحجة أن العقل لا يستطيع فهم ما جاء به الوحى عندهم، ومن ثم فلا يمكن له فهم الثالوث، ولا يحق له مجرد التفكير فيه.

٢ - اقتراب الفلاسفة من مذهب الموحدين

ولما كان الموحدون قديماً يرون أن الوحى لا يأتى بعقائد تضاد العقل، وأن عقيدة السماء بسيطة وواضحة فإن هؤلاء الفلاسفة بمحاولاتهم الدائبة لتحرير العقل من وطأة العقيدة المثلثة الطارئة على المسيحية اقتربوا بلا شك من مذهب الموحدين، بل أنكروا بكل صراحة ما أنكر الموحدون، ومن هؤلاء جماعات السوسنيين[3] Socinienes (حيث أكدوا وجود الوحى ولكنهم عبروا

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٤٦، د. محمد البهى.

(٢) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، ص٢٤٦، د. محمد البهى.

(٣) هم أتباع الفيلسوف الإيطالى Socin فى القرن السادس عشر (١٥٢٥ - ١٥٦٢). وقد كان من الملائكة.

أنه ما ليس بوحى هو ما لا يستطيع العقل أن يفهمه، وتطبيقاً لهذا اعتبروا ما جاء فى العقيدة المسيحية من التثليث ومن جعل المسيح إلهاً إنسانياً فى وقت واحد غير وحى، ثم رأوا أن ما أوحى به الله له طابع القانون ويجب العمل به، والدين لا يبقى فى حيز الفكرة النظرية، بل هو خضوع تام للقانون الإلهى)[1].

وهم بهذا يريدون أن يقولوا إن الدين لابد أن يكون سلوكاً وعملاً طبقاً لهذا القانون، ولكن ليس كل دين، بل الدى الذى لا يجد العقل فى فهمه عسراً، أما الدين الذى لا يفهم فهو بلا شك قائم على أغراض شخصية ولا صلة له بالوحى الإلهى، وهذا هو ما ينطبق على الدين المسيحى المتمثل فى الثالوث، ومن ثم فلا يصح الخضوع له أو حتى الاعتراف بشريعته. ثم جاء بعد هؤلاء هيجل Hegei فى القرن التاسع عشر، وأقام فلسفة خاصة به[2]، على أساس ما أسماه (بالفكرة).. ووصل بهذه الفلسفة الخاصة إلى وحدانية الله تعالى، وبذلك أغضب الكنيسة الكاثوليكية بإنكار التثليث فى الألوهية، وعلى غرار هيجل قام شلينج Schliing بعمل فلسفى سمى بالفلسفة البنائية، وهى فلسفة تهدف إلى إقرار مذهب الوحدة فى الألوهية[3]، وبهذا يتبين لنا أن دفاع الفلاسفة عن العقل ومحاولتهم إصلاح حال الكنيسة بين العقائد اللامعقولة عقب ثورة تيقظ الإنسان من خلالها إلى قيمة نفسه قد جعلهم - سواء بقصد منها أو بدون قصد - يحاربون الثالوث وعقيدة ألوهية المسيح، والاعتقاد بعصمة البابا أو بسلطانه الزمنى، وغير ذلك من الأمور التى لا تستقيم مع العقل

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٤٦، ٢٤٧، د. محمد البهى.

(٢) لقد لعبت فلسفة هيجل هذه دوراً بارزاً فى تكوين النظرة الماركسية حيث تأثر بها ماركس، وخاصة مبدأ النقيض منها، القائل: لكل فكرة فكرة تقابلها، ومن صراع الفكرتين تتكون الفكرة الثالثة هى الجامع لهما، ثم ينطبق عليها ما انطبق على الأولى، وهكذا دواليك ليستمر الدفع والتقدم، والقصد من ذلك عند هيجل هو إثبات الفكرة والوحى. أما ماركس فإن مذهبه لا يتركز على الفكرة، بل على المادة، فهى عنده الثابتة الأزلية، والفكرة عنها تولدت. ومع ذلك فقد أفرغ مذهب هيجل فى هذا الإطار، علماً بأنه لا ينطبق عليها، بل على الفكرة فحسب. (راجع فى ذلك الماركسية بين الدين والعلم من ص٤٠ إلى ص٤٦) جميل محمد أبو العلا. مطبعة الأمانة.

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص٢٤٧، د. محمد البهى.

الإنسان الواضح، وهذا كله يتوافق ومذهب الموحدين قديماً، ومن ثم حق لهذا المذهب أن يرى النور مرة أخرى، فظهرت عقب ثورة الإصلاح طوائف تدعوا باسمه تسمى «طوائف الموحدين».

٣ـ طوائف الموحدين(١) فى المسيحية عقب ثورة الإصلاح

لقد ظهر هؤلاء الموحدون مرة أخرى ليجاروا موكب الإصلاح فى المسيحية، ويعلنوا مذهبهم بكل صراحة بعد أن خضعت الشعوب المسيحية للثالوث قروناً طويلة تحت نير الكنيسة. ومعلوم أن التوحيد هو الذى كان المعتقد الأساسى ـ كما ذكرنا سابقاًـ مدة لا تقل عن ثلاثة قرون متتالية أو يزيد، أما التثليث فهو المعتقد الطارئ عليه.. ومن المغالطة الواضحة فى هذا الصدد ما ذكرته دائرة المعارف الأمريكية حين قالت: (تظهر بداية التوحيد كعقيدة محددة بعد نصف قرن من الإصلاح الدينى البروتستانتى)(٢)؛ لأن الذى يفهم من هذا النص أن التوحيد لم يظهر كعقيدة رسمية فى المسيحية إلا بعد نصف قرن من قيام ثورة الإصلاح، وهو خلاف الواقع الذى أسلفنا له الذكر، وبيّناه من خلال دراستنا فى المجامع. بالإضافة إلى أن هذا المفهوم يوقع دائرة المعارف الأمريكية فى التناقض مع نفسها حيث ورد عنها ما نصه: (لقد بدأت عقيدة التوحيد ـ كحركة لاهوتية ـ بدايةً مبكرةً جداً فى التاريخ، وفى حقيقة الأمر فإنها تسبق عقيدة التثليث بالكثير من عشرات السنين)(٣). ويبدو أن الذى دعاها إلى التصريح بالنص الذى أدى بها إلى التناقض هو كثرة طوائف الموحدين عقب ثورة الإصلاح، الأمر الذى جعلها تتوهم أن التوحيد لم يكن له وجود متكامل إلا فى هذه الآونة، ونحن إذ نسلّم لها بأن الموحدين كانوا بالفعل ذا عدد غفير عقب ثورة الإصلاح، إلا أننا لا نسلّم بأن التوحيد لم يظهر كعقيدة رئيسة فى المسيحية إلا عقب هذه الثورة، والواقع التاريخى يشهد بذلك.

---

(١) كلمة الموحدين اصطلاح تاريخى أطلقه المؤرخون على كل من يتبع معتقد أريوس قديماً، وينكره ما تراه فرق النصارى الأخرى القائلة بالتثليث والتأليه والتجسد والصلب... إلخ.

(٢) طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٢٤، مهندس أحمد عبد الوهاب.

(٣) اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة فى المسيحية ، أحمد عبد الوهاب.

المبادئ العامة التى يقوم عليها
الفكر التوحيدى فى المسيحية

ونظراً للحركة الدائبة التى قام بها الموحدون لتطهير المسيحية من عقيدة الثالوث، فقد أعلن هؤلاء بأنفسهم مبادئ عامة تنير لفكرهم الطريق، وهذه هى أهم مبادئهم، كما جاء ذكرها فى دائرة المعارف الأمريكية:

١ - (إن عقيدة التوحيد سوف لا تقبل أى معتقد لمجرد أنه مقدس، إنها تبجّل فكر يسوع الناصرى، وتعترف بعظمة حكمته، لكنها تنكر أن يسوع كان معصوماً من الخطأ)(١).

وأرى هنا أن عجز هذا المبدأ قد أخطأ فيه الموحدون؛ لأنهم إن لم يؤمنوا بكون المسيح إلهاً فهو عندهم بلا شك نبى ورسول، والنبى والرسول لابد أن يكون معصوماً وهم لا يرون ذلك.

٢ - إن كنيسة الموحدين تعتبر الكتاب المقدس تسجيلاً قيّماً للخبرات الإنسانية، وهى تصرّ على أن كاتبيها كانوا معرضين للخطأ؛ ولهذا السبب فإن أغلب الأجزاء الرئيسة للمعتقدات المسيحية قد رُفضت.

٣ - إن الموحدين يعتقدون أن العقيدة الدينية مليئة بالحركة، وأنها وسيلة للتعامل مع المسائل التى تختص بالوجود الإنسانى كله... فالتعليم اللاهوتى الذى لا يمس الحياة فى أى نقطة يفتقد قيمته الدينية.

٤ - إن الفرق التاريخى بين التوحيد والتثليث يأتى من حقيقة أن الموحدين طالما كانوا يؤمنون بوجود إله واحد فإنهم يعتقدون أن الله سبحانه إله واحد بدلاً من ثلاثة أقانيم، ولذلك قال شانينج ١٨١٩م - أحد زعماء الموحدين -: إن الثلاثة أقانيم تتطلب ثلاثة جواهر، وبالتالى ثلاثة آلهة... ثم قال: إن نظام الكون يتطلب مصدراً واحداً للشرح والتعليل لا ثلاثة؛ لذلك فإن عقيدة التثليث تفتقد أى قيمة دينية أو علمية.

(١) انظر طائفة الموحدين من المسيحيين عبر القرون ص٣٧، أحمد عبد الوهاب.

٥ ـ ... إن الكتاب المقدس لم يقل بالثالوث، كما أن يسوع فى نفسه كزعيم دينى هو المسيا، وليس كإله، وبالمثل اعتقد التلاميذ أن يسوع مجرد إنسان. ثم عللوا لهذا المبدأ قائلين: إذا كان عند أى من بطرس أو يهوذا[١] أى فكرة عن أن يسوع إله لما كان هناك أى تفسير معقول لإنكار بطرس ليسوع ـ حسبما تذكره الأناجيل بعد القبض عليه والذهاب به إلى بيت رئيس الكهنة ـ وما كان هنالك تبرير لخيانة يهوذا؛ لأن الإنسان لا يمكن أن ينكر أو يخون كائناً إلهياً له كل القوة.

٦ ـ إن الحقيقة المزعومة بأن يسوع مات من أجل خطايانا، وبهذا وقانا لعنة الله مرفوضة قطعاً؛ لأن الله يجب ألا يعرف عن طريق اللعنة، بل عن طريق الحلم والمحبة. إن الموت الدموى على الصليب من أجل إطفاء لعنة الله الإله لهو أمر مناقض للحلم الإلهى والصبر والود والمحبة التى لا نهاية لها.

٧ ـ إن يسوع لو كان إلهاً فإن المثل الذى ضربه لنا بعيشته الفاضلة[٢] يفقد كل ذرة من القيمة حيث يمتلك قوى لا نملكها، والإنسان لا يستطيع تقليد الإله[٣].

هذه هى أهم مبادئ الفكر التوحيدى فى المسيحية، وعلى هديها انطلق الموحدون فى إصلاح مسار المسيحية، وتصحيح الانحراف الذى حدث لها، وإذا كانت الأريوسية قديماً لم يكتب لها النصر النهائى عى المستوى الرسمى للدولة فإن ظهور هؤلاء الموحدين عقب ثورة الإصلاح بهذه المبادئ يدل على أن جهودها لم تذهب سدى، بل بقيت لها جذور قوية تنبت بين الحين والحين

---

(١) بطرس ذكرته الأناجيل بأنه كبير الحواريين. أما يهوذا فهو يهوذا الإسخريوطى. جاء ذكره فى الأناجيل بأنه قبض رشوة ثلاثين درهماً من الفضة، وبسببه قبض على المسيح وقتل وصلب. وبما أن قضيب الصب تحتاج إلى بحث منفرد فى رسالة خاصة إلا أننا نقول: إن القرآن الكريم أثبت أن هناك حادث صلب قد وقع فعلاً، ولكن ليس للمسيح ﷺ ومن ثم فالقول بصلبه قولٌ باطل. قال جل شأنه: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ ﴾ (النساء: ١٥٧).

(٢) هذه الأمثلة مبثوثة بإطناب فى الأناجيل الأربعة على لسان المسيح ﷺ.

(٣) راجع فى ذلك كتاب طائفة الموحدين ص٣٧، وكتاب اختلافات فى تراجم الكتاب المقدس ص١١١، للمهندس أحمد عبد الوهاب.

وتثمر، وقد تمثل هذا فى (الحركات التوحيدية) و(الحركات المعادية للتثليث)، التى استمرت على مر العصور، واستطاعت أن تقيم (طائفة الموحدين)، وهم مسيحيون من مختلف الشعوب والثقافات، وأصبح لهم كنائسهم المنتشرة فى أوروبا وأمريكا، ولكى نعرف إلى أى مدى ساهم فكر هذه الثورة فى مساندة الموحدين ومحاربة عقيدة الثالوث سنعطى فكرة سريعة عن بعض أنشطتهم فى بلاد أوروبا وأمريكا عقب ثورة الإصلاح حتى العصر الحديث.

أ ـ الموحدون فى بولندا

وهذا هو ما جاء فى كتاب «طائفة الموحدين» نقلاً عن دائرة المعارف الأمريكية التى قالت: (ما إن حل منتصف القرن السادس عشر حتى كان أكثر من ٢٠٠٠ كنيسة كاثوليكية قد تحولت إلى البروتستانتية، ثم جاءت (الحركات المعادية للتثليث) لتسلك سبلها إلى الكنائس الإصلاحية.

وهنا نذكر الطبيب والعالم المشهور الدكتور جيورجيو بنيدراتا الذى كان مدرساً فى جامعة مونتبلية... حتى تشبع بمبادئ الحركة المعادية للتثليث فى بولندا (حركة الموحدين)، ثم ما لبث أن أصبح رئيساً لها عن جدارة فى عام ١٥٥٨م، ثم تقول: لقد تمت هذه الحركة وقويت لدرجة أنه عندما عقد مجمع بنزوا سنة ١٥٦٢م كان الليبراليون أغلبية، وكان القسس يتكلمون عن التثليث فقط بالعبارات التى تسمح بها الكتب... ويعتبر الإعلان الذى صدر عام ١٦٠٥م واحداً من أهم المطبوعات التى أنتجها جماعة الليبراليين البولنديين ـ تعنى جماعة الموحدين ـ فهى تقول: بأن الله واحد فى ذاته، وأن المسيح إنسان حقيقى، ولكنه ليس مجرد إنسان، وأن الروح القدس أقنوماً لكنه قدرة الله، ثم حصل الرد الكاثوليكى على هذه الحركة، وصدر مرسوم سنة ١٦٥٨م طرد بمقتضاه جماعة موحدة فى عام ١٧٣٦م وكانت كل الحقوق السياسية قد حسبت (من غير الكاثوليك)، ونفيت بعض الجماعات الموحدة خارج البلاد)[1].

---

(١) طائفة الموحدين من المسيحيين ص٤١، ٤٢.

ولا أدرى أن أفكر هؤلاء الموحدين سيكون فى معزل من سكان البلاد التى نزحوا إليها؛ لأنه فكر بسيط لا التواء فيه.

ب ـ الموحدون فى المجر وترانسلفانيا

وتقول دائرة المعارف الأمريكية: (إن الروح الاستقلالية للمجريين مع الظرف الخاص بالمجر، وهو أنها كانت قد ابتعدت عن روما، كل ذلك أدى إلى فقدان سيطرة الكنيسة الكاثوليكية، ولقد أذيع ثلاث مرات مرسوم بالتسامح الدينى فى أعوام ١٥٥٧م، ١٥٦٣م، ١٥٦٨م، ووصل الأمر بالموحدين إلى أن كانت المجر تحت حكم ملك موحد هو جون سيجسموند (١٥٤٠ ـ ١٥٧١م) وفى تراسلفانيا حيث ازدهر التوحيد ثانيةً نجد ذلك يرجع إلى التأثير الإيطالى. ومن الشخصيات الهامة هنا فرانسيس داود، فقد ولد عام ١٥١٠م، فى كولوسفار عاصمة ترانسلفانيام، ورغم أنه كاثوليكى فقد قبل عقائد الإصلاح الدينى، وأصبح بدوره لوثرياً ثم كالفينا، وأخيراً فى عام ١٥٦٦م أصبح موحداً لكن تأثير دواد هذا قوضه من الأساس وفاة الملك جون سيجموند، إذ خلفه ستيفن باثورى الكاثوليكى، ورغم أنه كان حاكماً عادلاً إلا أنه كان معادياً للإصلاح الدينى، حيث منع الموحدين من نشر كتبهم دون إذن منه، الأمر الذى أذى حركتهم تماماً، ومع ذلك فقد استمر داود فى جهوه، وكان يعارض بشدة عبادة المسيح. وفى العشرينات من القرن التاسع عشر أقيمت العلاقات مع (الموحدين البريطانيين) الذين قدموا إعانات مالية ساعدت على الإبقاء على مدارس الموحدين)[1].

وبهذا يتبين لنا أن الموحدين رغم تدخل الملك ستيفن باثورى فى وقف حركتهم إلا أنهم مازالوا يناضلون حتى القرن التاسع عشر، حيث ازدهرت مدارسهم فى ربوع ترانسلفانيا.

---

(١) المصدر السابق ص٤٢، ٤٣، ٤٤.

ج ـ الموحدون فى هولندا

لقد ازدهرت المطابع فى هولندا عقب ثورة الإصلاح، وكان لهذه المطابع أثر هام فى نشر الفكر التوحيدى بين الهنولديين، (حيث طبعت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كتب ورسائل عديدة تعبر عن وجهات النظر التحريرية، ما كان أحد ليجرؤ على نشرها خارج هولندا، وقرب منتصف القرن التاسع عشر صارت ليدن بالتحديد وخاصة جامعتها مركز الدعوة للحرية الدينية فى هولندا، لقد صارت مركزاً للتوحيد، كما أنها كانت متحررة تماماً فى نقد الكتاب المقدس)[1].

ويبدو هنا ارتقاء حركة التوحيد فى هولندا المسيحية حيث لم يقتصر فى نشر فكرها على المدارس الصغيرة ـ كما علمنا فى تراسلفانيا ـ بل تعدت ذلك ووصلت إلى الجامعات، وأصبحت جامعة ليدن ـ وهى من أكبر الجامعات فى هولندا ـ تساعد على بث الفكر التوحيدى فى شتى البقاع المسيحية، مما يدل على مدى تعطش المسيحيين لهذا الفكر.

د ـ الموحدون فى إنجلترا

وفى إنجلترا انتشر الفكر التوحيدى انتشاراً سريعاً عقب ثورة الإصلاح، وخاصة بين المفكرين الإنجليز، وبسببهم (يوجد فى إنجلترا فى الوقت الحالى من (٢٥٠ ـ ٤٠٠) كنيسة موحدة بعضها فى الممتلكات البريطانية المستقلة (سابقاً). وتوجد مدرستان لتعليم التوحيد هما كلية مانشستر بأوكسفورد. وكلية التوحيد بمانشستر)[2].

هـ ـ الموحدون فى الولايات المتحدة الأمريكية

وفى أمريكا بولاياتها المختلفة تجول الفكر التوحيدى بمبادئه السهلة، (وكانت عقيدة التوحيد موفقة فى اجتذاب بعض القادة المهمين لجانبها، مثل

(١) المصدر السابق ص٤٦.

(٢) المصدر السابق ص٥١.

وليم الرى شانتج (١٧٨٠ - ١٨٤٢م) راعى الكنيسة فى بوسطن، حيث كانت موعظته عن مسيحية التوحيد التى وعظها فى مايو ١٨١٩ تُعد واحدة من أعظم الوثائق الدينية التى كتبت فى أمريكا. هذا وترتكز أغلب كنائس الموحدين فى ولاية نيوانجلند، حيث تبلغ طبقاً للإحصائيات الأخيرة ٢٧٠ كنيسة)[1] كلها تحارب الثالوث بجوار كنائس أخرى منتشرة فى فرنسا وبلجيكا والدنمرك وسويسرا وغيرها من البلاد الأوربية والأمريكية.

تعقيب

وبعد:

فهذه نبذة سريعة عن نشاط الموحدين فى شتى البقاع المسيحية عقب ثورة الإصلاح، وهى إن دلت فإنها تدل بلا شك على الأمور التالية:

أولاً: إن هذه الثورة كانت بمثابة الانفتاح لعهد جديد من الحرية الدينية، وعلى أثرها توقفت سلطة الحكام، وامتنعت سياط الكنيسة التى كانت تهوى على كل رأس يفكر فى مدى صحة عقائدها، ومن ثم تحرر العقل من وطأة الكنيسة ورجالها ولو قليلاً.

ثانياً: وعلى ضوء هذا التحرر ظهرت عقيدة التوحيد مرة أخرى فى ربوع المسيحية، وازدهرت على يد المفكرين والعلماء، وأنشأت لها الكنائس والمدارس فى البلاد، بل وتخصصت لنشرها الجامعات، وهذا كله سيؤدى بلا شك إلى انكماش الثالوث، إن لم يكن اليوم فغداً وإن غداً لناظره قريب.

ثالثاً: إن هذا الازدهار لعقيدة التوحيد عقب هذه الثورة يؤكد تأكيداً لا ريب فيه بأن المسيحية، الأصلية قامت على التوحيد، أما التثليث فهو عضو غريب من جسدها، وبقوة السلطات التصق بها حتى صار هو الصور التقليدية التى تعرف به.

رابعاً: إن المعتقدات الكنيسة التى جلبها الثالوث الوثنى إلى المسيحية

---

(١) المصدر السابق ص٥٢، ٥٣.

معتقدات فاسدة كفساد الثالوث، وستظل تحارب إلى يوم الدين، ورائحتها العفنة هى التى ساعدت فى انفصال أعداد وفيرة من المسيحيين عن الكنيسة الكاثوليكية وانضمامهم إلى الموحدين بغية الإصلاح والعودة بالكنيسة إلى معتقدها الأول، وإثر ذلك أخذت تعلو صرخات الكنيسة الكاثوليكية قائلة لرعاياها: (إن العمل المسكونى يحتم على مؤمنى الكنيسة الكاثوليكية أن يهتموا بدون تردد اهتماماً أكبر بإخوانهم المنفصلين عنهم، وأن يُصلّوا من أجلهم، وأن يتحدثوا معهم عما يتعلق بشئونهم الكنسية بحيث تكون حياتهم شاهداً أكثر أمانة ووضوح للعقيدة والأنظمة التى نقلها الرسل عن المسيح)[1]، إلا أن هذه الصرخات ذهبت هباءً منثوراً فى الهواء، وما ذاك إلا لأن المسيحية المتمثلة فى الثالوث سواء أكانت كاثوليكية أم غيرها لا يمكن أن تساير روح التقدم الفكرى والمادى؛ لأنها عقيدة جامدة غير مفهومة، ومهما رقت بالفكر وتوالى عليها الإصلاح فإن شبح التأخر والوثنية سيظل يطل برأسه من ثوبها المرقع الذى أخنى عليه الدهر، ولهذا الأمر تنبأ أحد علماء البروتستانت بموت المسيحية ودفنها فى القرن العشرين حين قال ما نصه مترجماً:

(إذا كان الدين المسيحى ليس شيئاً سوى الكثلكة المحتاجة إلى الإصلاح (المذهب الرومانى)، أو الكثلكة التى دخلها الإصلاح بالفعل (المذهب البروتستانتى) فالقرن الموفى للعشرين (القرن الحاضر) لا يكون مسيحياً أبداً)[2]، فهل يا ترى سيعود فيه المسيحيون عن الثالوث حقاً، ويسيرون فى طريق التوحيد حتى يصلوا إلى الإسلام دين التوحيد الخالص عن كل شائبة أم لا؟.

(١) النشرة الثانية للفاتيكان مكتبة دير الآباء الدومنيكان.

(٢) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدينة ص١٤٧ الشيخ محمد عبده عيسى الباب الحلبى.

الاستياء العامُ من كنيسة روما والسعى فى إصلاحها(١)

كان ظهور عديد من جمعيات المنشقين عن كنيسة روما - أو المبتدعين كما كانت تسميهم الكنيسة الرومانية آنذاك - فى الغرب، علامة واضحة على تنامى احتجاج شديد ضد مفاسد الكنيسة الغربية. ولم يكن هؤلاء المنشقون أو المبتدعون وحدهم الذين كانوا يقومون ضد الكنيسة السائدة، فى القرون الوسطى (أى من القرن الحادى عشر حتى الخامس عشر)، بل أصبحنا نرى كثيرين من جميع طبقات المسيحيين الغربيين غير راضين عن الأعمال الكنسية المعاصرة. إلا أن أولئك المستائين لم ينفصلوا عن الكنيسة نظير المنشقين، ومع وجودهم فيها طلبوا تجديداً كنسياً. ففى القرن الرابع عشر الميلادى - وخصوصاً فى القرن الخامس عشر الميلادى، الذى بلغ فيه سوء استعمال البابوية وجشعها الدنيوى، وأطماعها الرئاسية أقصى درجاته - صار طلب الإصلاح الكنسى يتردد فى كل مكان، وبإلحاح بشرية استبدادية دنيوية يكرهها الجميع. فالملوك مع حكوماتهم والعلماء والأساقفة والإكليروس والشعب أصبحوا يطالبون جميعاً - باسم الإنجيل والمسيحية الرسولية - بإصلاح الكنيسة برأسها وأعضائها.

طلبوا من البابا أن يتخلى عن سلطته العلمانية، وأن يقنع بالسلطة الروحية، وإن يستخدم السلطة الروحية بدون اغتصاب ولا استبداد، ضمن الحدود التى وضعتها القوانين الكنسية، وأن تسير حياة الرئاسة والإكليروس بموجب نظام صارم، وبالإجمال؛ طلبوا تحسين سلوك الجميع، كما طالبوا بأن

---

(١) المرجع الأساس فى كل هذا العنوان هو كتاب «تاريخ الكنيسة المسيحية»، المُعرّب عن اللغة الروسية، والذى نقله إلى العربية مطران حمص وتوابعها: الكسندروس، ١٩٦٤، ثم الموسوعة البريطانية، وموسوعة إنكارتا الأمريكية.

يُزال كل أشكال سوء الاستعمال الكنسى، ومن جملة ذلك بيع الغفرانات، وأن تنقّى المعرفة الدينية من التلويثات السكولاستيكية (المدرسية الفلسفية العقلية)، وتتأسس على الكتاب المقدس فحسب، وأن ينتشر بين الشعب التهذيب الدينى. وبالإجمال: طلبوا بأن تعمَّ التقوى الكنسية.. إلخ، ويرهن العلماء اللاهوتيون الإصلاحيون بتآليفهم - بنحو جيد - على ضرورة مثل هذه الإصلاحات. وكانت جامعة باريس أحد أهم المراكز الذى انتشرت منه الأفكار الإصلاحية؛ حيث خرج عدد من العلماء المدافعون عن الإصلاح من هناك، من أمثال رئيس جامعة باريس يوحنا جرسون Jean de Gerson، وأمثالهما، الذين كانوا يعبرون عن إرادة كل المجتمع المعاصر لهم. لكنَّ الباباوات - فى البداية - لم يريدوا أن يسمعوا شيئاً عن الإصلاح، عندئذٍ؛ أخذت السلطات الزمنية على عاتقها - ومثلها بعض الأشخاص - محاولة تحقيق ذلك الإصلاح. فاجتهدت السلطة بواسطة مجامع إصلاحية - البيزنسى والكونستانسى وبازيل - فى تحقيق بعض الإصلاحات، كما بذلت شخصيات متميزة؛ مثل البروفيسور جون ويكلف John Wicliff (١٣٣٠م - ١٣٨٤م) فى إنجلترا، وجون هُوس John Huss فى بوهيميا[1] والأسقف الدومينيكى «غيرولامو سافونارولا» Girolamo Sa-vonarola فى إيطاليا، جهدها للإصلاح، معتمدة على تأييد العلماء وجماهير الشعب. بيد أن كل تلك المحاولات بقيت مجرد محاولات ضئيلة التأثير، ولم تحدث ذلك الإصلاح الجذرى والتغيير الكامل المطلوب.

فالمجتمع المسيحى الغربى كان لا يزال مأخوذاً بتأثير السلطة البابوية، ويخشى أن يخطو خطوة حازمة ضدها، ومن جهة أخرى؛ كان باباوات القرن الخامس عشر على مقدار جيد من البراعة، تمكنوا - بواسطتها - من إيجاد وسائل لتهديم كل الخطط الإصلاحية. بيد أن هذه المحاولات مهدت طريق الإصلاح الحقيقى.

---

(١) بوهيميا: اسم لمنطقة فى وسط أوروبا ذات أهمية فى تاريخها، وهى تشكل - فى الخريطة السياسية الحالية لأوروبا - ثلثى ما يعرف - اليوم - بجمهورية التشيك. يحدُّ هذه المنطقة بولاندا من الشمال، ومنطقة مورافيا من الشرق، والنمسا من الجنوب، وألمانيا من الغرب.

اللاهوتى الإنكليزى «جون ويكلف» الإصلاح الجذرى

تقدم اللاهوتى الإنكليزى «جون ويكلف» (١٣٢٤م - ١٣٨٤م) باجتهاده الإصلاحى فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر؛ حيث كانت الأحوال مواتية. ففى ذلك الوقت (فى عهد الملك إدوارد الثالث)؛ كانت الحكومة الإنكليزية قد بدأت تتحرر قليلاً من وصاية البابوية، ولذلك نظرت بعين الرضا إلى خصومها، فاستفاد ويكلف من هذا الوضع، وقدم سنة ١٢٥٦م، تأليفاً «عن آخر أزمنة الكنيسة»، ثم عندما وقع النزاع بين جامعة أكسفورد والرهبان الفقراء (منذ سنة ١٣٦٠م)، أخذ «ويكلف» يُبرهن - شفاهاً وكتابةً - فشل الرهبنة. وفى هذه المرحلة ألف كتابه الشهير «عن فقر المسيح»، الذى شرح فيه حال الرهبان الفقراء بطريقة لا ترضيهم. وعندما حصل النزاع الطويل بين ملك إنجلترا إدوارد الثالث والسلطة البابوية فى روما حول دفع الجزية المستحقة للبابا، والتى كانت الملك ومعه البرلمان الإنجليزى كارهين لدفعها، وأعلنت الحكومة الإنكليزية سنة ١٣٦٦م، رفضها دفع الجزية للبابا، انبرى «ويكلف» بتأليف كتاب يُدافع فيه عن الحكومة الإنجليزية، ويُثبت فيه - دينياً - حقها فى تحديد سلطة البابا عليها. فبرز شأن «ويكلف» لهذ السبب، وأقيم أستاذاً ودكتوراً للاهوت فى جامعة أكسفورد (سنة ١٣٧٢م). وفى سنة ١٣٧٤م؛ توجه «ويكلف» بتوفيض من حكومته، مع عدد آخرين، إلى القصر البابوى فى أفينيون (جنوب فرنسا) لأجل التفاوض بشأن الأعمال الكنسية. وهنا اطلع «ويكلف» شخصياً، وتعرف - عن كثب - على انحراف البابوية. وفور عودته شرع يخطب - علناً - بأن البابا هو «ضد المسيح»، وبلغ «ويكلف» فى هجومه على البابوية إلى درجة رفض الكهنوت من أساسه، مرتئياً بأنه ليست السيامة هى التى تعطى شخصاً ما حق الرئاسة، وإتمام الخدمة الإلهية فى الكنيسة، وإنما هو تقواه الحقيقية وسيرته العملية التى تعطيه ذلك الحق. واتخذ الرهبان المتعصبون أفكار «ويكلف» هذه وأمثالها حجة لرميه بالهرطقة. فاستخرجوا من تأليفه ومحاضراته تسعة عشر موضوعاً، وأرسلوها إلى البابا غريغورى الحادى

عشر (١٣٧٠ ـ ١٣٧٨م) كدليل على هرطقته. وتعيَّنت محاكمة ويكلف سنة ١٣٧٨م. ولكنه نجا من الحكم عليه ـ هذه المرة ـ بفضل دفاع الحكومية الإنكليزية عنه، ولأنه تمكن من إقناع المحكمة بتفاسير لائقة. وفى هذه الأثناء؛ وقعت فضيحة الإنقسام البابوى الخطير والمعروف[1]. فانبرى «ويكلف» مُجدداً ضد البابوية، وتقدم أكثر فى مواضعه الإصلاحية؛ فرفض ـ تماماً ـ الدرجات الأسقفية فى الكنيسة، ودعا إلى العودة إلى ترتيب القسوسية الرسولية، كما رفض ـ تماماً ـ «التقليد المقدس»، وجعل «الكتاب المقدس» ـ فقط ـ المصدر الوحيد، والدعامة لتعليم الإيمان. ورفض ـ أيضاً ـ التعليم عن المطهر والغفرانات، ولم يعترف بضرورة تقديس الزيت، وعدَّ الاعتراف الشفوى اغتصاباً للضمير، ودعا إلى الاكتفاء بتوبة الإنسان الداخلية أمام الله، ورفض التعليم عن حضور المسيح الواقعى فى سر العشاء السرى، أى الأفخاريستيا، وقبل ـ فقط ـ بحضوره الروحى، ورفض الخدمة الإلهية مع فنونها الاصطناعية والطقوس الباهرة، ودعا إلى أن تكون أبسط بقدر الإمكان، ودعا إلى أن يمسح للكهنة بالحياة الزوجية، رافضاً إيجاب العزوبية والتَّبتُّل عليهم، كما نادى بإزالة الطبقة الرهبانية، أو على الأقل أن يُعدَّ الرهبان متساوين مع العلمانيين (أى مع عامة الناس). وبالإجمال؛ اجتهد «ويكلف» فى أمر الإيمان فى أن يتم إلغاء كل وساطة بين الله والإنسان، وأن يكون خلاص الإنسان متوقفاً على علاقته الشخصية بالفادى؛ أى المسيح. ولأجل نشر المعارف الدينية فى الشعب أسس «ويكلف» جمعية الرجال الأتقياء الذين يتوجب عليهم وعظ الشعب بالإنجيل. وفى الوقت ذاته؛ بدأ بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية. كل هذا ـ وخصوصاً محاولة تمكين الشعب من قراءة الكتاب المقدس ـ كان سبباً لإثارة الاضطهادات مجدداً ضد «ويكلف». فى سنة ١٣٨٢م، فى مجمع لندن حكم على

---

(١) إشارة إلى الانقسام البابوى الكبير الذى وجد خلاله باباوان (وفى فترة؛ غدوا ثلاثة بابوات) كلهم يدعى الشرعية، وكل واحد يحرم الآخر كنسياً، وقد دام هذا الانقسام قرابة نصف قرن (بين ١٣٧٨ وحتى ١٤١٧). ولمزيد الإطلاع راجع فقرة «فترة الانقسام البابوى» أثناء الكلام عن نبذة من تاريخ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

تعليمه فى أربع وعشرين قضية كتعليم هرطقى، وطرد من جامعة أوكسفورد. ولم يتمكن الملك الإنجليزى الضعيف ريتشارد الثانى من الدفاع عن «ويكلف». فابتعد عن أكسفورد إلى «ليوتروورث» Lutterworth، ومات هنالك. وكتب فى وحدته - قبل موته بقليل - تأليفاً سماه «تريالوغوس» بسَّط فيه أفكاره الإصلاحية. وبعد ذلك حكم على «ويكلف» مراراً بالهرطقة، فقد حكم عليه البابا يوحنا الثالث والعشرون فى مجمع «روما» سنة ١٤١٢م، وفى مجمع «كُونستانس» سنة ١٤١٥م، بالهرطقة، وزاد فى المجمع الأخير مُهماً بإصداره أمراً بحرق جُثَّة «ويكلف»، وذرِّ رمادها، فتمَّ ذلك، بعد أن كان قد مضى على وفاته ٢٨ عاماً! لكن، رغم ذلك كله بقى لويكلف أتابع، ليس فى الأوساط الشيعية فحسب، بل فى طبقات المجتمع العالية. واشتهروا باسم الهراطقة اللوللرديين Lollards. ولما كانت الحكومة - بسبب ضغط البابوية عليها - تمتنع من العطف عليهم، لا بل كانت تساعد الكنيسة فى اضطهادهم، لذلك لم يستطيعوا أن ينتشروا ويؤثروا تأثيراً ذا أهمية. ومع ذلك؛ مدت أفكار «ويكلف» جذورها عميقاً فى إنجلترا، وفى جهات أخرى أيضاً.

اللاهوتى التشيكى «جُون هُوس» شهيد الإصلاح

وفى محيط أكثر جاذبية، ظهر بطل آخر من أبطال الإصلاح هو البُروفيسُور «جُون هُوس» (أو يوحنا هوس) أستاذ اللاهوت فى جامعة «براغ» فى بوهيميا. وإذا كان «جون ويكلف» قد ذهب بعيداً فى محاولته الإصلاحية إلى حد رفضه عدد من الأمور ذات الأهمية الكبيرة فى نظر الكنيسة الرومانية؛ فإن «جون هوس» - على العكس منه - اقتصر على نقد سوء استعمال الكنيسة الرومانية لسلطتها، وبقى محافظاً على العقائد الكنسية التقليدية، بل أكثر من ذلك، إنه كان مُدافعاً عن الأرثوذكسية القديمة.

ولد هوس سنة ١٣٦٩م، فى مكان صغير فى بوهيميا الجنوبية يسمى غوسينتس، وحصَّل علومه فى جامعة غوسينتس براغ، التى شغل فيها سنة

١٣٩٨م، كرسى اللاهوت. فى ذاك الوقت: كان يشغل أذهان الكثيرين فكرة أن الكنيسة قد تشوهت. وظهرت هذه الأفكار فى بوهيميا، وأضيف إليها ظهور اجتهاد فى بوهيميا فى القرن الرابع عشر لإحياء الأرثوذكسية القديمة التى بشر بها هناك القديسان كيرللس ومثوذيوس. وكان الموضوع الأول الذى يريده البوهيميون هو الخدمة الإلهية باللغة السلافيَّة، ومناولة العلمانيين (أى عامة المؤمنين) تحت الشكلين[1]. فصار «جون هوس» - الذى شغل كرسى اللاهوت - مدافعاً حاراً عن إصلاح الكنيسة؛ بمعنى إعادتها إلى الأرثوذكسية القديمة. وقد تهيأ له إعلان مُيُوله الإصلاحية بشكل شرعى أو قانونى. ففى سنة ١٤٠٢م، شغل وظيفة واعظ فى مُصلًّى بيت لحم (هكذا دُعيت الكنيسة التى بناها البوهيميون مجدداً)، فأخذ يعلم الشعب، بمواعظه التى كان يلقيها باللغة السلافية، الإيمان والحياة بموجب الإنجيل فحسب. وعند ذلك؛ تسنَّى له أنْ يلفظ شهادات قاسية ضد الكهنة الكاثوليك والرُّهبان. وفى الوقت ذاته: تعرَّف «هوس» على مؤلفات «ويكلف» المنقولة من أكسفورد بواسطة صديق إيرونيم البراغى، ونظر إليها نظرة رضا. ولكنه - مع ذلك - لم يُشارك «ويكلف» بجميع آرائه المتطرافة. ولكنَّ هذا لم يمنع أبطال اللاتينية من أن ينسبوا إلى «هُوس» هرطقة «ويكلف». وقد حدث الاصطدام سريعاً. فقد حضر إلى براغ لاهوتيان إنكليزيان من أتباع «ويكلف»، وأبرزا - بين الأشياء الأخرى - صورتان، وكان مرسوماً على إحداهما دخول المسيح إلى أورشليم يُرافقه تلاميذه، وعلى الثانية دخول البابا إلى روما يواكبه الكرادلة. وكان المخلص مرسوماً بإكليل الشوك، وأما البابا؛ ففى التاج المثلث الذهبى... إلخ. وبدأت التفاسير فى الجامعة بشأن هاتين الصورتين. فلم يُحبِّذ «هوس» سلوك الإنكليز. ومع ذلك؛ صرَّح ضدَّ البابوية بنفس روح تصريحات «ويكلف». ولكنْ؛ كانت أغلبية الأصوات فى

(١) يقصد بقضية التناول تحت الشكلين (التى ستتكرر الإشارة إليها فيما بعد)، أن يتناول عامة الناس المشاركين فى القداس - أى العشاء السرى؛ أى الأفخارستيا - كلا الخبز والخمر، بعكس التقليد الذى اتبعته الكنيسة الكاثوليكية الغربية فى طقس المناولة فى القداس، والذى اقتصرت فيه على مناولة المؤمنين خبز الفطير فقط، دون الخمر.

الجامعة للأجانب[1] الذين - لأسباب قومية محضة - كانوا ضد «هوس» وأعضاء الجامعة البوهيميين. لذلك ألف أعضاء الجامعة الأجانب سنة ١٤٠٨م، قراراً حكموا فيه على موادَّ ويكلف الأربع والأربعين. ولكنَّ «هُوس» فاز بطلبه من الملك فينتسيلاس King Wenceslas (سنة ١٤٠٩م) بمرسوم جعلت فيه أكثرية الأصوات لأعضاء الجامعة البوهيميين. وعلى هذه الصورة؛ تغلَّب الحزب البوهيمي الوطني الإصلاحي. فأخذ البوهيميون برئاسة «هُوس» يُصرِّحون - بكل حزم - ضد الكنيسة الرومانية. فانبرى رئيس أساقفة براغ «سبينوك» Ar-chishop Zbynok ضد «هوس» وأرسل ضده شكوى إلى روما، وجاء منها سنة ١٤١٠م، بأمر بإحراق تأليفات «ويكلف»، وجرِّ أتباعه إلى المحاكمة. وأضيف - إلى ذلك - منع الوعظ في كنائس خاصة. فأرسل «هوس» إلى البابا استئنافاً، برهن فيه بأنه يوجد في تأليف «ويكلف» حقائق كثيرة. ولم يكفَّ عن الوعظ في كنيسة بيت لحم. فطلبه البابا إلى روما. ولكن؛ بفضل وساطة الملك والجامعة، انتهى أمر «هُوس» في براغ بسلام. ولكن، سرعان ما وقع مُجدداً الاصطدام بين «هوس» والرئاسة الرومانية، وذلك حين جهز البابا يوحنا الثالث والعشرون حملة صليبية ضد خصومه السياسيين، وأرسل سنة ١٤١٢م أمراً إلى بوهيما أعطى فيه غفرانات كاملة لجميع الصليبيين. فقام هوس ضد هذا الأمر في مواعظه وتآليفه.

أما صديقه إيرونيم البراغي؛ فقد أحرق أمر البابا. ومال الشعب إلى جهتهما. وبدأت الاضطرابات. فجاء من روما أمرٌ آخر سنة ١٤١٣م، يقضي بفصل «جون هوس» من الكنيسة، وطرده خارج بارغ. فكتب هوس تمييزاً إلى الرب يسوع المسيح نفسه، بما أنه لم يأمل أن يجد عدالة على الأرض. وفي الوقت ذاته؛ قدم تأليفاً «عن الكنيسة» برهن فيه بأن الكنيسة الحقيقية يجب أن تتألف من المؤمنين؛ وحيث أن البابا قد سقط من الإيمان - على حد تعبيره - فليس هو عضواً في الكنيسة، وحرمه لا أهمية له. ومع هذا؛ تمكن رئيس

---

(١) كان للبوهيميين صوت واحد، وللنمساويين والبولونيين ثلاثة أصوات.

أساقفة براغ من طرد هوس خارج بارغ. وفى تلك الأثناء؛ افتتح مجمع كونستانس (سنة ١٤١٤م). وبما أن هوس كان قدم - قبلاً استئنافاً إلى المجمع المسكونى، لذلك طلبوه إلى كونستانس. وقد سلمه الإمبراطور سفيزموند رسالة للمحافظة على حياته. ولما حضر «هوس» إلى كونستانس، وجب عليه أن ينتظر الاستنطاق زماناً طويلاً. وبعد الاستنطاق سجن. فلم يشأ الإمباطور سفيزموند أن يلح بطلب إطلاقه، بقطع النظر عن الكتاب المعطى له لأجل المحافظ عليه. فعامل المجمع «هوس» بقساوة؛ إذ خُيِّل إليه بأن طلب «هوس» أن يُبرهنوا كذب آرائه على أساس الكتاب المقدس هو بحد ذاته هرطقة، لأنه رفض ضمنى للتقليد المقدس أيضاً!. وبالإجمال؛ فإن مجمع كونستانس واجه المطالبة بإصلاح الكنيسة بنظرة ضيقة، وفهم بأن هذا الإصلاح يراد به الحد من السلطان البابوى، بقطع النظر عن وجود بعض أعضائه الأحرار. وبقى «هوس» فى السجن تحت الاستنطاق ريثما ينتهى المجمع من النظر فى قضية البابا يوحنا الثالث والعشرين. وبعد سجنه سبعة أشهر؛ دعوه مُجدداً إلى جلسة المجمع العلنية. ولكنه لمَّا أصر على طلبه أن يدحضوا آراءه على أساس الكتاب المقدس حكموا عليه كهرطوقى بالحرق. وفى السادس من تموز سنة ١٤١٥م، مات «جون هوس» حرقاً مربوطاً على خشبة. وكذلك صديقه إيرونيم البراغى، الذى جاء برفقته إلى كونستانس، أعدم بالحرق بعد سجنه مدة طويلة.

وهكذا نلاحظ أن المجامع الأسقفية التى كانت - فى بداية أمر المسيحية - وسيلة للدفاع عن الإيمان المسيحى، ثم أصبحت - بعد ذلك - أداة فى إمبراطور بيزنطة لتنفيذ أغراضه، مُستغلاً - فى ذلك - مطامع بعض الأساقفة وطموحهم إلى الجاه والنفوذ والسلطان، وصل بها الأمر - فى ذلك الزمن - إلى أن أصبحت أداة تكفير وحرم وفصل ومعاداة للإصلاح، بعد أن كانت أداة بناء. مما فتح الباب على مصراعيه للخصومة والشقاق بين المسيحيين فى البلاد المختلفة؛ واستمر هذا النحو من الاستغلال السيئ للمجامع، فى القرون الوسطى، وبعد الانشقاق الكبير الأول للكنيسة الغربية الرومانية عن الشرقية،

ويعد الانشقاق الكبير الثانى للكنائس البروتستانتية عن الكنيسة الرومانية؛ حيث كثيراً ما كانت وسيلة بيد البابا للحكم على مخالفيه فى الرأى، أو خصومه الفكريين، وحرمهم، أو الحكم عليهم بالهرطقة والحرق!

هذا؛ ولكن الحركة الإصلاحية فى بوهيميا لم تنته بحرق «هوس»؛ لأن البوهيميين الذين عضدوه قبل المجمع وفى زمان انعقاده، هبُّوا - بعد موته، بإجمالهم تقريباً - ضد كنيسة روما.

وقد سارت القضية على الصورة الآتية: أتباع «هوس» المدعون هُوسيُّون أدخلوا عندهم بموافقته مناولة العلمانيين تحت الشكلين. وعندما رفض مجمع كُونستانس - بعد حرق هوس - هذه المناولة، واعتبرها هرطقية، قرروا الحصول على الكأس بقوة السلاح. وانضمَّ إلى الهوسيين كثيرٌ من البوهيميين والوطنيين والأشراف بقيادة يوحنا جيشكا. فتحصن على أحد الجبال مع أربعين ألف من الأتباع، مسمياً هذا الجبل ثابور. (من هنا؛ دعى الهوسيون تابوريتى). وبدؤوا نضالاً قاسياً مع المدافعين عن الكنيسة اللاتينية.

فامتد النزاع - بسرعة - إلى مسافات واسعة. فى سنة ١٤١٩م، مات ملك بوهيميا فينتسيسلاس، فخلفهُ الإمبراطور سينفرموند، لكنَّ البوهيميين رفضوا مبايعته لأجل خيانته فى قضية «هُوس». وعلى هذه الصورة؛ نهضت كلُّ بوهيميا. فأرسل البابا مارتين الرابع Martin IV عدة حملات صليبية إلى بوهميا، لكنه لم ينل شيئاً؛ لأن الهوسيين تمكنوا من دحر كل تلك الهجمات بنجاح. وألقى قائدهم الثانى (منذ سنة ١٤٢٤م) بروكوب الكبير - بإنتصاراته على الصليبيين - الرعب فى البلاد المجاورة.

هكذا كانت الأحوال قبل افتتاح مجمع بازيل (سنة ١٤٣١م) الذى أخذ على عاتقه - بين القضايا الأخرى - الاهتمام بمصالحه الهوسيين مع الكنيسة عن طريق المفاوضات والتنازل. وقبيل هذا الوقت؛ انقسم الهوسيون فى أرائهم الإصلاحية إلى فريقين: فالفريق الأول - وهو الأكثر اعتدالاً - وافق على الاتفاق

مع الكنيسة، شريطة أن تصير المناولة تحت الشكلين، ويسمح بالوعظ باللغة الوطنية، وتؤخذ من الإكليروس الأموال الكنسية، ويحالون إلى محاكمة كنسية صارمة. وعرف هؤلاء الهوسيون باسم كالكستينيين (من الكأس كاليكس) واوتراكفيست (من كلمة اثنين). أما الهوسيون الآخرون (تابوريت)، الذين ساروا بعيداً أكثر فى مخالفتهم ومحادتهم ضد كنيسة روما؛ فطلبوا - فضلاً عن ذلك - إزالة احترام الأيقونات، وإلغاء سرّ الاعتراف، وما أشبه. فدعا مجمع بازيل نوّاباً هوسيين لأجل المفاوضات فى الأمر، فحضروا سنة ١٤٣٣م، وعددهم ثلاثمائة، فلم تُحرز المفاوضات الطويلة نجاحاً. فرجع الهوسيون أدراجهم. فارسل المجمع فى أثرهم سفارة مع عرض التنازل، أعنى أن المجمع اتفق على إتمام أربعة من مطالب الكلكستيين، ولهذا؛ انضمَّ هؤلاء إلى الكنيسة، وإن كانوا لم يستفيدوا مدة طويلة من التساهل المتفق عليه. وفى سنة ١٤٦٢م، أعلن البابا بيوس الثانى أن كل التساهلات التى أعطاها مجمع بازيل للهوسيين غير نافذة. وبعد هذا؛ صار الكلكستيون يتناولون - سراً فقط - تحت الشكلين (أى يتناولون الخبز وكأس الخمر فى العشاء السرى)؛ أما التابوريون؛ فرغم بعض التنازلات الجزئية التى قدمها مجمع بازيل لهم ظلوا أعداء ألداء للكنيسة. ولكن؛ لما انتصر عليهم الجنود الكاثوليك فى سنة ١٤٣٤م، انتصاراً باهراً اضطروا إن يخلدوا إلى السكينة. وبعد ذلك؛ أىّ فى نحو سنة ١٤٥٠م، شكل الباقون منهم جمعية صغيرة باسم الإخوة البوهيميين والمورافيين، التى رفضت استعمال السلاح، واجتهدت فى بناء حياة أعضائها فى هدوء الانفراد، على أساس العليم الإنجيلى الصحيح. فانتشرت هذه الجمعية - بنوع خاصٍّ - فى القرن السادس عشر، فصارت متساوية مع الجمعيات الدينية الأخرى التى ظهرت على أساس الإصلاح.

الراهب سافونارولا الإيطالى شهيد آخر للإصلاح

ظهرت محاولة جريئة أخرى لإصلاح الكنيسة فى إيطاليا نفسها، وقريباً من البابوية ذاتها. فقد برز فى فلورنسا، عام ١٤٩٠م، مُصلح كنسى هو الراهب الدومينكانى. «غيرولامو سافورنارولا» Girolamo Savonarola. كان

«سافونارولا» إنساناً ذا حياة صارمة، لكنّه حادُّ الطبع، ومتهور. وفى زمانه؛ ابتدأ الاجتهاد فى إيطاليا فى درس الفلسفة الكلاسيكية القديمة لقدماء اليونان الوثنيين، الأمر الذى أحدث تأثيراً مهلكاً على أراء الإيطاليين الدينية. وقادت الأراء الوثنية المختلطة بالأراء المسيحية المجتمع الإيطالى إلى وثنية جديدة (كلاسيكية). وتعقد المفهوم الدينى بهذا المقدار فى روما، حتى اختلط - غالباً - المسيح بالإله «مبركورى»، والمادونا مع فينيرا. وأقيمت طقوس دينية لإكرام فيرغيلى وغوراتسى وأفلاطون وارسطو. حتى أن الكرادلة والأساقفة نظروا إلى الإنجيل كنظرتهم إلى ميثولوجيا يونانية (أسطورة). فراع انتشارُ الكُفْر - مع فساد أخلاق البابوية والإكليروس وكل المجتمع الإيطالى - الراهب الصارم «سافونارولا»، ودعاه للقيامه بنهضة إصلاحية. ورأى أن الوسيلة الوحيدة لأجل تغيير كل شرور المجتمع الدينية والأخلاقية هى إقامة الأخلاق الصالحة بقوة الإيمان، والنعمة فى المحيط الإكليركى، وبواسطته فى محيط كل المجمتع؛ حيثُ أنه إذا صلح العلماء - أى صلح الإكليروس (رجال الدين) - صلح الناس بصلاحهم. لذا؛ قرر إدخال هذا الإصلاح بنفسه فى الوعظ، وإقامة أنظمة الحياة الكنسية الصارمة. وقد أرسلته رهبانيّته فى سنة ١٤٩٠م، إلى مدينة فلورانسا بصفة واعظ.

فبدأ «سافونارولا» يُوبِّخ البابويَّة والإكليروس والمجتمع، من على المنبر الكنسى، مُدهشاً - فى الوقت ذاته - سامعيه بإخباره عن تنبؤات عن غضب الله الذى سيحلُّ وشيكاً على إيطاليا؛ لأجل عدم إيمان السكان، وبعدهم عن التقوى، وكفرهم. فأحد «سافونارولا» تأثيراً خارق العادة على الشعب بصرامة عيشته، وفصاحته المدهشة المتحدة بالحيوية والتهديدات التنبوية. فخضع سكان «فلورانسا» له كخضوعهم لنبى، وكانوا على استعداد لإتمام كل ما يأمرهم به. فأدرك البابا ألكسندر السادس (سنة ١٤٩٢ - ١٥٠٣م) أى خطر يهدد البابوية بسبب مواعظ «سافونارولا»، وأراد أن يجذبه إلى جهته. وعرض عليه - سراً - الكردينالية - بواسطة شخص موثوق، لكنَّ «سافونارولا» رفض من على المنبر

الكنسى أمام سامعيه ما عرضه عليه، وأخذ يهاجم - بقوة أشد - فساد أخلاق البابوية. ولمّا وثق «سافونارولا» من خضوع أهالى «فلورانسا» لدعوته، أقام - قبل كل شيء - فى المدينة حكومة دينية إلهية مسيحية، على غرار الحكومة الدينية فى اليهودية، وأعطى لنفسه دور القاضى الإسرائيلى، ثم شرع بإصلاح آداب الإكليروس والشعب الفلورانسى، فرتّب أصواماً خاصة، وتوبة علنية، وصلوات عامة، وأخرج الأغانى الدنيوية الفاسقة من الاستعمال البيتى، وأبدلها أناشيد الخدمة الإلهية، وذم التبرج، وجمع الصور من بيوت السكان، والكتب العلمانية، والأدوات الموسيقية، وحرقها كلها فى الساحات باحتفال، وما أشبه. وعلى هذه الصورة؛ أخضع «سافونارولا» - بجاذبيته الصارمة - «فلورانسا» عدّة سنوات، لكنه لم يبلغ إلى إصلاح الأخلاق، فالإكليروس الفلورانسى الذى خضع له مرغماً، كان له خصماً.

وتكوّن فى المحيط الفلورانسى حزبٌ غيرُ راضٍ عن طريقة الحياة الصارمة التى أدخلها «سافونارولا». فاستغلّ البابا هذا الاستياء، وقام فى سنة ١٤٩٧م، بفصله عن الكنيسة كهرطوقى. فقوى الحزب المخاصم له فى «فلورانسا»، فسجنه، وسلّمه للملكة، وفى سنة ١٤٩٧م، حُكم عليه بالإعدام كهرطوقى ومضلل للشعب، فأعدم حرقاً بالنار!

لقد قام «سافورنارولا» - فى أول الأمر - كمصلح كنسى فقط، ثم مزج - بعد ذلك - السياسية بعمله، وظهر فى دور خطيب شعبى، فأثار غضب أولياء الأمور والدنيويين عليه، فانتقموا منه، وقضوا عليه. هذا؛ وقد تحقق الكثير من نبوءات «سافونارولا» التى كانت تختصُّ - غالب الأحيان - بالحوادث التى لا مفر منها، والقريبة جداً، ولكنه قال بنبوءات فاشلة أيضاً؛ كنبوءته مثلاً عن ارتداد الأتراك القريب إلى المسيحية.

ثانيا: ثورة مارتن لوثر ضد كنيسة روما وانتشار دعوة الإصلاح فى ألمانيا

فى القرن الخامس عشر؛ وصل الاستياء العام من الكنيسة الرومانية ومن جشع وتسلط باباواتها ومفاسدها العديدة فى العالم المسيحى الغربى؛ كضربها الفرائض الباهظة، وقتلها وحرقها للمعارضين والمصلحين بتهمة الهرطقة، وحجرها على العقول فى فروع العلوم الطبيعة، وتحريمها قراءة الإنجيل إلاَّ باللغة اللاتينية التى لا يعرفها عامة الناس، وتحريمها الزواج على كل القساوسة والرُّهبان، وصل الاستياء من هذه الأمور وأمثالها إلى ذروته، وكانت مهزلة بيع صكوك الغفران لتأمين النفقات الباهظة، والبذخ فى بناء كاتدرائية القديس بطرس فى روما بمثابة القشة التى قصمتْ ظهر البعير، وكان أول من علا صوته ضد هذا الإجراء وضد سائر انحرافات الكنيسة البابوية هو الراهب الأوغسطينى الألمانى، دكتور اللاهوت مارتن لوثر Martin Luther الذى تحولت احتجاجاته وانتقاداته إلى حركة ألهبت ألمانيا، وانتشر لهيبها إلى البلدان المجاورة، مؤسسة لحركة مفصلية فى تاريخ الكنيسة، أدت إلى انفصال جزء كبير من العالم المسيحى فى أوروبا عن كنيسة روماه الغربية الكاثوليكية؛ لتوجد ما صار يعرف باسم الكنائس البروتستانتية. فمن هو هذا المصلح؟ وما قصَّة دعوته الإصلاحية التى تجاوز تأثيرها البروتستانتية وحتى النصرانية نفسها، إلى التأثير على مناحى من الحياة الأوروبية بشكل عام؟!

ولد مارتن لوثر سنة ١٤٨٣م، فى مدينة آيسليبن الصغيرة فى سكسونيا، وسط ألمانيا (ومات فى نفس هذه المدينة ١٥٤٦م)، فى أسرة فقيرة من الفلاحين، كان أبوه يعمل فيها عامل منجم نجاس. رباه والداه بصرامة، ما كان يخفف من غلوائها سوى الحب، ثم تلقى تعليماً جيداً فى «ماغدبورغ» وآيزناخ، فنال شهادة البكالوريوس فى الآداب من جامعة إرفورت سنة ١٥٠٢م، ثم شهادة الماجستير فى الفنون الحرة سنة ١٥٠٥م، ودرس - أيضاً، ابتداء من عام ١٥٠٥ -

القانون، حسب رغبة والده، الذى كان يبغى توجيه ذلك الابن الموهوب فى طريق اليُسر والمكارم، لكنّ؛ بعد أن سار لوثر فى هذه الوجهة الجديدة بوقت قليل، نذر أنْ يدخل الدير تحت وقع الرُّعب الذى انتابه فى أثناء عاصفة كاد أنْ يهلك فيها، وهكذا انتسب ـ فى سنة ١٥٠٥م ـ إلى رهبانية القديس أوغوسطينوس التى كانت من الرهبانيات الفقرية (أى رهبانيات الصدقة)، وقد تصرَّف لوثر على هذا النحو كرجل من العصر الوسيط الكاثوليكى عاش على الدوام فى أوساط تقوية؛ سواء فى البيت الأبوى، أو فى أثناء الدراسة، ولم تؤثر فيه لا الفلسفات الهرطوقية أو الشكية، ولا النزعة الإنسانية العصرية، بل كان يعتمد فى صدره إيمانٌ عميقٌ براء من كل شك، وعندما دخل الدير طلباً لحياة من الاتصال الحميم بالله وللقداسة، ما كان يفعل، مثله مثل الكثيرين ممن تقدموا عليه، سوى إتباع كنيسته، وقد تقيَّد أتمَّ التقيد بالنظام الداخلى لرهبانيته، وبالتوجيهات التى كانت تعطى إليه فى الاعتراف، وغالى كل المغالاة فى التقشف والزهد، لكنه لم يفز بالسلام، وبعد سيامته كاهناً فى نيسان ١٥٠٧م، وحصوله على درجة البكالوريوس فى الكتاب المقدس سنة ١٥٠٩م، عين مدرساً للاهوت، وأتاح له تبحره فى فكر القديس أوغوسطينوس، ثم الكتاب المقدس، أن يدرك سبب قلق نفسه، فقد علموه أن يولى أعماله الصالحة أهمية أكبر مما ينبغى، والنعمة الإلهية أقل مما ينبغى، مع أن هذه النعمة هى المصدر الوحيد لغفران الخطايا، ويفرح متتام مستمد من كلام الإنجيل المحض، فطن إلى أن طريق اليأس والقلق الروحى صار بالنسبة إليه مساراً شاقاً، وأن خلاص النفس لا يتم إلا بنعمة الله نفسه، وحسب.

بعد الخيبة التى عادت بها عليه دراسة اللاهوت المدرسى، جاءت الانطباعات المنفِّرة التى رجع بها من روما عندما زارها بين عامى ١٥١١ و ١٥١٢، فقد ذهب إلى روما بحثاً عن شهداء وغفرانات سمحة، فما وجد أمامه سوى روما البابوية الدنيوية لعصر النهضة، وبعد ذلك بقليل، وبعد نيله شهادة الدكتوراه فى الكتاب المقدس ـ حصل فى عام ١٥١٢م، على كرسى الكتاب المقدس فى جامعة فيتنبرغ

(ويتمبيرج Wetenberg) الناشئة، التى كان أعطى فيها بعض الدروس فى عامى ١٥٠٨ ـ ١٥٠٩م، وقد خلف فيها المدير العام لرهبانيته «شتاوبتز» الذى كان له خير سند فى صراعاته الروحية، كما ألقى فيها سلسلة من الشروح على المزامير (١٥١٣ ـ ١٥١٥)، وعلى الرسالة إلى أهل روما (١٥١٥ ـ ١٥١٦)، وعلى الرسالة إلى أهل غلاطية (١٥١٦ ـ ١٥١٧)، وعلى الرسالة إلى العبرانيين (١٥١٧ ـ ١٥١٨)، ومن خلال تلك الشروح؛ أرسى لوثر أسس لاهوته، الذى سماه لاهوت الصليب، وتابع فيه خط القديس أوغوسطينوس، وبعد أن أذاعت تلك الشروح صيتهُ، ساور مارتن لوثر الأمل فى عام ١٥١٧م، بتجديد اللاهوت بالتقدم بقضايا مناوئة للمدرسيين، لكنه لم يلق أى صدى.

لذلك كانت مفاجأته كبيرة إزاء الوقع الشديد والزوبعة التى أحدثتها القضايا الـ٩٥ حول براءات الغفران التى علقها فى ٣١ تشرين الأول ١٥١٧م، على باب كنيسة قصر فيتنبرغ، وهاجم فيها متاجرة الكنيسة بصكوك الغفران، وذلك بمناسبة افتتاح مناقشة أكاديمية، فقد نكأ بقضاياه جرحاً كان كثير من المثقفين واللاهوتيين قد شكوا منه قبل، فعن طريق بيع صكوك الغفران الصادرة عن روما كانت الإدارة البابوية تسد الحاجات المالية الكبرى التى نشأت عن بناء كاتدرائية القديس بطرس، وقد أقبل الشعب على شرائها؛ إذ دخل فى اعتقاده أنه من الممكن افتداء الخطايا بالمال.

وتقاطرت الردود بين إيجاب وسلب على لوثر، فكانت مناسبة لتوضيح فكره فى رسالته «تعليقات على القضايا الـ ٩٥» (١٥١٨م)، وقد أهدى هذا النص، الذى كان أخضعه لرقابة أسقفية مسبقاً، إلى البابا ليو العاشر Leo X بأمل أن يقتنع البابا منه، ويضع حداً لذلك الشطط فى بيع الصكوك، لكن أساقفة ماينتز أقاموا عليه فى روما دعوى هرطقة. وتدخلت اعتبارات سياسية (انتخاب شارل الخامس إمبراطوراً فى عام ١٥١٩) لتؤخر إصدار قرار بالحرم إلى عام ١٥٢٠، حين أعلن البابا ليو العاشر الحرمان الكنسى بحق لوثر من شركة المؤمنين، وطرده من سلك رجال الكنيسة، واعتباره هرطوقياً خارجاً على

الكنيسة! وفى أثناء ذلك؛ دارت فى «لايبتزغ» مساجلة بين «يوهان إيك» و«مارتن لوثر»، فكانت مناسبة لهذا الأخير ليعى مدى خطورة الشكوك التى تنتابه بصدد مؤسسة البابوية بالذات، وليجد نفسه منقاداً إلى تصور جديد للكنيسة؛ بحيث تشاد ـ حسب تعليم العهد الجديد ـ لا على مبدأ التّسلسل الهرمى، بل على أساس وحدة المؤمنين. وقد عرض أفكاره الجديدة فى رسالته فى حرية المسيحى (١٥٢٠)، ثم فى كتاباته الإصلاحية، وبخاصة فى خطابه إلى النخبة المسيحية للأمة الألمانية (١٥٢٠)، وفى الأسر البابلى للكنيسة (١٥٢٠) الذى ضمّنه تحليلاً نقدياً واسعاً لتعليم كنيسة روما بصدد الأسرار المقدسة. فلوثر ما عاد ـ من جهته ـ يعترف إلاّ بالأسرار التى ورد ذكرها بالاسم فى العهد الجديد؛ أى سرّ المعمودية، وسرّ القربان فقط لا غير.

قسّمت هذه الكتابات الأراء فى ألمانيا، لكنها وجدت لها أنصاراً كُثُراً فى الأوساط الشعبية، كما فى أوساط العلمانيين (غير رجال الدين)، وأوساط الكهنة والرهبان. فما زادت الكنيسة إلاّ تصميماً على محاربة لوثر. فبعد حرمانه الكنسى من قبل البابا، طلب الإمبراطور تشارل الخامس من لوثر الرجوع عن أرائه، فرفض ذلك، فوقع الإمبراطور وثيقة إدانة له تعتبره خارجاً على القانون، وتبيح دمه، ولكنّ أمير سكسونيا بسط عليه حمايته، واستمرّ لوثر فى الدفاع عن أرائه التى انقسم الناس حولها بين عدوٍّ مُخالف، ومُناصرٍ مُوافقٍ له اتخذ أراءه أساساً لحركة الإصلاح الدينى.

وبما أنه لم يعد فى وسع لوثر ـ بعدئذٍ ـ أن يجازف بالاعتقال، وربما حتى بالتعذيب، فقد اختبأ فى فارتبورغ، قرب ايزناخ، تحت حماية الدُّوق الكبير فريدريك الحكيم، أمير إقليم السّاكس، الذى أراد إنقاذ حياته، وإنْ لم يكن من تلاميذه. وهناك كَتَبَ القدّاس الخاصّ والنُّذر الرهبانية (١٥٢١)، وترجم العهد الجديد (١٥٢٢) إلى اللغة الألمانية الشّعبيّة، عاملاً ضد تلك الحقيقة التى كانت تُسلِّم بها الكنيسة، والتى تقول إنه خير للمرء الا يقرأ الكتاب المقدس من أن يقرأ بلغته الأمّ! وقد أسهم لُوثر بترجمته تلك مساهمة كُبرى فى تطوُّر اللغة

الألمانية الحديثة، وتحقيق الوحدة العقليّة لأبنائها، وفى زَرْق الشعر الألمانى بقوى لا ينضب لها معين، وقد كان لدور لُوثر فى تاريخ المُوسيقى - أيضاً - الأهمية نفسها، التى كانت لإسهاماته للأدب الألمانى واللغة الألمانية، وقد كسب لوثر لحزبه كثرة من الأمراء الألمان ممن وجدوا - أيضاً - فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة الرومانية الكثيرة فى بلادهم طمعاً مغرياً.

حملت الأراء التجديدية المتطرفة - التى روج لها بعض الغلاة من تلاميذ لُوثر فى فيتنبرغ - هذا الأخير على مُبارحة ملجئه ضد مشيئة الدّوق الكبير، وبعد أنْ أقرَّ الهدوء من جديد، قضى السنوات التالية فى إرساء أسس الجماعة المؤمنة الجديدة، التى وضع لها قداساً باللغة الألمانية فى كتابه القدّاس الألمانى (١٥٢٦)، كما أنه وضع فى كتابه فى السلطة الزمنية وحدود الطاعة الواجبة لها (١٥٢٣) حجر الزاوية فى النظرية اللوثرية عن الدولة: الطاعة فى المسائل الزمنية، وإنما العصيان والمقاومة متى ما تدخلت الحكومة المدنية فى شئون الاعتقاد والضمير.

بيد أن لوثر ما لبث - فى زمن لاحق - أنْ مال إلى التشدد فى تعليمه عن السلطة، ولاسيما فى أثناء «حرب الفلاحين» (١٥٢٥) التى عارض فيها - بقوة - الفلاحين الثائرين، قائلاً لهم كلمته الشهيرة:

«تقولون (المخاطبون هم الفلاحون الثائرون) إنه لا يجوز أن تكون هناك عبودية؛ لأن يسوع المسيح جعلكم جميعاً أحراراً، لكن: ألا تكونون بذلك قد جعلتم من الحرية المسيحية حرية جسدية؟ إن القرن المسيحى يمتلك الحرية المسيحية.

على أنه لا يجوز لنا أن نفسر مواقفه هذه، بازدراء مزعوم لمطالبهم الاجتماعية (التى كان يعتبرها - على العكس مُبرَّره فى أكثرها) وإنما سببه كون الفلاحين خاضوا غمار تلك الثورة الدموية باسم المسيح - وقد بدا لوثر - بمكافحته هذا التحوير السياسى للإنجيل - حليفاً للأمراء، على الرغم من أنه

كان نـدُّد ـ بقـوة ـ بنزوعـهم إلى الظلم والإجحـاف، ومما عـزّز ـ أيضـاً ـ ذلك الانطباع طلبات المسـاعدة التي وجهه لوثر إلى الأمـراء لإعـادة تنظيم الكنيسـة، ومع أن لوثر لم يفكر ـ إطلاقاً ـ بأن يجعل من الأمراء قادة للكنيسة، نظير ما آلت إليه الحال في التاريخ اللاحق للوثرية، فقد بدأ أن لوثر انتقل من موقف ثوري إلى موقف محـافظ وسلطوي، ولكن؛ هذا ظاهر الأمـر ليس إلا، أمـا الحقيقة، فهي ـ فقط ـ أن لوثر كان ـ في كل زمان وآن ـ عدواً للثورة العنيفة، بيد أنه لم يشـأ ـ قطُّ ـ أنْ يخلط بين الكنيسـة والدولة، ولا أن يمنح الدولة حقوقاً على اعتقاد المواطنين وضميرهم.

كان على لوثر ـ في أثناء سنة حرب الفلاحين نفسها (١٥٢٥) ـ أنْ يرسم في مضمارين آخرين حدود فكره، فقد كان إراسموس ـ الذي يعدُّه الكثيرون نصيراً للوثر ـ هاجمه في المحاولة في حرية الاختيار (١٥٢٤)، فأجابه لوثر في رسالة عبودية الاختيار (١٥٢٥)، وهذا الكتاب الفني بالدلالة الروحية ـ غالباً ـ ما أسيء فهمه؛ فلوثر ليس جبرياً، وليست المسألة «الفلسفية» المتعلقة بحرية الاختيار هي ما يطرحه، وإنما المسألة الدينية، فهو يرى في الخطيئة استلاباً للحرية الإنسانية، وفي النعمة ـ وحدها ـ انعتاقاً لها، وفي ذلك العام نفسه؛ افترق لوثر ـ في رسالته الرد على الأنبياء السّماويين ـ عن المتصوفة الروحيين (التيوزوفيين)، من أمثال كاليشتات، وتوماس مُونذر، إلخ.. ممن كانوا يطلبون الوحي الإلهي، لا في الكتاب المقدس، وإنما في الكشف الروحي، والإشراق الداخلي.

في السنوات التالية أخيراً؛ اندلعت المناظرة الكبرى حول العشاء السري مع المصلحين البروتستانتيين السويسريين، أولريخ (أو هولدرايخ) زفينغلي (أوزوينغلي) Urich or Huuldreich Zwingli (١٤٨٤ ـ ١٥٣١) وأوكـولامـبـاد وأنصارهما من الألمان الجنوبيين، فعلى حين لم يجد هؤلاء في طبيعة القربان المقدس (أي العشاء السري، أي الأفخاريستيا)؛ أي سر خاص سوى المعنى الرمزي، أصر لوثر بعاطفة مشوبة ـ وعلى الأخص في رسالته حول العشاء السري (الأفخاريستيا) السري (١٥٢٨) ـ على الحضور الواقعي للمسيح، ولم

تؤدِّ مساجلة ماربورغ الدينية فى عام ١٥٢٩ إلى أيّة تسوية، وما أمكن التوفيق بين الألمان الجنوبيين وألمان فيتنبرغ إلا فى عام ١٥٣٦م، بفضل جهود مارتين بوسر بوجه خاص، على حين بقى إنشقاق سويسرا بل حلّ(١).

على أن مجهود لوثر الرئيسى انصبَّ على متابعة تعاليمه النظامية حول الكتاب المقدس، فقد اجتمع طلبة، قدموا من جميع أنحاء أوروبا، حول كُرسيّه وكُرسى ميلانختون Melanchthon، وتجلى اهتمامه بتربية الشبيبة فى ندائه إلى أعضاء المجلس، أنه يتوجب عليهم إنشاء مدارس مسيحية (١٥٢٤)، وتجلى ذلك ـ على الأخص ـ فى كتابه الشهير «التعليم المسيحى الأصغر» (١٥٢٩)، الذى بقى إلى يومنا هذا الكتاب المدرسى الكلاسيكى للتعليم الإنجيلى، ثم كتب لأجل أرباب الأسر والمعلمين فى المدارس «التعليم المسيحى الأكبر» ١٥٢٩، الذى ضمَّنه خلاصة تعليمه، وعمل على تميل القداس بكتابته «أناشيد مقدس» (١٥٢١ ـ ١٥٢٨)، تولى بنفسه تلحين بعضها، نخصُّ بالذكر منها: «إنِّى آت من أعالى السماء»، و«من قاع شدتى أهتف إليك»، أو كذلك نشيد الإيامن الله حصننا (١٥٢٩)، وهكذا دشَّن لوثر تقليداً شعرياً دينياً ستأخذ به الكنيسة الإنجيلية على مدى قرون عدة، وأخيراً؛ تابع العمل فى ترجمة الكتاب المقدس، وتجلى فنه الأدبى فى الأقسام الشعرية من العهد القديم، وبقى حتى اخر ايام حياته ينقح ذلك العمل الكبير.

من وجهة النظر السياسية؛ لم يرغب لوثر فى قيام تحالف عسكرى من الأمراء ضد الإمبراطور، ولكنْ؛ عندما هدد الأتراك شارل الخامس طالب لوثر بأن تهب كل الدول البروتستانية لمساعدته، وعندما هاجم البابا الإمبراطور، وقف المصلح إلى جانب هذا الأخير فى نص له بالغ الحدة: الرد على بابوية روما (١٥٤٥)، كما برز رفضه لقاء البابا فى أحد المجامع فى كتاب بعنوان (فى المجامع وفى الكنيسة) ١٥٣٩، وهو الوثيقة الأبلغ دلالة على علمه الكنسى.

وفيما يلى؛ شهادات بعض المفكرين الألمان الكبار بشأن لوثر، تُلقى مزيداً

---

(١) كان للبوهيميين صوت واحد، وللنمساويين والبولونيين ثلاثة اصوات.

من الضوء على الأثر الذى تركه فى ألمانيا والمسيحية بشكل عام:

ـ «كان لوثر زوجاً ورب أسرة ملؤه الحنان، وقد تزوج فى عام ١٥٢٥، لا بداعى العاطفة وإنما ليضرب لأنصار قدوة. وكان صديقاً وفياً لأصدقائه، وعدواً لدوداً لأعدائه. وكان يجهل اللامبالاة والحكمة والدبلوماسية، وكان ميالاً إلى الكآبة وإلى المزاح معاً، وكانت وفاته عام ١٥٤٦، فى أيسلبن، مسقط راسه، وقليل من الرجال من أحدثوا ما أحدثه من تغيرات فى العالم، وما ذلك، لا بالعلم، ولا بالقوة العسكرية، بل بقوة الإيمان، وبالجد الذى أعاد به طرح مسألة الله، والمبدأ الإنجيلى، ولأن الكنيسة أدانته بدون أن تفهمه، تمخَّض إصلاح الكنيسة الذى كان يجاهد فى سبيله عن انشقاق كبير فى المسيحية، وليست الكنائس الجديدة هى ـ وحدها ـ التى انبثقت عن إصلاحه، بل إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها أفادت منه، وفيما وراء حدود الدين الخالص، كان له دور كبير فى إدخال شطر واسع من العالم إلى عصر جديد، فانطلاقاً من حرية الإيمان الشخصى التى رفع لواءها؛ بدأت بالنماء والتفتح حضارة قائمة على الشخصية والضمير والحرية (من نصٍّ للمفكر الألمانى: هاينريغ بورنكام).

ـ «كان لوثر وطنياً كبيراً، وقد عرف ـ منذ زمن طويل ـ بأنه مربى الأمة الألمانية، ومصلح أوروبا المستنيرة كلها، وحتى الشعوب التى لم تعتنق مذهبه الدينى قطفت ثمار إصلاحه، فقد هاجم الاستبداد الروحى الذى كان يخنق كل فكر حر وصحيح، وأعاد إلى الشعوب قاطبة ـ كما لو أنه هرقل حقيقى ـ الحاجة إلى العقل، وعلى الأخص: فى مضمار الأشياء الأكثر صرامة: أى الروحيات: (هردر).

ـ «ما صار الألمان شعبنا لأول مرة إلا بلوثر... وإننا لا نكاد نفكر بكل ما ندين به للوثر ولحركة الإصلاح، فمن سبيلها انعتقنا من أغلال الظلامية، وصرنا قادرين على تطوير ثقافتنا الخاصة، وعلى العودة إلى الينابيع. وعلى البلوغ إلى المسيحية فى نقائها». (الشاعر الألمانى الكبير: غُوته Goethe).

- «إنه لمن الأهمية الأزلية أن يكون الشعب - بالترجمة اللوثرية للكتاب المقدس - قد حصل على كتاب فى متناوله يستطيع أن يجد فيه حكمة أزلية، وحساً عظيماً بالحياة... ولقد قام لوثر بإصلاح كبير فى الكنيسة الكاثوليكية نفسها». (هيغل).

- «نرى لوثر يوجّه سلاحه - دوماً - فى اتجاهين: ضد البابوية التى تحاول أن تستعيد الأرض التى خسرتها، وضد الشيع العديدة التى كانت تهاجم إلى جانبه الكنيسة والدولة معاً... فكيف كان للوثر أن يرضى بأن يقوم - فى المعسكر المناوئ - ذلك الخلط بين العنصرين الزمنى والروحى الذى طالما استفظعه فى البابوية؟..» (رانكة).

ثالثاً: أولريخ زفينغلى السويسرى وبداية الحركة الإصلاحية فى سويسرا

ولد المصلح البروتستانتى السويسرى الشهير أولريخ (أو هولدرايخ) زفينغلى (أو زوينغلى) Ulrich (or Huldreich) Zwingli فى ١ كانون الثانى ١٤٨٤، فى فلدهاوس Wildhouse فى شرق سويسرا. وقتل وهو فى السابعة والأربعين من عمره فى ١١ تشرين الأول ١٥٣١، فى معركة كابل Kappel. نشأ فى وسط تصطرع فيه المصالح السياسية والمدنية. ورباه عمه الخورى تربية كاثوليكية سمحة ومنفتحة على التيارات الإنسانية. وقد تعاظم تثير هذه التيارات عليه عندما غادر منطقته الجبلية ليتابع دراسته فى المدن الكبيرة بازل وبرن وفيينا. وقد تأثر - أيضاً - بكتابات بيكو دى لا ميراندولا، وعلى الأخص برسالتيه: «فى كرامة الإنسان»، و«فى الوجود والوحدة». ولابد - هنا - أن نشير - أيضاً - إلى تأثير ابن أخى الأفلاطونى الفلورنسى (بيكو دى لا ميراندولا)، (جيوفانى فرانشيسكو) مؤلف كتاب «فى العناية الإلهية»؛ إذ يمكن أن نلمس أثره واضحاً فى (العناية الإلهية) لزفينغلى، على أن إراسموس هو الذى ترك فيه أبلغ الأثر، وإن متأخراً.

تخرج زفينغلى عام ١٥٠٦، أستاذاً فى الفنون، وقبل أن يسام كاهناً، عُيِّن - بتوسط من عمه - خورياً لبلدة (غلاريس Glarus)؛ حيث سيمارس كهنوته إلى عام ١٥١٦، وقد ارتحل عنها بعد ذلك ليصير واعظاً فى دير القديسة مريم فى اينسدلن. وكان هذا الدير الشهير محجاً لكل سويسرا وألمانيا الجنوبية لوجود صورة (أيقونة) عجائبية فيه، يزورها شعب كثير للسجود. وبرز زفينغلى لأول مرة أمام الزائرين بصفة مصلحاً، وأخذ يعظ ضد زيارة الأماكن المقدسة، والسجود للأيقونات، وما أشبه، مُبرهناً بأنه يوجد وسيط سماوى واحد - فقط - هو المسيح!

ومن جهة أخرى؛ كان ذلك الدير الذى كان يعظ فيه زفينغلى، ويفضل مُديره (ديبولد فون جيرولدسك)، مركزاً كبيراً للمذهب الإنسانى. وكانت مكتبته الغنيَّة تصلها - حال طبعها فى بال - مؤلفات إراسموس وشروحه على آباء الكنيسة، فكانت تقرأ، وتدرس بتوقير. وكان زفينغلى - الذى تشرف بالتعرف إلى إراسموس سنة ١٥١٥ - شغوفاً بكتابات آباء الكنيسة اللاتينيين، وقد عمل على تجويد معرفته باللغة اليونانية، ووقف بنفسه على دراسة شخصية للعهد الجديد على أساس طبعة إراسموس لعام ١٥١٥، ونسخ رسائل القديس بولس، وعن القديس بولس تحديداً، وكذلك عن القديس أوغوسطينوس، أخذ رؤية شخصية للمسيحية تشبه - فى بعض جوانبها - رؤية لوثر، وإن بقيت مستقلة، وقد تعلم - أيضاً - العبرية، ومال مع إراسموس والآباء الشرقيين إلى تأويل مجازى للعهد القديم، وبدأ يحلم بنهضة إنسانية للكنيسة.

اقترنت مؤهلات زفينغلى العقلية والإنسانية، بوعى سياسى حاد، حدا به إلى معارضة تجنيد المرتزقة فى خدمة الدولة الأجنبية، لما يمثل هذا التجنيد من عواقب وخيمة أخلاقياً، وإن يكن فيه نفع مادى كثير لطبقة النبلاء. وقد رافق زفينغلى - بصفته مرشداً روحياً عسكرياً، قوات غلاريس إلى موقعة نوفارا (١٥١٣)، وإلى موقعة مارينيان (١٥١٥)، وفى أواخر عام ١٥١٨: عُيِّن واعظاً فى كاتدرائية زوريخ، وفى تلك الفترة تحديداً: اندفع فى حملته

الإصلاحية، فقد عارض فى مواعظه - تماماً مثلما فعل لوثر - بيع صكوك الغفران، وأيده - فى معارضته هذه - التقدميون من رجال الدين. وأسقف كونستانتز. وبالفعل: حظرت بقية الكانتونات (المقاطعات) السويسرية فى سنة ١٥١٩، بيع صكوك الغفران، وقرر مجلس زوريخ فى سنة ١٥٢٠ - بناء على مواعظ زفينغلى - بأنه يجب على الواعظين أن يتمسكوا - بشدة - بالتعليم الإنجيلى الصّرف. وراح تأثير لوثر. ابتداء من ذلك التاريخ - يتعمّق، ووجه زفينغلى الإنسانى الإراسمى نحو مواقع إصلاحية أكثر جذرية، وانتهك بعض مواطنى زوريخ - فى حضور زفينغلى وإقراره - صيام الفصح، فوجّه إليهم أسقف كونستانتز Konstanz تأنيباً شديداً، فدافع زفينغلى عن موقفه مؤكداً أن كل قصده كان التأكيد على الحرية المسيحية، وعرض وجهة نظر هذه فى كتيّب بعنوان «فى اختيار الأطعمة وحريتها» (١٥٢٢)، وكانت هذه الحادثة بداية لمطالبات الحزب الإصلاحى، ففى صيف ذلك العام: حرر زفينغلى عريضة تتضمن ٦٧ بنداً أو فقرة، مهرها عشرة كهنة بتواقيعهم، تطالب بحق الزواج لرجال الكنيسة، وبحق الكرز والتبشير بالإنجيل طبقاً لأفكار حركة الإصلاح. وكتب - بعد ذلك، باللاتينية - دفاعاً مفصلاً عن تلك العريضة، وتتلخص المطالب الإصلاحية لزفينغلى بالنقاط الرئيسية التالية:

١ - الكنيسة مولودة من كلمة الله، وراسها الوحيد هو السيد المسييح.

٢ - قوانين الكنيسة ليست ملزمة؛ إلا إذا اتفقت وانطبقت مع الكتاب المقدس.

٣ - تبرُّر الإنسان هو بالمسيح فحسب.

٤ - الكتاب المقدس لا يعلم حضور المسيح الفعلى الحقيقى ضمن الخبز والخمر المتناولين فى العشاء السرى، والخبز والخمر ليسا سوى علامات - فقط - تذكرنا بآلام المخلص، و تستخدم لأجل تمتين إيماننا فى حقيقة الفداء.

٥ - إجراء القداس بالطريقة والمفهوم المعمول به إهانة كبيرة لتضحية وفداء وموت السيد المسيح. وبهذا؛ يكون زفينغلى قد أقصى - بحزم - كل طقس

من الخدمة الإلهية.

٦ ـ لا يوجد أى مستند فى الكتاب المقدس لوساطة القديسين، أو شافعة الموتى، ولا لتقديس التماثيل، والصور، والأيقونات، وتعظيمها، والحج إليها، وعد زفينغلى إكرام الأيقونات مُساوياً لعبادة الأصنام.

٧ ـ لا مستند فى الكتاب المقدس لعقيدة وجود المطهر Purgatory الذى يكون بين الجنة والنار.

٨ ـ الزواج يجب أن يكون متاحاً للجميع، بمن فيهم رجال الكنيسة.

وقد أقدم زفينغلى ـ كترجمة لقناعاته الفكرية إلى أفعال عملية ـ على الزواج ـ سراً ـ من «آنا راينهارد»، ثم بعد عامين؛ أعلن عن هذا الزواج جهاراً، وكانت «آنا» أرملة، وأمّاً لأحد تلاميذه، ثم أحرزت حركة الإصلاح فى زوريخ نصراً حاسماً على إثر المنافسات العامة التى دارت فى ٢٢ كانون الثانى ١٥٢٢، و٢٦ و٢٨ تشرين الأول من العام نفسه، وقد قدم زفينغلى فى المناقشة الأولى سبعاً وستين قضية، نشرها بالألمانية تحت عنوان «عرض القضايا وأدلتها» ١٥٢٣. أما مؤلفه الرئيسى «فى الدين الحق والكاذب»؛ فصدر عام ١٥٢٥.

وابتداءً من تلك الأعوام؛ توحَّدت سيرة زفينغلى مع أحداث حركة الإصلاح البروتستانتى فى زوريخ وسويسرا الألمانية، وصرح سكان زوريخ علناً بأنهم مع الإصلاح. وفى سنة (١٥٢٤ ـ ١٥٢٥)؛ أدخل الإصلاحيون عندهم تنظيماً كنسياً جديداً: ألغوا فيه خدمة القدّاس، وأدخلوا فى الخدمة الإلهية اللغة المحلية، وأخرجت الأيقونات من الكنائس، وتحولت أديرة الرهبان إلى مدارس ومؤسسات خيرية.. إلخ، وانتشر إصلاح «زفينغلى» الكنسى إلى أماكن أخرى فى سويسرا، فضلاً عن زوريخ؛ مثلاً فى بازيل، وبرن، وشافغوزن، وغيرها، وبقيت (ليوتسرن، وشفيتس، وأورى، وغيرها) مخلصة لكنيسة روما؛ لأن الإصلاح الكنسى مسَّ مصالحها السياسية، وبسبب ذلك؛ حدث بين الإصلاحيين والكاثوليك مخاصمات أدت إلى اصطدامات مسلحة بين الفريقين.

كان الإصلاح الذى سار فيه زفينغلى ذا طبيعة أكثر جذرية - بمعنى من المعانى - من الإصلاح اللوثرى، سواء من حيثُ تبسيط شعائر العبادة أم من حيث الفكر اللاهوتى الذى، وإن يكن أقل أصالة وعمقاً، فإنه أكثر تجاوباً مع المتطلبات العقلانية للمذهب الإنسانى، ومع الحياة المدنية المكلفة للكانتونات (أى المقاطعات) السويسرية. وقد سعى زفينغلى - بصفته منظماً - إلى نشر الإصلاح فى سويسرا الألمانية، وإلى توحيد قوى الكانتونات (الولايات) البروتستانتية، وإلى عقد الأواصر مع الإصلاح الألمانى: لكنّ! - هنا بالتحديد - باءت محاولته بالفشل، بالنظر إلى الخلاف فى التصور بينه وبين لوثر حول العشاء السرى (الأفخاريستيا) (العقلى والرمزى - فقط لدى زفينغلى، والصوفى والواقعى لدى لوثر)، وقد كرَّست مباحثات ماربورغ (١٥٢٩)، الانفصال النهائى بين الإصلاحيين.

وجاءت مسألة مدّ الإصلاح إلى بعض الأقاليم التى كان فيها للمقاطعات الكاثوليكية والمقاطعات البروتستانتية حقوق مشتركة لتشعل فتيل صدام مسلح بين الكاثوليك والبروتستانت، وبدت على تحالف «برّن» و«زوريخ» البروتستانتى علائم الخور، وترددت القوات البرنية فى نجدة الزوريخيين، ومنى الجيش البروتستانتى Canton الشعبى الصغير، المؤلف من الفين وخمسمائة رجل بهزيمة على أيدى الميليشيات الكاثوليكية فى معركة كابل Kappel فى ١١ تشرين الأول ١٥٢١، وانهزم زفينغلى - الذى رافق الزوريخيين بالخوذة والدرع بصفة مرشد روحى عسكرى - مع المنهزمين، ولقى مصرعه، وجرى التعرف على جثته، فقطعت أوصالها، وأحرقها الجلاد. وكان من نتائج معركة كابل - التى هلك فيها خمسمائة رجل من أكثر مناضلى الإصلاح السويسرى فعاليةً - جمود فى حركة توسعه. وقد نشر - أيضاً - لزفينغلى بعد وفاته عرض مقتضب وواضح للدين المسيحى باللاتينية سنة ١٥٣٦، ونقل عن لوثر قوله عن زفينغلى: «إن موت زفينغلى هو العقاب المستأهل على كبريائه التى لا تُقاس!». وقال عنه «بوسويه»: «لابد من الاعتراف بأنه كان ذا قوة ذهن كبيرة، وما كان ينقصه شىء سوى القاعدة الضابطة التى لا يمكن الحصول عليها إلا فى الكنيسة. وتحت نير

سلطة شرعية». أما فولتير؛ فكان يقول: «عندما أسس زفينغلى المشهور ذاك شيعته، بدا أكثر حماسةً للحرية منه للمسيحية».

رابعاً: حركة اللاهوتى الفرنسى جان كالفن الإصلاحية

بعد وفاة زفينغلى، خمدت ثورته الكنيسة التى أحدثها فى سويسرا الألمانية. ولكن؛ سرعان ما وجد أعلامه آخرون واصلوا مسيرته فى التغيير والإصلاح، وكان أشهرهم غليوم فاريل Guillaume Farel (١٥٠٩ - ١٥٦٤) الذى ظهر فى جنيف سنة ١٥٣٢م، وعمل هنالك بنجاح، جعل السكان فى سنة ١٥٣٥م، يعلنون عن أنفسهم، بحزم، أنهم من مؤيدى الإصلاح. وبدأوا فى السنة التالية يدخلون تنظيماً كنسياً جديداً يتفق وتعليم زفينغلى. إلا أن التنظيم النهائى على مبادئ الإصلاح للجمعية الدينية الجديدة التى نشأت فى سويسرا، كانت مدينة لجهود اللاهوتى الفرنسى فى جنيف القسيس الإصلاحى الجاف المتشدد جان كالفن John Galvin (١٥٠٩ - ١٥٦٤).

ولد جان كالفن فى مدينة نوايون Noyon فى فرنسا عام ١٥٠٩، ومات فى جنيف Geneva فى الجزء الفرنسى من سويسرا عام ١٥٦٤. أراد ذووه أن يدخل السلك الكهنوتى، وأرسلوه فى الرابعة عشرة من العمر إلى باريس للدراسة. فدرس - أولاً - على ماتوران كودييه، أحد مؤسسى علم التربية الحديث، ثم انتقل - بعد ذلك - إلى معهد مونتيغو Montaigue (فرع لجامعة باريس)؛ حيث انحفرت فى ذاكرته دروس أنطوان كورونل فى المنطق، ودروس اللاهوتى الاسمى جان مير. وقد اتصل بالأوساط الإنسانية[1] فى العاصمة الفرنسية، وتعرف العالم الإنسانى الفرنسى الشهير «غوييوم (أو غليوم) بُوده» (١٤٦٧ - ١٥٤٠)

---

(١) الإنسانية Humanism حركة فلسفية وأدبية انطلقت فى إيطاليا، وعمَّتْ غرب أوروبا فى القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين، قوامها التأكيد على قيمة الفرد؛ أى الإنسان وكرمته ومنزلته، وأن الإنسان كائن عاقل ينزع - فى جوهره - إلى الحقيقة والخير. وقد أخذت هذه الحركة فى إيطاليا منحى أدبياً وفنياً، وفى حين توسع مجالها فى سائر دُول أوروبا الوسطى والغربية، لاسيما فرنسا وألمانيا؛ لتأخذ - بالإضافة لذلك - منحى تربوياً ولاهوتياً أيضاً، وكانت وراء انطلاق حركة النهضة الأوروبية Renaissance.

عن طريق أبناء غليوم كوب، طبيب فرانسوا الأول. وأرجح Guillaume Bude الظن أنه سمع - منذ ذلك الحين - بكتابات لوثر وميلانختون، ولكن: بدون أن يزعزع ذلك وفاءه للكنيسة الكاثوليكية. ونحو عام ١٥٢٩ - وكان حصل على درجة الأستاذية فى الفنون - عزف عن اللاهوت، وتوجه - بناء على أمر من أبيه - إلى أورليان Orleans ليدرس القانون على بيير دى لتوال، وهو واحد من خيرة الحقوقيين الفرنسيين فى ذلك العصر. وبعد ذلك بعدَّة أشهر قصد بورج Bourges، وقد اجتذبه إليها شهرة الحقوقى الإيطالى السياتو. وتشرب بالمناهج الحقوقية الجديدة، وتحصلت له معرفة متينة بالقانون الرومانى.

لكن: ظلت الدروس الأدبية تجتذبه. وعليه: صار سيد مصيره غداة وفاة والده (١٥٣١)، تبع فى باريس دروس القراء الملكيين المعينين من قبل فرانسوا الأول. وكان يعمل - آنذاك - فى وضع أول ملفاته، وهو عبارة عن «شرح لكتاب سنيكا فى التسامح» Commentary on Seneca's De Clementia، وقد نشره سنة ١٥٣٢، وفيه اثبت كالفن أنه علامة ضليع من مستوى إراسموس، وبوده. إنه عمل إنسى (Humanistic) أغرته الأخلاقية الرواقية، واستحوذ على اهتمامه المفهوم الرومانى عن السيادة. وسيبقى كالفن - حتى نهاية حياته - وفياً لمنهج الإنسيين، وإلى حد كبير، لروحهم ولإعجابهم بالقدامى. إما هجماته على الإنسيين؛ فستستهدف الموقف الشخصى لبعضهم، ولكن: ليس المذهب الإنسى بحد ذاته.

إن انضواء كالفن تحت لواء الإصلاح الدينى، الذى اقترح له الدارسون تواريخ متباينة جداً، لا يمكن أن يوضع قبل ربيع ١٥٣٤، يوم تنازل عن امتيازاته الكهنوتية. وعن خطأ، فيما يبدو، يُسند إليه الخطاب المشهور الذى ألقاه فى عيد جميع القدِّيسين سنة ١٥٣٣، صديقه الخورى نيقولا كُوب، وكان هذا الخطاب التحريضى يعكس - فى الحقيقة - أفكار الإصلاحيين الكاثوليكيين أكثر مما يعكس أفكار البروتستانتيين. وقد اضطر كالفن - الذى كانت علاقاته بكوب معروف - إلى مغادرة العاصمة، وطلب الملاذ لدى صديقه الكاهن تييه، ثم

قصد بلاط مرغريت دى نافار؛ حيث التقى لوفيفر ديتابل الشهير، وفى أثناء مقدمة الثانى فى أورليان؛ حرر رسالته فى نوم النفوس، وهاجم فيها مذهب بعض القائلين بتجديد العماد، ممن كانوا يدعون أن النفوس تنام بعد الموت، وحتى يوم الحشر.

أخلى التسامح النسبى - الذى كان تبديه الحكومه الفرنسية إزاء «اللوثريين» - مكانه لاضطهاد فظ، عندما علق بعض المجهولين ملصقات ضد القداس حتى باب القصر الملكى (تشرين الأول ١٥٣٤). واضطر على الأثر جميع أولئك الذين كان يُشتبه بأن لهم - من قريب أو بعيد - ضلعاً بالمؤامرة التى اتهم بها أنصار الإصلاح إلى الاختباء، أو إلى اللواذ بالفرار. وبما أنَّ كالفن كان - منذ (ارتداده» - يقوم بدعاية نشطة لصالح الأفكار الجديدة، لم يجد - هو الآخر - مناصاً من مُبارحة المملكة.

فى الأسابيع الأولى من ١٥٣٥ أقام فى بال (سويسرا)، وعكف يُطالع بنهم، واستطاع - فى مدى بضعة أشهر - أن ينجز كتابه باللاتينية «تأسيس الديانة المسيحية» Institutes of the Christian Religion الذى لم يخرج من المطبعة - مع ذلك - إلا فى آذار ١٥٣٦. كان أول كتاب يعرض - بمنطق وتلاحم وشمول - فكر الإصلاح الدينى - وسرعان ما ترجمة مؤلفه نفسه إلى الفرنسية، وقد ظل يجرى عليه تنقيحات متواصلة حتى ليجوز أن نعدُّه كتاب حياة بتمامها. ومهما تكن أهمية كتابات كالفن اللاهوتية الأخرى، فإن كتابه «التأسيس» يتضمن أوفى عرض، وأكمل تركيب لأفكاره، ولقد ضمَّنه - أول بأول - حصيلة تأملاته وتجاريه. وهكذا تضخم الكتاب عام ١٥٣٦، حتى صار سفراً فى أربعة مجلدات وثمانين فصلاً (١٥٥٩ - ١٥٦٠).

ما كاد كالفن يشهد صدور المؤلف الكبير حتى انتقل - لأسباب غيرمعلومة جيداً - إلى فيرارى، مع صديقه تتييه، قاصداً بلاط الدوق رينه دى فرانس الذى كان لاذ بحماه عدد من اللاجئين لأسباب دينية.

وعلى الرغم من جسامة المجازفة؛ قصد ـ فيما بعد باريس، ليسوّى فيها مع إخوته الإرث الأبوى. ومن هناك؛ أراد الانتقال إلى ستراسبورغ، لكنَّ نشوب القتال بين جيوش فرانسوا الأول وشارل الخامس أرغمه على الانعطاف نحو جنيف، الأمر الذى سيترك أثراً دامغاً فى الشطر الثانى من حياته.

فبناء على إلحاح من غويوم (أو غليوم) فاريل Guillaume Farel (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤)، الزعيم الروحى لأنصار حركة الإصلاح الدينى فى جنيف، قبل كالفن بأن يعاونه فى مهمته. وللحال؛ انقلب العالم الشاب إلى واعظ ومعلم ومنظم للكنيسة الجديدة. وقد أخضع المقالات بخصوص تنظيم الكنيسة والعبادة والتعليم واعتراف بالإيمان، لرقابة مجالس المدينة (وقد قبس هذا الأخير من كتابه التأسيس). وكان من المفروض أن يحظى كتابه «الاعتراف بالإيمان» بموافقة جميع أرباب الأسر، الأمر الذى أثار صعوبات. كما ثارت صعوبات أخرى بصدد الانضباط الكهنوتى الذى أراد كالفن وفاريل فرض العمل به، والذى رفضته مجالس المدينة. ومع ذلك؛ عدت هذه المجالس متسامحة أكثر مما ينبغى مع دعاة الإصلاح، فاستبدلت فى عام ١٥٣٨، أعضاء من المعارضة. وانفجر الصراع الكامن عندما شاء والى المدينة أن يطبق ـ بدون استشارة القساوسة ـ الشعائر العبادية المعمول بها فى مدينة برن. فقد رأى كالفن وفاريل فى هذه المبادرة مساساً باستقلال الكنيسة الذاتى، ورفضا الانصياع للأمر، فأقيلا، واضطرا إلى مغادرة المدينة (١٥٣٨).

قبل كالفن دعوة الإصلاحيين بوسر، وكابيتون، للقدوم إلى ستراسبورغ، والتوطن فيها: وكانت هذه المدينة ـ بفضل ذينك الإصلاحيين، وبفضل العبرقية السياسية لجاك ستورم ـ قد أضحت ـ فى مدى سنوات قليلة ـ واحداً من أهم مراكز البروتستانتية الأوروبية. وعلى مدى السنوات الثلاث التى أمضاها كالفن فى ستراسبورغ؛ عمق معارفه اللاهوتية، نتيجة لاتصال ببوسر، واستكمل إنشاء تصوراته الكهنوتية بما قبسه من معين المؤسسات الستراسبورغية. ووضع ليتورجيا جديدة اعتمدتها ـ فيما بعد ـ كنيستا جنيف وفرنسا البروتستانتيتان. ولما عين

أستاذاً فى المدرسة العليا، مهد جامعة ستراسبورغ، علم فيها إنجيل يوحنا، ورسائل بولس الرسول. وفى عام ١٥٣٩، أصدر «الشروح على رسالة بولس إلى أهل رومية، وكانت بمثابة فاتحة باهرة لسلسلة طويلة من التصانيف الشرحية التى ظل يعمل فيها إلى آخر حياته. وفى عام ١٥٤١، صدرت له «مقالة صغيرة فى العشاء السرى»، حاول فيها أن يوضح ـ برسم الجمهور العريض ـ وجهة نظره الخاصة فى الحضور الواقعى والروحى للمسيح فى العشاء السرى، وقد أثبت كالفن ـ فى هذا النص، وفى ترجمته الفرنسية لتأسيس الديانة المسيحية ـ أنه من أطول الناثرين الفرنسيين فى القرن السادس عشر باعاً. والحق أنه كان ـ بأسلوبه الواضح والمرن والباتر ـ واحداً من خالقى الفرنسية المحدثة.

عن طريق أهل ستراسبورغ؛ اتصل كالفن بالبروتستانتية الألامنية: فقد التقى ميلانختون Melanchthon فى فرانكفورت سنة ١٥٣٩، وحضر ندوة راتسبون (١٥٤١) بصفته مندوباً رسمياً عن ستراستبورغ، إلى جانب ستورم، وبُوسر. وبدا وكأن كالفن سيقيم إلى آخر حياته فى ستراسبورغ، فساعده أصدقاؤه على تأسيس منزل، وفى آب ١٥٤٠، تزوج من ايدليت دى بور، أرمل رجل من دعاة تجديد المعمودية كان هداه إلى البروتستانتية.

بيد أن حياة كنيسة جنيف أصابها خللٌ واضطراب من جرَّاء نفى قسيها الرئيسيين. وواصل كالفن اهتمامه بمصير الطائفة الجنيفية: وقد تدخل لتسكين المنازعات التى أشعل رحيله فتيلها، ونشر فى عام ١٩٣٥، «رسالة إلى الكاردينال سادوليه» رداً على رسالة كان وجهها هذا الأخير إلى أهل جنيف داعياً إياهم إلى العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية. لكنه لما دعى إلى الرجوع إلى جنيف، لم يلب الدعوة إلا بعد تردد طويل. وفى ١٢ أيلول ١٥٤١، عاد ـ أخيراً ـ إلى الظهور على ضفاف بحيرة ليمان، مع برنامج محدد جيداً، ومع العزم على تحويل جنيف إلى مركز للدعاية البروتستانتية برسم فرنسا.

بالإضافة إلى دروسه الشرحية ومواعظه اليومية وجد كالفن عام ١٥٤٢، الوقت ليحرر باللاتينية كتابه: «الدفاع عن مذهب جبرية الاختيار»، داحضاً

حجج الكاثوليكى بيغيوس حول حرية الاختيار. وفى السنة التالية ١٥٤٣، ظهر له بالفرنسية مقالة الذخائر (أى الأيقونات)، التى شن فيها هجوماً عنيفاً على عبادة الذخائر، و«المقالة المقتضية حول ما ينبغى أن يفعله رجل مؤمن بين البابويين»، وأتبعهما فى عام ١٥٤٤، برسالته «الاعتذار للسادة النيقوديميين؛ حيث هاجم «النيقوديميين»؛ أى أنصار حركة الإصلاح الدينى الذين لا يجسرون على المجاهرة بإيمانهم.

كان جُلُّ أنصار كالفن ومعاونوه من اللاجئين الفرنسيين الذين كانوا يتدفقون على جنيف. وكان جُلُّ خصومه من «الزنادقة» (الروحيين) الذين كانوا يعرضون ما يعتبرونه تعدياً من قبل الهيئات الدينية على مضمار السلطة المدنية. وضد هؤلاء كتب كالفن فى عالم ١٥٤٥، الرد على شيعة الزنادقة الخيالية، كما كتب مقدمات لخلاصة ميلانختون، ولتوراة جنيف، وتتمَّة الشروح التوراتية التى شملت أسفار موسى الخمسة، وسفر يوشع، والمزامير، وسفر الأنبياء، وكل العهد الجديد؛ باستثناء رؤيا يوحنا.

فى أثناء ذلك؛ كانت المعارضة ضد كالفن تقوى، وتشتدُّ. وفى عام ١٥٥٤، فاز «الزنادقة» الروحيون بالغالبية فى الانتخابات، ولكنَّ موقع كالفن لم يتزعزع بالنظر إلى تدفق أعداد جديدة من المهاجرين. على أنه فى الوقت الذى كان فيه بأمسِّ الحاجة لكل قواه ليحبط مكائد أعدائه، راحت صحته ـ الواهنة منذ عهد شبابه ـ تتدهور، بينما حلَّ الحداد بمنزله بوفاة زوجته (آذار ١٥٤٩). وفى عام ١٥٥٣، انفجرت قضية سرفيتوس الشهيرة. فمنذ عام ١٥٣١، كانت الطبيب الأسبانى ميخائيل سرفيتوس[1] Michael Servetus قد اعتراض ـ فى رسالة له

(١) الطبيب الأسبانى ميخائيل سيرفيتوس Michael Servitus (١١٥١ ـ ١٥٥٣): تأثر بحركة البروتستانتية، لكنه خطا فى الإصلاح خطوات جذرية وجريئة أكثر، فرأى بطلان عقيدة التثليث، ورأى عدم ألوهية المسيح، وكان يسمى الثالوث بـ«الوحش الشيطانى ذى الرؤوس الثلاثة»، وقام بحركة نشطة جداً فى الدعوة إلى التوحيد التام، وقد اتهمته الكنيسة بالهرطقة، واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً، لكن أفكاره وكتاباته انتشرت فى وسط وشرق أوروبا، وصار لها عشرات الألوف من الأتباع والمؤيدين، وسيأتى الكلام عليه عند الكلام على الحركة السوسيانية.

- على التعاريف التقليدية لعقيدة الثالوث. ولما لجأ إلى فيينا عام ١٥٤٠، حرَّر فيها - سراً - «إحياء النصرانية»، داعياً إلى العودة إلى المسيحية الأولى، ومنتقداً الكنيسة الكاثوليكية، والإصلاحيين البروتستانتيين في آن معاً. وتبادل سرفيتوس بعض الرسائل مع كالفن، فدحضه هذا بإيجاز (١٥٤٥). وفي عام ١٥٣٣، طبع الكتاب، ووصلت نسخة منه إلى جنيف، فبعث غليوم دي تري - وهو صديق حميم لكالفن - يخبره إلى مراسلين له من مدين ليون، فاستطاع هؤلاء أن يتعرفوا شخص مؤلفه. ودعى سرفيتوس إلى المُثول أمام محكمة فيينا الأسقفية؛ وحتى يثبت دي تري التهمة عليه أبرز الرسائل التي كان «المجدِّف!»، بعث بها إلى كالفن (وقد اختلسها من هذا الأخير اختلاساً). وأفلح سرفيتوس في الهرب، لكنْ؛ شاء له عدم تبصره أن يمر بجنيف، فألقى القبض عليه. وعلى الرغم من أن مجلس المدينة لم يكن يتعاطف مع كالفن، فقد قرر أن يتابع القضية. وأصر الطبيب «سرفيتوس» على موقفه الصلب، وعقيدته في التوحيد، ونفي التثليث، فاتفق كالفن والمجلس - على الرغم من كل شيء - على أن يجعلا المتهم عبرةً لمن يعتبر!، يؤيدهما في ذلك إجماع كنائس سويسرا. وفي ٢٦ تشرين الأول حكم على «سرفيتوس» الموحد بالإعدام حرقاً، ووافق كالفن على عقوبة الحرق، رغم أنه كان يفضل عليها عقوبة قطع الرأس!. ولقد الشهيد «سيرفيتوس» المصير عينه الذي كان الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء قد خبَّؤوه، من قبله، للمئات ممن أسموهم بـ«الهراطقة اليابسي الرؤوس!» ودعاة تجديد المعمودية Anabaptists. وقد حظي موقف كالفن باستحسان غالبية اللاهوتيين(١)، ولم يجرؤ سوى سيباستيان كستيليون على الدفاع عن جانب التسامح، مما جلب عليه رداً لاذعاً من جانب كالفن (تصريح للحفاظ على الإيمان الحق بالثالوث، ١٥٥٤)، وخرجت سلطة المصلح من هذه المعمة معزَّزة، لكنَّ المعارضة الجنيفية لم تلق السلاح. ولكنْ؛ في عام ١٥٥٥، استطاع الكالفنيُّون أن يستحوزوا على الغالبية في المجالس في جنيف. ومُذَّاك؛ عقد إزار النصر للقضية بصورة نهائية. وفي عام ١٥٥٩، نال كالفن حق البورجوازية.

حرر كالفن - فى أثناء ذلك - عدداً آخر من المؤلفات؛ دفعاً عن بعض نقاط المذهب. ونخصُّ - هنا - بالذكر مقالة الفضائح (١٥٥٠)، التى كتبها ضد الانحرافات الوثنية للبشرية. وعلى إثر التهجمات التى تعرض لها مذهبه فى الجبر، رد بمقالة «فى الجبر الأزلى» (١٥٥٢). وبعد ذلك بثلاث سنوات؛ نشبت الخصومة بينه وبين اللوثرى «وستفال الهامبورغى» حول العشاء السرى، وكتب كالفن فى ١٥٥٥ و١٥٥٦، ١٥٥٧، على التوالى ثلاثة دحوض هى بمثابة آية فى الحجاج اللاهوتى. وفى عام ١٥٥٨، استرعت انتباهه الدعاوى التى كانت رائجة فى أوساط المهاجرين الطليان بجنيف ضد عقيدة الثالوث، فحرَّر - بهذه المناسبة - بالفرنسية «الإجماع حول ألوهية يسوع المسيح، والرد على الإخوة البولونيين» (١٥٦٠)، وكان كتابه «التأسيس» قد اكتسب شكله النهائى قبل سنتين. وفى السنتين الأخيرتين من حياته نشر كالفن - علاوة على ذلك - دروساً حول الأنبياء، وسمح بطبع عدة مجموعات من المواعظ حول العديد من أسفار التوراة، وكان - فى الوقت نفسه - يراسل - بغزارة - بروتستانتيىّ فرنسا وباقى أوروبا (ترك أكثر من ١٣٠٠ رسالة). ولنذكر - اخيراً أنه توج عمله فى عام ١٥٥٩، بإنشائه أكاديمية جنيف، التى صارت مركزاً لدراسات الإنسانية واللاهوتية للبروتستانتيين الناطقين بالفرنسية.

كان المرض ينهش جسمه منذ عدة سنوات، وتفاقم على نحو فى شباط ١٥٦٤، فودع فى نهاية نيسان زملائه، وحضرته الوفاة فى ٢٧ أيَّار ١٥٦٤، وترك وراءه نتاجاً راح تأثيره يتعاظم، ويمتدُّ إلى ما وراء الحاضرة الجنيفية، ليسم بميسمه الكنائس البروتستانية فى أوروبا وأمريكا قاطبة.

وجَّه «كالفن» نشاطه، وهو يتابع عمل زوينغلى على رأس الحزب الإصلاحى فى «جنيف»، وجَّه نشاطه - بنوع خاص - إلى إصلاح الآداب، مطبقاً إياها على تعليمه عن القدر المحدد السابق لكل إنسان (أى عقيدة الجبر)؛ حيث كان يرى أن عقيدة الجبر أو القدر السابق التحديد التى لا يعلم أحدٌ فيها هل هو معين للخلاص أم للهلاك، يجب - حسب رأيه - أن تنبه شعور الإيمان والاستسلام

لإرادة الله لدى الإنسان، وتميل به نحو الحياة الأخلاقية الصرفة، وما أشبه. ولهذا؛ كان يطلب من تابعه المعينين للخلاص حياةً نسكيةً صارمةً. فكانت قوانين الحياة التى سلمها لأهل «جنيف»، والتى ارتقتْ - بفضل مساعيه - إلى درجة أنْ أصبحت فى سنة ١٥٢٨م - بواسطة مجلس «جنيف» - قوانين حكومية نافذة تشمل كل حياة الناس، واتصفت بالتزمُّت والصرامة والجفاف، فقد منعت تلك القوانين - مثلاً - النساء من إظهار التبرج على أنواعه، ومنعت الناس من إقامة الحفلات، والغناء الدنيوى، والموسيقى، والألعاب، وتعقبتها، وعاقبت عليها بعقوبات تأديبية مختلفة، وبشدة لا هوادة فيها، فمثلاً؛ كان يترتّب على المخالفة الحقيقية ضد الإيمان والآداب (كالتجديف والاستهزاء وحياة الخلاعة) يترتّب عليها النفى من البلاد، وحتى عقوبة الإعدام. وقد أثارت تلك القوانين القاسية الكثيرين ضد «كالفن»، وتشكل حزبٌ قوميٌ من الناقمين، أجبره على الهرب من «جنيف»[1]، ولم يتمكن من العود إليها؛ إلا بعد أن انتصر أتباع «كالفن» فى «جنيف» على خصومهم فى سنة ١٥٤١م، فأخضع لتأثيره عند ذاك كل سكان «جنيف»، وتسلط عليهم - بلا حدود - فى مدى عشرين سنة وأكثر، تمكّن - خلالها - من تسيير العمل إلى النهاية. وجعل عقيدة القدر السابق التحديد عقيدة أساسية للجمعية الجديدة التى أسسها، وأدخل فى حياتها - أيضاً - المبادئ الأخلاقية الصارمة، كوجوب الابتعاد عن كل الحفلات الدنيوية، حتى التسليات البريئة، أو التى لا أهمية لها بنظر القواعد الأخلاقية، وبالتالى؛ صار الاحتقار التعصبى للفنى ولحفلات الغناء، وصرامة الآداب البالغة حتى الأمور التافهة فى الحياة البيتية والعمومية، وترافقها مع عدم التسامح والتعصب ضد المخالفين لدرجة التكفير والإعدام، كما حصل تجاه الطبيب الموحد

---

(١) إنَّ الاستياء من إصلاح «كالفن» ابتداء منذ مجيئه إلى «جنيف»، ونما دائماً. ونشأت فى محيط المستائين شيعةٌ إصلاحية ليبرالية، رفضت - بالاستناد إلى تعليم كلفن عن القدر سابق التحديد - كل أنواع القواعد الأخلاقية، وأدخلت الحرية التامة والإرادة المطلقة فى سلوك الإنسان على أساس سابق التحديد؛ حيث تصبح الحياة الأخلاقية أو غير الأخلاقية لا أهمية لها فى أمر الخلاص، وهذا الأمر أحدث قلاقل كثيرة فى «جنيف».

«سيرفيتوس»، كل ذلك صار من الصفات المميزة لأتباع «كالفن». وعلى مثال زفينغلى؛ ذهب «كالفن» أبعد من «لوثر» فى إصلاح الخدمة الإلهية (أى العبادة فى الكنيسة)، فقد أبعد من الكنائس كل ما يُذكِّر بالكثلكة - الأيقونات، الصلبان، الموائد، وغيرها. وأخرج حتى الموسيقى والزخارف، والزينات الكنسية المتوعة. واختصرت الخدمة الإلهية ذاتها على الوعظ، وتلاوة الصلوات، وترتيل المزامير ترتيلاً بسيطاً بلا فن، وألغى كل نوع من الطقوس. وقد تمسك «كالفن» بسرَّين: المعمودية والمناولة، وكان يتمم الأول بالرش وحده بالماء، بدون علامة الصليب، والثانى بصورة كسر الخبز لكل واحد من الحاضرين بالدور وهم جلوس. ورفض «كالفن» الرّئاسة مثل «لوثر»، واستعاض عنها بالمعلمين والوُعَّاظ، وأقام - وُفق ذلك - وظيفة الشيوخ لأجل الرقابة على حياة أعضاء كل جماعة، والشمامسة لأجل إدارة المؤسسات الخيرية، وسلم انتخابات كل هؤلاء الأشخاص الموظفين ليس للسلطة العلمانية نظير «لوثر»، بل للجماعة ذاتها. وعندما مات «كالفن» فى سنة ١٥٦٤م، دُعَيت الجمعية البروتستانتية التى أسسها فى «جنيف» بالجمعية الإصلاحية، ودُعيت - أيضاً - باسم الكالفينية.

والخلاصة أن أهم ما ميز الكالفينية كان التزمُّت الدينى الصارم، والتأكيد الشديد على عقيدة القدر السابق، والإيمان بلزوم تبعيَّة الحكومة، والنظام الاجتماعى كله للتعاليم الدينية، وخضوع الكل لأوامر ووصايا الله. فالكالفينية تختلف - تماماً - وتتناقض مع العلمانية التى تطالب بفصل الدين عن الدولة، والتى نادى بها - فيما بعد - بعض المنشقين عن البروتستانتية؛ مثل المينونيون (فرع من فرقة الأنابابتيست القائلون بإعادة العماد).

انتشار التعليم الكالفينى فى فرنسا وهولاندا واسكتلاندا

انتشرت الكالفينية من «جنيف» إلى سائر أنحاء سويسرا الفرنسية والألمانية، وصارت هى المذهب المسيطر هنالك، وفوق هذا دخلت - أيضاً فى بلاد أخرى من أوروبا، وبنوع خاصٍ فى فرنسا، وهولاندا واسكتلاندا. وقد ساعدت جامعة «جنيف» - التى أسسها «كالفن» - كثيراً على نشر الكالفينية؛ حيث تلقى فيها العلوم كثيرون من الغرباء بروح الكالفينية الصريحة.

انتشار الكالفينية فى فرنسا

دخلت الكالفينية فرنسا فى حياة «كالفن» ذاته، الذى أرسل إلى هناك وُعاظاً لنشر تعليمه. وقد وجد التعليم الجديد أتباعاً كثيرين بين النبلاء والإكليروس وسكان المدن والشعب البسيط. حتى أن بعض أبناء الأسرة الفرنسية المالكة صاروا من أتباع الكالفينية. وكان من نتيجة ذلك ظهور جماعات كالفينية منظمة على مثال جماعات «جنيف» فى كل فرنسا، وخصوصاً فى فرنسا.

وحيث أن ملوك فرنسا المعاصرين لهذه الحركة الإصلاحية (فرانسيسك الأول الذى مات سنة ١٥٤٧، وهنرى الثانى الذى مات سنة ١٥٥٩، وفرانسيسك الثانى الذى مات سنة ١٥٦٠) ظلوا أمناء لكنيسة روما؛ مارسوا ضد الكالفينيين وسائل قمع قاسية مختلفة الأنواع (مثلاً كانوا يحكمون بعقوبة الإعدام لأجل نشر أى كتاب كلفينى)، ولكن هذه الاضطهادات جعلت الكالفينيين المضغوط عليهم، أو كما كانوا يسمونهم فى فرنسا «هوغونوت» Huguenots - جعلتهم يبحثون عن سند فى جمعيتهم ذاتها، فألَّفوا من جماعاتهم حزباً سياسياً قوياً.

وفى سنة ١٥٦٢، فى أيام الملكة كاترينا ماديتشى، التى تولت إدارة المملكة نيابة عن ابنها القاصر كارل التاسع، قررت الحكومة الفرنسية أن تعلن حرباً علنية ضد كل الكالفينيين إجمالاً. ونتيجة لذلك؛ تسلح الهوغونوت أيضاً، ونشبت فى فرنسا حرب أهلية دينية طويلة، مصحوبة بقساوة متطرفة من قبل أتباع الكثلكة. وفى ليلة برثولوماوس الشهيرة (سنة ١٥٦٢)، ولأيام التالية لها قتل الكاثوليك اللاتينيون عشرات الألوف من الهوغونوت. ولكن كل تلك المذابح الدموية لم تفن الكالفينية فى فرنسا. ولكى تعيد الحكومة الهدوء إلى البلاد؛ اضطرت - أخيراً - أن تمنح الكالفينيين الحقوق الدينية والمدنية. وفى سنة ١٥٩٨، وقبل جلوسه على العرش؛ أصدر الملك هنرى الرابع النفارى، المنسوب إلى حزب الكالفينيين، أصدر لصالحهم ما سمى بمرسوم نانت، منحهم فيه الحرية بالاعتراف بإيمانهم، وإقامة الخدمة الإلهية علناً، حتى ولو كانت فى أماكن معينة، وحق طبع كتبهم الدينية، وأن يشغلوا كل الأماكن والوظائف فى الدولة... إلخ. وفى سنة ١٦٢٩، على عهد ليودوفيك الثالث عشر تثبتت - من جديد - حقوق الكالفينيين فى فرنسا بما يسمى بالمرسوم العطوف المعطى فى نيم.

انتشار الكالفينية فى هولندا

انتقلت الأفكار الإصلاحية إلى هولندا مع تآليف «لوثر». لذلك؛ فالفارق الدينى الذى بدا هنالك كان له - فى بادئ الأمر - شكل «لوثرى». ولكن؛ بعد ذلك، وبسبب قرب الاتصال مع سويسرا وفرنسا دخلت إلى هناك الكالفينية أيضاً، واكتسبت شعبية وغالبية هامة، وفى السنين الخمسين من القرن السادس عشر كان فى هولندا جماعات كثيرة كالفينية منظمة على مثال «جنيف». ولم يتمكن الإمبراطور كارل الخامس، الذى كان له، بصفته ملك أسبانيا، سلطان على الهولنديين أيضاً، لم يتمكن من إيقاف انتشار التعاليم الدينية الجديدة مع كل قسوته ومحاربته لها. وفكر خليفته فيليب الثانى (١٥٥٦ - ١٥٩٨) فى حفظ الهولنديين فى حظيرة الكثلكة عن طريق إقامة أسقفيات جديدة، وإدخال الحكم الإرهابى لمحاكم التفتيش. ولكن الاضطهادات الدينية

التى ابتدأت بعد ذلك، والإعدامات الكثيرة العدد، سببت الثورة فى هولندا (سنة ١٥٦٦)، ولم تفد فيليب لا الإعدامات، ولا المحاكمات، ولا التعذيب الذى مارسه؛ لأن الهولنديين ناضلوا ببسالة (أمثال فيلغم، وموريتس أورانسك) عن حريتهم الدينية والسياسية، وانتهى النضال فى سنة ١٥٨١، بانفصال سبع مقاطعات هولندية عن أسبانيا الشمالية، وألفت جمهورية هولندا. وبتأليف الجمهورية؛ تثبتت فيها الكالفينية نهائياً.

انتشار الكالفينية فى اسكتلاندا

كانت اسكتلاندا فى القرن السادس عشر مملكة قائمة بذاتها، مستقلة عن إنجلترا، وكان ناشر الكالفينية فيها شخص يدعى جان نوكس John Knox وقد برز بمواعظه ضد كنيسة روما فى سنة ١٥٤٧م. كان نوكس قد تعرَّف ـ فى «جنيف» ـ على إصلاح «كالفن»، فاعتنق أفكاره، وصار تابعاً غيُوراً له. وفور عودته إلى وطنه اسكتلندا سنة ١٥٥٥، بدأ بنشر تعليمه الصارم بحماس بالغ. وتحت تأثير مواعظه الفصيحة، التى كان يهزّ بها الجماهير الشعبية بالآيات الكتابية المخيفة، بدأ سكان اسكتلندا يطردون الكهنة، ويحرقون الأيقونات، والزينات الكنسية، وأحياناً؛ الكنائس ذاتها.. إلخ. ولم يكن فى ذاك الوقت فى اسكتلندا حكومة قومة تتمكن من إيقاف هذه الحركة الدينية المتشددة. كانت ملكة اسكتلندا ماريا ستيوارت، التى كانت متزوجة من ملك فرنسا فرانسيسك الثانى تعيش فى فرنسا، وكانت أمها تدير اسكتلندا بصفة وصية. ولما ماتت الوصية على العرش السكوتلندى سنة ١٥٦٠، تسلم نوكس وأشياعه السلطة بأيديهم، وجعلوا البرلمان الاسكتلندى يعلن ـ فى تلك السنة ذاتها ـ إلغاء الكثلكة، وأن ينادى بالكالفينية ديانة الدولة. فأحرز ـ بعدها ـ نوكس فى اسكتلندا سلطة كالتى كانت لكالفين فى «جنيف»، وأصبح ـ نهائياً ـ كنيسة اسكتلندا على المبادئ الكالفينية. ولما رجعت الملكة ماريا استيوارت إلى اسكتلندا بعد وفاة زوجها، وتسلمت السلطة بيدها، لم تتمكن من اتخاذ أى إجراءات هامة ضد إصلاح الكنيسة، على الرغم من أنها كانت كاثوليكية

متعصبة، وذلك بسبب صعوبات سياسية ودولية مختلفة. وأدار اللاهوتى «جان نوكس» نفسه، وحتى وفاته سنة ١٥٧٢، كل الأعمال الكنسية فى اسكتلندا، وثبت فيها الكالفينية دائماً. ووضع نوكس - كما فعل «كالفن» - على الاسكتلنديين مشايخ Presbyters لرعاية الكنائس.

خامساً: الحركة الإصلاحية فى إنجلترا وتأسيس الكنيسة الأنكليكانية

مع انتشارها السريع فى أنحاء أوروبا، دخلت الأراء البروتستانتية - أيضاً - فى بلاد الإنجليز. ولكن جهة الإصلاح اللاهوتية ما أشغلت العقول هناك، بل أكثر ما رغب فيه الإنجليز هو صرح النّير البابوى، الذى كان مسلطاً عليهم، خاصة عند جمع الأموال الكثيرة لصالح روما. أما السبب الأقرب لبدء حركة الإصلاح فى إنجلترا؛ فكانت خصومة «هنرى الثامن» ملك إنجلترا (١٥٠٩ - ١٥٤٧م) مع البابا «كليمنت السابع». فقد أراد «هنرى» أن يطلق زوجته «كاترينا أراغونا» لكى يتزوج من واحدة اسمها أنَّا بولين»، وطلب - فى سنة ١٥٢٧م - الطلاق من البابا. ولكن البابا - بتأثير إمبراطور ألمانيا «كارل الخامس» ابن أخى «كاترينا أراغونا»، بعد مماطلةٍ طويلةٍ - رفض طلبه. فغضب الملك الإنجليزى، وقرر - عندئذٍ - أن يمضى بدون البابا فى قضية الطلاق والزواج. وليس هذا فحسب، بل قرر أن يزيل سلطة البابا تماماً عن الكنيسة الإنجليزية. وفى سنة ١٥٣٣م، وبموجب أوامر الملك؛ أصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً بعدم علاقة بلاد الإنجليز مع البابا فى الأعمال الكنسية وعن حقوق الملك العليا فى الكنيسة، استناداً إلى تقليد أقرّته الكنيسة قديماً، وكان متبعاً فى عهد الدولة البيزنطية يعطى ملك كل بلد حق إدارة وتدبير الكنائس الواقعة ضمن حدود مملكته. وفى سنة ١٥٣٤م، أعلن هنرى نفسه - بطريقة رسمية واحتفالية - رأساً أعلى للكنيسة الإنجليزية بدل البابا، ورحّب أكثرية الأساقفة والكهنة فى إنجلترا بهذا الترتيب الجديد فى الإدارة الكنسيّة، لأنه لم يتعرض للأراء العقائدية

(الكاثوليكية) بشىء، أما الذين لم يعترفوا برئاسة الملك، أو شكوا بها: فقد تعرضوا للاضطهاد والإعدام، ثم أقفل هنرى كل الأديرة فى إنجلترا (سنة ١٥٣٨)، وحوّل مقتنياتها لصالحه، ولم يعمل هذا الملك المنشق شيئاً تقريباً لأجل تعليم الإيمان، وبما أنه تثقّف ثقافة لاهوتية سكولاستيكية فقد بقى فى سائر اعتقاداته كاثوليكياً، كما كان قبل الانفصال عن البابا، بل كان يبغض البروتستانت كما ظهر ذلك جلياً فى كتاب أصدره باسمه ضد أفكار لوثر سنة ١٥٢١. ولكنَّ هنرى هذا - وبتأثير من رئيس أساقفة كانتربرى تُوماس كرانمير ووزيره كروفيل، وكانا بروتستانتيين سراً، ومن أقرب مستشارى الملك فى زمن اصطدامه مع البابا - قام بإصدار شىء - عبر البرلمان - يشبه إيماناً جديداً فى عشرة بنود، تكلمت هذه البنود عن ثلاثة أسرار: المعمودية، والتوبة، والمناولة، وعن التبرير بالإيمان. وأبطل تقديس الأيقونات والقديسين، وما أشبه، ولكن: ليس إبطالاً تاماً، وليس بالمفهوم البروتستانتى، فبقى الاعتراف بالاستحالة Transubstantiation فى القربان المقدس (أى التحول الحقيقى للخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه)، وبقى القول بضرورة الأعمال الصالحة لأجل التبرير (خلافاً لعقيدة لوثر القائلة بأن التبرير هبة تتم بالإيمان فقط)، وأن تبقى الأيقونات فى الكنائس... إلخ. وفى آخر أمره: نهض هنرى صريحاً ضد اللوثرية، مصدراً تعليم الإيمان فيما عرف باسم البنود الستة، مهدداً بالإعدام كل الذين ينكرون الاستحالة، أو يقولون بالسماح بالمناولة تحت الشكلين، أو بأن الكهنة يمكنهم أن يتزوجوا... إلخ، وبسبب هذه الأوامر: تعرض كثيرون ممن اعتنقوا اللوثرية فى بريطانيا للاضطهاد الشديد..

فى عهد خليفة هنرى، الملك إدوارد السابع (١٥٤٧ - ١٥٥٣)؛ بدأ فى إنجلترا الإصلاح وتعليم الإيمان، ومثله الخدمة الإلهية، ولكن: ليس بذاك الشكل الحاد الذى حدث فى ألمانيا أو سويسرا، وبما أن إدوارد كان حديث اسن، فلم يستطع أن يشترك فى الإصلاح، فكان البرلمان يدير (الإصلاح)، أو الأصح كان يديره أوصياء المملكة، الذين كان بينهم كاثوليكيون ومتحزبون للوثرية؛ مثل

رئيس أساقفة كرانمير، فألغيت - قبل كل شيء - بنود «هنرى الثامن» الستة، وسمح بالمناولة تحت الشكلين[1]، وسمح بزواج الكهنة، وسمح للجميع بقراءة الكتاب المقدس المترجم إلى اللغة الإنجليزية فى أيام هنرى، وما أشبه.

ثم بعد مذكرات ومدارسات طويلة للاهوتيين الإنجليز وبعض اللاهوتيين القادمين من النمسا صدر كتاب الصلوات العامة Book of Common Prayer الذى تم تعميمه على كل كنائس إنجلترا؛ ليكون كتاب العبادة الموحد الإلزامى، وتبعه كتاب الطقوس سنة (١٥٤٩)، الذى كان التأثير البروتستانتى فيه أكثر وضوحاً، وأخيراً؛ تمَّ إصدار بيان العقيدة فى «٤٢ بنداً» كتحديد وبيان للإيمان الأنكليكانى (سنة ١٥٥١).

لم يكن كلٌّ من كتاب الصلوات العامة أو بنود العقيدة الـ ٤٢ كاثوليكية ولا لوثرية، بل كان فيهما مزيج خاصٌ من هذا وذاك، ليُرضى أتباع كلا المذهبين، فقيل - بشأن الكتاب المقدس: إنه المصدر الأول لتعليم الإيمان، ولكنْ؛ ثم النص على احترام التقليد أيضاً، وكانت العبارات بشأن التبرير هل هو بمجرد الإيمان أم لابد فيه من العمل، حمَّالة وجوه، حتى يمكن قبولها بالمعنى الكاثوليكى والمعنى البروتستانتى، وقد أبقى من الأسرار الكنسية على ثلاثة أسرار فحسب؛ هى: المعمودية، والتوبة، والمناولة، وتمَّ الاعتراف أن فى سر الشكر (العشاء السرى؛ أى الأفخاريستيا) حضور حقيقى لجسد المسيح ودمه. وألغى - بوضوح ونصٌ قاطع - تقديس الأيقونات، ورفات القدِّيسين، واستدعائهم فى العبادات، كما ألغى - بكل وضوح وصراحة - بيع الغفرانات، وعقيدة المطهر، والصلاة لأجل الأموات، وتركت الرئاسة غير ملموسة، وبهذا الإصلاح؛ تم تحديد معالم الكنيسة الأنكليكانية الأسقفية Anglican Episcopal Church، التى كانت نوعاً من التوسُّط بين الكاثوليكية والبروتستانتية، وصار أسقف كاتدرائية كانتربورى Canterbury Cathedral فى إنجلترا يُمثِّل أعلى سلطة روحية فيها (تقع

(١) أى مناولة المصلين فى القداس (العشاء السرى) خبز الفطير والخمر، وعدم الاقتصار على مناولة خبز الفطير فقط، كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية.

الكاتدرائية فى مدينة كانتريورى الصغيرة حوالى ٧٥ كم جنوب شرق لندن).

وبعد موت إدوار السادس (سنة ١٥٥٣)، اعتلت العرش أخته ماريا ابنة هنرى الثامن، وماريا أراغون كاثوليكية فى الصميم، لذلك أقامت الكثلكة، وعرضت أتباع البروتستانتية للاضطهاد القاسى؛ وتمَّ إحراق الأسقف كرانمير عى الحطب، ولكن؛ عندما اعتلت العرش (١٥٥٨) ابنة هنرى الأخرى من أنابولين إليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) التى كانت قد ترَّبت فى البروتستانتية؛ تعرَّضت الكثلكة للاضطهاد، واقيم مذهب مختلط، وتم قبول كل شىء كانت قد ثبَّتَهُ قرارات البرلمان (سنة ١٥٥٩)؛ خاصة رئاسة العظمة الملوكية على الكنيسة الإنجليزية، وتمَّ إعادة وإحياء كل الأوامر بشأن الكنيسة الصادرة فى أيام إدوار السادس، ثم لأجل اتفاق الكاثوليك مع البروتستانت؛ بُدئ بإعادة النظر فى بنود اعتراف الإيمان الأنكليكانى الـ٤٢، وتألَّف منها إيمان جديد فى ٣٩ بنداً، ولكن؛ لم يحدث تغيير كبير فى البنود الـ٤٢، بل كلُّ ما حصل أنه لأجل إرضاء الاتجاه الكاثوليكى والبروتستانتى فى الـ٣٩ بنداً، صقلت ـ أكثر فقط ـ خاصيات هذا وذاك، وظهر تعليم الإيمان مزيجاً غير محدد من الكثلكة والبروتستانتية كما كان فى ٤٢ بنداً، وفى سنة ١٥٦٢، تثبت الـ٣٩ بنداً فى البرلمان الروحى (السينود)، وجعلت دستور إيمان واجباً على الجميع، وعلى هذه الصورة تشكلت الكنيسة الأنكليكانية الأسقفية ـ نهائياً ـ على عهد إليزابيث مع مزيج من تعليم الإيمان، وصارت كنيسة عالمية.

ولكن المتطرفين من أتباع الكاثوليكية والبروتستانتية لم يعترفوا بهذه الكنيسة الجديدة، رغم كل الإجراءات الصارمة التى اتخذتها إليزابيث لنشرها بالقوة. فبقيت الكاثوليكية بنوع خاص فى إيرلندا، أما أتباع البروتستانتية ـ الذين تأثروا لحد كبير بالأفكار الإصلاحية الأكثر جذرية، والتى قدمت إلى إنجلترا من ألمانيا وسويسرا وغيرها؛ فقد شكلوا جمعيات دينية بروتستانتية خاصة؛ كان أهمها الكنائس المشيخانية Presbyterian والتطهرية Prutians والمستقلة Indepndent.

سادساً: تواصل كفاح الإصلاحيين فى ألمانيا وحرب الثلاثين عاماً حتى صلح ويستفاليا (سنة ١٦٤٩) The Peace of Westphalia

كان عمل الإصلاح فى المانيا حتى سنة ١٥٢٦، لا يزال قائماً على أكتاف لاهوتيى جنوب المانيا (النمسا الثائرين) ضد الكنيسة الرومانية. ومنذ ذلك العام؛ بدأ ينتقل إلى أيدى الأمراء الألمان.

لقد جذبت الأملاك الكنسية البابوية الغنية فى ألمانيا الأمراء الألمان إلى الإصلاح، هذا بالإضافة إلى رغبتهم بإقامة أنظمة كنسية جديدة فى الكنائس الداخلة تحت حوزتهم، ورغبتهم ـ كذلك ـ فى حصر السلطة الكنسية العليا فى أيديهم. ولذلك فقد كان الإصلاح ـ بالنسبة إليهم ـ ليس مجرد عمل دينى كنسى فحسب، بل ـ أيضاً ـ مصلحة دنيوية ووطنية. ولهذا؛ عندما أخذ الأمراء الألمان عملية الإصلاح على عاتقهم بذلوا كل جهدهم ليسيروا بها نحو النهاية.

فى سنة ١٥٢٦م، وبسبب ما ظهر من سعى مبعوثى البابا فى سويسرا والمانيا الجنوبية لخنق الحركة الإصلاحية، عقد كورفيرست السكسونى، ويوحنا الدائم (خليفة فريديريك الحكيم)، ولندغراف غيسن فيليب تحالفاً فيما بينهم فى «تورغاو» للدّفاع عن الإصلاح، وقد انضم إلى التحالف ـ بالتدريج ـ أمراء آخرون من ألمانيا الشمالية وبعض المدن الحرة، وابتدأ عمل المتحالفين لصالح الإصلاح فى تلك السنة ١٥٢٦م. وفى الاجتماع الملكى فى شبيّر اغتنم المجتمعون غياب الإمبراطور، وكذلك ما حصل بينه وبين الباب من اختلاف، وتمكنوا من وضع قرار فوُضوا ـ بموجبه ـ لكل الطبقات أن تعمل فى أمر الديانة، كما تطلب المسئولية أمام الله والإمبراطور. وبهذا القرار حصل الاعتراف ـ ضمناً ـ بقانون الإصلاح. وبالاستناد إلى ذلك؛ ابتدأ الأمراءُ الألمان وإدارات المدن الحرة المؤيدة للإصلاح بإقامة أعمال كنسية فى أملاكهم على مبادئ اللوثرية، حيث بدأ التنظيم الكنسى اللوثرى فى سكسونيا أولاً، ثم

انتشرت إقامته فى الأماكن الأخرى.

ونظم الإصلاحى فيليب ميلانختون Philip Melanchthon، بتعليماته رقابةً بواسطة مديرين على الجماعات اللوثرية، لأجل تفقد الكنائس، وأما مارتن لوثر؛ فقد نشر تعليماً مسيحياً مطولاً ومختصراً؛ ليستخدمه عامة الشعب.

منذ زمن اجتماع شبير سنة ب١٥٢٦م، تميز - بوضوح، بين ملاكى ألمانيا - حزبان: كاثوليكى وإصلاحى، ولكنَّ الإمبراطور كارل الخامس لم يرد الانقسام الدينى لمصالح سياسية، فانتسب إلى الحزب الكاثوليكى، وأصبح الاصطدام بين الحزبين لا مفرَّ منه، ورغبةً منه فى عدم حصول نزاع وانقسام الدينى وسط شعبه، سعى الإمبراطور لحل هذا الخلاف وتقريب وجهات النظر بالطرق السلمية، ولكن؛ رغم ذلك شاب النزاع بين الفريقين فى كثير من الأحيان أعمال عنف وعدوان.

وكانت أهم محطات هذا النزاع ما يأتى:

فى اجتماع شبير سنة ١٥٢٦م، عرض الإمبراطور الألمانى - الذى كان قد عقد هدنة مع الفرنسيين وصلحاً مع البابا - تنفيذ مقررات اجتماع فورمسك سنة ١٥٢١م، بشأن طرد مارتن لوثر، وإلغاء قرارات اجتماع شبير سنة ١٥٢٦م الإصلاحية. فكانت أكثر الأصوات مؤيدة للحزب الكاثوليكى، لذلك تم قبول عرض الإمبراطور. ولكن أتباع الإصلاح قدموا ضد هذا اعتراضاً أو بروتستاً Protest أعلنوا به مبدأ جديداً يقول بأنه فى الأمور الدينية، يختص التقرير بضمير كل شخص، وليس بأكثرية الأصوات. ومنذ ذلك الوقت؛ صار يُدعى كل المنضمين إلى حزب الإصلاح بروتستانت؛ أى المحتجون أو المعترضون.

قدم الأمراء البروتستانت - فى اجتماع أوغسبورغ Augsburg سنة ١٥٣٠م، وبموافقة الإمبراطور الذى حضر هناك شخصياً - اعتراف إيمانهم الذى ألفه ميلانختون Melanchthon، كبيان مدلل لبنود العقيدة والمبادئ اللوثرية، والذى صار معروفاً - فيما بعد - باسم اعتراف أوغسبورغ Augsburg Confession.

قدم الأمراء البروتستانت - فى اجتماع أوغسبورغ Augsburg سنة ١٥٣٠م، وبموافقة الإمبراطور الذى حضر هناك شخصياً - اعتراف إيمانهم الذى ألفه ميلانختون Melanchthon، كبيان مدلل لبنود العقيدة والمبادئ اللوثرية، والذى صار معروفاً - فيما بعد - باسم اعتراف أوغسبورغ Augsburg Confession.

لقد وضعت الفقرات الإحدى والعشرون الأولى لهذا الاعتراف الأصلى - غير المعدل - الإطار الكلى للعقيدة اللوثرية، والذى تم السعى من خلاله لإثبات أن اللوثريين لم ينشقوا عن الإيمان الكاثوليكى الأصيل فى أى شىء. أما الفقرات السبع الباقية؛ فقد ناقشت المفاسد وإساءة الاستعمال التى انتشرت فى الكنيسة الغربية الكاثوليكية فى الفترة التى سبقت بروز الحركات الإصلاحية مباشرة، والتى كان أهمها: المناولة فى العشاء السرى؛ أى الأفخاريستيا Communion تحت شكل واحد (أى الاكتفاء بأن يتناول المشاركون الخبز فقط، دون الخمر)، وإلزام العزوبية على جميع أعضاء السلك الكهنوتى، وإجراء القدّاس كأضحية مقدمة على سبيل التكفير، والاعتراف الإلزامى، وجعل مؤسسات إنسانية دنيوية مستحقة لحصول الرحمة والنعمة الإلهية، وعدم رعاية آداب الرهبنة، ووقوع انحرافات ومفاسد فيها، والتوسع فى سلطة بعض أساقفة الكنيسة إلى حد التدخل وبسط السلطان فى أمور دنيوية وسياسية محضة.

لكن اللاهوتيون الكاثوليك قدموا دحضهم لهذا الاعتراف فيما عرف باسم «الدّحض» Confutation، فوافق الإمبراطور على الدحض، ثم ثبت تنفيذ مقررات فورمسك سنة ١٥٢١م، ومنع البروتستانت من نشر تعليمهم؛ انتظاراً للمجمع الكنسى البابوى المزمع عقده.

لكن المجمع - الذى ألح الإمبراطور على التآمه - لم يحصل بسبب عدم رغبة البابا كليمنت السابع (١٥٢٣ - ١٥٣٤) فى دعوته. وفى هذا الوقت فى سنة ١٥٣١م، عقد البروتستانت حلفاً جيداً فى شمال كالدنسك لأجل الدفاع عن الإصلاح بقوة السلاح.

فاضطر الإمبراطور - الذى لم يكن ينتظر مثل هذا الإنقلاب فى القضية، ولم يكن على استعداد للحرب - أن يدخل فى اتفاق مع البروتستانت. وفى سنة ١٥٣٢م فى نيورنبرغ، عقد معهم صلحاً التزم - بموجبه - الحزبان البروتستانتى والكاثوليكى على أنفسهم أن لا يضايق أحدهما الآخر بقضايا الإيمان حتى انعقاد المجمع العام أو قرارات اجتماع آخر. ودعى هذا أول صلح دينى.

مع هذا؛ لم تؤد اتفاقية نيورنبرغ إلى مصالحة واقعية بين الحزبين المتعاديين، فالعلاقات المتوترة بين الكاثوليك والبروتستانت بقيت قائمة. ولم ينجح الإمبراطور فى قيادتهم إلى الاتفاق عبر الاجتماعات الدينية والمجمع الذى عقد - أخيراً - فى تريدنت سنة ١٥٤٥م. وفى الوقت ذاته؛ كانت اللوثرية تنتشر أكثر، فأكثر، وصار الأمراء البروتستانت يشكلون قوة خشى الإمبراطور جانبها. لذلك قرر كارل الخامس أن يحطم قوتهم. وفى سنة ١٥٤٧م، دحرهم بقساوة فى حرب شمالكالدنسك. ولم يدرك لوثر تلك الحرب الأهلية؛ إذ اخترم قبلها فى سنة ١٥٤٦م. وبعدما أضعف الإمبراطور البروتستانت عمل على اتحادهم مع الكاثوليك. ولهذه الغاية - وبتفويض منه - تم تنظيم دستور إيمان فى سنة ١٥٤٨م، عرف باسم «أوغسبورغ اينتيريم» Argsburg Interim كان فى الواقع نصاً توفيقياً ألزم الكاثوليك والبروتسانت بقبوله، ولكن دستور الإيمان هذا أهاج عدم الرضا فى صفوف الحزبين: فالكاثوليك أصروا على رجوع البروتستانت إلى الكثلكة، بدون شروط، والبروتستانت رأوا فيه خسارة لعقائدهم. فشرع الإمبراطور باضطهاد البروتستانت؛ ليجبرهم على قبول «الإينتيريم». وبقيت الأحوال هكذا حتى سنة ١٥٥٢م، عندما تقوى البروتستانت من جديد. فى هذا الوقت؛ انحاز إلى جهتهم الأمير السكسونى موريتس، والذى كان متمسكاً باللوثرية، على الرغم من بقائه - حتى ذلك الوقت - إلى جانب الإمبراطور. فأعلن موريتس على رأس أمراء آخرين من البروتستانت الحرب على الإمبراطور، وأجبره على عقد اتفاق موافق للبروتستانت فى باساى سنة ١٥٥٢م، وعلى أساسه تبع قرار سنة ١٥٥٥م المعروف باسم صلح أوغسبورغ

الدينى. وبهذا الصلح؛ أعطيت الحرية للبروتستانت فى قضايا الإيمان ولكن: مع اشتراط أن يبقى حق تغيير الإيمان - فى المستقبل - بيد الأمراء فقط، وليس بيد الخاضعين لهم.

ولكن؛ رغم صلح أوغسبورغ الدينى بقيت العلاقات العدائية بين الكاثوليك والبروتستانت على حالها، ولعب اليسوعيون (الجزويت) - الذين برزوا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر للميلاد وبدء السابع عشر، بدأت تتصاعد الأعمال العدائية بين الكاثوليك والبروتستانت فى بعض أنحاء ألمانيا. ففى سنة ١٦٠٨، عقد أمراء البروتستانت - فيما بينهم - ما يسمى بالاتحاد البروتستانى Protestant Union، أما الكاثوليكيون؛ فقد شكلوا فى سنة ١٦٠٩ الجامعة الكاثوليكية Catholie League، ولم يعدُ - هناك - مفرٌ من وقوع الاصطدامات الدموية بين الفريقين. وسرعان ما توفر السبب لوقوعها. انتزع الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى، ومعه ملك بوهيميا، تلميذ الجزويت، من البروتستانت كنيستين فى بوهيميا سنة ١٦١٨م، فثار البوهيميون، وقاموا بأعمال شغب، وانتخبوا لنفسهم ملكاً آخر. ووضع هذا الحادث بدايةً للحرب المعروفة فى التاريخ باسم حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨م)، التى انقسمت ألمانيا فيها إلى نصفين: شمالى بروتستانتى، وجنوبى كاثوليكى. فالكاثوليك دافعوا - بضراوة - عن عقيدتهم الدينية، وحارب البروتستانت - أيضاً - لأجل عقيدتهم بضراوة لا تقل عنهم، مصرِّين على حقهم الكامل فى حرية الإيمان. وكانت الأرجحية فى هذا النضال، الذى اشترك فيه الملوك الأجانب أيضاً مثل ملك السويد غوستاف أودولف الذى برز للدفاع عن البروتستانت، كانت الأرجحية - أحياناً - إلى هذه الجهة، وأخرى إلى تلك. ثم أدى استنزاف قوى جميع الممالك الألمانية إلى إنهاء الحرب عام ١٦٤٨م. وفى تلك السنة عقد جميع المشتركين فيها ما يسمى صلح ويستفاليا The Peace of Westphalia (سنة ١٦٤٨)، تمّ - بموجبه - إقرار مساواة حقوق جميع البروتستانت مع الكاثوليك.

انتشار اللوثرية فى مناطق أخرى من أوروبا

فى نفس الوقت الذى ظهرت وانتشرت فيه اللوثرية فى ألمانيا، بدأت تنتشر - أيضاً - فى جهات أخرى من أوروبا، فحيثما كانت تنتشر تأليفات مارتن لوثر كانت تحدث سعياً للتحرر من نير روما. وكان أول ناشرى اللوثرية هم الملوك أنفسهم كما حدث فى ألمانيا. وعلى هذه الصورة؛ انتشرت اللوثرية، وتمكنت فى بلاد السويد، والدنمارك، والنرويج، وبروسيا (بولونيا الحالية)، وليثوانيا، وأستونيا، وكورلياندا.

ابتدأت الحركة لصالح الإصلاح فى السويد سنة ١٥١٩م، للسّبب ذاته الذى انتشرت فيه فى ألمانيا؛ وهو المتاجرة بصكوك الغفران. وقد نشر اللوثرية هناك شقيقان: أولاف، ولورينتس بترسون Olaus and Laurentius Petri. فمال غوستاف الأول فازا (١٥٢٣ - ١٥٦٠) Gustav I Vasa أول ملك من ملوك السويد المستقلة - بعد انفصال السويد عن الاتحاد الإسكندنافى الذى كان يضمها إلى الدانمارك والنرويج، بعد انتخابه حالاً - إلى جهة الإصلاح وبكل حزم، وصار محامياً عن الأخوين بترسون. وفى سنة ١٥٢٤م، أقام فى أوبسال مناظرةً دينيةً بين واعظى اللوثرية ولاهوتى اللاتينية. وكان الانتصار فى المحاورة - حسب رأى الملك ووجهاء السويد - من نصيب ممثل اللوثرية أولاف بترسون. بعد هذا؛ سارت اللوثرية فى السويد بخطى سريعة: أقفلت الأديرة، وتحولت أموالها ملكاً للملك، وأخذ الكهنة يتزوجون، وما أشبه. وصار الاعتراف - نهائياً - باللوثرية ديانة رسمية ملكية فى مملكة السويد فى اجتماع فيستيراس فى سنة ١٥٢٧، وبعده؛ أدخل عليها تنظيم كنسى مع تلك الخاصة بأن السويد حفظوا عندهم الأسقفية، وإنْ لم يكن لها سلطة وأهمية متجانسة معها. وكانت قد تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة السويدية فى سنة ١٥٢٦م، ومن السويد انتشرت اللوثرية فى فينلندا التابعة لها فى ذاك الوقت.

ودخلت اللوثرية - أيضاً - فى الدانمرك فى وقت مبكر جداً. فقد كان ملك

الدانمركى كريستيان الثانى - الذى دخل الإصلاح فى أيامه إلى ألمانيا - يتردد بين اللوثرية والكثلكة، لكن الملك فريديرك الأول الذى جاء بعده، وقف - بحزم - إلى جهة الإصلاح فى اجتماع سنة ١٥٢٧، ووضع قراراً ساوى - بموجبه - بين البروتستانت والكاثوليك - وفى أيامه؛ تمت ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الدانمركية.

وأخيراً؛ جعل كريستيان الثالث خليفةُ فريديريك اللوثرية مذهباً رسمياً سائداً فى الدانمرك. وسجن فى سنة ١٥٣٦م، كل أساقفة الدانمرك المعارضين للإصلاح، وحجز على أموال الكنائس، وأدخل تنظيماً كنسياً لوثرياً بمساعدة اللاهوتى اللوثرى يوحنا يوغينسفاغين المعروف باسم بوميران. وحفظت الأسقفية فى الدانمارك، كما حفظت فى السويد. وبما أن ملك الدانمرك كان - فى الوقت ذاته - ملكاً على النرويج، صارت اللوثرية هى المذهب الرسمى السائد فى النرويج أيضاً.

وقد ملك بروسيا (بولونيا الحالية) فى القرن السادس عشر جماعة الرهبان أو الفرسان التيوتونيون. فلما اعتنق رئيس الجماعة البرختُ انسباخ اللوثرية فى سنة ١٥٢٥، حوَّل أملاك الجماعة إلى دوقية، وأدخل التنظيم الكنسى اللوثرى. وحصل من أمراء ليتوانيا وأستونيا وما جاورهما نحو ذلك؛ حيث انتشرت اللوثرية هنالك منذ سنة ١٥٢٣، إلى أن توطدت - نهائياً - فى سنة ١٥٦١م.

كما دخلت اللوثرية فى مناطق كثيرة من بوهيميا (تشيكيا)، وسلوفاكيا، وبولونيا، وغيرها، ولكنها لم تتمكن أن تصير هناك مذهباً سائداً.

سابعاً: الفرق والحركات التى انشقت عن البروتستانتية قبل صلح «ويستفاليا»

بتوطيدها لحرية العقل فى قضية الإيمان، ودعوتها إلى إعادة قراءة الكتاب المقدس، والاقتصار عليه ـ فقط ـ فى أخذ العقيدة، ورفض التقيد بالتقليد المسيحى الذى انبنى فى الكنيسة عبر القرون، فتحت الحركة الإصلاحية البروتستانتية ـ ربما دون أن ترغب بذلك ـ الباب أمام الكثيرين ليعيدوا النظر فى الفهم الكنسى التقليدى الموروث للكتاب المقدس، ويراجعوا كل التراث المسيحى التقليدى بأسره، الأمر الذى أدى إلى نشأة مجموعة من الحركات والمذاهب المسيحية الجديدة، الراديكالية فى إصلاحاتها، والتى ابتعدت عن مسيحية الكنيسة التقليدية، وحاولت العودة لجذور رسالة المسيح الأصلية أكثر بكثير مما فعلته اللوثرية أو الإصلاح. وشكّل أتباع مثل هذا الاتجاه ـ الذين نشئوا على تربة بروتستانتية، رغم أن البروتستانتية لا تقرهم ـ ما سمى بالشيع والفرق البروتستانتية، كان أشهرها ـ فى عصر الحركات الإصلاحية فى الغرب ـ فرقة الأنابابتيست Anabaptists، أو القائلون بتجديد العماد، أو إعادة المعمودية، وفرقة المينونيُّون Mennonites أتباع الكاهن الهولاندى «سيمونس مينو»، وفرقة السوسيانيون Sociamism، أو التوحيديون الرافضون للتثليث أتباع اللاهوتيين الإيطاليين «ليليو سوزينى»، وابن أخيه الطبيب «فاوستو سوزينى»، وفرقة الأرمينيانيون Arminianism أتباع اللاهوتى الهولاندى «يعقوب الأرمينى».

١ ـ فرقة «الأنابابتيست» أو القائلون بتجديد المعمودية

تسمّوا هكذا من إعادتهم معمودية كل الداخلين فى جماعتهم. ويمثلون تياراً بروتستانتياً أكثر راديكالية ويسارىّ الاتجاه، ويتلخص تعليمهم بأنهم توسعوا أكثر فى المبادئ البروتستانتية حول الاتصال الشخصى بالله دون الحاجة لوساطة الكنيسة والإكليروس، فأكدوا بأن روح الله يعيش ويعمل فى

داخل كل مؤمن، يقدسه ويقودُ جميع أفكاره وشعوره ومطالبيه وتصرفاته. وأنهم ـ كمقدسين ومقادين بروح الله ـ يعدون أنفسهم قديسين، وجمعيتهم كنيسة القديسين، ولأجل الدخول فيها يطلب إعادة المعمودية. وباسم هذه القداسة والقيادة بروح الله رفضوا كل القوانين الموجودة والأنظمة والترتيبات الكنسية والمدنية، معتبرين إياها ضغطاً على حرية الروح العامل فيهم. وقد اشتهر «القائلون بتجديد العماد» بالسعى لهدم كل السلطات الموجودة؛ سواء الكنيسة أو المدنية، ليؤسسوا على أنقاضها مجتمعاً جديداً ـ كنيسة القديسين ـ يقوم على مبادئ الحرية، والمساواة، والاشتراك العام بالأموال، وما أشبه. فهذا كان جوهر حركتهم وفكرتهم.

كان أول انطلاق للحركة التى سميت بحركة القائلين بتجديد المعمودية An-abaptists فى زوريخ فى سويسرا العام ١٥٢٠م، عندما أخذ الواعظ الكنسى «توماس مونتزر» Thomas Munzer يدعو سامعيه لطرح كل الأنظمة الحكومية الظالمة الموجودة، ورفض القتال فى جيوشها، وبناء نظام مسيحى عادل جديد. وأخذ يطوف ألمانيا للغايات الثورية ذاتها، وكان معه ـ فى هذا المسعى الثورى ـ كل من نيقولا شتورخ، رجلٌ بسيطٌ صاحب معمل، ومارك شتيينر الذى كان طالباً فى جامعة فيتنبرغ. على أثر مواعظه تلك، طُرد «مونتزر» من زوريخ عام ١٥٢١، لكن أتباعه بقوا فيها، وتابعوا تنظيم بناء جماعتهم، وانتقلوا ـ بسرعة ـ من الكلام إلى العمل، مثيرين شغباً ضد السلطات المدنية، فألقى القبض على بعضهم، وأودعوا السجون، واضطر الآخرون للهرب والاختفاء. وذهب «شتورخ ستيينر» وغيره من الدعاة من زرويخ إلى فيتنبرغ آملين أن يجدوا عند المصلحين الألمان موافقة على خُطتهم بشأن تنظيم المجتمع الجديد. ولكنهم لم يحظوا بقبول أفكارهم، بل طردوا من هنالك أيضاً (سنة ١٥٢٢).

لكنَّ أفكارهم وحركتهم ظلت تنتشر، وتجد لها أتباعاً فى سويسرا، وألمانيا، والنمسا، وهولندا؛ حيث ظهر فى هذه البلدان عدة زعماء دينيين واصلوا منهج نقد الكنيسة وتصرفاتها السلطوية الاجتماعية، والمناداة بإزالتها، وكان من جملة

ما نادوا به أن الإنجيل لم ينص على معمودية الأطفال، بل إن تعليمه ينفى فائدة مثل هذه المعمودية، التى لا يعقل الطفل منها شيئاً، وكذلك لم ينص الإنجيل على ممارسة القداس Mass (أى مناولة الناس للعشاء السرى فى الكنيسة)، ومن أشهر من نادوا بهذا الاتجاه كونراد غروبيل Konrad Grebel السويسرى المولود فى زوريخ، وفيليكس مانتزر Munzer، وسيمون ستامف، وجورج بلوروك، وبلتازار هبماير Balthasar Hubmaier الألمانى، وكانوا جميعاً ممن اعتنق فى البداية المبادئ البروتستانتية.

والحقيقة أن هدف هذه الحركة كان السعى إلى إصلاح كنيسة المسيح ومجتمع المسيحيين، والرجوع بهم إلى المسيحية الروحية الأساسية الصحيحة، وقد رأوا أن من مستلزمات هذا الأمر رفض معمودية الأطفال التى تخلق كنيسة عددية. لذلك كانت هذه الفرقة تدعو إلى إعادة معمودية النّاضجين، وقبول انتسابهم الحُرّ إلى الكنيسة.

وبسبب رفضهم للنظام الهرمى لرجال الدين، ورفضهم لتدخل المؤسسات الحكومية المدنية فى الأمور الدينية الخاصة، ورفض خدمة الحكومات وسلطاتها، فقد اتهموا بالعصيان، والخروج على الحكم، وتعرضت حركتهم للاضطهاد العنيف، حتى من باقى الإصلاحيين، فمات غروبيل فى السجن، وقضى بلوروك ومانتزر غرقاً... وتمَّ سنُّ قانون يحكم بالإعدام على كل من يثبت عليه أنه قام بتجديد معموديته، وأدت هذه الاضطهادات إلى خلق تيار ثورى متشدد قام بثورات عديدة، أبرزها «ثورة الفلاحين» فى ألمانيا بقيادة «توماس مونتزر» Munzer Thomas؛ حيث كان «مونتزر» هذا يطوف ألمانيا ساعياً فى نشر أفكاره الثورية والإصلاحية الجذرية فى أوساط الناس؛ لاسيما طبقات المحرومين والفلاحين من أبناء الشعب.. مما حرك الكثير من الفلاحين فى ألمانيا للثورة على الملاكين والسلطات. وهكذا؛ فقد أخذ «مونتزر» على عاتقه دور المصلح الكنسى والمدنى فى آن معاً، وصار على رأس الثائرين (ثورة الفلاحين)، ولكن جنود الأمراء والمالكين تمكنوا من دحره فى إحدى المعارك، وقبضوا عليه،

واعـدمـوه بقطع رأسـه سنة ١٥٢٥م. وتبع هـذا، بدء اضطهـاد عنيف فى ألمانيـا لأتباع هذه الحركة الدينية التى نبزوها بلقب الأنابابتيست، التى معناها الحرفى «رافضـوا العـمـاد»، مع أنهم يرفـضـون عـمـاد الأطفـال: ليس رفـضـاً لأسـاس المعمودية، وإنما لأنهم يرون عماد الطفل عملاً عبثياً؛ لأن العماد يكون للناضج الواعى عن اختيار ورغبة، وقد شـارك كل من الكاثوليك والبروتسـتانت معاً فى اضطهـاد أتبـاع هـذه الفـرقـة، وحـرقـهم، وإعـدامـهم بلا رحـمـة، لكن كل تلك الاضطهـادات لم تمحُ الأنابابتيـست، وظلوا ينتـشـرون فى سـويسـرا، وألمانيـا، وهولندا، وكانوا إهاصاً لنشأة فرقة المعمدانيين فيما بعد، والتى لا تزال من أكبر الفرق المنبثقة عن البروتستانتية، والباقية إلى اليوم (سنتحدث عنها لاحقاً).

٢ ـ فرقة الأنابابتيست المينونيون

انبثقت الفرقة المينونيـة أو الكنيسة المينونيـة Menonits عن حركة تجديد المعمودية (الأنابابتيست) فى القرن السادس عشر، بل يعتبرها كثيرون فرعاً من فروع (الأنـابابتيـست). فبالتزامن مع بدء ضعف أتباع الأنابابتيست، قام الكاهن الهولاندى «سيمونس مينو» Simons Menno (١٤٩٢ . ١٥٥٩) بإحياء فكرها من جديد فيما عرف باسم الفرقة المينونية؛ نسبة لاسم مُؤسِّسها. كان «سيمون مـينّو» ـ فى بداية أمـره ـ كـاهنـاً كـاثوليكيـاً من هولندا، دخل سنة ١٥٣٦، فى صفوف «حركة إعادة أو تجديد المعمودية» Anabaptists، ثم قام بتجديد تلك الفـرقـة، وإعـادة بنائهـا على قـواعد أخـلاقيـة صـارمة، ونجح فـى الصـمـود مع مجموعته فى وجه الاضطهـادات، وأقـام نظامـاً كنسيـاً شـديداً مـحـدد التعاليم الدينية، وبفضل نشاطه الذى لم يعرف الكلل لمدة خمسة وعشرين عاماً؛ تمكن من تنظيم الأنابابتيست المشتتين فى جمعيات منظمة، وحولهم من ثوار أشداء عنيفين هدامين إلى أناس سلاميين، محبين للعمل، متمسكين بأهداب الأخلاق والسلام، نبراسهم فى ذلك خطبة موعظة الجبل المعروفة للسيد المسيح.

ولكونهم من الأنابابتيست؛ فقد رفضوا معمودية الأطفال، وبقوا يؤمنون

بنفس مبدأ الإيمان والأمل بأنهم جمعية القديسين، فاستمرت الكنيسة المينونية تؤكد بأن المعمودية لا تنفع الأطفال غير العاقلين، بل يستحق هذا السر الناضجون الواعون فقط، بل يجوز أن تمنح المعمودية للأطفال، حتى فى خطر الموت، لأنهم يخلصون بدونه. وتحتفل الكنيسة بالعشاء السرى ثلاث مرات فى السنة فقط، وترى فيه معنى تذكيرياً فحسب. أما موضوع رفض الأنظم القائمة، الذى كان قد اعتمد لدى «الأنابابتيست» الأوائل أسلوب الهدم والثورة؛ فقد انعكس - بعد تجديد وإحياء الفرقة على يدى الكاهن «سيمون مينو» - بشكل آخر: وهو الابتعاد عن خدمة الدولة فى كل شكل من أشكال العنف، مما يستتبع وجوب الامتناع عن الجندية والخدمة العسكرية، وكذلك الابتعاد عن الخصومة وأداء القسم فى المحاكم، وبالإجمال؛ العيش فى حياة سلمية Pacifie محضة، وبالتالى؛ مقفلة ومنحصرة فى جمعيتهم.

وكان المينونيون أول من طالب بفكرة فصل الدين عن الدولة فى الغرب، كما كانوا ممن رفض - بشدة - نظام العبودية وتجارة العبيد الظالمة التى ازدهرت فى ذلك العصر، على عكس بعض الكنائس الرسمية والحكومية (الكاثوليكية أو البروتستانتية أو الأنجليكانية) التى لم تحارب ذلك العمل البربرى اللاإنسانى، بل ربما باركته، وتعاونت معه؛ بحجة إنقاذ العبيد من الكفر، وإدخالهم فى نعيم المسيحية! وكانوا يرفضون ويدينون - تماماً - كل الاستخدامات المسيحية والكنسة للسيف والعنف تحت ذريعة «الحرب العادلة»، أو لنشر المسيحية (كمحاربة وقتل الهراطقة، أو حروب قمع الإصلاحيين، أو الحروب الصليبية، وغيرها).

وقد اعتمد تنظيم المينونيين الكنسى على مبدأ أن تكون كل كنيسة محلية مستقلة عن غيرها؛ يُديرها شخص أو أشخاص عديدون تختارهم الجماعة المحلية.

ولا يزال المينونيون يجتمعون حتى الوقت الحاضر - بنوع خاصٍ - فى هولندا، منذ أن منحوا فى سنة ١٥٨١، حرية ممارسة عباداتهم. وتوجد جماعات المينونيت - أيضاً - فى روسيا، وفى القارة الأمريكية؛ حيث يصل عدد

اتباعها حوالى الـ٤٠٠ الف، منهم ٢٠٠ ألف فى أمريكا الشمالية، وكانوا هم والأنابابتيست الأصليين سلف الكنائس المعمدانية ذات الدور والأهمية البالغة فى أمريكا.

٢ـ الحركة السوسيانية أو «فرقة التوحيديين»

يعود اسم هذه الفرقة إلى لاهوتيين من عائلة إيطالية واحدة تدعى عائلة سوسينى، أو سوزينى Sozzini or Sozini هما القاضى (ليليو سوزين» Lelio Sozini'(١٥٢٦ ـ ١٥٦٢) وابن أخيه الطبيب ««فاوستو سوزين» (١٥٣٩ ـ ١٦٠٤).

أهم ما ميز هذه الحركة هى إحيائها لعقيدة كانت الكنيسة قد اعتبرتها ـ منذ القديم هرطقة، وهى عقيدة وحدانية الأب فى ذاته، وأقنومه، وشخصه، ونفى إلهية المسيح، وبنوته الحقيقية لله، المستتبعة لأزليته، ومساواته لله فى الجوهر، والقول ببنوة تشريفية، أو بالتبنى، ونفى إلهية الروح القدس كأقنوم منفصل لله، وبالنتيجة؛ نفى عقيدة التثليث تماماً، ولهذا؛ سمى أتباع السوسيانية «المخالفون (أو المضادون) للتثليث» Anti - Trinitarians.

وفى الحقيقة؛ يعتبر الطبيب واللاهوتى المحقق الأسبانى ميخائيل سيرفيتوس Michael Servetus (١١٥١ ـ ١٥٥٣) الإرهاصة الأولى لهذه الحركة المضادة للتثليث، والتى اشتهرت ـ فيما بعد ـ باسم السوسيانية؛ حيث كان أول من أعطى ـ بأبحاثه الجريئة؛ مثل كتابه «حول أخطاء التثليث» In De Trinitatis Erroribus (نشره عام ١٥٢١)، وكتاب «إعادة المسيحية إلى حقيقتها الأصلية» Christianismi Restitutio (١٥٥٣) ـ دافعاً قوياً للأفكار التوحيدية المنكرة للتثليث والتجسد فى أوساط أحرار الفكر فى أوروبا فى القرون الوسطى.

كان «سيرفيتوس» هذا قد تأثر ـ فى بداية أمره ـ بحركة الإصلاح البروتستانتية، لكنه خطا بعد ذلك، فى الإصلاح، خطوات أكثر جذرية وجرأة، فأعلن بطلان عقيدة التثليث، ورفض ألوهية المسيح بشدة، وكان يسمى الثالوث

بـ«الوحش الشيطاني ذي الرؤوس الثلاثة!» وقام بحركة نشطة جداً في الدعوة إلى الوحدانية المحضة لله، فاتهمته الكنيسة بالهرطقة، واعتقلته، ثم أعدمته حرقاً، لكنها لم تستطع إعدام أفكاره وكتاباته التي انتشرت في وسط وشرق أوروبا، ولقيت عديداً من الأتباع والمؤيدين.

أما الشخصيتان ذاتا التأثير المباشر في نشأة الجماعة السوسيانية (ومنهما أخذت اسمها)؛ فهما اللاهوتيان الإيطاليان اللذين أشرنا إليهما أعلاه، «ليليو سوزيني»، وابن أخيه «فاوستو سوزيني».

ولد «ليليو سوزيني» في مدينة «سيينا» Siena في إيطاليا، ودرس الحقوق، وامتهن القضاء، وتعلم اليونانية والعبرية والعربية، وقام بدراسة مفصلة وعميقة للكتاب المقدس Bible، قادته للتعاطف مع عمل الإصلاحيين البروتستانت، فزار سويسرا، وفرنسا، وإنجلترا، وهولندا، وألمانيا، وبولاندا، والتقى في كل بلد زعماء البروتستانت فيها، لاسيما اللاهوتي الإصلاحي الألماني «ميلانختون» Melanchthon، والفرنسي «جان كالفن» John Calvin، واعتنق المبدأ البروتستانتي الاشتراكي، ووصل في أبحاثه إلى قناعة تقول بأنه في فهم وتفسير الكتاب المقدس - كمصدر تعليم وحيد للإيمان - يجب أن يقبل ما يمكن للعقل أن يفسره ويقبله فقط، أما ما يناقض صريح العقل؛ فلا يمكن قبوله. لذلك لمّا وجد أن التعليم المسيحي عن الله الواحد المثلث الأقانيم لا يدركه العقل، بل يناقض العقل، رفض هذه العقيدة بالثالوث المقدس، وأكد أن الله أقنوم واحد فقط.

أمضى «ليلو سوزيني» بقية حياته في زوريخ، وكتب عدة مباحث لاهوتية حول القربان المقدس Sacrament وحول بعث الأجساد، اقترب فيها - لحد كبير - من أفكار اللاهوتيين البروتستانت. وعلى الرغم من أنه وضع عقيدة التثليث موضع شك وتساؤل، إلا أنه لم يصل إلى حد تصريحه ببطلانها تماماً، بل اعتبرها مسألة اجتهادية، مؤكداً على حق كل إنسان في بحثها، واعتناق ما توصله إليه نتيجة بحثه فيها.

أما ابن أخيه الطبيب «فاوستو سوزينى»؛ فقد تأثر كذلك بأفكار عمه، ولما أخذ يصرخ بها، حكمت عليه محكمة تفتيش العقائد بالهرطقة، فهرب من إيطاليا، وساح لمدة ثلاثة أعوام بين زوريخ، وجنيف فى سويسرا، وليون فى فرنسا، ثم عاد إلى إيطاليا حوالى سنة ١٥٦٣، وبقى ساكتاً مدة ١٢ سنة، يعمل فى مهنته كطبيب فى مدينة فلورانس، دون أن يثير ما يزعج الكنيسة الكاثوليكية. لكنه - فى النهاية - رحل عام ١٥٧٥، إلى مدينة «بازل» فى سويسرا، واستقر بها؛ ليكون أكثر حرية فى ممارسة تأملاته، وصياغة أفكاره، ونشرها؛ حيث تعمق فى دراسة اللاهوت، وقام بمناقشات عديدة مع لاهوتيين من البروتستانت، ثم بدأ يظهر آراءه الإصلاحية الجذرية (الراديكالية)، التى وجدت لها أنصاراً وموافقين، وصارت أفكاره تعرف - فيما بعد - باسم «السوسيانية»، على الرغم من رفض صاحبها لأى تسمية لأفكاره بأنها تمثل فرقة خاصة جديدة، بل كان يعتبر أفكاره مجرد عودة صحيحة لرسالة المسيح الحقيقية التى نالها التحريف والتشويه عبر الأجيال فحسب.

أكد «فاوستو سوزينى» أن يسوع المسيح كان إنساناً ونبياً ورسولاً ناطقاً باسم الله، ومُبلغاً لكلمة الله، وموهوباً قوة إلهية خارقة الحد، ولكن؛ لم يكن يسوع إلهاً ولا تجسداً لله، أو لأحد أقانيم الثالوث الإلهى، وأن المسيح إذا كان يُدّعى ابن الله، فذلك بالتبنى، لا بالولادة، ومثل ذلك الروح القدس، فقد رفض إلهيته المستقلة، معتبراً إياه قوة إلهية فقط. وهكذا قضى على عقيدة التثليث من أساسها، مؤكداً فردانية الله، وأنه ذو أقنوم واحد فحسب؛ (أى ذو شخصية واحدة، وليس متعدد الأشخاص)، ثم رفض عقيدة الخطيئة الأصلية الموروثة التى تحتاج لتكفير، ووافق - فقط - على أن فى الإنسان ميلاً إلى الشر موروثاً. وكنتيجة طبيعية لذلك؛ رفض فكرة الفداء المسيحية القائلة بأن المسيح صلب وتألم كفارة لخطيئة البشر، بل فسر عمل الفداء الذى أتمه المسيح بأنه دلّ الناس بواسطته على طريق الكمال والتضحية الأخلاقية التى تقودهم إلى الحياة الأخلاقية المغبوطة والسعيدة بعد الموت. وأخيراً؛ رفض فكرة الجبر؛ أى التحديد

السابق لمصير الإنسان، التى ركز عليها البروتستانت؛ لاسيما الكالفانيين. ومع هذا؛ كان يجيز عبادة المسيح كتعبير عن إجلاله وتعظيمه والتماس العون منه؛ باعتبار أن الله رفعه، ومجده، وأعطاه كل قدرة فى الأرض والسماء.

نشر «فاوستو سوزينى» أفكاره تلك فى رسائل إصلاحية؛ رد فيها كل عقائد الكنيسة الأساسية فى تثليث، وتجسد، وكفارة، وغيرها، فانتشرت كتاباته ورسائله وتعاليمه فى كل مكان، وعرفت مدرسته أو مذهبه اللاهوتى باسم «السوسيانية»، أما مخالفوه؛ فسموا أتباعه بـ«الآريانيين الجدد» (أى أتباع مذهب الأسقف الإسكندرانى القديم آريُوس الذى أنكر إلهية المسيح، وقال بتفرد الله الأب بالإلهية). ورغم أنه وجد أتباعاً فى سويسرا وألمانيا، إلا أنهم كانوا أفراداً مشتتين، قليلى العدد، مغمورين بين البروتستانيين المتعصبين، لذلك هاجر «فاوستو سوزينى»، ورفاقه الفكريون، سنة ١٥٥١، إلى بولاندا، وترانسلفانيا Transylvania (منطقة جبلية واسعة وسط دولة رومانيا الحالية)، آملين أن يستطيعوا أن يشكلوا ـ هناك ـ جمعية خاصة بهم. وقد تمكن «فاوستو سوزينى» ورفاقه من تحقيق ذلك سنة ١٥٦١، فقد وجد التوحيديون أتباعاً كثيرين فى ترانسلفانيا، وبولاندا؛ لاسيما فى وسط الأمراء والأشراف. وكان أول انتشار لها عندما أعلن طالب بولاندى اسمه «بيتر جونيسيوس» Peter GO-nisius، تلك الأفكار التى أوقعت معركة من الأراء بين أهل التثليث والقائلين بأقنومين ـ فقط ـ فى الله، وبين القائلين بوحدانية الأقنوم فى الذات الإلهية الواحدة الصرّفة، وكان نتيجة هذا الاختلاف الفكرى انفصال الكنيسة البولاندية المصلحة الصغيرة Minor Poland Reformed Church، عام ١٥٦٥م، أو كنيسة الإخوة البولانديين، التى حملت نفس الأفكار التوحيدية للسوسيانيين، وسرعان ما برز ـ كزعماء لهذه الكنيسة الجديدة ـ شخصيات مثل «غريفورى بول» Gregory Paul، و«مارسين جيكويتش» Marcin Czechowic، و«جورجن سكومان» Georg Schomann.

وكان فى بلاد ملك ترانسلفانيا «جون سيغيسموند» John Sigismund،

طبيب إيطالى الأصل يدعى «جيورجيوس بلاندراتا» Georgius Blandrata (اتى به كطبيب خاص لعروس الملك الإيطالية أيضاً)، كان ذلك الطبيب من معتنقى الأفكار السوسيانية، فلعب دوراً هاماً فى التأثير على الملك بأفكاره، مما جعل الملك يسمح للسوسيانيين بنشر أفكارهم فى مملكته بحرية، بل صار الملك نفسه - فيما بعد - من معتنقى هذه الأفكار، والمشجعين على نشرها، وبث نفى التثليث، ونفى العقائد التقليدية فى ربوع مملكته، وسرعان ما أصبحت مدينة راكوف جنوب بولاندا - منذ عام ١٥٦٩ - نواة لما عُرف باسم جماعة الإخوة البولانديين.

وهكذا ساعدت الأمور «فاوستو سوزينى»، فلم تأت نهاية القرن السادس عشر إلا وقد تشكلت فى بولاندا، وترانسلفانيا جماعات مستقلة من المؤمنين السوسيانيين مع كنائسهم ومدارسهم. وكان من أهم ما نشره - هناك - كتابه القيم «تفسير القسم الأول من الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا» Explanation of the First part of the First Chapter of John's Gospel (انتشرت أول طبعة منه فى ترانسيلفانيا عام ١٥٦٧ - ٦٨)، ثم كتابه «حول يسوع المسيح المخلص» On Jesus Christ, the Saviour (طبع أول مرة عام ١٥٩٤)، وكتابه «حالة الإنسان الأول قبل السقوط» On the State of the First Man Before the Fall (أول طبعة عام ١٥٧٨).

وبفضل ما انضم إلى الجماعة السوسيانية التوحيدية من النبلاء فى بولاندا لم تنلْ الجماعة حريتها الكاملة، والاعتراف بإيمانها فحسب، بل بلغت حد الازدهار. وبعد وفاة «فاوستو سوزينى» جمعت رسائله وكتاباته فى بولاندا فى كتاب واحدٍ نشر فى مدينة «راكوف» Rakow البولاندية عام ١٦٠٥م، ولذلك أخذ اسمَ كتاب «العقيدة الراكوفية» Racovian Catectism. بالطبع؛ أسخطت كتابات ومطبوعات التوحيديين المتعصبين من المسيحيين، مما حدا بجماعة هائجة من عوامِّهم أن يهاجموا المطبعة السوسيانية الشهيرة، والمدرسة السُّوسيانية فى مدينة راكوف، ويدمروها تدميراً.

ومن الجهة الأخرى؛ كانت السوسيانية قد لقيت رواجاً فى هنغاريا (المجر

أيضاً: بفضل القسيس الرومانى فرانسيس ديفيد Francis (Ferens) David (١٥١٠ ـ ١٥٧٩)، الذى كان أسقفاً كاثوليكياً، ثم اعتنق البروتستانتية، ثم وصل ـ بفضل دعوة الطبيب الإيطالى «جيورجيوس بلاندراتا» Georgius Blandrata (المذكور أعلاه) ـ إلى أفكار مشابهة لأفكار «فاوستو سوزينى» فى إبطال التثليث، ونفى الوهية المسيح، بل أكثر من ذلك؛ أعلن بُطلان وخطأ توجيه العبادة للمسيح، مما أحدث ضجة كبيرة بين المسيحيين هناك. وقد أثمر التعاون بين القسّ «فرانسيس ديفيد» وطبيب البلاط «بلاندراتا» فى نشر كتابين هامين من كتب التوحيديين، هما: «حول خطأ وصواب وحدانية الله الأب، الابن، والروح القدس» ,On the False and True Unity of God the Father Son, and Holy Spirit» (انتشر عام ١٥٦٧) والثانى «حول هيمنة المسيح» On the Reign of Christ (نُشر عام ١٥٦٩)، واللذين بدت فيهما ـ بشكل واضح ـ أفكار التوحيديين «سيرفيتوس» الأسبانى و«سوزينى» الإيطالى. هذا؛ وقد أثرت دعوة القس فرانسيس ديفيد حتى فى ملك هنغاريا نفسه، الذى أصدر بياناً أمر فيه بإعطاء «التوحيديين» حرية العقيدة.

لم يدم الحال للتوحيديين أو أتباع السوسيانية على هذا النحو الطيب، بل كان لابد للتعصب الدينى ضدهم أن يفعل فعلته؛ حيث بدؤوا يتعرضون لاضطهاد وحشى منظم منذ عام ١٦٣٨، فحرق الكثير منهم أحياءً، أو حرموا من حقوقهم المدنية، وأحرقت كتبهم، وفى عام ١٦٥٨، وبإلحاح من جماعة الجيزويت (اليسوعيين الكاثوليك)، خير الناس بين قبول الكاثوليكية، أو الطرد للمنفى، أو الإعدام، وبهذا؛ تم طرد التوحيديين من بولاندا، فهاجر الكثير منهم إلى هولندا، وتوزع الآخرون فى أطراف أوروبا، وظلوا فئات منفصلة لفترات طويلة، وبقى جماعة منهم فى ترانسلفانيا (لا تزال باقية إلى اليوم)، وانتشرت أفكار التوحيديين إلى هولندا، ثم بريطانيا، وأخيراً؛ سرتْ للولايات المتحدة الأمريكية، وكانت وراء نشوء الفرقة الشهيرة التى تسمَّتْ باسم التوحيديين .THe Unitarians

٤ ـ فرقة الأرمينيانيين Arminianism

بدأت جماعة الأرمينيانيين عندما قام لاهوتى هولندى بروتستانتى يُدعى «يعقوب الأرمينى» Jacobus Arminius، كان فى البداية كالفينى المشرب، وصار واعظاً إصلاحياً منذ سنة ١٥٨٨، ثم أستاذاً للاهوت فى جامعة ليدن Leiden منذ سنة ١٦٠٣، بدأ بمحاضراته ومواعظه يرد على العقيدة الجبرية المحزنة والمكرية التى بثها «جان كالفن» بشأن لاتحديد السابق لقدر كل إنسان، بنحو يسلب منه حرية الاختيار، فقد أثبت «يعقوب الأرمينى» حرية الاختيار لدى الإنسان، وأن له دوراً أساسياً فى مصيره قائلاً: إن القول بحرية الاختيار لا يتناقض ـ أبداً ـ مع عقيدة التحديد السابق لقدر ومصير كل إنسان، والتى ينص عليها الكتاب المقدس.

وأكد «يعقوب الأرمينى» فى مواعظه ومحاضراته بأن الله ـ منذ الأزل ـ اختار أناساً للنجاة، وآخرين للهلاك، كما بينه يسوع فى مثال الخراف والجداء[1]، ولكنّ هذا لا يستتبع إجبارهم على ما يفعلون، بل إن الناس ينالون مصيرهم بناءً على ذنوبهم التى يرتكبونها بمحض اختيارهم وإرادتهم الحرة التى منحهم الله إياها، وأن هذا هو المتوافق مع العدل الإلهى والحكمة الإلهية. وقد انضم كثيرون إلى هذا التعليم الجديد فى هولندا. ولكن؛ قام ضده الثابتون على التعليم عن سابق التحديد المحتَّم. وكان على رأس هؤلاء فرانس غومار رفيق «يعقوب الأرمينى» فى الجامعة. وبدأ الجدل الحادُّ بين الأرمينيين

(١) إشارة إلى ما جاء فى الإنجيل: «٣١ ومتى جاء ابن الإنسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه فحينئذٍ يجلس على كرسى مجده. ٣٢ ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض، كما يميز الراعى الخراف من الجداء. ٣٣ فيقيم الخراف عن يمينه، والجداء عن اليسار. ٣٤ ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركى أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم... ويقول أيضاً للذين عن اليسار: اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته... ٤٦ فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدى والأبرار إلى حياة أبدية». إنجيل متى الإصحاح ٢٥/٣١ ـ ٤٦. وهنالك نصوص عديدة تنفى الاختيار السابق؛ منها قول بولس مثلاً: «تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح، فقد باركنا كل بركةٍ روحيةٍ فى السموات فى المسيح، ذلك بأنه اختارنا فيه قبل إنشاء العالم لنكون فى نظره قديسين». أفسس ١/ ٣ ـ ٤.

والغوماريين. وبعد «يعقوب الأرمينى» سنة ١٦٠٩، طورت مجموعة من الكهنة واللاهوتيين - الذين أيدوه، واتبعوه فى فكرته عن سابق الاختيار الإلهى - نظاماً عقائدياً لاهوتياً عقلانى المنحى، مرتكزاً على تعاليمه، بينوا فيه أن الاختيار الإلهى السابق مبنى على الإيمان، وأن الإنسان بإمكانه باختياره أن يرفض النعمة الإلهية، وأن عمل المسيح كان مقصوداً منه كل الناس والبشرية جمعاء، وأنه من الممكن لبعض المؤمنين أن يسقطوا ويُحرموا من نيل نعمة الله التى حصلت بالفداء. وقد أثاروا لغطاً واحتجاجاً ومعارضة عام ١٦١٠م، بسبب هذا الإعلان، وحمى وطيس الجدل بين الموافقين والمخالفين، واتخذ بسرعة - كالعادة - شكلاً سياسياً؛ لأن موريتس ورانسك الشهير مُحرِّر هولندا من الأسبان، انحاز لجهة الغوماريست الرافضين لعقيدة الإرمينيانيين، أملاً أن يتمكن - مساعدتهم - من إزالة إدارة الجمهورية فى هولندا، وأن يصير ملكاً. وفى المجمع العام الإصلاحى فى أوترخت Utrecht (سنة ١٦١٨ - ١٦١٩): حكم على الأرمينيانيين كهراطقة، وتعرضوا لاضطهادات عنيفة. ولكن؛ بموت موريتس فى سننة ١٦٢٥، استعادوا حقوقهم الوطنية، وحصلوا على حرية الاعتراف بالإيمان.

ثامناً: الكنائس والحركات البروتستانتية

لم تكن الحركة البروتستانتية واحدة، بل كانت - كما شاهدنا - متعددة، ونشأ عنها - فى مختلف بلدان أوروبا - عديدٌ من الكنائس والحركات، وكانت أهم وأشهر الكنائس البروتستانتية هى التالية:

١ - الكنيسة اللوثرية

يُشكل اللوثريون أكبر كنيسة بروتستانتية فى العالم. تأسست الكنيسة اللوثرية فى أوائل القرن السادس عشر على التعاليم والمعتقدات التى نادى بها «مارتن لوثر» رائد الإصلاح البروتستانتى. وعلى الرغم من ذلك، تؤكد الكنيسة اللوثرية أنها تتبع - فى الواقع - التعاليم المسيحية الأصلية التى ترجع إلى عهد

ما قبل الإصلاح.

ليس لدى اللوثريين أى شكل تنظيمى يميزهم من بقية الطوائف المسيحية الأخرى. فبعض الجماعات اللوثرية ترى ضرورة أنْ يكون لها أسقف، بينما يصر البعض الآخر على الولاء للكرادلة ورجال الكنيسة المحليين، وبين هذين الاتجاهين المتشددين توجد مجموعات لوثرية أخرى.

ليس للوثريين طريقة عبادة موحدة. فبعض ترانيم رجال الدين اللوثريين ترانيم تقليدية تشبه الترانيم الكاثوليكية، أما البعض الآخر: فيقترب من طريقة العبادة التطهرية البسيطة التى تدعو إلى تبسيط طقوس العبادة والتمسك الشديد بالفضيلة.

التعاليم: تعاليم ومبادئ «مارتن لوثر» هى التى تفصل بين اللوثريين وبقية الكنائس المسيحية الأخرى، وأشهر بيان لتعاليم لوثر جاء فى كتابين كتبهما عام ١٥٢٩م، وضمنهما خلاصة العقيدة فى قالب سؤال وجواب، بالإضافة إلى اعترافات أوغسبيرج عام ١٥٣٠م. وتشكل هذه التعاليم أسس العقيدة اللوثرية، وهى أن خلاصة البشرية مُرتهن برحمة الله، وليس بالسلوك الأخلاقى والأعمال الطيبة، وبتعبير آخر: إن رحمة الله هى التى تخلص الناس من خطاياهم، والفداء بدم المسيح، وعندما يتحرر الإنسان من خطاياه يصبح مخلوقاً جديداً، قادراً وراغباً فى خدمة الله، وخدمة إخوانه. ويرى اللوثريون أن الإنجيل يبين هذه الرسالة، ويؤكدها بطريقة لا مثيل لها. ويعتقدون أن أثر الإنجيل أقوى من تعاليم الكنيسة. وللوثريين قربان مقدسان هما المعمودية، والعشاء الربانى، مع رفض عقيدة الاستحالة Transubstantiation فى العشاء السرى ـ أى التحول الحقيقى السرى للخبز والخمر الذى يتناوله المؤمن أثناء القدّاس إلى جسد ودم المسيح فيه حقيقةً كما يعتقده الكاثوليك والأرثوذكس ـ والاكتفاء بالحضور الروحى المصاحب للمسيح Consubstantiation فى الخبز والخمر المتناول فى القدّاس، بمعنى أن الخمر والخبز يمثلان اتحاداً معنوياً وروحياً مع جسد ودم المسيح، ويسمى العشاء السرى ـ أيضاً ـ بالقربان المقدس،

أو قربان المذبح.

ويشكل التاريخ الاجتماعى للكنيسة - أيضاً - جانباً من المبادئ والمعتقدات اللوثرية. ويعيش كثير من اللوثريين فى الدول الإسكندينافية (كالسويد، والدانمرك، والنرويج)؛ حيث تعد اللوثرية دين الدولة، ويعيش كثير منهم فى ألمانيا أيضاً. أما اللوثريون الذين يعيشون خارج أوروبا؛ فيتحدرون من الأوروبيين الشماليين، لذا؛ نجد كثيراً من ملامح حضارة شمالى أوروبا وثيقة الصلة بالتراث اللوثرى، مثال ذلك الإحساس القوى بالمسئولية أو الواجب الفردى؛ إذ يُعدُّ صفة مميزة للوثرية الألمانية، كما يُعدُّ - كذلك - للوثريين وللألمان أيضاً.

واللوثريون محافظون - أى غير ثوريين - تجاه القضايا السياسية والاجتماعية التى يدور حولها خلاف، ويرجع ذلك إلى ارتباط الكنيسة بحضارات أوروبا الشمالية والطبقات الحاكمة آنذاك. ولقد ساعد لوثر على تهيئة هذا الاتجاه حين أكد على أهمية الطاعة، وحذَّر من عاقبة الفوضى السياسية والاجتماعية التى يخشاها أكثر من خشيته من الظلم، ولكن: فى بعض الأحداث السياسية - مثل أحداث المجر فى القرن التاسع عشر - كانت الكنيسة اللوثرية أكثر ثورية من الكنائس الأخرى.

٢ - الكنيسة المنهجية أو الميثودية Methodists

الميثوديون أو المنهجيون هم أتباع الحركة الدينية الإصلاحية التى قادها فى أوكسفورد/ إنجلترا عام ١٦٢٩، اللاهوتى الأنجليكانى البريطانى «جون ويزلى» John Wesley (١٧٠٣ - ١٧٩١) وأخوه تشارلز (١٧٠٧ - ١٧٨٨) محاولين فيها إحياء كنيسة إنجلترا.

كان «جون ويزلى» الابن الخامس عشر للقسّيس البريطانى الأنغليكانى صموئيل ويزلى. تلقى تعليمه فى المدرسة، ثم فى كنيسة المسيح فى جامعة أوكسفورد. رُسم شماساً عام ١٧٢٥، وقبل فى سلك كهنوت الكنيسة الأنجليكانية

عـام ١٧٢٩، وعـمل لفـتـرة راعـى كنيـسـة مـسـاعـداً لأبيـه. وانـتـقل للإقـامـة فى أكسـفـورد عـام ١٩٢٩، كزمـيل لكلية لـينكولن، وهـنـاك انضم إلـى الـنـادى المقـدس، الذى كـان يضم مـجـمـوعـة من الطلاب، وفـهم أخـوه «تشـارلز ويـزلـى»، وضمَّ - كـذلك - «جـورج وايت فـيلد» George Whitefield الذى أصـبـح - فـيـمـا بـعـد - مؤسس الميثودية الكالفينية. كـان أعـضـاء ذلك النادى يلتـزمـون - بشـكل صـارم ودقـيق ومنـهـجى - بالمبـادئ والتـعـاليم الـدينيـة، بما فـى ذلك زيارة المسـاجـين والمرضى وتسكينهم، ومن هنا؛ كـان زمـلاؤهـم فى الدراسـة يطلقـون عليـهم - من باب السخرية - اسم «المنهجيين» Methodists.

فى عـام ١٧٣٥، سـافـر ويزلى إلى ولاية جـورجـيـا فى أمـريكا ضـمـن بعـثـة تبشـيرية أنجليكانيـة، والتقى فى السفينة بعض المورافيين الألمان، الذين أثرت فيهم تقواهم الإنجيلية البسيطة. وبقى على اتصـال معهم أثناء إقامته فى ولاية جورجـيـا، وقـام بتـرجـمـة بعض ترانيمهم إلـى اللغـة الإنجليـزية. وباسـتـثـنـاء هـذه الزمالة، كانت تجربة ويزلى الأمريكية فاشلة.

لدى عودته إلى إنجلترا عـام ١٧٣٨، سعى ويزلـى إلى لقاء المورافيين ثانية، وأثناء حـضـوره إحـدى اجتـمـاعـاتهم فـى لندن شـعـر بيـقظة وصـحـوة دينيـة فى داخله، أقنعتـه - بشكل عميق بأن الخلاص ممكن لـكل إنسان من خـلال الإيمـان بسوع المسيح فقط. ورغم مـعارضته الابتدائية لإلقـاء المواعظ خارج الكنيسة، إلا أن ويزلى بدأ فـى أبريل عـام ١٧٣٩، بإلقـاء موعظة فـى الهواء الطلق، والأمـاكن العامـة، وقد أحـدثت مواعظه تأثيراً حمـاسياً كبيـراً فى سـامـعيه، مما أقنـعه بأن المواعظ فـى الهـواء الطلق أفـضـل طريقـة للوصـول إلـى جمـاهـيـر الـنـاس، ولكن؛ بالطبع لم يتح له عـددٌ كـبـيرٌ من المنابر نظراً لكون الـكنيسـة الأنكليكانيـة كانت تتجهم بالحركات الإحيائية.

فى الواقع؛ استطاع ويزلى أن يجـذب عـدداً كـبـيراً من الجمـاهـيـر من خـارج سلكه الإنجيلى، كمـا أن نجاحه يعود - فى جزء منه - إلى كون إنجلترا المعـاصـرة كانت مـسـتـعـدة لحـركـة إحيـائيـة؛ حيث لم تكن الكنيسة الأنكليكانية قـادرة على

تقديم ذلك النوع من الإيمن الشخصى للناس المتعطشين. من هنا؛ لقد تشديد ويزلى على الديانة الداخلية وتأكيده أن كل إنسان تم قبوله كابن لله ترحيباً وجاذبية واسعة لدى الناس فى بريطانيا.

فى الأول من أيار/ مايو ١٧٣٩، شكل ويزلى - مع مجموعة من أتباعه، التقوا فى حانوت فى لندن - أول جماعة ميثودية أو منهجية، ثم انتشرت مثل هذه الجماعات فى مناطق أخرى من بريطانيا، وفى آخر ١٧٣٩، تم تأسيس بناء سُمِّى «الأساس»، وخدم كمركز قيادة الحركة المنهجية لسنوات عديدة. مع تنامى الحركة؛ برزت حاجة مُلحة إلى التنظيم. لذلك بدءاً من عام ١٧٤٢، تمَّ تقسيم الجماعات إلى شعب، وتعيين زعيم لكل شعبة. وقد ساهمت لقاءات تلك الشُّعب فى نجاح الحركة بشكل كبير، بالإضافة للدور الشخصى الهام الذى لعبه زعماء تلك الشعب، الذين كان يُعيِّنهم ويزلى نفسه، ثم مُنذُ عام ١٧٤٤، بدأت تُعقد مؤتمرات سنوية للزعماء الميثوديين.

كان ويزلى واعظاً ومنظماً لا يعرف الكلل، كان يقطع ما يزيد على ٨٠٠٠كم سنوياً ، ملقياً أربع أو خمس خطب فى اليوم، ومؤسساً لجماعات جديدة.

اختلف ويزلى مع المورافيين عام ١٧٤٠، بسبب عقيدتهم حول القضاء السابق المحتوم (العقيدة الجبرية)، مما جعله ينفصل عن وايت فيلد، كما أنه اختلف مع عدد من نزعات كنيسة إنجلترا، بما فى ذلك عقيدة الخلافة الرسولية؛ (أى المحافظة على سلسلة غير منقطعة من أساقفة الكنيسة المسيحية تصل إلى القدس بطرس الرسول)، ولكنه لم يقل - أبداً - إنه كان ينوى إنشاء كنيسة جديدة، ومع ذلك؛ كانت النتيجة لا يمكن اجتنابها لأفعاله وأفكاره وقوع هذا الانفصال عن الكنيسة الأنكليكانية بعد وفاة ويزلى.

فى عام ١٧٨٤، اصدر ويزلى إعلاناً حدد فيه قواعد ونظم لهداية وإرشاد الجماعات الميثودية (المنهجية)، وفى نفس العام: قام بتعيين مساعده توماس كوك، رجل دين أنكليكانى، كرئيس للتنظيم الميثودى (المنهجى) فى الولايات

المتحدة، مفوضاً إليه إدارة الطقوس السرية، وترسيم الكهنة، وكان إعطاء حق ترسيم الكهنة يمثل أهم خطوة باتجاه الانفصال عن الكنيسة الأنكليكانية، ذلك الانفصال الذى لم يحدث إلا بعد موت ويزلى. لقد كان ويزلى مهتماً - بشكل عميق - برفع المستوى الثقافى والاقتصادى والصحى لجماهير الناس، وكان كثير التأليف فى موضوعات تاريخية ودينية مختلفة، وقد ألف ٢٣ مجموعة من الترانيم، وترجم عن اليونانية واللاتينية والعبرية. فى أيام أحياته الأخيرة: تلاشت عداوة الكنيسة الأنجليكانية لحركة ويزلى المنهجية، بل أبدت الكنيسة الأنجليكانية إعجابها بها، ولما توفى - سنة ١٧٩١ - دفن فى كنيسة سيتى رود فى لندن، وتم وضع لوحة تذكارية باسمه فى دير ويستمنستر Westminster Abby الشهير.

تميز وعظ الأخوين ويزلى بناحيتين بارزتين تميزت بهما حركة المنهجيين، الناحية الأولى هى دعوة الجميع إلى الاستجابة للرب من خلال يسوع المسيح فحسب، والناحية الثانية هى دعوة الذين استجابوا إلى الاندماج فى جمعيات. وقد طور الأعضاء فى الجمعيات القواعد الانضباطية للحياة المسيحية، وذلك بشكل أساسى من خلال الفروع التى سميت شعباً، وكانت الشعب تلتقى أسبوعياً فى ظل التوجيه الروحى لقائد الشعبة.

وبانتشار الحركة: برز جون ويزلى قائداً، وتشارلز شاعراً. وقد ألف تشارلز ٧,٠٠٠ ترنيمة دينية، وبذلك أعطى ميثوديست صفة متميزة أخرى هى التعبير عن إيمانهم من خلال الغناء. وظلت مجموعة الترانيم الدينية (١٧٨٠م) عملاً روحياً كلاسيكياً يخص الكنيسة العالمية. وكان الدور الرئيسى لجون تنظيم الجمعيات فى نظام متصل يمكن التحكم فيه من خلال مؤتمر يعقد سنوياً.

وعقد هذا المؤتمر فى أول مرة عام ١٧٤٤م. وتميزت «المنهجية» باستخدام جون ويزلى للوعاظ غير المعتمدين. وقد أراد جون ويزلى أن تبقى الجمعيات حركة إصلاحية داخل نطاق كنيسة إنجلترا، إلا أن مقاومة رجال الدين الذين يتبعون الكنيسة الإنجليزية، والحاجة لتوفير إشراف رعوى لأعضاء المجتمع،

أدتا إلى الانفصال عن الكنيسة.

واعترف ويزلى بهذا الانفصال فى عام ١٧٨٤م، عندما عين توماس كوك، المدير الأول للكنيسة «المنهجية» فى أمريكا. وقام ـ أيضاً ـ بمنح كوك سلطة تعيين فرانسيس أزبورى ليخدم بالطريقة نفسها.

وقد تم تأسيس أبرشية الكنيسة «المنهجية» (الميثوديستية) فى عام ١٧٨٤م، فى مؤتمر عيد الميلاد الذى عقد فى بالتيمور بولاية ماريلاند فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكان كوك وأزبونى أول أساقفتها. وانتشرت الطائفة الجديدة بسرعة، وبخاصة من خلال الوعظ الرحالة، المعروفين باسم المبشرين الرحالة، الذين نشروا رسالة الميثوديستية فى الساحة الأمريكية الواسعة.

التَغيُّر الاجتماعى والانقسام

عندما تعززت الميثوديستية، أفسحت القواعد الأولى للجمعيات المجال لهيكلة اجتماعية كنسية ذات مطالب أقل. وقد تصاعد التوتر، وكان بعضه يعزى إلى قضايا عبر محلولة تخص حكم الكنيسة، وذلك بعد وفان جون ويزلى فى عام ١٧٩١م. إلا أن السبب لهذا التوتر يعزى إلى أن الميثوديستية ركزت على نمط حياة معين لمسيحيى العالم. وأدى هذا التركيز إلى جعل أعضائها مشاركين فى التغيرات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر الميلادى. وشكل بروز حركة اتحاد التجارة الصراع الرئيسى فى بريطانيا. أما فى الولايات المتحدة؛ فقد تمثل فى الرق.

وبد أدت هذه المسائل إلى حدوث انقسامات عديدة فى صفوف الميثوديست. وقد تجسد الانقسام الأول فى بريطانيا، بتشكيل الرابطة الميثوديستية الجديدة فى عام ١٧٩٧م، والتى تبعها الميثوديست الأوائل فى عام ١٨١٠م. أما فى الولايات المتحدة؛ فقد أدت الانقسامات إلى تأسيس الكنيسة الميثوديستية الويزلية فى عام ١٨٤٣م، والكنيسة الميثوديستية الحرة فى عام ١٨٦٠م. وتم تأسيس عدد من الكنائس الميثوديستيةالزنجية؛ وتضم الكنيسة

الإفريقية عام ١٧٨٧م، وأبرشية كنيسة الرب الميثوديستية الإفريقية عام ١٧٩٦م، وأبرشية الكنيسة الميثوديستية الأسقفية للملونين عام ١٨٧٠م، والتى سميت - فيما بعد - بالكنيسة المسيحية. وقد حدث أهم خلاف حول الرق عام ١٨٤٤م، وأدى إلى انقسام الأبرشية الكنسية الميثوديستية إلى طائفتين شمالية وجنوبية. وأدت الاختلافات العقائدية إلى تكوين كنيسة الناصرة عام ١٩٠٨م.

وقد جرت اجتماعات موسعة لإعادة لمّ الشمل فى بريطانيا عام ١٩٣٢م، وفى الولايات المتحدة عام ١٩٣٩م. وفى عام ١٩٦٨م، تأسست الكنيسة الميثوديستية الموحدة. وأصبح الميثوديست جزءاً من كنيسة كندا المتحدة عام ١٩٢٥م، والكنيسة الأسترالية الموحدة عام ١٩٧٧م.

يؤكد كل الميثوديين - عموماً - على الأخلاقية الفردية والاجتماعية، وعلى المسئولية الشخصية أيضاً. ويتبع جميع الميثوديست Methodists «جون ويزلى»، ويقبلون الإنجيل ركناً أساسياً للإيمان، وبينما يعدون كلاً من التقاليد المسيحية والفلسفة مصدرين ثانويين، فإنهم يؤكدون على أهمية التجربة الدينية مقياساً مهماً فى الإيمان.

٢ - الكنائس المشيخية والكنائس المصلحة

الكنيسة المشيخية أو المشيخانية Presbyterian Church واحدة من عدة كنائس بروتستانتية يدير شئونها شيوخ منتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية. فهم - كسائر فوق البروتستانت - يرفضون البابوية؛ أى الدعوى بأن البابا خليفة المسيح، ويرون أن شيوخ الكنائس مرتبتهم متساوية، ولقد كان «جون كالفن» أول من دعا إلى الأخذ بهذا الأسلوب فى إدارة الكنيسة، ثم تبناه - من بعده - جون نوكس، والهوغونوت، أو البروتستانت الفرنسيون.

ويتميز المشيخانيون Presbyterians بانقسامهم إلى جماعات، يرأس كل جماعة شيخ منهم، يسمى بشيخ الجماعة Presbyter، وتهتدى الجماعة بهديه، وتتلقى عنه. وفلسفتهم فى ذلك أن الناس خلقوا أحزاباً، وأنه لابد لكل حزب

من كبير لهم، فهكذا كانت البشرية منذ الأزل. وأكثر الكنائس المشيخية تدين مذهب كالفن البروتستانتى.

وتشكل الكنائس المشيخية - فى الواقع - مجموعة كبيرة من كنائس الطوائف البروتستانتية فى البلدان الناطقة بالإنجليزية، وتشكل الأغلبية بالنسبة للكنائس البروتستانتية التى انتشرت فى العالم الجديد؛ أى القارة الأمريكية؛ خاصة الولايات المتحدة، هذا؛ وتدعى الكنائس من هذا القبيل، فى خارج البلدان الناطقة بالإنجليزية، بالكنائس المصلحة، أو القويمة Reformed Churches مثل الكنيسة المصلحة الهولندية، وأحد شعارات هذه الكنائس الإصلاح الدائم. وتنتمى زهاء ١٠٠ طائفة مسيحية إلى الاتحاد العالمى للكنائس المصلحة.

وبشكل عام؛ يطلق على جميع الكنائس البروتستانتية التى اتبعت تعاليم المصلحين البروتستانتيين السويسريين «جان كالفن» و«ألوريخ زفينغلى» اسم الكنائس المصلحة Reformed Churches (ولكالفن التأثير الأكبر فيها)، وذلك فى مقابل الكنائس البروتستانتية التى اتبعت تعاليم الإصلاح الألمانى «مارتن لوثر»، والتى يطلق عليها اسم الكنائس اللوثرية أو البروتستانتية Lutheran or Protestant. ومن أهم الفروق بين الإثنين أن الكنائس المصلحة - تبعاً لتعاليم كالفن وزفينغلى - لا تؤمن لا بالاستحالة Transubstantiation - أى تحول الخبز والخمر لجسد ودم المسيح فعلاً فى جسم المتناول لهما فى العشاء السرى (الأفخاريستيا)، كما هى عقيدة الكاثوليك والأرثوذكس، ولا بالحضور الروحى الفعلى للمسيح Consbstantiation فى الخبز والخمر فى القداس، كما هو تعليم مارتن لوثر، بل ترى فى تناول الخمر والخبز فى العشاء السرى مجرد إحياء لذكرى العشاء الربانى للمسيح والتلاميذ فحسب. كما أن الكنائس المصلحة رفضت بعض المراسم الكنسية التى بقيت الكنائس اللوثرية محتفظة بها.

وتشير كلمة مشيخى إلى نموذج مميز من أشكال إدارة الكنيسة. ويدير أعضاء الكنيسة المشيخية مجالس تسمى الجلسات أو المجامع الكنسية المؤلفة من قس وعدد من الشيوخ العلمانيين غير الكهنوتيين. وتبعث الجلسات ممثلين

عنها إلى مجالس الكنيسة التى تدعى مجامع أعضاء الكنيسة أو الشعب التى تشرف على التجمعات فى المنطقة. وتتمثل مجمعات أعضاء الكنيسة فى المجامع الكنسية أو الجمعيات. وتعمل الإدارة النيابية على جميع المستويات؛م بحيث يشترك شيوخ علمانيون فى الإدارة مع القساوسة، ويكونون - جميعهم - على قدر المساواة، ويكون لجميع القساوسة مرتبة متساوية.

التعاليم والعبادة: يرجع المشيخيون والمصلحون - دائماً - إلى الإنجيل؛ باعتباره السلطة الفاصلة فى الأمور المتعلقة بالشئون الدينية. وقد أصدرت الكنائس سلسلة من البيانات الرسمية التى تعبر عن تفهمها للحقيقة الإنجيلية. ومن بين الوثائق الرئيسية للاهوت الإصلاحى، وأكثرها شغفاً وتأثيراً: كتاب هايدلبيرج للتعليم الدينى بالسؤال والجواب (١٥٦٣م)، وكتاب وستمنستر الوجيز فى التعليم الدينى بالسؤال والجواب (١٦٤٧م). والكتاب الأول هو الأكثر استخداماً فى أوروبا، أما الكتاب الثانى؛ فهو أكثر شيوعاً فى البلدان الناطقة بالإنجليزية. ويعد كتاب العقيدة المعتمد من قبل الكنيسة المشيخية الأمريكية، والصادر فى ١٩٦٧م، إحدى الوثائق الرسمية الأخرى.

وكان جون كالفن أكثر اللاهوتيين تأثيراً خلال سنوات تطور تعاليم حركة الإصلاح. وكان كالفن مفسراً للإنجيل أكثر من كونه مفكراً ذا أفكار مترابطة. ويدور جدل بين الدارسين، فيما إذا كان بالإمكان تلخيص أفكار كالفن فى موضوع واحد. وتتمثل إحدى النقاط الرئيسية فى تفكيره، فى الإيمان بأن الله هو الحاكم الوحيد الحقيقى الموجود الذى يحكم جميع المخلوقات. ويعد هذا الاعتقاد أساسياً بالنسبة للتعاليم الإصلاحية بشكل عام.

ويعد الإيمان بالقضاء والقدر من الموضوعات المهمة الأخرى، ولا يركز كالفن عليه كثيراً، إلا أنه يعد أكثر أهمية فى فكر اللاهوتيين الإصلاحيين اللاحقين. والإيمان بالقضاء والقدر هو الإيمان القائل بأن الله يقرر المصير الأزلى للبشرية. ولم يعد الإيمان بالقضاء والقدر موضوعاً مميزاً فى التعاليم المصلحة.

وفيما يتعلق بالعبادة؛ فقد كانت الكنائس المصلحة تركز - دائماً - على الوعظ، بالإضافة إلى المناسك الإنجيلية المقدسة المتعلقة بالعماد والعشاء السرى. وقد أفرزت الكنائس المصلحة عدداً كبيراً من الوعاظ. وتميزت العبادة الجماعية فى الماضى، بإنشاد المزامير المترجمة إلى اللغات الدارجة (اللغات المحلية) والمقفاة. وخلال المائة أو المائتى عام الأخير حلت التراتيل محل المزامير بصورة عامة. وتم التخلى مؤخراً - إلى حد كبير - عن صلاة القداس الرسمية المعمول بها خلال فترة الإصلاح فى القرن السادس عشر، ليحل محلها الصلاة الحرة فى بداية القرن السابع عشر، وقد عادت الكنائس المصلحة - جزئياً - إلى وضع صيغ للعبادة.

لقد كانت تعاليم الحركة المصلحة - على الدوام - أكثر التعاليم انتشاراً فى العالم، بالنسبة للهيئات البروتستانتية الرئيسية. وعلى خلاف الإنجيلية واللوثرية، كان يتم تنظيم الكنائس المصلحة - فى غالب الأحيان - دون دعم حكومى، بل كان يتم ذلك فى بعض الأحيان تحت ظروف الاضطهاد. وكان العديد من زعمائها - ومن بينهم جون كالفن ونوكس - منفيين أو لاجئين من فرنسا، أو إنجلترا، أو اسكتلندا، أو هولندا، أو ألمانيا، أو إيطاليا، أو بولندا، أو المجر.

وكانت جنيف بسويسرا مركزاً دولياً مهماً للاجئين. ومن جنيف؛ انطلقت أفكار الحركة المصلحة، وانطلق زعماؤها إلى أنحاء أوروبا. وأنشئت الكنائس المصلحة فى جميع بلدان أوروبا تقريباً، إلا أنه كان لكل منها معتقداتها، وصلواتها، وشكل إدارتها.

وقد أدت الكنائس المشيخية والمصلحة دوراً مهماً فى حركة التنصير الواسعة فى القرن التاسع عشر؛ إذ إن ما يقرب من نصف الكنائس الأعضاء فى اتحاد الكنائس المشيخية العالمى الحالى هى كنائس حديثة العهد، أنشئت فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، حتى أصبحت الكنائس المصلحة الناطقة الإنجليزية أقلية بالنسبة للكنائس المصلحة الأفريقية، والآسيوية، والأمريكية اللاتينية. وأدت الكنائس المشيخية والمصلحة - فى حالات عديدة - دوراً مهماً

فى تشكيل الكنائس المتحدة مع طوائف أخرى. وهذا ما حدث فى ا لصين، واليابان، وجنوبى الهند، والفيليبين. كما أسهمت الكنائس المصلحة إسهامات كبيرة فى تقديم الأفراد والأموال إلى المنظمات القومية والدولية المكرسة للوحدة المسيحية.

٤ ـ الحركة التطهرية أو البيوريتانية Puritans

تعنى كلمة تطهرية ـ عموماً ـ الجماعة التى ـ فى مختلف الملل والنِّحَل ـ وفى مختلف الأزمنة، تبحث عن عبادة بدون بهارج، وعن التزامٍ صارمٍ بالأخلاق، وتقيدٍ صادقٍ بالمعتقدات التى تؤمن بأنها حقة.

وفى الغرب؛ قصدت الحركة التطهرية العودة إلى المسيحية الأصلية، ومعارضة الكنائس السائدة، وما يتعلق بها من كهنوتية، وما تقدمه من تقسيمات فى الواجبات الدينية.

وبالمعنى التاريخى؛ تدل كلمة تطهرية عل الحركة التى قامت فى القرن السادس عشر، وفى القرن السابع عشر، فى إنجلترا، من أجل متابعة الإصلاح المعتقدى الذى وضعته إليزابيث من أجل إصلاح النظام الكنسى والطقوسى. وقد نشأت التطهرية فى إنجلترا فى أواخر القرن السادس عشر كحركة إصلاحية متأثرة بالكالفنية، ومستهدفة تبسيط طقوس العبادة وشعائرها، والدعوة إلى التعلق المتزمت بأهداب الفضيلة. ويتمثل جوهر «التطهرية» بنزوع التطهريين نحو الالتزام الصارم بالأخلاق المسيحية، وبشكل العبادة، وبالعيش فى مجتمع مدنى ملتزم أخلاقياً، يطيع إرادة الله، ويعمل بوصاياه.

وتطلق كلمة متطهر Pruitan على كل من أتباع هذه الحركة الذين هاجروا إلى أمريكا بين سنة ١٦٢٠ و ١٦٤٠م، وحاولوا أن يقيموا فيها طائفة دينية وسياسية تتوافق مع معتقدهم المثالى. وقد عمل عدة علماء اجتماع ـ بأساليب شتى ـ على إباز العلاقة بين العقلية التطهرية وروح الرأسمالية.

أ ـ التطهرية الإنجليزية

لقد حفظت البروتستانت الإنجليز، فى القرن السادس عشر، البنيات الكهنوتية الوسيطية من الضياع، فظلت البلاطات يغلب عليها الطابع الأسقفى فى مجال السياسة، وظل تراكم الأرباح حتى عن طريق الربا مقبولاً، أما المناصب العامة؛ فظلت تمتلك بالشراء.. وعلى العموم، بقيت الطقوسية Ritual-ism والمراسمية هى السائدة فى كل المعاملات..

ضمن هذه البنيات الجامدة المواد التسع والثلاثون التى صدرت عن الملكة إليزابيث ١٥٣٣ ـ ١٦٠٣، عقيدة بروتستانتية ميالة إلى الكالفينية، دون أن تشمل عى أى تنظيم إلزامى للكهنوت، وبموجبها؛ كانت السلطة الملكية تسمى الأساقفة، وكانت تستخدمها كأجهزة إدارية.

إلا أن عقلية أكثر ميلاً إلى الإصلاح كانت سائدة فى الطبقات الاجتماعية، خاصة فى الطبقة الوسطى من سكان المدن. وكانت لمواعظ الكهان فى القرن الرابع عشر أثر بالغ فى نفوس الناس.

وعندما حاولت الملكة مارى تيودوره (١٥١٦ ـ ١٥٨٨) (ملكت ست سنوات من ١٥٥٣ إلى ١٥٥٨) إعادة الكاثوليكية إلى إنجلترا، شنت حملة كبيرة على البروتستانت. فهرب قسم منهم إلى سويسرا، وشكلوا فى جنيف طائفة من المهجرين بقيادة السكتلندى جون نوكس. ولما عادت هذه الطائفة إلى إنجلترا مع استلام إليزابيث الحكم، حاول بعض منهم أن يفرس فى الأرض الإنجليزية الأفكار والممارسات التى اتبعها المصلحون السويسريون، فيما يخص الطقوس والتنظيم الكنسى. وقامت فى اسكتلندا، بتأثير من نوكس كنيسة مشيخية (برسبيتارية) وطنية.

وفى سنة ١٥٦٥، استعملت كلمة متطهر للدلالة على هؤلاء الإصلاحيين الذين كانوا يبحثون عن دين بسيط نقى، ونزيه، وخالٍ من التعقيد، ومجتمع نقى بعيد عن الانحلال. وبحكم مبالغتهم فى الالتزام بمعتقدهم؛ وقفت منهم

الأسقفية الأنكليكانية والعرش معها موقف العداء. وعمدت السلطات - بمختلف الوسائل - إلى ترحيلهم. إلا أن الظروف السياسية، والخطر الأسباني الذى تهدد بريطانيا - يومئذ - أخر تنفيذ التدابير بحقهم. كما قامت فئة منهم تنادى بالاعتدال، وبعدم معاداة الأسقفية، وبإعطاء الأساقفة الحق فى إدارة شئون الرعية الدنيوية دون المعتقدية.

ورغم الاضطهاد ظلت التطهرية قوية، خاصة فى جامة كمبريدج؛ حيث كان العداء مستحكماً ضد المراسمية، وضد اليهارج والتسلية والملاهى، حتى إن القيمين على الجامعة كانوا يطالبون بإلغاء الزينات من الكنائس، وإبطال لباس الكاهن الذى يميزه من سائر الرعية، كما كانوا يطالبون بإلغاء بعض ترتيب أثاث الكنيسة خلافاً للأصول المتبعة..

وانتشرت الأفكار التطهرية عن طريق توزيع النشرات، وعن طريق الوعظ. وكان الكهنة الأنكليكان قليلى المعرفة بالوعظ.

ولذلك عمد بعضهم - من المحتاجين مادياً - إلى بيع منصب الواعظ إلى متخرجين من الجامعة، الذين كانوا - غالباً - من التطهرية البارعين فى الوعظ، ومعرفة التحدث إلى الناس. وكان الكاهن يكتفى - عندئذ - بتقديم المراسم.

وكان الناس يحبون التعلُّم عن طريق سماع المواعظ الدينية؛ لأن الواعظ كان يقدم لهم - إضافة إلى التعليم الدينى - سلسلة من الأخبار والمعلومات والتعليقات الدينية الاجتماعية والسياسية، حتى أصبح الوعظ نوعاً من المحاضرات الشعبية.

وبفضل الصدقات والعطايا والهبات؛ استطاع الوعاظ التطهريون أن يؤدوا النفقات الكثيرة المتوجبة عليهم؛ خاصة من جراء المحاكمات، وفى الدعاوى التى كانت تقام ضدهم.

وأخيراً؛ تنبهت الكنيسة إلى مخاطر هذه المواعظ، فألغت بيع مناصب الوعاظ.

وشكلت الطوائف الجمعية Congregationalists التى طورد أعضاؤها - فيما بعد - وأخرجوا من إنجلترا، تياراً أقلياً داخل الحركة التطهرية التى كانت غالبيتها المشيخانية (البرسبيتارية) Presbyterians تريد المهادنة، وتخشى التفرقة والانشقاق. وكان اتباع هذا التيار ميالين إلى البرلمان، وينتمون إلى الطبقة الوسطى من أهل المدينة. وفى مواجهة الخطر الذى كانت تشكله الثورات الشعبية - بالنسبة إلى النظام القائم - حاول ملك إنجلترا تشارلز الأول Charles I (١٦٠٠ - ١٦٤٩) (حكم من ١٦٢٥ إلى ١٦٤٩)، عند خلافة مع البرلمان، وفى مطلع الحرب الأهلية، أن يعتمد على تضامن المالكين[1]. ولكن الأعيان من جماعة البرلمان - خاصة فى شرقى إنجلترا ولندن - حطموا هذا الحلف، أو هذا التضامن، واعتمدوا على الشعب للقيام بالثورة الإنجليزية. ويرى ش. هيل أن تقدم التطهرية ساعد على هذه القطيعة بين الملك والمالكين، فقد كان ثمانون بالمئة من الوعاظ التطهريين من شرقى إنجلترا. وعمل هذا على تخفيف خوف الملاكين من الشعب؛ لأن الشعب كان محتضناً ومحاطاً تماماً.

وفى لندن؛ لم يكن أصحاب المصانع الصّغار من التطهريين يخشون عُمَّالهم؛ لأنهم كانوا - فى المساء - يعلمونهم القراءة والكتابة والأفكار الدينية والسياسية. وشكل هؤلاء الصناع من الحياكين والأجراء الدائمين طبقة وسطى مضمونة الجانب: فقيرة، ولكنها تؤمن بالإصلاح إيماناً قوياً.

وأدّى إعدام الملك شارل الأول وأهمية الجمعيات المستقلة التى كان أعضاؤها من بين جنود أوليفر كروم Oliver Cromwell (١٥٩٩ - ١٦٥٨)[2]،

---

(١) كان الملك تشارلز الأول يعتقد بالحق الإلهى للملوك، وأن الملوك فوق القوانين، وفوق أى محاسبة من قبل البرلمان. وقد أثار بسلوكياته الثورة الإنجليزية التى وقعت فيها الحرب الأهلية بين جيش الملك والجنود التابعين للبرلمان. وقد هزمت جيوش الملك، وقبض عليه البرلمانيون، وأودعوه السجن، ثم أدين بالخيانة، وحكم عليه بالإعدام بقطع الرأس، وتم تنفيذ ذلك فى يناير من عام ١٦٤٩. (دائرة معارف إنكارتا الأمريكية).

(٢) أوليفر كرومويل زعيم الثورة الإنجليزية (١٦٤٠ - ١٦٦٠)، وأحد التطهريين، وأول عضو عموم بريطانى يحكم بريطانيا، مع أنه من عامة الناس (أى خارج العائلة المالكة) فى فترة إلغاء الملكية، بعد الإطاحة بالملك تشارلز الأول.

ومن المثقفين اليساريين، ومن بعض شرائح الطبقات الشعبية، وميلها للتسامح، إضافة إلى الفرق السياسية الأصلية أو الراديكلية، إلى إرهاب أكثرية التطهريين البرسبيتاريين، وبعد موت أوليفر كرومويل؛ خاف هؤلاء على أنفسهم، وساعدوا على عودة الملكية.

وكان البرلمان كهنوتياً فى معظمه، فحرَّض الملك تشارلز الثانى (١٦٣٠ ـ ١٦٨٥)[1] على عدم احترام الوعود المقطوعة للتطهريين المعتدلين. وبعد قانون التوحيد الدينى الذى صدر سنة ١٦٦٢، اضطهد التطهريون حتى ثورة ١٦٨٨، الأمر الذى حمل الكثيرين منهم على الهجرة؛ وخاصة إلى الولايات المتحدة الأمريكية (التى لم تكن تحمل هذا الاسم يومئذ).

ب ـ التطهرية الأمريكية

يمكن أن نميز بين موجتين فيما يخص الهجرة التطهرية خلال النصف الأول من القرن السابع عشر:

الأولى كانت هجرة الآباء الحجاج، وهم تطهريون انفصاليون من المقاطعات الشمالية فى إنجلترا ـ وبعد إبعاد دام اثنتى عشرة سنة فى ليد Leyde فى هولندا، خافوا أن تتحول ذريتهم، وتصبح هولندية، وأن يغطى عليها محيط كانوا يرونه فاسداً من الناحية الأخلاقية وهرطوقياً. فهاجروا على سفينة ماى فلور May Flower إلى أمريكا. وقد مول سفرهم هذا تجار من إنجلترا. وأسسوا فى الولايات المتحدة مدينة «نيو بلايموث» The Colony of New Plymouth (مكان ولاية ماساتشوسيت Massachusetts الحالية)، فأصابتهم هنالك المجاعة والأمراض، فآواهم الهنود الحمر، وعلموهم كيف يزرعون الذرة، وكيف يستعملون السمك كسماد كيماوى، وأنقذوا منهم بضع عشرات من الموت امحتم. وجاءت موجة ثانية أضخم عدداً، فى سنة ١٦٣٠؛ أى بعد سنة من حل البرلمان على يد تشارلز الأول. وجلب هؤلاء التطهريون الجدد ـ الذين كانوا قد انفصلوا

---

(١) حكم إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا فى الفترة: (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥).

عن الكنيسة الأنجليكانية ـ معهم الرساميل التى أتاحت لهم الاعتناء بالأرض، وأقاموا فى خليج ماساتشوسيت.

اعتبر تطهريو إنجلترا الجديد (نيو انكلاند) أنفسهم شعب الله المختار. وقالوا بأن كنيستهم سوف تكون (إسرائيل) الجديدة، وأنها مملكة الشعب العبرى الوارد ذكرها فى العهد القديم. وكانت أمريكا فى نظرهم هى أورشليم الجديدة، والملاذ الذى اختاره الله لهم لكى يحميهم من الفساد، ومن الفناء. أما الهنود الحمر؛ فكانوا فى نظرهم بقايا شعب ملعون، قاده الشيطان إلى هذه القارة حتى يحكم. وكانت هذه الأفكار ذريعة دينية تبرّر اغتصاب الأرض من قبل هؤلاء الدخلاء الجدد. ورغم أنهم صرَّحوا ـ فى معظمهم ـ أنهم أمناء لكنيسة إنجلترا، فقد عمد هؤلاء التطهريون إلى تنظيم وظائفهم وفقاً للأسلوب المشيخى (البرسبيترى). وكانت الكنيسة ـ يومئذ ـ محور الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية. ولكى يكون المرء عضواً فى الأبرشية كان عليه أن يعلن عن ولائه للأبرشية، وأن يزكيه أعضاؤها الآخرون. وكانت أكثرية السكان فى المدينة تذهب إلى الكنيسة دون أن يكون كل فرد عضواً إلزامياً فيها. وحتى دون أن يكون متمتعاً بحقوق المواطن. أما المستبعدون: فكانوا مطاردين من قبل السطة المدنية. وكان القيمون على العقيدة يؤخذون من داخل الطائف، وهى التى تنتخبهم، ولم تكن هناك تراتبية كنسية. وفى سنة ١٦٤٨، صادق مجمع كمبريدج على صك الإيمان الصادر فى «وست منستر» Westminsetr.

وفى زمن كان الدين والسياسة فيه متداخلين، لجأت التطهرية إلى القاضى ليحكم على أولئك الذين يعتبرهم هرطقويين، ولكنها علمت أتباعها روح التمرد إلى حد الخروج على القانون. وبعض أعضائها فضلوا الإبعاد مرة ثانية على الخضوع. فقد ذهب رجل الدين التطهرى الإنجليزى الأصل روجز وليمز Roger Williams (١٦٠٣ ـ ١٦٨٣) مؤلف كتاب الهرطقتان، (الهرطقة الأولى تؤكد أن حقوق الهنود فى الأرض هى حقوق صحيحة ومحقة. والهرطقة الثانية تمنع القضاة المدنيين من ممارسة سلطات كهنوتية)، ليؤسس مستعمرة «رود آيلند»

Colony of Rhode Island التى غدت مهد الكنيسة المعمدانية، وملاذ الحرية الدينية. ولما اضطهد الكويكرز رجعوا إلى بنسيلفانيا؛ حيث أظهروا التسامح الشديد. وعند محاكمات مدينة «سالم» Salem فى ماساتشوسيت بتهم الشعوذة فى سنة ١٦٩٢، حصل نوع من الاضطهاد الدينى، حكم على أثره على تسعة عشر شخصاً بالموت.

وفى أواخر القرن السابع عشر؛ أدت المصاعب المادية والحروب ومجىء غير الطهوريين إلى خمور الوهج الدينى والأخلاقى عند التطهرية الأمريكية. وتم التخلى عن النظام التيوقراطى، وسمح لكل إنسان ملاك بالتصويت، وبصورة تدريجية؛ شاع التسامح الدينى، واستقر.

ج ـ التطهرية والرأسمالية

فى كتابه الشهير الخلفية البروتستانتية والفكر الرأسمالى، يحلل م. ويبر البروتستانتية، وخاصة التطهرية فى الفكر الرأسمالى، ويرى أن العقيدة الكالفينية حول المصير المحتوم، خلقت نوعاً من الهلع والنشاط والنجاح المهنيين، يفسرهما المؤمن كمؤشر على الاصطفاء الربانى. وبخلاف ما اعتقده المؤرخون أن التطهريين كانوا ضد التمتع بالثروة، والنوم على حرير التملك، إلا أنهم لم يكونوا ضد العمل والسعى لجمع خيرات الأرض بالعمل، ولا ضد التملك بالذات. وكانوا يرون أن الرفض الزهدى لمخاطر الثروة لا يتنافى مع الواجب الدينى الرامى إلى السعى من أجل الاغتناء.

ويرى ر. هـ . تونى: «أن الاكتشافات الكبرى ونتائجها الاقتصادية كانت السبب الأساسى فى النمو الرأسمالى، وأن الإصلاح الدينى ـ وخاصة بشكله التطهرى ـ قد تم بفضل صعود الطبقات الوسطى، وبفضل العقلية المتاجرة. وإن التطهرية بعد أن قولبتها البنيات الاقتصادية الاجتماعية، قد ساعدت على تدعيم هذه البنيات بإيجاد المبرر لها باسم الله. وقد وجد الفكر الرأسمالى فى بعض أشكال التطهرية عنصر قوى حيويتها ومزاجها».

ويرى مؤلفون آخرون العكس، ويزعمون أن التطهرية لم تكن لها هذه الأصالة، إذ يرى و. سومبار أن هذه الحركة كان لها تأثير إيجابى على ازدهار الرأسمالية، بمقدار ما استعادت أفكاراً كانت واردة - وبقوة أكبر - فى الديانة اليهودية التى تمتاز بأسبقيتها. وذهب ك. سمويلس إلى أبعد من ذلك، فرفض الفكرة القائلة بأن فكر الرأسمالية كان يمكن أن ينطلق - حتى ولو جزئياً - من تأثير دينى، مهما كان.

فهو يرى أن العقلية الرأسمالية تسير - جنباً إلى جنب - مع زمننة كل النشاطات البشرية بشكل تدريجى. ومهما بدت هذه الملاحظات معقولة، تظل الأطروحة الويبرية دونما دحض. إن هذه النظرية تركز على المظاهر الخصوصية للرأسمالية الغربية الحديثة. إن التطهرية قد لعبت دوراً عند مستوى التنظيم العقلانى والبيروقراطى للعمل الحر.

وهذا الأثر اندمج بعوامل أخرى تاريخية. وويبر يدعو - بإلحاح - إلى تصور أكثرى (تعددى) للسببية، وهو - من جهة أخرى - يبين أنه يوجد فرق بين الرأسمالية اليهودية المتجهة نحو المضاربة والاستغلال - رأسمالية المنبوذين - والرأسمالية التطهرية التى كانت تنظيماً برجوازياً للعمل. وأخيراً؛ إنه لا ينكر أهمية عملية الزمننة، ولكن؛ يبدو أن التقشف العلمانى عند التطهريين قد ساعد هذه العملية، فى حين أن الكاثوليكية قد لجمتها بوجه عام. إن التطهرية كانت موقفاً مميزاً وقفته الطبقة الوسطى الصاعدة، ولكنها - بعد أن نظرت أمانى كانت كامنة - أتاحت للبرجوازية البروتستانتية أن تلعب دوراً اقتصادياً مهماً جداً فاق الدور الذى لعبته البرجوازية الكاثوليكية.

والخلاصة أن التطهرية أو البيوريتانية هى مذهب اعتنقه البروتستانت الإنجليز، ثم الأمريكيون، وله خصوصية فى فهم السياسة المعتقدية الدينية والاجتماعية والاقتصادية... ظهرت فرقتهم فى زمن الملكة إليزابيث. واستهدفت إصلاح كنيسة الدولة، وإلغاء الطقوس والأردية الكهنوتية، ونظام الرتب الكنيسة. ولم تكن الفرقة ترمى - فى أول الأمر - إلى الخروج على العقيدة

الأنجليكانية، إنما وجدت فى لندن سنة ١٥٦٧، جماعة تسير فى عبادتها على أسلوب أهل جنيف. وهكذا بدأ الانشقاق - تدريجياً - عن الكنيسة الرسمية. فظهر المشيخيون (البرسبيتاريون) والانفصاليون، وتبعهم الجمهوريون الذين انضموا إلى الكالفينيين فى مقاومتهم لكنيسة إنجلترا. وعندما انتصرت حركتهم بمعاضدة التطهريين أخذ هؤلاء يتنازعون فيما بينهم. ووضعت عودة الملكية فى إنجلترا حداً لسيادة التطهريين المؤقتة. وهاجر التطهريون - بعد الاضطهاد - إلى الولايات المتحدة الأمريكية - وظلت الروح التطهرية سائدة هناك لمدة طويلة.

ونظرة المتطهرين إلى المجتمع هى نظرة تيوقراطية، والقس مخوَّل سلطة مطلقة لمراقبة سلوك الفرد. والعائلة عندهم هى حُصن التقوى. وعلى الناس أن يعيشوا فى طاعة الله المعلنة إرادته فى الكتاب المقدس. ويستعمل مصطلح التطهرى - اليوم - للدلالة على التزمُّت الدينى والكبت.

٥ - أصول البروتستانتية أو العقائد المشتركة بين جميع فرق البروتستانت

رغم كثرة الكنائس البروتستانتية وكثرة الانشقاقات ضمنها، إلا أنها - جميعاً - تجتمع على أصول مشتركة هى القاسم المشترك بين جميع الفرق والتسميات والكنائس البروتستانتية المختلفة، ويحس بنا - فى ختام هذا الفصل حول الإصلاح الدينى - أن نلخص هذه الأصول والعقائد والخصائص والمبادئ التى تجمع بين جميع الفرق البروتستانتية، وهى الأمور التالية:

١ - يعتبرون أن التبرير (أى وصول الإنسان إلى البر أمام الله، وقبول الله له)، والخلاص الأخروى الأبدى إنما يكون بالإيمان وحده، وليس بالأعمال، ولا دخل للأعمال فى الخلاص، بل هو هدية مجانية من الله. فمن آمن بالمسيح، وأنه ابن الله الذى فدى البشر، ينال الخلاص بلحظة الإيمان، دونما حاجة للأسرار، أو وساطة الكينسة، أو الأعمال الصالحة، كما يرون أن المؤمن لا يهلك

مهما سقط، أو فعل.

٢ـ لا يستندون ـ فى عقائدهم وتعاليم دينهم ـ إلا إلى الكتاب المقدس Bible وحده فقط، ويرفضون كل عقيدة تأتى من خارجه؛ سواء مما يسمى «بالتقليد الكنسى» Tradition أو التسليم الرسولى، أو المجامع الكنسية، أو غير ذلك، وهذا الأصل جعلهم يرفضون عشرات العقائد والتعليمات والاجتهادات الكنسية الإضافية التى التزمت بها الكنيسة الكاثوليكية عبر العصور. مثل العقيدة بوجود المطهر Purgatory والعقيدة بالحبل بمريم العذراء بلا دنس (زى بلا حمل للخطية الأصلية)، والعقيدة ببقاء عُذريَّة العذراد، وبصعود جسدها بعد دفنها.. إلخ.

وعلى الرغم من اعتماد البروتستانت الكامل على الكتاب المقدس فى إثبات كل ما يؤمنون به، إلا أنهم يختلفون مع الكاثوليك والأرثوذكس فى عدة أمور هامة فى هذا المجال:

الأمر الأول: إن العهد القديم من الكتاب المقدس يضم عند الكنيسة الكاثوليكية ٤٦ سفراً، فى حين يقتصر عند الكنائس البروتستانتية على ٣٩ سفراً فقط، وذلك بحذف سبعة أسفار يعتبرونها (أبوكريفا) Apocrypha أى أسفاراً منحولة، أو مشكوكاً فى أصالتها، وصحة نسبتها، وهى: سفر يهوديت، وطوبيا، والمكابيون الأول والثانى، والحكمة، ويشوع بن سيراخ، وباروك، بالإضافة إلى مقاطع من سفرى استير، ودانيال.

الأمر الثانى: أنه رغم تقديس المسيحيين الكاثوليك والأرثوذكس للتوراة واعتبارهم إياها تمثل كلام الله، إلا أنهم يرون أن المسيح أعطاها تأويلاً جديداً، وفتح برسالته ودمه ـ على حد قول الكنيسة ـ عهداً جديداً ـ فلم يعد من الواجب الأخذ بحرفية شريعة التوراة؛ لأنها كانت عهداً قديماً، والمسيح جاء ببيان تأويلها، والمقصود الحقيقى منها الذى هو شريعة الروح، لا الحرف. فى حين أن البروتستانت ساووا فى الأهمية بين العهد القديم والعهد الجديد

للكتاب المقدس، وأعادوا الاهتمام بالمفهوم الحرفى للعهد القديم، وأخطر ما فى هذا الأمر أنهم اهتموا وأخذوا بالوعد الذى قطعه الله قديماً لشعب بنى إسرائيل بإعطائهم فلسطين أرض الميعاد، فأخذوا بهذه الوعود على حرفيتها، مما جعل كثيرين منهم يتعاطف مع تملك اليهود لأرض فلسطين.

الأمر الثالث: لا يؤمنون بأصوام الكنيسة المأخوذة - فى جزء منها - من تعاليم العهد القديم.

٣ - الاعتراف بالمسيح وحده معلماً، ونفى ضرورة توسط الكنيسة بوزرائها وتمرتباتها فى العلاقة بين الله والمؤمن.

٤ - أداء العبادة والصلوات والتراتيل باللغة الوطنية للمتعبد، والاهتمام بقراءة الكتاب المقدس باللغة الوطنية للقارئ.

٥ - يرفض البروتستانت عبادة مريم العذراء، ودعائها، وطلب الحوائج منها، كما يرفضون عبادة الملائكة والقديسين تحت اسم إكرامهم، ولا يؤمنون بشفاعة القديسين، ولا بالصلاة على الراقدين، ولا يبنون الكنائس على أسماء القديسين، ولا يستعلمون البخور، ولا يوقدون شموعاً لهم، ولا يختلفون بأعيادهم.

٦ - لا يوجد عند البروتستانت نظام طقس خاص لبناء الكنائس، ولا اتجاه إلى الشرق فى الصلاة.

٧ - يؤمن البروتستانت بالحكم الألفى للمسيح عند مجيئه بجسده ثانية إلى الأرض.

٨ - يرفض البروتستانت كل الأسرار والطقوس الكنسية عدا سرّى المعمودية والعشاء السرى (الأفخاريستيا)، فيتفق البروتستانت جميعاً فى رفض سر الاعتراف أمام الكاهن لأجل الغفران، ورفض سر الدهن بالذيت، أو الأصوام، أو العزوبية والتثبت، ويقتصرون على سرى المعمودية والقربان المقدس (العشاء السرى) فقط، ويفسرون الأخير تفسيراً رمزياً فلا يؤمنون بعقيدة الاستحالة Transubstantiation أى تحول خبز وخمر القداس إلى جسد ودم

المسيح فى جسم المتناول تحولاً حقيقياً سرياً كما تؤمن به الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، بل يرون فى تناولهما إحياءً لذكرى فداء المسيح فحسب.

٩ ـ يرفضون إكرام الأيقونات؛ أى صور وتماثيل القديسين والأباء، فلا توجد فى كنائسهم أى تماثيل، أو صور.

١٠ ـ المراسم العبودية عند البروتستانت بسيطة خالية من الفخفخة، فهم لا يستخدمون الآلات الموسيقية والمقاعد داخل المعبد، وهم متحررون من الأزياء والطقوس والمراسم والتمرتبات الكنسية، التى عند الكاثوليك والأرثوذكس، ولا يرسمون شارة الصليب... إلخ.

١١ ـ يؤمن البروتستانت ـ عموماً ـ بحرية العقيدة، وحرية التعليم، وحرية الفكر عند المتعبد.

١٢ ـ العودة إلى البساطة، والفعل الحر، والتساوى بين الشعب والإكليروس، فليس لكنائس البروتستانت من يترأس عليها رئاسة عامة، فهم يرفضون ـ تماماً ـ الرئاسة العامة على الكنائس المعطاة للبابا فى روما، ويؤمنون بما يسمى بالكهانة العامة لكل المؤمنين The Universal Priesthood of Believers؛ أى أن كل مسيحى مؤمن هو كاهن بحد ذاته. كما يشجع البروتستانت ترسيم النساء أعضاء فى الأبرشية، إشارة إلى مكان المرأة فى المجتمع اليوم.

١٣ ـ لا رهبنة عند البروتستانت، ولا تبتل، ولا عزوبية، ولا فقر اختيارى، ولا أديرة.

١٤ ـ يؤمنون بمواهب الروح القدس ـ وخاصة موهبة الألسنة ـ وأنها لازالت قائمة.

١٥ ـ يؤمن البروتستانت ـ خاصة المتأثرين بالكالفينية ـ بنوع من الجبر، المبتنى على الإيمان بحرية اختيار الله لأناس معينين للهلاك، وأناس معينين للخلاص.

تاسعاً: حركة الإصلاح المضاد للكنيسة الكاثوليكية فى نضالها مع البروتستانية

١ ـ مجمع ترينت Council of Trent (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣)

كانت الحركة الإصلاحية التى أثارها «مارتن لوثر» ضربة شديدة لكنيسة روما وللبابوية؛ خاصة أنه، منذ بداية الإصلاح، والبروتستانت الثائرون على كنيسة روما وعلى الكهنة الكاثوليك التابعين لها يضربون على وتر واحد؛ وهو نقد وفضح المساوئ والمفاسد فى الحياة الكنسية، داعين إلى تجديد جذرى، ومطالبين ـ لأجل هذا ـ بمجمع عام.

أدرك الباباوات الخطر المهدد، وبذلوا كل الوسائل الممكنة لتفاديه، فسعى كل من البابا لاون العاشر Leo X (١٥١٣ ـ ١٥٢١) وأدريان السادس Adrian VII (١٥٢١ ـ ١٥٢٣) فى خنق الحركة الإصلاحية بالقوة. وسلحا ـ لأجل هذه الغاية ـ الإمبراطور كارل الخامس ضد لوثر وأتباعه أما البابا كليمنت السابع Clement VII (١٥٢٣ ـ ١٥٣٤)؛ فكان أحد الباباوات الأكثر أهلية؛ إذ فكر ـ بشكل جدى ـ بشأن الإصلاح الكنسى؛ آملاً أن يوقف الغليان الدينى بإجراء إصلاحات فعلية، وإزالة سوء الاستعمال. وعلاوة على اجتهاده فى وضع حد للحركة الإصلاحية بقوة وتأثير الأمبراطور، سعى ـ فى الوقت ذاته ـ باستخدام الدسائس والأنواع المختلفة من الحركات السياسية للقضاء على البروتستانتية، لكن كل مساعى الباباوات ذهبت سدى، فالبروتستانتية انتشرت أكثر، فأكثر، ورغم أن الإمبراطور كان يعمل لصالح كنيسة روما، إلا أنه ـ هو بدوره ـ طلب إصلاحاً كنسياً، وطالب بعقد مجمع عام لهذا الغرض. كان عقد مجمع عام فى ذلك أخطر شىء على السلطة البابوية؛ بسبب النزعة العامة إلى الإصلاح. لذلك تحجج البابا كليمنت السابع بأعذار مختلفة؛ ليتجنب الدعوة لإنعقاد المجمع الذى كان الإمبراطور يطالبه به بإلحاح خاص. ولكن بولس الثالث Paul III (١٥٣٤ ـ ١٥٤٩) خليفة كليمنت فكر فى الأمر بنحو مختلف. فقد رأى أن

المجمع العام، إذا التأم، وصارت قيادته تحت التأثير المباشر للبابا، يمكن أن يكون - حسب تفكيره - وسيلة ممتازة لدحر الحركة الإصلاحية، وتوطيد الكثلكة على أسس متينة، لذلك وافق - بسهولة - على دعوة المجمع؛ مهتماً بأن يجعل المجمع تحت تأثيره.

بعد مفاوضات طويلة؛ تعين مكان المجمع فى سنة ١٥٤٢، مدينة ترينت Trent، على الحدود بين إيطاليا والمانيا. وافتتح المجمع فى سنة ١٥٤٥، وقد حصلت مداولات كثيرة فى المجمع، وتأجلت جلساته مراراً، واستمر ينعقد، وتنشب فيه الخلافات، ثم تؤجل بقية جلساته، ثم ينعقد ثانية، حتى أنهى ذلك المجمع التريدنتى نشاطه أخيراً سنة ١٥٦٣، وأرسلت قراراته إلى كل الجهات الكاثوليكية للعمل بموجبها، ثم منع البابا - بكل حزم، وبمرسوم خاص لأى كان - أن يفهم ويفسر قرارات المجمع بموجب فهمه، وترك هذا الحق محصوراً بالكرسى الرسولى. فأضعف هذا التحديد أهمية قرارات المجمع الإصلاحية. ومع هذا؛ فقد غير مجمع ترنت كثيراً من حياة كنيسة روما إلى الأحسن.

وأهم مقررات المجمع الترينتى أنه ثبت بسلطته تعليم الإيمان الكاثوليكى، وحكم على البروتستانتية مع ما قام به من تحسين فى الحياة الكنسية، معطياً إياها وقوة فى النضال مع الإصلاح. بعد المجمع؛ بدأت القلاقل الدينية تضعف بالتدريج فى البلاد الكاثوليكية، وبذلك وضع حداً لانتشار البروتستانتية فيها.

٢- جمعية اليسوعيين ودورها البارز فى الإصلاح المضاد

علاوة على مجمع ترنت، كان للجمعية اليسوعية، التى ظهرت فى أشد أوقات الإصلاح حراجة أهمية عظيمة فى تاريخ نضال كنيسة روما مع البروتستانتية، أو ما عرف باسم حركة الإصلاح المضاد Counter Reformation.

أسس هذه الجمعية شريف أسبانى هو «أغناطيوس لويولا» St. Ignatius of Loyloa وفى فى قصر من قصور النبلاء فى «جيبوزكوا» Guipuzcoa فى مملكة «الكاستيل» Castile (الجزء الشمالى من أسبانيا الحالية)، وكان ذا ميول

بطولية، دخل فى الخدمة العسكرية تحت قيادة «أنطونيو مانريك» دوق «نجيرا»، وفى سنة ١٥٢١، فى أثناء الدفاع عن بامبيلونا Pampeluna، التى حاصرها الفرنسيون، أصيب إصابة بالغة كاد يموت بسببها، وبقى مدة طويلة تحت المعالجة. وفى أثناء مرضه؛ تمكن من قراءة سيرة حياة الراهب دومينيك، والراهب فرنسيسك، فشغف بحياتهما؛ لدرجة قرر معها أن يتبع مثالهما. وهذه هى التجربة أو المحبة الروحية التى غيرته، وحولته - بالكلية - إلى إنسان متدين حكيم يؤمن بالمسيح، وينذر نفسه للدعوة، فعوضاً عن المجاهدات الحربية التى لم يعد قادراً عليها بسبب مرضه، أخذ يفكر بالمجاهدات الروحية. وقد شغل المقام الأول فى تصوراته العمل لإدخال المسلمين فى المسيحية (عاصرت هذه الفترة بدء انحدار المسلمين من الأندلس). وحالما تعافى من مرضه، غادر «لويولا» المجتمع، وبدأ حياة تنقلية مليئة بإنكار الذات، ثم توجه إلى أورشليم. ولكن؛ هناك أحس بعائق أمام غيرته على هداية غير المسيحيين - خاصة المسلمين - إلى المسيحية، وهو أنه كان يجهل حقائق الإيمان. لهذا؛ شرع - بعد عودته - بدرس اللاهوت فى باريس. ولكن؛ لم يفارقه ذلك الحماس الدينى، والحمية لهداية غير المؤمنين (أى غير المسيحيين!).

وقد استطاع أن يثير التعاطف مع نواياه فى بعض رفاقه، فألف جمعية صغيرة من أشخاص شاطروه فى توجهاته، وكانت تلك هى نواة الجمعية المستقلة.

فى سنة ١٥٣٤؛ نذر «لويولا» ورفاقه - فى إحدى كنائس باريس - الفقر (أى عدم الكسب، وعدم امتلاك أى شىء من مال الدنيا ومتاعها)، والعفة (أى العزوبية والاستنكاف عن الزواج)، وأقسموا أن يكرسوا حياتهم للاهتمام بالمسيحيين فى أورشليم، وهداية غير المؤمنين (المسلمين والوثنيين) إلى المسيح، بطريقة الموعظة الحُسنى، والمرونة، والمسامحة، والانفتاح على الناس، والتغلغل فى أوساطهم الشعبية، والانتشار فى العالم.

وبانتهاء دروسهم - سنة ١٥٣٧ - توجهوا بأجمعهم إلى البندقية؛ ليبحروا من

هناك إلى أورشليم (القدس)، لكن الحرب التى كانت دائرة فى ذاك الوقت بين الصليبيين والأتراك (المماليك البحرية) أوقفتهم عن السفر. وفى الوقت ذاته؛ رزى «لويولا» أن اندفاعهم للعمل لصالح الكنيسة يمكن تحقيقه - أيضاً - فى البلدان الغربية المسيحية؛ حيث تزعزع الإيمان كثيراً نتيجة للفوران الإصلاحى؛ لذلك قَبِلَ - هو ورفاقه - فى البندقية درجة الكهنوت، وأقاموا من نفوسهم وعاظاً متنقلين يقنعون الجميع، ويدعونهم إلى التوبة فى كل مكان. وفى أثناء تنقلهم من مدينة إلى أخرى وصلوا إلى روما (١٥٣٩)، وهنا استطاعوا - بغيرتهم الخارقة العادة على الوعظ، وشكل حياتهم الصارمة - أن يجذبوا إليهم عطفاً عظيماً، حتى إن كثيرين أخذوا يعلنون رغبتهم بالانضمام إليهم. فقرر «لويولا» - الآن - أن يؤسس - رسمياً - جمعية، ورتب - مع رفاقه - قانونها. وفضلاً عن النذور الرهبانية الثلاثة: الفقر والعفة والطاعة، وضعوا على أنفسهم نذراً رابعاً هو الطاعة المطلقة للبابا، وأوجبوا على نفوسهم إتمام كل ما يأمرهم به، والذهاب سريعاً حسب توجيهه إلى كل مكان يرسلهم إليه بدون تردد. وكانت غاية الجمعية - كما تحددت فى قانونها - نشر وتثبيت الإيمان والكنيسة، ويجب أن تكون الوسائل لهذا هى: البعثات إلى الوثنيين والمحمديين (الاسم الذى كانوا يطلقونه على المسلمين!) والهراطقة، وبالإجمال: إلى أى مكان إذا كان فى ذلك الحصول على الهدف، وإقامة مؤسسات خيرية ومعاهد علمية تعليمية وتربوية، والوعظ، وأخيراً؛ الاعتراف. وبما أن أعضاء هذه الجمعية نذروا أنفسهم للنضال ضد مملكة الشيطان؛ فكانوا بمنزلة جنود للمسيح، لذا؛ أعطوا لأنفسهم اسم (جمعية يسوع، أو أخوية - أى رهبانية - يسوع). ورأى البابا بولس الثالث - الذى كانت حركة الإصلاح البروتستانتى قد ضيَّقت عليه الخناق، فى جمعية لويولا هذه، وفلسفتها الجديدة - سلاحاً ممتازاً للنضال ضد حركة الإصلاح المعادية للكثلكة والبابوية تلك! ثبت قانون تلك الجمعية سنة ١٥٤٠. وحافظ الباب بولس الثالث Poul III وخلفاؤه؛ وخصوصاً جوليوس الثالث Ju-lisu III، حافظوا بكل عناية على الجمعية، وأعطوها حقوقاً وامتيازات لم تنلها

اى جمعية؛ لأنهم وجدوا فيها الرد الكاثوليكى الناجع على الدعوة إلى النهضة والإصلاح والتنمية والتغيير.

تنظيم جمعية اليسوعيين الداخلى

انقسم أعضاء الجمعية إلى عدة مراتب: المرتبة الأولى، وهى الأدنى، تتألف من الشباب الذين تتم تهيئتهم فى معاهد خاصة للدخول فى الجمعية؛ حيث كان اليسوعيون ينتخبونهم - غالب الأحيان - من عداد طلاب كلياتهم ذوى الكفاءة الناجحين بامتياز، وكانت التهيئة تنحصر - قبل كل شىء - فى إنماء الخضوع والإخلاص للجمعية، وكان من الواجب على كل من يستعد للدخول فى الجمعية أن يقطع كل علاقة شخصية له مع العالم، وأن ينكر إرادته الشخصية، والعقائد، والميول، وأن يسلم ذاته - بكليته - لأمر الجمعية كأنه جثة. أما الرتبة الثانية؛ فتتألف من السكولاستيون (أى المدرسيون المتعلمون)، ويدخله المستعدون الذين نجحوا فى الامتحان، ويعطون النذور الثلاثة الأولى: الفقر، العفة، والطاعة، ويخدمون بصفة مساعدين للمعلمين والمبشرين، وما أشبه، وبمقدار ما يظهر السكولاستيون استعدادهم إلى هذا النشاط أو ذاك ينتقلون إلى صف المرشدين الروحيين، ويؤلفون المرتبة الثالثة للجمعية، ويعينون فى وظيفة معلمين، وأساتذة، ووعاظ، وأباء اعتراف، وغيرها، وفضلاً عن هؤلاء المرشدين الروحيين؛ كان من اليسوعيين - أيضاً - مرشدون علمانيون أعطوا - كذلك - ثلاثة نذور بسيطة، ويتعينون للخدمة المنزلية فى معاهد الجمعية المختلفة. وأخيراً؛ كانت رتبة الجمعية الرابعة التى تتألف من البروفسورية (الأساتذة الكبار) الذين أعطوا النذر الرابع فى الطاعة المطلقة للبابا، ولا يتعين فى هذه الرتبة إلا المرشدون الروحيون فقط، الذين امتازوا بمقدرة ممتازة، ومعرفة، وإخلاص، وحنكة، وكانوا يتسلمون الوظائف الأكثر أهمية فى الظلمة، وكذلك البعثات المختلفة والسفارات. وعلى الجمعية؛ يقف جنرالها الذى ينتخبه الأساتذة الكبار من بينهم طول الحياة، ويتمتع بسلطة لا حدود لها فى إدارة الجمعية، ويتوجب على كل أعضاء الجمعية الخضوع التام له؛ إنه جنرال غير

مرتبط بأحد سوى البابا؛ وحيث أن أعضاء الجمعية - مع كل مؤسساتها أينما وجدوا - كانوا خاضعين لجنرالهم؛ فهم يستثنون من كل أنواع الخضوع لأى سلطة روحية أخرى. وعلى هذه الصورة؛ فالجمعية اليسوعية - وعلى رأسها جنرالها الذى مركزه فى روما - تمثل - بذاتها - مملكة ضمن مملكة، أو بالأصح كنيسة خاصة ضمن الكنيسة. وتنقسم كل المملكة اليسوعية - حسب انتشارها فى جهات مختلفة - إلى ولايات، يعين الجنرال رؤساء عليها من الأساتذة الكبار باسم ولاة. وكانت توجد فى إدارة الولاة - وتحت رئاسة الجنرال الأولى - كل المؤسسات الكائنة فى الولاية المختصة بالجمعية: المشافى، المياتم، المبتدئون فى الرهبنة، المدارس، الكليات، البعثات، وغيرها، ويدير مؤسسات الجمعية رؤساء خاصون... إلخ. وبالإجمال؛ كان كل شىء فى الجمعية من الجنرال حتى آخر خادم منظماً بترتيب صارم جداً، وبخضوع تام، وطاعة الأعضاء الأدنى مرتبة للأعلى.

وقد تم حفظ هذا الترتيب بواسطة نظام رقابة وتجسس مبنى على قواعد مضبوطة؛ حيث يتجسس بعض أعضاء الجمعية على البعض الآخر. فالذين فى المقاطعات يجب عليهم أن يشوا للجنرال - فى مدة معلومة - عن الحالة، وسير الأعمال فى مقاطعاتهم، وفى الوقت ذاته؛ يجب على المعينين رقباء عليهم من قبل الجنرال أن يشوا بالولاة وأعمالهم سراً، وفى مدة معلومة. وكذلك كان هناك رؤساء لمؤسسات منفصلة يرسلونو وشايات مؤقتة إلى رئيسهم، وكذلك إلى الجنرال، ويتوجب على مساعديهم أن يعملوا - كذلك - مستقلين عنهم.. إلخ. فالجنرال الواقف على كل شىء من مصادر مختلفة، عن كل شخص فى الجمعية ماذا يعمل؟ وحتى بماذا يفكر؟ يتصرف بكل شىء، وبالجميع، دون أن يكون مسئولاً أمام أحد عن عمله، يعاقب من يشاء، ويرحم من يشاء حسب رأيه، ويعين فى وظيفة، ويعزل، وبالإجمال؛ يوجه أفعال كل واحد. والواقع أن الجنرال نفسه لم يكن مستثنى من رقابة الجمعية، فيوجد لديه - بدون انفصال - أربع رقباء، وأب روحى واحد من الأستاذة الكبار، وهؤلاء ينتخبهم الأساتذة

الكبار.. بيد أن الرقباء لا يتدخلون بشأن أوامره، ولا يضيقون على سلطاته غير المحدودة، والغاية الأولى من تعيينهم هى مراقبة الجنرال؛ لكى لا يتحول عن مقاصد وأهداف الجمعية، وكان لهم الحق ـ عند الضرورة ـ أن يقوموا باستدعاء عقد اجتماع لمجلس الأساتذة الكبار لأجل إجراء محاكمة الجنرال (الأمر الذى لم يحدث فى كل مدة الجمعية)، ثم ـ بعد ذلك ـ يصيرون وزراء بسطاء لدى جنرال الجمعية صاحب السلطة المطلقة.

نظمت جمعية اليسوعيين ـ لأجل نشاطها ـ قوانين أخلاقية فريدة؛ فاليسوعيون الذين اختاروا لأنفسهم طريقة الجدل الفلسفى السكولاستيكية ـ للبرهان على عقائدهم ودحض ما يخالفها ـ طبقوا هذه الطريقة على التعليم الأخلاقى أيضاً، وأوجدوا منهاجاً أخلاقياً جدلياً يمكن ـ على أساسه ـ أن نعترف بكل نقيصة، أو كل جريمة بأنها غير محسوبة أخلاقياً!. والتجؤوا فى هذا المضمار ـ قبل كل شىء ـ إلى نظرية الفوها وسموها نظرية التبرير، وينحصر جوهرها فى ذاك الرأى القائل بأن أى عمل يتم لا يعتبر ضد القوانين الأخلاقية إذا أمكن أن يقدم ـ لأجل تبريره ـ أساس يشبه الحقيقة، أو رأى أحد اللاهوتيين الموثوقين. وإذا لم يمكن تطبيق نظرية التبرير هذه؛ فإن اليسوعيين يلجؤون إلى وسيلة أخرى ماكيافيللية (على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة)، وبموجبها يمكن إتيان كل عمل مخالف للأخلاق شريطة ألا يكون هذا السلوك غير الأخلاقى هو الغاية الأولى، بل يكون عمله وسيلةً اضطرارية لأجل الحصول على غاية مسموحة وممدوحة. أعنى: ينتج من رأيهم أن الغاية الحسنة تبرر كل الوسائل القبيحة. وأخيراً: يلجأ اليسوعيون إلى حيلة ثالثة لبقة. وهو التعليم الذى يسمونه التحفظ الفكرى؛ على أساس هذا التعليم سمحوا أن يعطى قسم، ووعود كاذبة، ولكن؛ يجب عند ذلك أن يضع فى عقله تحديداً ورفضاً للقسم والوعد!!.

بدأ نشاط هذه الجمعية منذ تثبيت قانونها. وبفضل تنظيمها المتين، وعقل وحذق أعضائها، وكذلك الامتيازات المعطاة لها من الباباوات، انتشرت بسرعة

خارقة فى كل جهات أوروبا، وحتى أنها دخلت فى جهات العالم الأخرى، وحيثما يسكن اليسوعيون، فإن أول ما يعملونه هو بناء إحدى المؤسسات: المستشفيات، دور رعاية الأيتام، مدارس الأولاد، ويعملون بالوعظ، ويجعلون من أنفسهم آباء اعتراف (مرشدين)، وما أشبه.

وبواسطة المستشفيات والمياتم؛ يكتسبون عطف الشعب (الطبقات المحرومة). وبواسطة المدارس والكليات يستلمون كل الثقافة بأيديهم، ويربون النشء الصغير على الروح الكاثوليكية الصارمة.

وعندما يكونون وعاظاً فإنهم يظهرون كمناظرين محنكين ضد البروتستانتية، ومدافعين عن جميع عقائد كنيسة روما. وأخيراً؛ وبواسطة الاعتراف، فإنهم - إجمالاً - تساهلون فى أخلاقية التصرفات، نتيجة لآراء اليسوعيين الأخلاقية الخاصة.

لم يتمكن اليسوعيون من جذب كثير من الطبقات الشعبية إليهم فحسب، بل استطاعوا أن يخضعوا ضمير التائبين، ويوجهوه حسب إرادتهم. وبما أن اليسوعيين يعملون على هذه الصورة لصالح كنيسة روما، فإنهم لا يتحرجون - لأجل التوصل إلى أهدافهم - من القيام بوسائل أخرى، يشغل المكان الأول من بينها الدسائس المصحوبة بأعمال غير حسنة. ولما كانوا يحتقرون كل القوانين الأخلاقية لأجل الحصول إلى غايتهم، فهم لا يتورعون عن ارتكاب الجريمة. وكانت قصور الملوك الكاثوليك والأمراء - التى اجتهد اليسوعيون أن يشغلوا فيها وظيفة آباء روحيين ومستشارين أيضاً - مجالاً رحباً لنشاطهم، ودسائسهم، ومكائدهم، التى نجحوا - من خلالها - فى تحقيق الغاية الحقيقية البعيدة للجمعية؛ ألا وهى انتصار كنيسة روما فى حربها ضد البروتستانت. وهكذا سار نضال كنيسة روما مع البروتستانت بشكل أكثر نجاحاً بفضل اليسوعيين. ففى النصف الثانى من القرن السادس عشر؛ تمكن اليسوعيون من إيقاف انتشار البروتستانت فى بعض المناطق الألمانية، بل حتى تمكنوا من نشر الكثلكة فى مناطق أخرى. أما المناطق التى لم يتمكن اليسوعيون أن يصنعوا فيها شيئاً

لإزالة البروتستانتية بالوسائل المادية؛ فقد اجتهدوا أن يخنقوها بالنار والسيف، كالمساهمة الفعالة التى لعبوها مثلاً فى الحروب الدينية التى قامت فى فرنسا لأجل سحق الكالفينية، والتى حصلت فيها مذابح راح ضحيتها عشرات الآلاف من المسيحيين الكالفينيين، وكالدور الذى لعبوه فى حرب الثلاثين عاماً فى ألمانيا، التى كان هدف الكاثوليك منها اجتثاث جذور البروتستانتية تماماً؛ حيث كان اليسوعيون هم الذين هيؤوها، وأوقدوا نارها، بل كانت تلك الحرب تسير بمشاركتهم الفعالة.

لدى وفاة «أغناطيوس لويولا» سنة ١٥٥٦، كان هناك أكثر من ألف يسوعى يعملون فى أنحاء أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، والعالم الجديد (أى القارة الأمريكية؛ خاصة القسم الجنوبى منها؛ أى أمريكا اللاتينية). وبلغ عدد اليسوعيين عام ١٦٢٦م، ما يربو على خمسة عشر ألف راهب، فى حين بلغوا حوالى ضعف هذا العدد فى منتصف القرن التالى؛ أى عام ١٧٤٩.

جلبت الوضعية البارزة والخاصة التى كان اليسوعيون يتمتعون بها دون سائر الأخويات الرهبانية. ولعبهم دور أبطال البابوية المدافعين الأشداء على البابا، جلبت ضدهم عداوة الكثيرين ونفورهم، وكان سبب ذلك هو تنامى مشاعر الوطنية والقومية وحب الاستقلال لدى الأمراء فى منتصف القرن الثامن عشر، مما أوجد روحاً معادية للبابا ولرجال الدين فى ذلك العصر بشكل عام، وهكذا بدأ كثيرون - سواء من رجال الدين، أو من الأمراء العلمانيين - يسعون للقضاء على هذه الجمعية وحلها. وفى عام ١٧٧٣؛ قام البابا كليمنت الرابع عشر Clement XIV، تحت ضغوط حكومات كل من فرنسا، وأسبانيا، والبرتغال، بإصدار مرسوم بحل الجمعية، وإبطالها.

لكن؛ بعد مدة وجدت رغبة ملحة لدى أوساط كثير من الناس فى فرنسا وغيرها بأن تعود الجمعية لممارسة دورها التعليمى والتبشيرى القديم، الأمر الذى حدا بالبابا «بيوس» الثالث Pius III أن يأمر بإعادة تأسيسها عام ١٨١٤. فواصلت - منذ ذلك الحين - عملها التعليمى والتبشيرى؛ حيث يوجد لها بعثات

فى كثير من بلدان العالم؛ بدءاً من الصين شرقاً، ومروراً بآسيا، وأفريقيا، وبلدان الشرق الأوسط العربية، وانتهاء بأمريكا؛ خاصة الجنوبية غرباً.

ولكن؛ مما يأخذه الناس فى بلدانهم ذات الأكثرية غير المسيحية على هذه الجمعية سعيها للتبشير عبر مدارسها لضمان تعليم المسيحية للناس منذ طفولتهم، وإلغاءها للغات الوطنية، ونشرها للثقافة الأوروبية، وسيادة الجنس الأبيض، بل كانت مدارسهم تعلم - فى البداية - باللاتينية، ثم تحولت إلى الفرنسية، والبرتغالية، والأسبانية، والإيطالية، وزادت الشكوى من خداع المبشرين واتباعهم أخس الوسائل لتحقيق أهدافهم، حتى فهم كثير من الناس من اصطلاح اليسوعية أو الجزويتية أنه المكر والدهاء.

ومن المآخذ الأخرى على الجمعية أن فلسفة اليسوعيين محافظة ورجعية، وتنكر حقوق المرأة، وتستبعدها - بالكلية - من النشاط الاجتماعى العام، وتجعل للرجل السلطة الكاملة والسيادة الشاملة، وتحرِّم على النساء دخول التجمعات اليسوعية، وتقصرها على الرجال.

الجمعيات الرهبانية الأخرى التى ظهرت فى عهد الإصلاح والإصلاح المضاد

أما بقية الجمعيات الرهبانية التى ظهرت فى كنيسة روما فى عصر الإصلاح؛ فلم يكن لها الأهمية التى كانت للجمعجية اليسوعية، مع أنها ظهرت تحت تأثير الإصلاح أيضاً، ولعبت دوراً فى تحقيق الإصلاح الكاثوليكى المضاد، وكان أهم تلك الجمعيات هى:

جمعية التياتين: تأسست سنة ١٥٢١، فى إيطاليا، وغايتها إتقان إكليروس الرعية فى إقامة واجباتها. وكان التياتين كهنة مع النذور الرهبانية، فكانوا يقومون بغيرة خاصة بإتمام كل الواجبات فى إتمام الخدمة الكنسية، والوعظ، والعناية بالمرضى والمحتضرين مجاناً ولوجه الله.

رهبنة الكبوشيين: تؤلف فرعاً لجمعية الفرنسيسكان القديمة. ظهرت فى سنة ١٥٢٨ ـ أقام الكبوشيون قانون فرانسيسك الأولى، وأدخلوا فى طريقتهم شكل حياة فقرية صارمة، وبما أنهم لم يهتموا بالثقافة، فكانوا يختلطون ـ بشكل خاص ـ بطبقات المجتمع السفلى، يثبتون فيهم ـ مع الخرافات ـ احترام كنيسة روما.

رهبنة البياريست Piarists **أو البياريين:** تأسست فى بداية القرن السابع عشر. وغاية هذه الجمعية تعليم وتهذيب الفتيان على الروح الكاثوليكية الصارمة. وكانت منتشرة ـ بنوع خاص ـ فى بولونيا، وفى الأماكن الروسية الواقعة تحت سلطة بولونيا، كما انتشرت فى أمريكا اللاتينية، وأمريكا الشمالية.

رهنبة العازاريين والكهنة المبشرين: The Order of the Lazarists أسسها فى فرنسا الكاهن الفرنسى القدّيس «فانسون دى بُول» Saint Vincent de Paul (١٥٨١ ـ ١٦٦٠)، مؤسس جمعية التبشير Congregation of the Mission، وغايتها تهذيب السكان المحليين تهذيباً دينياً أدبياً، ثم دخل العازاريون فى الشرق الأرثوذكسى لمقاصد تبشيرية.

رهنبة الفيهانت The Feuillant Monastic Order: أسَّسها ـ عام ١٥٧٧ ـ الراهب «جان دى لاباريير» Jean de la Barriere رئيس دير الفـيِّـانت السِّيستيريكانى Cistereian Monastery of Les Feuliiants قرب مدينة «تولوز» جنوب فرنسا، كحركة إصلاحية ضمن أخوية السِّسيستيريكان الرهبانة. فى عام ١٥٨٦، أقر البابا «سيكستوس الخامس» Sixtus V الأخوية الجديدة، وصادق عليها، وفى عام ١٥٩٢، اعتبر البابا كليمنت الثامن Clement VIII أخوية الفيبانت جماعة منفصلة قائمة بذاتها.

يعيش الرهبان «الفيبانت» على وجبة تتألف من الخبز والماء وخضروات الفصل، مع الملح فحسب. فهم نباتيّون لا يتعاطون اللحوم، ولا يملكون أو يقتنون أى أثاث، وكانوا، تحت إشراف «باريير»، يمضون حياتهم بصمت كامل،

وبالصلوات والعمل اليدوى، وبعد حياة المؤسس؛ توسعت نشاطاتهم لتشمل أعمالاً ثقافية وأسقفية إرشادية. ازدهرت أخوية الفيانت فى فرنسا، وانتشرت فى إيطاليا. ثم انقسمت - عام ١٦٣٠ - إلى فرعين فرنسى وإيطالى، أخذ القسم الإيطالى اسم أخوية البرناردييين المصلحة Reformed Bernardines. وصل عدد الأديرة التى تديرها الرهبنة - فى أوج شعبيتها - إلى ٧٤ ديراً. لكن؛ فى القرن الثامن عشر؛ لم يستطيع «الفييانت» أن يجذبوا إليهم إلا عدداً محدوداً من الراغبين، لذلك بدأ شأن هذه الرهبانية بالاضمحلال؛ خاصة عقب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، التى أبطلت جميع الجمعيات الرهبانية، وألغت قانونيتها، ولم يتم إحياء هذه الأخوية - فيما بعد - بل انتهت، وكان الانقراض نصيب الفرع الإيطالى لها أيضاً، والذى انقرض منذ بدايات القرن التاسع عشر.

وأخيرا

عودة إلى التوحيد فى العصر الحديث

إذا كنا قد علمنا فيما سبق أن التوحيد هو أساس الديانة المسيحية - ولذلك كان له أنصار على مر العصور - وأن التثليث عقيدة عليه طارئة قد صيغت في المجامع بيد بشرية، وهى بعيدة كل البعد عن وحى السماء، ومع ذلك فإن نجمها قد سطع فى أفق المسيحية بفضل الكنيسة ورجالها قرونًا من الزمان طويلة، فإننا ونحن فى العصر الحديث عصر التحدياوالفكرية والعقائدية نجد أن هناك دلائل واضحة تنبئ عن أفول نجم الثالوث المسيحى وبزوغ شمس التوحيد مرة أخرى، وذلك من خلال أقوال مفكرى المسيحية وعلمائها العصريين الذين يحاولون بكل ما أوتوا من قوة أن يرجموا الثالوث الذى لا يتوافق ومنطق العصر، ويعودوا بالمسيحية مرة أخرى إلى التوحيد الذى يتناسب مع منطق العلم والفكر، ومن خلال أقوالهم ونظرياتهم ستحمل العقائد الكنسية بمجملها سواء بقصد منهم أو بدون قصد إلى المتحف عما قريب إن شاء الله، ويسرع المسيحيون فى عقب ذلك زرافات ووحدانًا إلى الدخول فى ركب الإسلام - دين التوحيد الخالص -، وحتى لا نسوق الكلام جزافًا سنبادر الآن إلى تحكيم العلم فى قضية الثالوث والوحدانية، ثم نرجع فى هذه القضية بعد ذلك إلى أقوال مفكرى المسيحية فى هذا العصر.

أولاً: تحكيم العلم فى قضية الوحدانية والثالوث

أقول بإيجاز غير مُخل: إذا ما ذهبنا إلى العلم لنحكمه فى قضية الوحدانية والثالوث لوجدنا أنه لم ينته أى من العلماء فى أبحاثه عن الله تعالى الذى يثبت العلم وجوده أن له سبحانه ثلاثة أقانيم، أو أنه على صورة إنسان أو

شمس أو تفاحة أو جمرة نار كما يصوره أصحاب الثالوث، بل اتفقوا جميعًا على اختلاف مشاربهم أن لهذا الكون إلهًا واحداً لا شريك له ولا ولد. وها نحن نرى:

١ - يقرر العالم الإنجليزى هرشل (أنه كلما اتسع نطاق العلم كلما زادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلى واحد لا حدّ لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده) [١].

٢ - وينفى عالم الطبيعة الأمريكى جورج ايرل ويفيس أن يكون الإله جزءاً من الإنسان، أو من هذا الكون المادى كما يدّعى النصارى، وهذا هو ما يفهم من قوله: (إننى أفضل أن أومن بذلك الإله الذى خلق العالم المادى وهو ليس بجزء من الكون، بل هو حاكمه ومدبّره بدلاً من أن أتبنى هذه الخزعبلات) [٢].

٣ - وكذلك يعترف الفلكى الكبير جيمس جبنز بأن للكون قوة واحدة - لا ثلاث - وهى غير متجسدة ولا شبيهة بالمادة، وذلك فى قوله: (إن العلم الجديد يفرض علينا أن نعيد النظر على عجل، لقد اكتشفنا أن الكون يشهد بوجود قوة منظمة أو مهيمنة، وهذه القوة تشبه أذهاننا إلى حد كبير، وهذا لشبه ليس من ناحية العواطف والأحاسيس، وإنما هو شبه يتعلق بذلك المنهج الفكردى الذى يمكننا بالذهن الرياضى) [٣].

٤ - (ويقول سبنسر الذى لم يكن يعترف بالأديان: إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك) [٤].

٥ - ويصل الدكتور/ أ.ج. كروتين الذى بدأ حياته ملحداً نافيًا لوجودا لإله

---

(١) الله واحد أم ثالوث؟ ص ١٢٧، د. محمد مجدى مرجان.

(٢) الإسلام يتحدى ص ٦٢، ٦٣، د. وحيد الدين خان.

(٣) الدين فى مواجهة العلم ص ٦٢، ٦٣، د. وحيد الدين خان.

(٤) الماركسية بين الدين والعلم ص ١٦٢، د. جميل محمد أبو العلاء.

مطلقًا يصل من خلال الأبحاث والاكتشافات الحديثة إلى الإيمان بالإله الواحد ـ غير مثلث الأقانيم ـ هو خالق الكون ومدبره، وفى ذلك يقول: (إذا تأملنا الكون وأسراره وعجائبه ونظامه ودقته وضخامته وروعته لابد أن نفكر فى إله خالق، من ذا الذى يتطلع إلى السماء فى ليلة صيف صافية ويرى النجوم اللانهائية تتألق بعيدًا ثم لا يؤمن بأن هذا الكون كله لايمكن أن يكون وليد الصدفة العمياء؟ وعالمنا هذا وهو يدور فى الفضاء فى حركة دقيقة منتظمة وفصول متتابعة لايمكن أن يكون مجرد كرة من المادة خالية من الدلالة نزعت من الشمس ألقيت فى الفضاء بلا معنى) [١].

٦ ـ ويكتب أحد علماء الطبيعة فى مذكراته قائلا: (إن ثمة عقلاً لا متناهيًا يحكم العالم، وكلما أمعنتُ النظر استطعتُ أن أبصر ذلك العقل الذى يشع خلف أسرار الأشياء.. إننى أعلم أن البعض قد يجد فى هذا القول مدعاة للسخرية، ولكن هذا لا يعنينى فى قليل أو كثير.. إنكم قد تستطيعون أن تنتزعوا جلدى من جسدى، ولكنكم لن تستطيعوا أن تنتزعوا من عقلى إيمانى بالله الواحد، أستغفر الله، فإنى لا أومن بالله فقط، بل أراه) [٢]. والرؤية المقصودة هى الرؤية بالعقل لا بالعين.

من ذلك كله نعلم أن العلم الحديث قد توصل بالفعل إلى وجود الإله، واعترف به كقوة محركة للكون ومنظمة له، ولكنه لم يعترف أى اعتراف بأن هذه القوة تتكون من ثلاثة أقانيم، أو أنها تجسدت وتصورت فى صورة مادية ونظر إليها الناس ورأوها، إن هذا الهراء لا يوافق عليه العلم وما ذاك إلا لأن المادة التى يتكون منها ذلك الجسم المنظور بلغة العلم، قد تكونت من ذرات، والذرة (هى أصغر ما فى العالم، وهى فى الغبار غير مرئية، فقد تناهت فى صغرها لدرجة أن ٢٠ مليوناً منها لا تكاد تعادل حجم رأس دبوس) [٣]. فإذا

(١) الله والعلم الحديث ص ١٦، الأستاذ عبدالرازق نوفل.

(٢) كيف أرى الله ص ١٧، ١٨، عبدالودود شلبى، دار الشروق.

(٣) راجع الماركسية بين الدين والعلم ص ١٠١، د. جميل أبو العلا.

كانت هذه الذرة المخلوقة لا ترى بالعين المجردة - على أنها بمفردها عالم كبير - يرى خالقها ومدبرها؟ بل كيف يتحد هذا الخالق القوى بمخلوقاته الضعيفة، ويظهر فى صورة إنسان مهان.

إن النصارى كما يحكم العلم قد ضلوا فى فهم نبيهم ورفعوه إلى مرتبة الألوهية بلا دليل ولا برهان، وهم بهذا قد كذبوا على أنفسهم وعلى الواقع، فالمسيح ماهو إلا بشر، ومن الحماقة - كما يقول فضيلة الشيخ محمد الغزالى - (أن نظن فى بشر مهما علا شأنه أنه خالق كوكبًا، ولماذا نذهب بعيدًا إنه لم يستطع أن يخلق ذبابة فما دونها، فكيف يُعد إلهًا من يعجز عن أى خلق. إن الواقع الذى يعلو به صوت العلم - والبديهة - أنه من المستحيل جعل عيسى إلهًا يَخلق ويَرزق ويُحيى ويُميت ويُدير شؤون العباد والبلاد وأمر السماء والأرض.. إلخ؛ لأنه فى حياته عبد ضعيف، وبعد مماته رفاتٌ ومُوارى فى حفرة من التراب) [1].

وأصحاب الثالوث الذين بعدوا عن الوحدانية فى القديم والحديث يشعرون بذلك جيدا، ومن ثم فهم يلتمسون له القوة التى تجعل منه إلهًا من طبيعة أخرى غير الطبيعة العاجزة كإنسان، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله سبحانه وتعالى هى نسبة البنوة وكأنه ولى عهد، وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط، وبذلك يصبح إلهًا وابن الله. بيد أن العقل والنقل والعلم الحديث يهدمون صرح هذا التحايل على رؤوس أصحاب الثالوث، ويشهدون جميعًا بأن الإله واحد أحد غير مثلث الأقانيم، وأنه سبحانه لاشريك له فى الكون، ولا يشبه شيئًا ولا يشبهه شىء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]. وكل شىء غير هذه الحقيقة فهو خرافة، ولهذا القضية تنبه علماء المسيحية المعاصرون ومفكروها الذين استنارت عقولهم بنور العلم والمعرفة فحاولوا جاهدين إقصاء عقيدة التثليث التى تتولد منها شتى الخرافات،

(١) عقيدة المسلم ص ٥٥، ٥٦، محمد الغزالى.

(٢) سورة الشورى آية: ١١.

واستنكروا بكل قوة وجراة ألوهية المسيح، والخلط بينه وبين الإله الخالق، ثم نادوا جميعًا بعودة المسيحية مرة أخرى إلى عقيدة التوحيد التى شهد لها العلم وجاء بها المسيح ﷺ.

ثانيًا: تقويض فكرة المسيح الإله من خلال بحوث المسيحيين المعاصرين:

ولكى تعود المسيحية بالفعل إلى التوحيد الذى توافق مع منطق العلم والفطرة ونصوص الأناجيل اتجهت بحوث مفكرى المسيحية إلى مسألة تأليه المسيح التى قامت عليها عقيدة التثليث، وكان من هؤلاء المفكرين:

١ - الفيلسوف رينان (حيث كتب هذا الرجل كتابًا يثبت فيه أن السيد المسيح لم يكن إلهًا ولا ابن إله، وإنما هو إنسان يمتاز بالخُلق السامى والروح الكريمة، ورينان بقوله هذا يحاول تقويض فكرة المسيح الإله أو المسيح ابن الإله، وإذا قُوِّضت هذه الفكرة فإن مسيحية الثالوث ستتهار من أساسها وتسطع فى الأفق مرة أخرى عقيدة التوحيد) [١].

٢ - والقس هـ. د. أ. ماجور رئيس معبد ربيون باكسفورد يكتب قائلاً: (لابد أن نعلم علم اليقين أن عيسى لم يقل فى الأناجيل أنه ابن الله بحالة طبيعية، كما تقول قصص ولادته العذرية، ولم يقل إنه ابن الله بحالة نفسية، كما يدعى علماء لاهوت (نيس) [٢]، بل قال: إنه ابن الله بحالة مجازية) [٣].

٣ - وفى سنة ١٩٢١م يعلن الدكتور راشدل كاريل أمام عدد كبير من رجال الدين فى أكسفورد (أن قراءة الكتاب المقدس أظهرت له أن عيسى ليس بإله، ولم تسمح له تلك القراءة باتخاذ عيسى إلهًا، لأن عيسى كان رجلاً بكل معنى الكلمة لا إلهًا. ثم قال: لم يدّع المسيح الألوهية، ولم يناد بها، وربما كان قد

---

(١) انظر كتاب أوروبا والإسلام ص ٢٤، د. عبدالحليم محمود، ط بيروت.

(٢) يقصد بـ (نيس) هنا مجمع نيقية الذى حكم بتأليه المسيح، وقامت على هذا الحكم مسيحية الثالوث.

(٣) الإسلام الدين الفطرى الأبدى ص ٦٩، العلامة أبو النصر مبشر الطرازى الحسينى، كبير علماء تركستان، ط بيروت.

سمح لنفسه أن يدعي مسيحًا، إلا أنه لايوجد في أي قولٌ مثبت ما يدل على أن علاقته بالله. تختلف عن علاقة أي بشر آخر بالله أما أقوال الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) لايمكن عدها تاريخيًا، لأنها تفوق الإدراك البشرى، ويتضح مما أتى به عيسى أنه كان رجلاً، وكان له جسم ونفس وعقل وإرادة بشرية.

ثم مضى يقول: ومن المخالفة للحقيقة أن نظن أن روح عيسى كانت موجودة قبل خلق العالم، إذ ليس هناك أي أساس لمثل هذه العقيدة ما لم نجزم بأن كل الأرواح البشرية كانت موجودة قبل أن توجد الأجسام في الدنيا، وهذا يخالف المذهب الكاثوليكي المسلم به، ولا تحتاج ألوهية المسيح إلى ولادة عذرية، أو إلى إتيان أي معجزة أخرى إذا كان إلهًا (ولم يكن إلهًا)، فإن أمكن أن يثبت تاريخيًا أن المسيح ولد حقًا من غير أب فإن ذلك لا يكون دليلاً أو برهانًا على ألوهيته، إلى أن قال: «ومع ذلك لا يمكن أن ينكر أن عيسى تكلم عن أشياء كثيرة وقال إنها ستحدث في المستقبل، والحال أن التاريخ لم يثبت حدوث شيء منها) [1].

وبهذا نرى كيف وثب هذا المفكر الدكتور راشدل على فكرة المسيح الإله لتقويضها وإقصائها عن المسيحية، وإثبات بشرية المسيح، ولكنه وهو في هذه الحالة ـ حالة تقويض أو إقصاء فكرة المسيح الإله ـ قد أخطأ حين قال: (إن عيسى تكلم عن أشياء كثيرة وقال إنها ستحدث في المستقبل. والحال أن التاريخ لم يثبت حدوث شيء منها): لأن هذا القول تشم منه رائحة اتهام المسيح بالكذب، وإذا قيل: إن الرجل يقصد هنا نفي الألوهية عن المسيح، بمعنى أن المسيح إذا كان قد أخبر بشيء ولم يحدث لغير المسيح، أما وأنه لم يفعل فإن ذلك يحتم علينا أن نقول: إن المسيح إذا لم يكن إلهًا ـ وهو كذلك ـ فهو نبي ورسول، وإلا لبقيت المسيحية بدون نبي أو رسول، والنبي أو الرسول إذا أخبر أحدهما بشيء عن ربه فلابد أن يحدث ـ شأن أنبياء الله ورسله عليهم السلام ـ وإذا كان الأمر عندكم عكس ذلك فالمسيح منه براء. وفي تلك الحالة لابد أن

---

(١) انظر المصدر السابق ص٧٠، وانظر أيضًا ترجمة كاملة لهذه النصوص في كتاب حوار بين مسيحي ومسلم ص ٢١٩، ٢٢٠، د. محمد فؤاد الهاشمي، ط. دار الرسالة.

توجه إصبع الاتهام إلى كُتّاب الأناجيل الذين لم يثبت بعد حقيقة اتصال سندهم بالمسيح ﷺ.

٤ ـ ويعلن الفليسوف الروسى تولستوى استنكاره لألوهية المسيح، ويطالب بعودة المسيحية إلى التوحيد ثم يقول فى كتابه «الإنجيل الصحيح»: لا يخفى أن جميع ما تعطيه الكنيسة من التعليمات الخاصة بابن الله، والله وكونه فى ثلاثة اقانيم، ثم الخاصة بالخبز والخمر اللذين يستحيلان فعلا إلى جسد ودم الله، ويتناولهما المسيحيون على هذا الاعتقاد كله غير معقول وهو خرافة. وفى الختام يقول: (وبناء على ما تقدم فإنى أنبذ كتب العهد القديم والكتب المقدسة التى حصرتها الكنيسة فى سبعة وعشرين كتابًا) (١).

٥ ـ ويستخف المؤرخ الأوروبى الشهير مستر ولز المسيحى بمن يبعد عن التوحيد فى المسيحية ويعتنق عقيدة الثالوث، فيقول: (من الكفر ومن السخف أن يعتقد الإنسان بنظرية الثالوث وبما أحاط بالمسيح وأمه مريم من خرافات أصبحت راسخة فى الدين المسيحى على أن المسيح لم يذكر شيئًا من هذا. ولم يأتنا بهذه النظريات إلا إسكندفيلو اليهودى وأتباعه أصحاب مدرسة الإسكندرية الذين جعلوا يفسرون أقوال المسيح بعد ثلاثمئة سنة من تاريخ وفاته، ويقول فى كتابه «الله الملك الخفى»: لم يأت المسيح ولا بحرف واحد من هذه الكفريات المعقدة التى أصبحت فيما بعد أساس الدين المسيحى. وقيدت عقول الغربين بسلاسل من تلك الاعتقادات والطقوس... ولقد ازدادت هذه الكفريات فى الدين المسيحى منذ دخول بولس الرسول فيه. حتى أن هذه (الكفريات) أخفت الدين المسيحى الحقيقى ـ دين التوحيد ـ عن العالم المسيحى، وأضاعت علينا تعاليمه الحقيقة والأعمال التى قام بها المسيح دون زيادة أو نقصان أو مبالغة، إلى أن قال: ولقد حللنا النظريات المسيحية ولا أرى ضرورة لإضاعة الوقت فى ذكر الاعتقادات التى يعتقدها المسيحيون.. ولا يمكن

(١) الإسلام الدين الفطرى ١/٧١، العلامة أبو النصر الطرازى.

قطعيًا لمن يريد البحث عن الله حقيقة والإيمان به أن يعتقد بالثالوث مهما كان وأيًا كان مصدره) (١).

٦ ـ أما الدكتور شارل جنيبير ـ أستاذ ورئيس قسم الأديان بجامعة باريس ـ فيعلن صراحة أن مسيحية الثالوث هذه ستنهار انهيارًا كاملاً فى العصر الحديث؛ لأنها قائمة على أنقاض من الفكر الوثنى، وأنها لا تمت بصلة إلى السيد المسيح، ويقرر فى كتابه «المسيحية نشأتها وتطورها» (أن مسيحية السيد المسيح كانت فى غاية من البساطة وكان ﷺ يعلن التوحيد، ويعلن أنه عبدالله ورسوله فقط، وأنه بعث إلى خراف بنى إسرائيل الضالة. ثم يقول: إن المسيحية الحاضرة بكل ما فيها من عقائد وطقوس وشعائر فإنها غريبة وبعيدة كل البعد عن رسالة المسيح. وفى نهاية هذا الكتاب يصرح بأن المسيحيين الغربيين الذين مازالوا خاضعين لمسيحية الثالوث وشعائرها لم يكونوا قط مسيحيين فى يوم من الأيام) (٢).

٧ ـ وفى أمريكا ينادى أحد العلماء المعاصرين ـ وهو الدكتور ولتر لند برج ـ بعودة المسيحية إلى التوحيد، ويعيب فى مقال له على رجال الدين الذين مازالوا يصورون الإله فى صورة إنسان فيقول: (إن جميع المنظمات الدينية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم فى إله على صورة إنسان بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة على الأرض ـ وهو نفس الاعتقاد الإسلامى ـ وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير أو مع أى منطق مقبول، وأخيرًا عندما تفشل المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى نجد أن هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية) (٣).

---

(١) الإسلام الدين الفطرى الأبدى ١/٧١، العلامة أبو النصر الطرازى.

(٢) المسيحية نشأتها وتطورها ص ٧، ٨، ٦٤، ترجمة د. عبدالحليم محمود، دار المعارف المصرية.

(٣) كتاب: الله يتجلى فى عصر العلم ص ٣٢، تأليف: نخبة من العلماء الأمريكيين: ترجمة د. الدمرداش عبدالمجيد سليمان.

والكاتب الأمريكى يريد أن يقول: إن المسيحية التى تقول بالإله الإنسان لم تعد مقبولة فى هذا العصر، وما ذاك إلا لكون هذا الاعتقاد الموروث عن المجامع غير مفهوم، وإذا ما حاول المسيحى المثقف فهمه فإنه وهو فى تلك الحالة سيدخل فى صراع مستمر بين موروث اعتقاده، وبين كل عقل وفكر ومنطق، وفى خضم هذا الصراع قد يصل إلى الإلحاد ونبذ فكرة الله كلية، ولا منجى من ذلا إلا بتقويض فكرة المسيح الإله، وعودة المسيحية مرة أخرى إلى التوحيد.

٨ ـ وفى لندن تنشط الأبحاث والدراسات الأكاديمية ضد فكرة التأليه والتثليث، وتطالب المسيحيين بإعادة النظر فيما توارثوه من معتقدات، وتقرر صراحة عدم صحة الخلط بين المسيح الإنسان والإله الخالق، والعودة بالمسيحية مرة أخرى إلى التوحيد.

ومن هذه الدراسات والأبحاث كتاب صدرت طبعته الأولى فى لندن عام ١٩٧٧م والخامسة عام ١٩٧٨م، وهو يحمل عنوان: (أسطورة تجسد الإله فى المسيح)، وقد وجد هذا الكتاب اهتمامًا كبيراً لدى الأوساط المسيحية فى إنجلترا لكونه قد اشترك فى تأليفه سبعة من علماء اللاهوت والأساتذة المتخصصين فى دراسات العهد الجديد من مختلف الجامعات البريطانية [1]. ومضمون الكتاب يُقرأ من عنوانه، ويكفينا فى هذا الحيز المحدود أن نقتبس بعض ما جاء فى مقدمته التى تعترف بأن الإنسان فى هذا العصر كلما ازداد علمًا كلما نفر عن الثالوث وابتعد عن المسيحية: (إن المعارف الإنسانية ستستمر فى نموها بتسارع متزايد، ولذلك فالضغط على المسيحية الآن ـ أى فى هذا العصر ـ أقوى من أى وقت مضى، وعلى المسيحية أن تعدل نفسها لوضع يمكن معه الاعتقاد بها، وهذا الوضع ـ كما يقول المؤلفون ـ لابد أن يقتنع به المفكرون

---

(١) هم: دون كيويت جامعة كمبردج، وميخائيل جولدر، وجول هك، وفرانسيس يونغ جامعة برمنجهام، ولزلى هولدن جامعة لندن، ودنيس نينهام، وموريس ويلز جامعة اكسفورد.

الأمناء الذين تجذبهم شخصية يسوع وتعاليمه [1]، ولما كانت المسيحية المثلثة قد أخفت شخصية يسوع الحقيقية، وادعت أنه شريك للإله فى الكون بادر هؤلاء الأساتذة بتبيان الحقيقة فى هذا الكتاب فقالوا: (إن المسيح كما هو مقدم فى الكتاب الخامس للعهد الجديد (٢ ـ ١٢) [2]. إنسان اختاره الله لدور خاص فى إطار الإرادة الإلهية، وإن الاعتقاد المتأخر (بأنه الله فى صورة إنسان) و (الشخص الثانى فى الثالوث المقدس) الذى يحيى حياة بشرية ليس هو ـ أى هذا الاعتقاد ـ إلا أسلوبٌ أسطورى أو شاعرى للتعبير عن أهمية المسيح بالنسبة لنا، وهذا الاعتراف مطلوب منا لمصلحة الحقيقة) ومن المعروف أن الكنيسة لا يمكن أن تقبل اعترافاً كهذا، أو تسلم بصحته، إلا أن المقربين به ـ وهم أساتذة فى علم اللاهوت ـ يعلمون علم اليقين بأن الكنيسة على خطأ، وأن العصر الحديث لا يمكن أن يتمخض عن عقول تتمادى فى هذا الخطأ، وإذا كانت الكنيسة تريد بالفعل بقاء المسيحية فى هذا العصر فلابد أن ترجع عن فكرة التأليه وأن تبادر بالاعتراف بعقيدة التوحيد التى قامت عليها المسيحية الأولى، ولا تخلط بين الله والمسيح، ولهذا قالوا فى ختام مقدمتهم: (إن أملنا هو تنقية الحديث عن الله وعن يسوع من الخلط والتشويش، وبذلك يتحرر الناس لخدمة المسيحية باستقامة وكمال) [3].

---

(١) تعريب د. نبيل صبحى الطويل نقلاً عن مجلة الأمة القطرية ـ العدد الرابع للسنة الأولى ص٥٠، فبراير سنة ١٩٨١م.

(٢) يقصد هنا ما قاله بطرس فى سفر أعمال الرسل إصحاح ٢ ـ ١٢: (أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال: يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده فى وسطكم كما تعلمون).

(٣) المصدر السابق ص ٥٠.

الخلاصة

والخلاصة التى ننتهى إليها من خلال عرضنا لهذه البحوث والدراسات أن هناك مسيحيين مازالوا يدعون إلى وحدانية الله، وينادون بعودة المسيحية إلى التوحيد، ويحاولون من خلال أبحاثهم ودراساتهم إقصاء الثالوث، وإبعاد فكرة المسيح الإله، تلك الفكرة الغامضة التى تبحث لها عن أنصار بين العلماء والمفكرين فى هذا العصر فلم تجد، وما ذاك إلا لتنافرها مع العلم والمنطق والفطرة. والذى يلفت النظر أكثر ويسترعى الانتباه أن محاولة إقصاء الثالوث، وتقويض فكرة التأليه لم تعد فى هذه الآونة قاصرة على العلماء والمفكرين فحسب، بل اتسعت دائرة ذلك وشملت الكثير من المسيحين، فنجد أن أغلبية المسيحيين الذين نجادلهم بالمودة - إن استثنينا رجال الدين منهم - يصرحون فى بهرة المجالس، وفى جهر من غير إسرار أنهم لا يمكن أن يتصوروا أن الله جل جلاله ثلاثة وجوه أو ثلاثة أقانيم، وأنهم لا يستطيعون أن يتخيلوا المسيح إلا رجلاً عظيمًا ورسولاً من عند الله، وليس هو الله ولا ابن الله وليس ذى صلة بالوهية إلا صلة الرسول بمن أرسله، وهذه الأقوال التى نسمعها من مسيحى هذا العصر هى ذاتها أقوال الموحدين قديمًا، وهذا هو ما يجعلنا نقرر هنا أن المسيحية التى شوهت بالثالوث بعد رفع المسيح ﷺ بثلاثمئة عام لم تغب عنها عقيدة التوحيد لحظة واحدة، لا فى القديم كما رأينا سابقًا ولا فى الحديث كما علمنا من هذه البحوث، بل ظل الصراع فيها مستمراً بين التوحيد والتثليث على مر العصور والأزمان إلى يوم الناس.

هذا وإن حُق لنا التنبؤ بشيء إزاء النتيجة التي سيتمخض عنها هذا الصراع في هذه الآونة فإننا نتنبأ باسم العلم الذي أضاء العقول وباسم هذا البحوث التي صدرت من علماء وأساتذة لهم قدرهم في قلوب معتنقي المسيحية في هذا العصر: أن مسيحية التوحيد سيكون لها الظفر والنصر في النهاية.

وإذا ما انتصرت هذه المسيحية فإنها تكون قد اقتربت بالفعل إلى الإسلام دين التوحيد الخالص، وإذا ما اقترب هؤلاء الموحدون إلى حقائق الإسلام وعلموا جوهره أعلنوا اعتناقهم له بلا تردد ولا اكتئاب. وفي هذا العصر رأينا بالفعل الكثير من المسيحيين في شتى أقطار العالم يعلنون نبذهم للمسيحية، ويرتمون بكل اطمئنان واقتناع في أحضان الإسلام. دين التوحيد الخالص.

ثالثًا: المسيحيون الموحدون في هذا العصر يتجهون إلى الإسلام (دين التوحيد الخالص)

من خلال البحوث والدراسات تطلع موحدو المسيحية في هذا العصر إلى الإسلام فوجدوه دينًا يتلاءم مع الفطرة، يتوافق مع العلم، يتآخى مع العقل، دين لا يجسد الإله، ولا يرفع البشر إلى درجة الألوهية، دين يكره التعدد، وينبذ الثالوث، ويدعو إلى الاعتقاد بإله واحد في أفعاله، لاشريك له، كل شيء قائم به، وكل شيء خاضع له، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه، هو فوق كل شيء، وليس دونه شيء هو مالك كل شيء ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (1). والدلائل على هذه الوحدانية مبثوثة في الكون كله وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد، ومسطورة في كتاب الإسلام: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

---

(1) سورة الشورى الآية: 11.

وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١) .

نظر الموحدون المسيحيون إلى هذه الآيات القرآنية وغيرها من الآيات الكونية فايقنوا أن عقيدة التوحيد فى الإسلام هى العقيدة الصحيحة الخالصة التى يسكن إليها القلب، ويقتنع بها العقل، فتوجهوا بكل اطمئنان إلى الإسلام، وأخذوا يشهرون عقيدة التوحيد الخالصة فى شتى بقاع العالم.

الدلائل على ذلك

ولعل الصحف والمجلات اليومية هى التى تدل على ذلك، وتؤكد لنا مدى إقبال موحدى المسيحية على الإسلام، ففى جريدة الرأى العام الأسبوعية التى تصدر فى القاهرة (جاء خبر عن ثلاثين شخصًا يعلنون الإسلام فى دولة الإمارات العربية خلال شهر يناير ١٩٨٨م، وفى المملكة العربية السعودية واحد وخمسون شخصًا من مختلف الجنسيات العالمية يعلنون إسلامهم) (٢). وفى كوريا الشمالية يوجد إقبال شديد على الإسلام، (ويشهر أحد عشر ألفًا من المسيحين إسلامهم فى عام ١٩٨٧، ١٩٨٨. وتؤكد الأبحاث الغربية - كما يقول الخبر - أن هذا العدد الكبير من المسيحيين الكوريين الذين انتشر بينهم الإسلام يعد بمثابة تحدى لمحاولات الغزو الثقافى الذى تمارسه الدول التى تريد النيل من الإسلام) (٣). (وفى فرنسا يزداد عدد المسيحيين الذين ارتموا فى أحضان الإسلام فى هذا العصر إلى أن وصل إلى ١,٥ مليون مسلم حتى عام ١٩٨٨م، يخرج من بينهم - كما تقول جريدة الوفد القاهرية - رجل يُسمى

(١) سورة النمل الآيات من: ٦٠ - ٦٤.

(٢) الخبر من جريدة الرأى العام القاهرية العدد ٨٧/ أول فبراير ١٩٨٨ - ١٢ جمادى الآخر ١٤٠٨هـ.

(٣) المصدر السابق نفس العدد.

على الكواش ليرشح نفسه لرئاسة الجمهورية فى هذا العام) [1]. مما يؤكد تقوية شوكتهم فى هذه البلاد.

(وفى أمريكا نشرت صحيفة انسايث الأمريكية تحقيقًا صحفيًا أكدت فيه أن الدين الإسلامى فى العصر الحديث أصبح مسار اهتمام المسيحيين الأمريكان، وأن معتقيه يزدادون يومًا تلو الآخر حتى وصل تعدادهم ٧,٥ مليون مسلم فى عام ١٩٨٨م، ثم تقرر الصحيفة أن هذا الدين ـ تعنى الإسلام ـ فى خلال عشرين عاما مقبلة سيصبح الدين الثانى فى القارة الأمريكية كلها) [2].

وفى لندن معقل المسيحية أيضًا تخرج مسيرة هائلة من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام تعدادها ستة وسبعون ألف موحد فى ذكرى مولد الرسول ﷺ، بقيادة الشيخ شمس الدين الفاسى تُردد فى سماء لندن الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله محمداً رسول الله، وقد ذكرت مجلة اللواء الإسلامى الصادرة ٢٧ ربيع ١٤٠١هـ تحقيقًا عن هذه المسيرة مشفوعا بالصور واللقطات التى تصور هذا المشهد الرهيب) [3].

هذه الأخبار وغيرها مما تنشره إلينا الصحف والمجلات تؤكد أن الإسلام لا المسيحية هو دين الغد، وأن المسيحيين عامة والموحدين منهم خاصة، إذا ما فتحوا قلوبهم وعلموا جوهر الإسلام وحقيقته وسماحته اقتربوا إليه بلا تردد وأعلنوه لهم دينًا وعقيدة بكل اقتناع واطمئنان.

وسأذكر الآن بعض نماذج من هؤلاء المسيحيين الذين اهتدوا إلى الإسلام، لكى نعرف لماذا أسلموا؟ وما هو مدى اقتناعهم بالإسلام وعقيدته؟

---

(١) انظر تحقيقًا كاملاً عن هذا الخبر فى جريدة الوفد المصرية العدد ٢١٢، ١٩٨٨/٣/٢٤.

(٢) جريدة الرأى العام القاهرة العدد ٨٧ السنة الثامنة، أول فبراير ١٩٨٨.

(٣) انظر الصورة والتحقيق لهذا الخبر فى مجلة اللواء الإسلامى المصرية العدد ٣٠٥. ١٩٨٧/١٢/١٩م

نماذج مسيحية اعتنقدت الإسلام فى العصر الحديث

أولاً: مسيو أتين دينيه الفرنسى

ولد فى باريس ١٨٦١م، ثم نشأ فى حضن أبوين مسيحيين، وتلقن بطبيعة الحال العقائد المسيحية نظريًا ومارسها عمليًا، وذهب به أبوه ككل مسيحى إلى الكنيسة، فشب الطفل وترعرع على عقيدة التثليث والفداء والغفران.. إلخ، وعلى مر الزمن أخذ الرجل يشك فى هذه الأمور، وحتى يقطع الشك باليقين بدأ يدرس المسيحية على روية، وأخيرًا انتهت نتائج أبحاثه إلى أن عقيدة التثليث وألوهية المسيح والصليب.. إلخ، عقائد باطلة لا صلة لها بالمسيح، وأن المسيحية حقيقة مليئة بالأغلاط الواضحة، ثم ثار شعورة الدينى ثورة نفضت عنه كهوف التقاليد المسيحية، وأعلن رفضه للثالوث وألوهية المسيح، وارتمى بين يدى مذهب الموحدين، لكن الرجل لم يقف عند هذا المذهب، بل أخذ يبحث عن عقيدة يسكن لها قلبه، وتطمئن مشاعره الدينية، وهذه العقيدة لا توجد فى الوسط المسيحى، فسافر فجأة إلى الجزائر، والتقى بأحد علمائها، ثم تعلم العربية والقرآن، وفجأة وجد نفسه فى أحضان سورة الإخلاص فسُرَّ بهذه المنحة العظيمة، ووضحت أمامه عقيدة التوحيد الخالصة، فأعلن الإسلام بكل اقتناع سنة ١٩٢٧م.

وفى كتابه «أشعة خاصة بنور الإسلام» عقد موازنة بين الإله فى المسيحية والإله فى الإسلام فقال: (إن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريًا أو ما إلى ذلك من الأشكال، أما فى المسيحية فإن لفظ (الله) تحيطه تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن، قد بانت عليه

جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد فى الوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة، تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء. ثم يقول: ونسمع القوم يصيحون (ليحيى الله) فلا نرى للغرابة محلاً، ولا نعجب لصيحتهم، وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخًا هرمًا قد بلغ أرذل العمر، فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء؟! وكيف لا يطلبون له الحياة؟!.

ثانيا: الكاتبة الأمريكية من مريم جميلة

وهى سيدة أمريكية من أصل يهودى بحثت عن عقيدة التوحيد فى اليهودية والمسيحية فلم تطمئن إليها، ثم اتجهت إلى الإسلام، فرأت عقيدته صافية نقية، فاتخذته دينًا خالصًا، وأسلمت وجهها لله رب العالمين، ثم كتبت كتابًا بعنوان: «الإسلام فى مواجهة أهل الكتاب»، وفيه بينت مدى الانحراف والضلال اللذين لحقا بالعقيدة فى اليهودية والمسيحية. والذى يهمنا هنا ما قالته عن المسيحية التى تركتها إلى الإسلام فتقول: إن هذه الديانة شوهت فيها عقيدة التوحيد؛ وذلك بسبب تجسد الإله فى المسيح، وتبين الكاتبة المهتدية (أن هذا التجسد قد ترك آثارًا ضارة ومهلكة من حيث إنه يخلق فى الأذهان صورة معينة ومحددة وقاصرة عن الإله الخالق المتعالى عن عالم الحس والغيب كما يصفه المبشر نفسه. ثم تقول: إن ما يحدث هو أن الإله الذى لا تنكر المسيحية تعاليه يتحول إلى أسير لتصورات بشرية، وياليتها تصورات راقية، بل هى بنت بيئات معينة، وتجارب تاريخية نسبية) [1].

وتقصد الكاتبة هنا أن هذا التجسد موروث عن الأديان البدائية الوثنية، أما الادعاء بأنه أوحى به من قبل السماء فلا نصيب له من الصحة. ثم تبين الكاتبة أن ثمة أسباباً كثيرة جعلتها تبتعد عن العقائد المسيحية عامة، وترتمى فى أحضان الإسلام منها مثلاً: (أنها قرأت عن أسقف بنيويورك يعلن أن عقيدة

(١) راجع كتاب رحلتى من الكفر إلى الإيمان، قصة إسلام الكاتبة الأمريكية المهتدية مريم جميلة، تعريب وتعليق د. محمد يحيى.

التثليث أصبحت عبئًا يجب التخلص منه، وأستاذ اللاهوت بمدينة أمريكية أخرى يدعو إلى عدم استخدام كلمة (الرب)، وثالث يقول: إن المسيحية يجب أن تخضع لناموس التطور والتغير. وتقول الكاتبة أيضًا: قرأت عن حفلات راقصة داخل كنيسة بواشنطن، وعن كاهن فى مدينة بنيويورك يُعيَّن مستشارًا لبعض الفرق الموسيقية ويطوف معها فى الملاهى الليلية، وعن مجموعة من القسس الشبان تقيم خدمة استشارية للشواذ جنسيًا فى سان فرانسيسكو، ونسمع لرأى استرالى اعتنق الاسلام بعد رفضه للمسيحية يقول: إن أغلبية الأستراليين لم تعد تؤمن بالدين، ونتيجة لخلو الكنائس يلجأ الكهنة إلى حيل متنوعة يجلبوا الناس، كإقامة قداسات خاصة للراقصين وما أشبه ذلك) (١).

كل هذه الأمور جعلت هذه الكاتبة تبتعد عن العقائد المسيحية الغامضة، والتى صارت مدار رفض من الشباب الأمريكى عامة، الأمر الذى أدى بهم إلى الضياع والانهيار. أما الكاتبة المهتدية فقد أنقذت نفسها من هذا الضياع باعتناقها لعقيدة التوحيد فى الإسلام. وعن هذه العقيدة تتحدث للشباب الامريكى قائلة: (إن عقيدة التوحيد الصافية النفيسة فى الإسلام ترفض كل أشكال القومية والعنصرية والتثليث وعبادة القديسين وتقديس الصور والكهنوت والتوحيد، وتجعل المؤمن يتعاطف مع كل المخلوقات التى أوجدها الإله، ويقيه الخوف من غير الله، ويدفعه إلى التقوى وعدم اليأس...

وفى ظل الإيمان بعقيدة التوحيد فالانتحار والتشاؤم والقنوت أمور لا محل لها فى نفس المؤمن، فالمؤمن الحق يصبر ويثابر ويثق فى الله ويتوكل عليه ويمتبئ قلبه بالشجاعة، وهو مستعد دوما للتضحية بكل شىء فى سبيل الله؛ لأنه يعلم أن لله كل شىء) (٢). وعلى يد هذه الكاتبة المؤمنة رجع الكثير من الشباب المسيحى الضائع إلى عقيدة التوحيد الإسلامية وأعلنوا الإسلام.

---

(١) راجع المصدر السابق ص ٢٤٦.

(٢) راجع المصدر السابق ص ١٥١، ٢٥٢.

ثالثا: الأستاذ محمد مجدى مرجان

وإذا ما تركنا فرنسا حيث المهتدى ناصر الدين دينيه وأمريكا حيث الكاتبة الأمريكية المهتدية مريم جميلة واتجهنا إلى مصر لنرى قصة أخرى من قصص الاهتداء إلى الإسلام بلا واسطة، فإننا نتوقف هنا عند قصة المهتدى الأستاذ محمد مجدى مرجان الذى اهتدى بعد البحث والتنقيب إلى عقيدة التوحيد الخالصة التى جاء بها الإسلام، وقال فى أحد رسائله: (لا يكفى للإيمان الحقيقى وراثة العقيدة وتقليد الآباء والأسلاف والعمّات والجدّات، فلم يكن الدين فى يوم من الأيام إقراراً لوضع قائم، ولا انسياقًا لطقس متبع، وإنما كان الدين دومًا دعوة إلى الحق وثورة على الباطل، ولو كانت العقيدة إرثًا وانصياعًا لما انتقل الناس من باطل إلى حق، ومن عبادة الأصنام والأغنام إلى عبادة الخالق، ولبقى العالم إلى اليوم كما كان منذ آلاف السنين يسبح فى الأباطيل والترهّات. يقول الفيلسوف برتراندرسل: (إن القضية الدينية يجب ألا تقبل إلا إذا كان لها سند كالسند المطلوب فى القضية العلمية)، ولكن معظم الناس يرثون الدين دون وعى ولا إدراك، وهم لا يعرفون من الدين سوى إسمه. وما سطر فى شهادة ميلاده يهودى أو بوذى أو مسيحى أو مسلم أو غير هذا أو ذاك، ومع ذلك فإنه يتعصب لما سطر فى شهادة الميلاد هذه تعصب المستميت.. دون بحث أو روية ودون هدوء أو تعقل، ودون دراية بالعقيدة التى سموه بها، ودون علم بالدين المغاير، ولكن هذا كله ليس دينًا ولا إيمانًا، بل ليس عقلاً ولا إدراكاً) [1].

هذا ما يقوله الأستاذ مجدى مرجان الذى أعلن إسلامه وسمى نفسه محمد مجدى مرجان، وسطر فى كتابه «المسيح إنسان أم إله؟» قوله: (ولدتُ لأعبد المسيح ولأرفعه إلهًا فوق الألهة، فلما شببت شككت، فبحثت عن الحقيقة، ونقبت فعرفت ونادانى المسيح: يا عبدالله أنا بشرٌ مثلك، فلا تشرك

---

(١) الله واحد أم ثالوث؟ ص ٧، ٨، محمد مجدى مرجان، ط دار الهنا.

بالخالق وتعبد المخلوق، ولكن اقتدى بى واعبده معى، ودعنا نبتهل له سويا «آبانا وإلهنا حمدك وسبحانك رب العالمين إياك نعبد وإياك نستعين يا عبدالله، أنا وأنت وباقى الناس عبيد الرحمن. فآمنتُ بالله، وصدقتُ المسيح، وكفرتُ بالآلهة المصنوعة [1].

هذه هى أفكار المهتدى محمد مجدى مرجان الذى كانت عائلته تعده ليكون داعيًا نصرانيًا، فألحقته تلميذًا فى إحدى مدارس اللاهوت، شماسًا فى أحد الكاتدرائيات ليتم توجيهه وإعداده ليصبح داعيًا للثالوث، وقد أتاح له ذلك الاطلاع على كثير من العلوم الدينية والأسرار اللاهوتية ويقول: (إنه قد بذل جهدًا كبيرًا فى محاولة إقناع عقله وفكره بظروف ولادته بحكم الوراثة التى تحتم عليه الانسياق للعقائد المسيحية، ولكنه فشل فى هذا؛ لذلك ذهب يبحث عن العقيدة التى يرتاح إليها ضميره وعقله فى هدوء وتعقل وفى رزانة وروية، وقد وصل إلى الحقيقة فى يسر وسهولة، ودون جهد أو عناء؛ لأنها واضحة وضوح الشمس، ساطعة سطوع النور، تفتح ذراعيها لمحبيها وتنادى مبصريها وناظريها) [2]. ولم تكن هذه الحقيقة الساطعة إلا عقيدة التوحيد الخالصة، عقيدة الإسلام.

(١) المسيح إنسان أم إله؟ ص ٢٣٢، د. محمد مجدى مرجان، ط دار الهنا.

(٢) إله واحد أم ثالوث؟ ص٦، ٧، الأستاذ محمد مجدى مرجان، دار النهضة العربية.

رابعاً: الأستاذ إبراهيم خليل أحمد (القس سابقًا)

هو أحد المسيحيين المصريين الذين هداهم الله للإسلام، وكان يسمى سابقًا القس خليل فليبس، ولد بمدينة الإسكندرية فى ١٣ يناير ١٩١٩ (تدرج فى مدارج العلم اللاهوتية حتى تخرج فى أسيوط من الكلية الأمريكية عام ١٩٤٢، وحمل دبلوم كلية اللاهوت الإنجيلية المسيحية بالقاهرة عام ١٩٤٨، وعُين قسيسًا راعيًا لكنيسة باقور بأسيوط عام ١٩٥١م. ثم قسيسًا أستاذًا للعقائد والإسلام بكلية اللاهوت بأسيوط عام ١٩٥٣، ثم عُيِّن قسيسًا مبشرًا بالإرسالية الألمانية السويسرية فى أسوان عام ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥) [١].

ولقد حسن إسلامه واتبع عقيدة التوحيد الإسلامية بعد أن عقد مقارنة بينها وبين عقيدة التوحيد التى ذكرتها الأناجيل، وفى ذلك يقول (قرأت بتأمل وتفكير سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وأخذت أتأمل الوحدانية فى القرآن الكريم، الأمر الذى يتسطيع العالم وغير العالم فهمه واستيعابه من غير إجهاد الفكر أو عناء الدرس والتحصيل، وقارنتُها بالوحدانية التى وردت فى إنجيل متّى فى الباب الأول والعدد الأخير: الأب والابن والروح القدس «إله واحد آمين». وعند دراستى للنص الأصلى علمتُ أن هذه العبارة لم ترد فى الأصل اليونانى. هذا بالإضافة إلى بلبلة أفكار عامة الناس وحيرة جهابذة العلماء فى الدفاع عن هذه العقيدة السقيمة التى كشف التاريخ عنها القناع. وأكد العلامة جارسلاف كرينى ـ أستاذ الحفريات فى جامعة أكسفورد ـ أن عقيدة التثليث مستمدة من الوثنية الفرعونية، ولم تكن قط مستمدة من المسيح ﷺ.

وبهذا اعتقدتُ بصدق الوحدانية البسيطة التى جاء بها الإسلام [٢].

---

(١) هذه الترجمة فى كتاب يا أهل الكتاب تعالوا ص ٢٩١ د. رؤوف شلبى.

(٢) محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن للأستاذ إبراهيم خليل أحمد ص ١٠.

جهاده لإعلاء عقيدة التوحيد الإسلامية

ولقد جاهد الأستاذ إبراهيم خليل أحمد لإعلاء عقيدة التوحيد الإسلامية ونشرها بين أبناء المسيحية (فاشترك فى مناظرة بين الإسلام والنصرانية فى الخرطوم [1]).

فى الفترة ما بين ١/٢٣ إلى ١٤٠١/١/٢٩ هـ الموافق ١٩٨٠/١٢/٧م. عقب المناظرة أعلن أكثر من خمسمئة مسيحى الإسلام، وشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً وعيسى رسولا الله [2]. ليس هذا فحسب بل إن هذا الرجل الصادق الإيمان حكى أثناء المناظرة عن جهاد آخر قام به لإعلاء عقيدة التوحيد فقال: (كنتُ فى جامعة أسيوط عام ١٩٧٦ بجمهورية مصر العربية وحاضرتُ الطلبة وأثبتُّ بالدليل القاطع أن المسيح ﷺ لم يُصلب، ولم يُقتل، وذلك من الأناجيل ذاتها، وأثبتُّ أيضًا من خلال هذه الأناجيل أن المسيح ﷺ نادى بالتوحيد، ولم يدع أنه ابن الإله المتجسد، أو ما شابه ذلك، وأكدتُ أن روح القدس ملك من الملائكة، ولم يقل المسيح أن هذا الروح هو الأقنوم الثالث، أو أنه الهيئة الثالثة لله «سبحانه وتعالى» ثم أخذ يقول: إننى أقرر حقًا أمام حضراتكم أن سبعة عشر شابًا من شباب جامعة أسيوط ـ عقب انتهاء هذه المحاضرة ـ قد أعلنوا إسلامهم بكل قوة وجرأة.. ثم قال: أيها الأخوة الحاضرون، لكى أكون مثالاً لكم أعلن على حضراتكم أننى حينما دخلت الإسلام لم أدخله عفوًا أو بارتجال، ولكن أخذتُ أدرس الإسلام عقيدةً وشريعةً وسلوكًا من عام ١٩٥٥م إلى ١٩٥٩م حتى أتانى اليقين، فأعلنتُ إسلامى، ولقد شعرت أن الإسلام يفرض علىَّ فرضًا، وهو أن أحمل رسالة التبليغ، وأن أدعو برسالة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(١) اشترك فى هذه المناظرة مع الأستاذ إبراهيم خليل أحمد الدكتور محمد جميل غازي الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر، والسيد اللواء مهندس أحمد عبدالوهاب.

(٢) مناظرة بين الإسلام والنصرانية ص ١٥، ١٩، طبعة الرياض، المملكة العربية السعودية.

إننى فى هذا اللقاء - والكلام مازال للمهتدى الأستاذ إبراهيم خليل أحمد أعود بذاكرتى إلى ما قبل ١٩٥٥م، حينما كنت قمة من قمم الكفر، وكنت أضلل الشباب المسلم، ولعله سبحانه أراد أن يُطمئن نفسى، وأنه قد غفر لى فعلاً ماتقدم من ذنبى، إذ أرانى هذا الشباب وقد أسلم، وإننى أقول لكم أيها الشباب عليكم بالثقة فى الإسلام، ومن منكم على درجة من المعرفة والعلم فعليه أن يضع كل إمكانياته فى إخوانه المسلمين، والسلام [١].

وبعد فهذه نماذج لبعض المسيحيين الذين هداهم الله لتوحيده سبحانه، وشرح صدورهم للإسلام، وإذا كانت هناك عوامل قد أدت إلى خراب العقيدة المسيحية فى الزمن الغابر فإن العصر الحديث قد بدأ بالفعل ينبه معتنقى المسيحية إلى هذه العوامل، ويعود بهم بعد البحث والتنقيب إلى عقيدة التوحيد الخالصة، تلك العقيدة التى جاء بها الإسلام ونادى بها محمد ﷺ، ومن قبله نادى بها عيسى وموسى وكافة الأنبياء عبر القرون والأزمان. هذا ... والعصر الحديث قد تمخض عن بعض الشواهد والدلائل التى تؤيد الوحدانية وتدلل على قداسة الدين، الدين الإسلامى الحنيف.

بهذا كله يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى واحدًا أحدٌ لا شريك له ولا ولد، وهو لا يحتاج لوحدانيته ووجوده إلى دليل. كما يتضح أيضًا أن عداء المسيحية الثالوثى وكراهيتها للإسلام - كما نراه من معتنقيها فى هذه الأيام - لا يرتكز على طريقة علمية، وإنما يرجع فى الأساس إلى الهوى، وإلى العهد القيصرى وفساد الكنيسة ونظمها وتعاونها فى القديم والحديث مع الطغاة الذين يريدون دفن الحقائق، حتى ولو كانت هذه الحقيقة تتآخى مع الفطرة وتتوافق مع العقل وتتناسب مع معطيات العلم.

وأخيراً أقول: إذا كانت هذه أدلة الإسلام على وحدانية الله، فأين أدلة أصحاب الثالوث الذين أنكروا هذه الوحدانية؟

---

(١) راجع المصدر السابق ص ٤٩٥: ٤٩٦.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

صدق الله العظيم والحمد لله رب العالمين فى الأولين والآخرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

انتهى الكتاب

(١) سورة آل عمران الآية: ٦٤.

المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ الأحاديث النبوية.

٣ ـ الكتاب المقدس.

٤ ـ الدين ـ محمد عبدالله دراز.

٥ ـ نشأة الدين ـ على سامى.

٦ ـ نشأة الدين ـ النشار.

٧ ـ الله ـ عباس محمود العقاد.

٨ ـ الجامع لأحكام القرآن ـ القرطبى.

٩ ـ مفاهيم إسلامية ـ أبو الأعلى المودودى.

١٠ ـ قصة الحضارة ول ديورانت ترجمة د. زكى نجيب محمود.

١١ ـ الديانة اليونانية.

١٢ ـ فجر الإسلام.

١٣ ـ تاريخ الفكر المسيحى.

١٤ ـ عقيدتنا التثليث والصلب.

١٥ ـ أهم عوامل انحراف النصرانية.

١٦ ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى، فيليب حتى.

١٧ ـ تاريخ الفلسفة ـ إبراهيم مدكور.

١٨ ـ مشكلات العقيدة النصرانية.

١٩ ـ الموسوعة الفلسفية.

٢٠ ـ تاريخ الكنيسة ليوسيبوس.

٢١ ـ تاريخ الكنيسة ـ جون لوريمر.

٢٢ ـ دراسات فى الفلسفة القديمة والعصور الوسطى.

٢٣ ـ أديان العالم.

٢٤ ـ تاريخ الفلسفة اليونانية.

٢٥ ـ تاريخ الفلسفة فى الإسلام.

٢٦ ـ المدخل لدراسات الفلسفة الإسلامية لليون جويته.

٢٧ ـ المسيحية ـ شارك جينى بير.

٢٨ ـ الإسلام والفلسفات القديمة ـ أنور الجندى.

٢٩ ـ تاريخ الأقباط ـ زكى شنودة.

٣٠ ـ كنسية مدينة الله انطاكية العظمى ـ د. أسد رستم.

٣١ ـ الروم ـ د. أسد رستم.

٣٢ ـ دائرة معارف القرن العشرين ـ محمد فريد وجدى.

٣٣ ـ ومراجع أخرى كثيرة بداخل الكتاب.

الفهـــرس

مقدمة 7

الفصل الأول: نشأة الدين 15

١_ فكرة فطرية التوحيد 17

٢_ المذهب المتطور 18

٣_ المذهب الحيوي 18

٤_ المذهب الطبيعي 19

٥_ المذهب التوتمي 20

نقد المذهب التطوري 24

أثر الخلاف وموقع المسيحية منه 26

الفصل الثاني: أثر الفلسفة في تحريف العقيدة النصرانية 29

أولاً: بداية دخول الفلاسفة اليونانية في الفكر النصراني 30

ثانياً: أهم الفلاسفة الذين تأثر بهم النصارى 31

ثالثاً: فلاسفة النصارى في القرون النصرانية 33

رابعاً: بعض ملامح التأثير الفلسفي في العقائد النصرانية 43

الفصل الثالث: أثر رجال الكنيسة في الانحراف 48

نشأة الكنيسة 48

المجامع 51

الحركة الأريوسية 52

مقاومة رجال الكنيسة لأريوس 58

عقيدة التوحيد بعد المسيح 68

المبحث الأول: الاضطهادات وأثرها في العقيدة المسيحية 68

المبحث الثاني: الفلسفة وأثرها على عقيدة التوحيد

بعد المسيح (عليه السلام) 74

المبحث الثالث: بولس وموقفه من عقيدة التوحيد 76

المبحث الرابع: عقيدة التوحيد بين الطرق المسيحية

قبل مجمع نيقة سنة 325 م 82

اولاً: فرقة التثليث 82

ثانياً: فرقة إليان 83

ثالثاً: فرقة البربرانية 83

رابعاً: فرقة المرقيون 84

طائفة الموحدين 86

اولاً: فرقة البوليقانيون 86

ثانياً: فرقة أبيون 87

ثالثاً: فرقة الأريسيون 87

المجامع المسيحية بين القول بعقيدة التوحيد

وإرساء مقولة التثليث 93

انواع المجامع 95

المبحث الأول: مجمع نيقة والوهية المسيح 325 م 95

المبحث الثاني: موقف أصحاب عقيدة التوحيد من قرارات الإلوهية........ 108

المبحث الثالث: المجمع القسطنطيني الثاني 381 م

وتقرير إلوهية الروح المقدس 118

المبحث الرابع: ما هي أدلة القوم على إلوهية المسيح والروح القدس........ 122

اولاً: إلوهية المسيح والأدلة عليها 122

ثانياً: أدلة القوم على إلوهية الروح القدس 123

الفصل الرابع: الفرق النصرانية وأثرها في تحريف النصرانية 136

عصور ظهور الفرق في النصرانية 139

أولاً: عصر التوحيد 140

١_ الأبيونيون 141

٢_ جماعة (الموحدين الله) 142

٣_ الشمشاطيون 143

٤_ الأريوسيون 144

ثانياً: المنحرفون 145

١_ البولسيه 145

٢_ الغنوصية الباطنية 146

٣_ المرقيونية 147

٤_ البربرانية 148

٥_ فرقة إليان 148

ثالثاً: عصر التثليث 149

١_ الأبوليناريون 150

٢_ النسطورية 150

٣_ اليعقوبيون أو اليعاقبة 152

٤_ الملكانيون 153

رابعاً: عصر الانقسام 153

١_ المارونية 153

٢_ الكاثوليك 153

٣_ الأرثوذكس 154

٤_ البروتستانت 154

المجامع النصرانية وأثرها في تحريف العقيدة 158

١_ مجمع نيقية سنة 325 م 158

٢_ مجمع القسطنطينية سنة 381 م 165

٣_ مجمع افسس الأول سنة 431 م.......................... 166
٤_ مجمع خلقيدونية سنة 451 م.......................... 167
٥_ مجمع القسطنطينة الثاني سنة 553 م.......................... 170
٦_ مجمع القسطنطينة الثالث سنة 680 م.......................... 171
٨_ مجمع نقية الثاني سنة 787 م 171
٧_ مجمع القسطنطينية الرابع سنة 769 م.......................... 172
٩_ مجمع القسطنطينية الخامس سنة 879 م 172
١٠_ المجمع التاسع (مجمع لاتران الأول) سنة 1123 م.......................... 174
١١_ المجمع العاشر سنة 1139 م.......................... 174
١٢_ المجمع الحادي عشر (مجمع لاتران الثالث) سنة 1179 م.......................... 174
١٣_ المجمع الثاني عشر (مجمع لاتران الرابع) سنة 1210 م.......................... 174
١٤_ التاسع عشر: من عام 1542 م _ عام 1563 م 174
١٥_ العشرون: الفاتيكان المسكون الأول عام 1869 م 175
١٦_ مجمع الفاتيكان المسكون الثاني عام 1962 م _ عام 1965 م.......................... 175
حالة الفرق والمذاهب المسيحية بعد خلقيدونية النساطرة 183
عقيدة النصارى في الحلول والاتحاد 190
أ_ معنى الحلول والاتحاد 190
١_ معنى الحلول 190
٢_ معنى الاتحاد 192
٣_ العلاقة بين الحلول والاتحاد 193
ب_ عقائد فرق النصارى في حلول الإله في المسيح واتحاده به 194
١_ عقيدة النسطورية في الحلول والاتحاد 195
٢_ عقيدة اليعقوبية في الحلول والاتحاد.......................... 198
٣_ عقيدة الملكانية في الحلول والاتحاد.......................... 200
الفرق المسيحية التي كانت موجودة عند ظهور الإسلام 207

الفصل الخامس: انقسام الكنيسة حول فهم الثالوث وما ترتب على ذلك 220
مذهب نسطور في المسيح وطبيعته 221
موقف اصحاب عقيدة التثليث من مذهب نسطور سنة 431 م 222
اعاصير الخلاف بين أصحاب الثالوث سنة 449 م حول طبيعة المسيح 223
انقسام الكنيسة الأرثوذوكسية 226
انقسام الكنيسة الكاثوليكية 227
ثورة الإصلاح وأثرها على عقيدة الثالوث في المسيحية 1517 م 243
١_ مارتن لوثر الألماني (1483 _ 1546 م) واعماله 243
٢_ زونجلي السويسري (1484 _ 1531 م) واعماله.......................... 244
٣_ كلفن الفرنسي (1509 _ 1564 م) وموقفه من الثالوث...................... 244
النقد الموجه لمذهب البروتستانت 248
اثر هذه الحركة الإصلاحية على الثالوث في المسيحية 249
١_ بروز محاولات فلسفية لتحرير العقل من وطأة الثالوث 249
المبادئ العامة التي يقوم عليها الفكر التوحيدي في المسيحية 253
الاستياء العام من كنيسة روما والسعي في إصلاحها 260
ثورة مارتن لوثر ضد كنيسة روما وانتشار دعوة الإصلاح في المانيا 272
انتشار التعليم الكالفيني في فرنسا وهولاندا واسكتلندا 295
الحركة الإصلاحية في انجلترا 298
تواصل كفاح الإصلاحيين في المانيا
وحرب الثلاثين عاماً حتى صلح ويستفاليا 302
الفرق والحركات التي انشقت عن البروتستانتية قبل صلح ويستفاليا 309
١_ فرقة "الأنابابتيست" او القائلون بتجديد المعمودية 309
٢_ فرقة "الأنابابتيست" المينونيون 312
٣_ الحركة السوسيانية او "فرقة التوحيديين" 314
٤_ الأرمينيانيين 320

الكنائس والحركة البروتستانتية 321
١_ الكنيسة اللوثرية 321
٢_ الكنيسة المنهجية او الميثودية 323
٣_ الكنائس المشيخية والكنائس المصلحة 328
٤_ الحركة التطهرية أو البيوريتانية 332
٥_ أصول البروتستانتية او العقائد المشتركة بين جميع فرق البروتستانت.... 340
حركة الإصلاح المضاد للكنيسة الكاثوليكية في نطالها مع البروتستانتية 344
١_ مجمع تريدنت 344
٢_ جمعية اليسوعيين ودورها البارز في الإصلاح المضاد 345
الجمعيات الرهبانية الأخرى التي ظهرت في عهد الإصلاح والإصلاح المضاد 353
واخيراً 357
عودة إلى التوحيد في العصر الحديث 357
الخلاصة 367
المصادر والمراجع 380
فهرس 382